مشاهير غيروا مجرى التاريخ

منصور عبد الحكيم

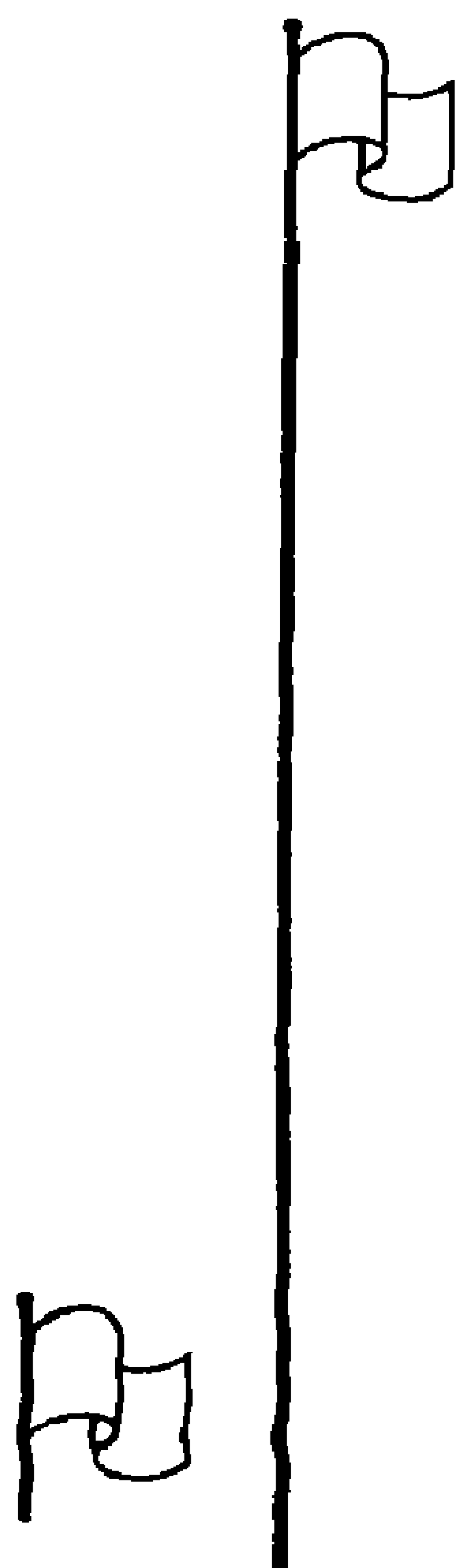
صلاح الدين

المنقذ المنتظر

السيرة والمسيرة

وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدرُ

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة



صلاح الدين

المنقذ المنتظر

اسم الكتاب : صلاح الدين المنقذ المنتظر

اسم المؤلف : منصور عبدالحكيم محمد

المراجعة اللغوية والتدقيق : طه عبدالرؤوف سعد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٠٧/٢٧٣٤٦

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 376 - 362 - 5

التنفيذ الفنى: أحمد وليد ناصيف

الإشراف الفنى: محمد وليد ناصيف

الإشراف العام: أ. أسعد بكرى كوسا

تطلب كافة منشوراتنا :

حلب : دار الكتاب العربى ـ الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين ـ ت: ٢٢٥٦٨٧٠

دمشق : مكتبة رياض العلبى ـ خلف البريد ـ ت : ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النورى ـ أمام البريد ت : ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة ـ جسر فيكتوريا ت : ٢٢٢٨٢٢٢

مكتبه الفتال ـ فرع أول ـ ت: ٢٤٥٦٧٨٦

فرع ثانى ـ ت : ٢٢٢٢٣٧٣

الطبعة الأولى

٢٠٠٨



E-mail:darkitab2003@yahoo.com

E-mail:darkitab-Nassif@hotmail:com

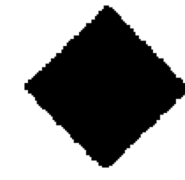
سوريا ـ دمشق ـ الحجاز ـ شارع مسلم البارودى هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص. ب ٣٤٨٢٥ فاكس : ٢٢٤٧٢٩٧

مصر ـ القاهرة ـ ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت ـ شقة ١١ تلفاكس : ٢٣٩١٦١٢٢

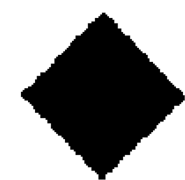
لبنان ـ تلفاكس : ٤٣٤١٨٦ / ٠٥ ـ تليفون : ٦٥٢٢٤١ / ٠٢ ـ ص. ب ٣٠٤٣ الشويفات

صلاح الدين

المنقذ المنتظر



منصور عبد الحكيم



الناشر

دار الكتاب العربي

دمشق - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾

(آل عمران: ١٠٣)

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾

(سورة النصر)

إهـــداء

إلى السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى سلطان المجاهدين ومحرر القدس، وقاهر الصليبيين.

ـ وإلى الملك الشهيد عماد الدين زنكى باعث روح الجهاد فى عصور الانهزام والتشتت والضعف.

ـ إلى الملك العادل نور الدين زنكى الذى خرج من عباءته البطل صلاح الدين فأكمل مسيرته الجهادية ضد الصليبيين والتى بدأها أبوه عماد الدين زنكى ـ رحمهم الله تعالى.

ـ وإلى كل من ساهم فى إخراج هذا العمل لعله يحيى فى نفوسنا الأمل بقرب مجىء صلاح الدين المنتظر.

المـؤلف

المقدمة

إن الحمد لله وحده نحمده ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادىَ له، سبحانه وتعالى قدَّر الأقدار وجعل الإيمان والتمسك بحبل الله المتين قرين نصر الله لهذه الأمة، وجعل عزها وقوتها فى تمسكها بدينها الذى ارتضاه لها وارتضاه لعباده وهو دين الإسلام.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم الأنبياء والمرسلين فلا نبى ولا رسول بعده، أرسله الله على حين فترة من الرسل كى يخرج الله به العباد من الضلال والكفر إلى الإيمان والتوحيد وعبادة الله الواحد الأحد فكان خير من بلغ عن ربه عز وجل.

ثم أما بعد.

فقد شهد التاريخ الإسلامى منذ القرن الهجرى الأول حتى الآن فترات نصر وسيادة وأخرى ضعف وهزيمة والأسباب كثيرة أهمها اقتران النصر بالإيمان بالله والتمسك بدين الإسلام والوحدة والالتفاف تحت لواء لا إله إلا الله محمد رسول الله وقيادة واحدة فإذا حدث الضعف والهزيمة فى جسد الأمة انتظرت الأمة ظهور المخلِّص لها.

فكان ظهور القائد والزعيم السلطان صلاح الدين الأيوبى فى فترة احتلت أوربا الصليبية بلاد الشام بما فيها القدس وأسست مملكة صليبية على أرضها عاصمتها القدس، فوحد صلاح الدين الأيوبى الصفوف تحت قيادته وقاد الجيوش الإسلامية لتحرير تلك البلاد وعلى رأسها القدس الشريف.

فالوحدة والتوحيد بمثابة الروح للجسد، وهى حياة الأمم الناهضة، والاختلاف

والتفرق هو الموت أو حياة العجزة لمن سلك هذا المسلك من الأمم، وهذا ما حدث للأمة العربية والإسلامية فى بعض الأوقات.

وقد وعى صلاح الدين الأيوبى هذه المسألة حين سعى إلى تحرير بلاد المسلمين من الصليبيين الذين احتلوا أراضيها بما فيها المدينة المقدسة التى بها المسجد الأقصى ثالث الحرمين الشريفين وأولَى القبلتين ومسرى رسولنا ﷺ، فقام بتوحيد البلاد والعباد تحت قيادته وحقق الله تعالى النصر على يديه.

وفى هذا الكتاب نلقى الضوء على سيرة هذا البطل العربى الأصل والنشأة وإن كان قد ولد فى قلعة تكريت الكردية، ونُذكر الأمة الإسلامية بمسيرته وكيف استطاع تحرير الأقصى من أيدى أعداء الله عباد الصليب وأن إنقاذه وتحريره من أيدى أعداء الله يهود هذا العصر أمر ممكن بإذن الله وتوفيقه وإن ظهور صلاح الدين الأيوبى أو الناصر لدين الله فى هذا العصر قد شارف وقارب على الظهور وما هى إلا سنوات ويصلى المسلمون فى المسجد الأقصى مطمئنين وقد تحرر من قبضة أبناء القردة والخنازير.

إنه ولى ذلك والقادر عليه.

ولا يسعنى فى ختام تلك المقدمة الموجزة إلا أن أشكر الأخ الفاضل/ محمد وليد ناصيف صاحب فكرة هذا الكتاب ووالده الأخ العزيز الأكبر الناشر الأستاذ/ وليد ناصيف لما قدمه ويقدمه لنا من مجهودات لإخراج هذا العمل وغيره من أعمال وإصدارات.

نسأل الله أن تكون فى ميزان أعمالنا الصالحة يوم أن نلقاه، فمن لا يشكر العبد لم يشكر الرب، إنه ولى ذلك والقادر عليه.

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الشيخ/ منصور عبد الحكيم محمد
القاهرة فى ١١١/ ١٠/ ٢٠٠٧
العشر الأواخر ٢٩ رمضان ١٤٢٨

قبل صلاح الدين

- ظهور دولة السلاجقة الأتراك ودفاعها عن بلاد الإسلام ومحاربتهم الصليبيين.
- ظهور آل زنكى فى دولة السلاجقة.

1

العالم الإسلامى قبل صلاح الدين الأيوبى
نظرة سريعة ومتفحصة على أرض الواقع

دولة السلاجقة الأتراك:

النهضة الإسلامية التى أدت فى نهاية الأمر إلى ظهور صلاح الدين الأيوبى وتحرير القدس لم تبدأ بظهور الناصر صلاح الدين، وإنما كانت هناك مقدمات وحروب سبقت النصر الأكبر الذى تحقق على يديه بتحرير المسجد الأقصى ومعظم بلاد الشام التى كانت تئن من الاحتلال الصليبى كما هو الحال فى فلسطين والعراق الآن.

فقد كانت بلاد الشام قد تكونت بها مملكة صليبية بعد الحرب الصليبية الأولى وسقوط القدس فى أيديهم عام ١٠٩٩ م.

وأما الديار المصرية وأرض الحجاز وباقى البلاد الشامية التى لم تقع تحت الاحتلال الصليبى فكانت ترزخ تحت احتلال آخر هو سيطرة الذين أطلقوا على أنفسهم الفاطميين زوراً وبهتاناً بالرغم من أصلهم يعود إلى مؤسس دولتهم اليهودى(١).

أما الخلافة العباسية فكانت فى مراحل ضعفها حيث الخليفة أمير المؤمنين يحكم ولا يملك وقد استقلت البلاد التابعة لخلافته، إضافة إلى تلاعب الأتراك بالخلفاء بعد أن استحدث خلفاء بنى العباسى منصب السلطان فى الدولة وهو بمثابة رئيس الوزراء فى النظام البرلمانى فى العصر الحديث(٢).

وبعد الاحتلال الصليبى للقدس وإمارات كثيرة مثل «الرها» ظهرت دولة السلاجقة فى بلاد الشام والموصل وغيرهما من البلاد الإسلامية عام ١٠٣٨ أو ١٠٣٧، فكان أول سلاطين

(١) أطلق عليهم المؤرخون والعلماء من أهل السنة اسم الخلفاء العبيديين، أسسوا دولتهم فى بلاد المغرب العربى الإسلامى وامتد نفوذهم لمصر وبلاد الشام والحرمين الشريفين بلاد الحجاز.

قامت دولتهم فى المغرب على يد أبى عبد الله الشيعى وعبيد الله المهدى عام ٢٩٦ هـ ـ ٩٠٩ م ثم كانت نهاية دولتهم فى مصر بعد ظهور صلاح الدين كمنقذ لها من الاحتلال الصليبى وظهور النزاع على السلطة بين وزراء تلك الدولة.

(٢) انظر تاريخ الخلفاء ـ للسيوطى.

تلك الدولة أو المملكة السلطان ركن الدين طغرل بك سلجوق فمن هم السلاجقة؟

إنهم بنو سلجوق وهم سلالة تركية حكمت أفغانستان وإيران وجزءاً من الأناضول والعراق وسوريا والجزيرة العربية ما بين عام ١٠٣٧ حتى عام ١١٩٤ حيث سلمت الراية إلى الأتراك من بنى عثمان بعد قضاء المغول على دولتهم فى الأناضول[١].

وينتمى السلاجقة إلى إحدى العشائر المتزعمة لقبائل الغز التركية.

وقد دخلت هذه العشيرة فى الإسلام فى عهد زعيمها «سلجوق» عام ٩٦٠ م والتى تسمى باسمه فأطلق عليهم الأتراك العثمانيون أو الخلافة العثمانية التركية.

كعادة الممالك التى تنشأ موحدة قوية فى عهده مؤسسها ثم تتوسع فى عصور الأحفاد، كان الأمر بالنسبة لدولة السلاجقة التى أسسها «سلجوق» فجاء تقسيم المملكة فى عصر أحفاده، «طغرل» «وجفرى» (١٠٣٨ ـ ١٠٦٣).

تنقسم الدولة إلى نصفين الغربى منها وعاصمتها أصفهان والشرقى وعاصمتها «مرو»

وتوسعت الدولة السلجوقية فى عهد «طغرل» إلى الغرب أكثر وضمت بلاد فارس وأجزاء من الأناضول ثم العراق عام ١٠٥٥ م بعد القضاء على دولة البويهيين فى العراق حتى إن السلطان طغرل بك استطاع أن يدخل بغداد فى رمضان ٤٤٧ هـ، ديسمبر ١٠٥٥.

وسمى ذلك العصر بعصر السلاجقة فى العراق إبان الخلافة العباسية.

وكما ذكرنا أن وجود الخليفة العباسى كان لا يمكن من وجود سلطان من الأتراك الذين كان بيدهم مقاليد الحكم الفعلى، ولم يبق للخليفة العباسى سوى بعض الأمور الشكلية حتى إن

---

(١) كان السلطان علاء الدين زعيم دولة السلاجقة الروم وهم فرع من الجنس التركى وقد فرَّ مجموعة من الأتراك من الغزو المغولى ولجأوا إليه عام ١٢٥٠ م وكانوا يسكنون منطقة خوارزم فتحركوا غرباً إلى آسيا الصغرى قرب دولة السلاجقة الروم وكان قائدهم «أرطغرل» والد مؤسس الأتراك العثمانيين «عثمان» واتصل بقائد السلاجقة. وملكهم «علاء الدين» وهم فرع آخر من الجنس التركى، فأعطاهم المنطقة التى بينه وبين دولة البيزنطيين الروم حول أنقرة.

وحارب «أرطغرل» إلى جانب «علاء الدين» المغول الذين حاولوا غزو بلاد السلاجقة الروم وانتصروا عليهم.

وبعد وفاة «أرطغرل» عام ١٢٨٨ م عين ابنه «عثمان» مكانه ثم ولاه الملك أو السلطان علاء الوزارة من بعد والده ثم كانت دولة الأتراك العثمانيين الذين انتقلت إليهم خلافة المسلمين فى عصر «سليم الأول» بعد استيلائهم على مصر وبلاد الشام بعد ذلك.

«طغرل بك» أعلن نفسه حامى للخلافة العباسية، وخلع عليه الخليفة العباسى لقب «السلطان».

دب الصراع على السلطة بعد وفاة السلطان «طغرل بك» حتى استطاع «ألب أرسلان» من تولى الحكم وبلغت الدولة السلجوقية عهدها الذهبى فى عصره (١٠٦٠ - ١٠٧٢ م) ثم فى عهد السلطان ملك شاه (١٠٧٢ - ١٠٩٢ م).

وأنشئت فى عهده المدارس الدينية لتدريس مذهب أهل السنة والجماعة فى الأراضى والدول التى سيطر عليها السلاجقة.

واستطاعت الدولة الجديدة من ضم بلاد أرمينيا لحكمها عام ١٠٦٤ م، ثم بسطوا سيطرتهم على بلاد الحجاز وحاربوا الدولة البيزنطية وانتصروا عليهم فى معارك كثيرة كما حدث فى «ملاذكرد» عام ١٠٧١.

وانقسمت الدولة السلجوقية إلى عدة ممالك بعد عام ١٠٩٢ بسبب الصراعات الداخلية بين أفراد العائلة الحاكمة، فقامت دولة سلجوقية فى العراق وإيران استمرت حتى عام ١١٩٤ م، وأخرى فى الشرق بزعامة السلطان «سنجار» (١١١٨ - ١١٥٧) والتى لم تستمر طويلاً بعده حتى عام ١١٩٤، حيث قضى عليها الخوارزم الذين أقاموا دولتهم على الأراضى والبلاد الشرقية للعالم الإسلامى.

وقامت فروع لدولة السلاجقة فى بلاد كرمان (١٠٤١ - ١١٨٧ م)، ودولة أخرى لهم فى الشام (١٠٩٤ - ١١١٧ م) ومقرها دمشق ثم حلب.

ودولة فى الأناضول (١٠٧٧ - ١٣٠٨) ومقرها «نيقية» ثم «قونية» وهم سلاجقة الروم الذين حل محلهم الأتراك العثمانيون.

ومن أهم السلاطين السلاجقة أولهم: ركن الدين طغرل بك ابن سلجوق، وعضد الدولة ألب أرسلان، وجلال الدولة ملكشاه، وناصر الدين محمود، وركن الدين بركياروق، وملكشاه بن بركياروق، وغياث الدين محمد، ومحمود بن محمد بن ملكشاه، وداود بن محمود، ومسعود بن محمد بن ملكشاه ومعز الدين أحمد سنجر، وغيرهم من سلاجقة كرمان والشام والأناضول.

لقد مثلت دولة السلاجقة القوة الإسلامية الجديدة التى حلت محل الغزنويين فى خراسان والمشرق الإسلامى، والتى غذت الإسلام، بدماء فتية جديدة، ساعدته على الصمود والانتصار، والانتشار فى بلاد الروم.

ذلك لأن الخلافة العباسية قبل ذلك الوقت كانت عاجزة عن حماية حدودها بسبب عداوتها مع الخلافة الفاطمية فى القاهرة.

وقد انتهزت الدولة البيزنطية هذه الفرصة، وأخذت تغير على الحدود الإسلامية المتاخمة لها، وتتوغل فى شمال الشام والجزيرة. ولكن من حسن حظ الخلافة العباسية فى ذلك الوقت، أن جاءت من المشرق تلك القوة التركية الفتية المليئة بفتوة البداوة وعنفوانها، فأنقذتها من انهيار محقق.

ففى سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) استطاعت جيوش السلاجقة بقيادة سلطانها «ألب أرسلان»، وباسم الخلافة العباسية، أن تحرز انتصاراً حاسماً على الإمبراطور البيزنطى «رومانوس ديوجينيس» «Romanos Diogenes» وأن تأخذه أسيراً فى موقعة «ملاذكرد» أو «منزكرد» من أعمال «خلاط» على الفرات الأعلى، شمال بحيرة فان VAN عند أرمينية.

جاء السلاجقة فى فترة انحطاط القوى الإسلامية الأخرى من عباسية وفاطمية ونجحوا فى توحيد المشرق الإسلامى من جديد، فأعطوا المسلمين الحيوية والنشاط فى الجهاد ضد الصليبيين، ويذكر بأن طغرل سلطان السلاجقة كتب إلى الخليفة العباسى القائم بأمر الله مظهراً ولاءه له، مؤكداً حبه لرفع راية الإسلام وإعلاء كلمة الله فى نشر الإسلام غرباً.

وقد أقره الخليفة العباسى سنة ٤٣٢ هـ ـ ١٠٤٠ م سلطاناً على السلاجقة، مما أكسب دولة السلاجقة الفتية صفة الشرعية وأثار حميتها الدينية لمناجزة البيزنطيين واسترداد البقاع التى كانوا قد احتلوها فى أرمينية والأناضول.

وقد أعطت نتائج هذه الموقعة سمعة إسلامية ضخمة للسلاجقة باعتبارهم المجاهدين والمدافعين عن الإسلام، والعاملين على نشر الدعوة.

وإزاء ذلك مهدت الطريق أمام السلاجقة لنشر الدعوة فى آسيا الصغرى حيث وجه «ألب أرسلان» «ابن عمه» «سليمان قتلمش»، إلى الأناضول، وأقام هناك دولة سلاجقة الروم، نسبة إلى بلاد الروم التى قامت فيها.

ومنذ ذلك الوقت، عم الإسلام بلاد آسيا الصغرى التى صارت تعرف إلى الآن باسم بلاد الأناضول الإسلامية.

واستحدث السلاجقة ـ أيضاً ـ بعض الأنظمة والعادات الفارسية والتركية التى جلبوها معهم من المشرق، ولم تكن معروفة من قبل أيام الأمويين والعباسيين والفاطميين.

ومن أمثلة ذلك، استخدام «الجاليش» فى مقدمة الجيش. و «الجاليش» عبارة عن خصلة وشعر ذيل الحصان، كانت ترفع فى أعلا سنان الراية أمام الجيش.

ثم صارت تطلق مجازاً على مقدمة الجيش أو طلائعه باسم «الجاليشية».

ومن أمثلة ذلك أيضاً حمل «الغاشية» بين يدى السلطان فى الأماكن والمناسبات الحافلة كالميادين والأعياد والمواكب ونحوها كشعار للسلطنة.

و «الغاشية» عبارة عن سرج من الجلد مخروزة بالذهب حتى يخالها الناظر كلها مصنوعة من الذهب. يحملها ركاب الدار بين يدى السلطان، ويلفتها يميناً وشمالاً.

وقد انتقلت هذه العادة إلى مصر والشام على يد صلاح الدين الأيوبى وخلفائه، واستمرت بعد ذلك فى أيام سلاطين المماليك كرمز للطاقة والإخلاص للسلطان: «حمل الغاشية بين يديه».

كذلك استحدث السلاجقة نظام المدارس الدينية، وهى منشآت علمية هدفها بث روح الجهاد بين المسلمين والتصدى للطائفية، مثل المدرسة النظامية التى أسسها الوزير السلجوقى «نظام الملك» فى بغداد. وسار على هذه السياسة «نور الدين محمود زنكى» فى الشام ثم «صلاح الدين الأيوبى» فى مصر.

على أنه يلاحظ فى هذا الصدد أن مدينة الإسكندرية عرفت نظام المدارس الدينية فى أواخر أيام الفاطميين وقبل مجىء صلاح الدين الأيوبى.

فأول مدرسة أنشأت فيها هى المدرسة الحافظية التى أسسها «رضوان بن ولخشى» وزير الخليفة «الحافظ الفاطمى سنة ٥٣٣ هـ»، وأسند التدريس فيها إلى «الفقيه المالكى أبى الطاهر بن عوف»، الذى سبق أن قرأ المذهب المالكى على زوج خالته أبى بكر الطرطوشى المشهور بكتابيه «سراج الملوك»، و «الحوادث والبدع».

وبعد عشر سنوات أى فى سنة ٥٤٤ هـ بنى «العادل بن السلار»، وزير الخليفة الظافر الفاطمى، مدرسة دينية أخرى بالإسكندرية، وأسند التدريس بها إلى «الفقيه الشاحى أبى الطاهر أحمد السلفى» صاحب كتاب «معجم السفر».

ويمكن القول بأن بعض الأيوبيين هم الذين اهتموا فى الواقع ببناء المدارس فى أنحاء مصر والشام متأثرين فى ذلك بسياسة السلاجقة.

وقد سار السلاجقة - على سنة أسلافهم من السامانيين المتمثلة فى الإكثار من المماليك الأتراك، وتربيتهم منذ الصغر تربية عسكرية إسلامية فى الجيش والإدارة.

ولهذا غلب الطابع العسكرى على الدولة السلجوقية، فصار ولاتها وقادتها من هؤلاء «المماليك كما أصبحت معظم أراضيها فى فارس، والجزيرة، والشام، مقسمة إلى إقطاعيات عسكرية يحكمها القادة من هؤلاء المماليك، فى مقابل الخدمات العسكرية التى يؤدونها للدولة فى وقت الحرب.

وسمى هؤلاء المماليك الكبار باسم «الأتابكة».

و «الأتابك» لفظ تركى مركب معناه الأب والأمير، ومعناه المربى لابن السلطان، ثم أصبح لقباً تشريفياً يمنح للكبار من القواد بمعنى (أبو الجيش) أو قائد الجيش أو نائب السلطنة.

فالسلاجقة فى أيام قوتهم اتخذوا أشخاصاً من كبار مماليكهم أطلقوا عليهم «الأتابكة» ليكونوا مربين لأولادهم القُصَّر، ومنحوهم إقطاعيات كبيرة مقابل قيامهم على شؤون هؤلاء الأبناء، وتأديتهم الخدمة العسكرية وقت الحرب.

ولكن سرعان ما صار هؤلاء «الأتابكة» أصحاب النفوذ والسلطان فى تلك الولايات.

ومن مشاهير الأتابكة فى أوائل القرن السادس الهجرى (١٢ م)، الأمير «عماد الدين زنكى» مؤسس أتابكة الموصل وحلب، وهو ابن قسيم الدولة آق سنقر الحاجب الذى بدأ حياته مملوكا «للسلطان» ملكشاه السلجوقى.

وعن طريق «زنكى وابنه نور الدين محمود» كان ظهور قواده «نجم الدين أيوب» وولده «صلاح الدين» الذى تأثر بالنظم السلجوقية، وإليه يرجع الفضل فى انتقال تلك النظم إلى مصر والشام.

حيث بقيت زمان الأيوبيين، ثم بعد ذلك دولة المماليك الأتراك، التى تبلور فيها هذا النظام التربوى العسكرى الإسلامى، وصار راسخاً متيناً، ومكنها من صد الزحف المغولى شرقاً.

ومن عباءة الدولة السلجوقية ظهر مؤسس الدولة الزنكية التى حاربت الصليبيين وحررت إمارة الرها من أيديهم ومهدت الطريق لتحرير القدس بقيادة صلاح الدين الأيوبى الذى هو نتاج تلك الدولة الزنكية حيث أنه أحد قوادها الكبار هو وعائلته كما سيأتى ذكر ذلك بإذن الله.

حدود دولة السلاجقة التى ظهرت
واستمرت منذ عام ١٠٣٧ ـ ١١٩٤ م

ظهور آل زنكى في الدولة السلجوقية

مؤسس آل زنكى هو «آق سنقر بن عبد الله آل ترغان» الذى ينتمى إلى قبائل «السبايو» التركمانية وقد لقب «بقسيم الدولة» الحاجب حيث لعب دوراً بارزاً فى الدولة السلجوقية إبان عصر السلطان السلجوقى ملكشاه الأول(١).

وكان من أخص أصدقائه حيث نشآ وشبّا معاً وحين تسلم ملكشاه السلطة عينه حاجباً له وكان من المقربين عنده وكاتم أسراره وأبرز قادته حتى لقب بقسيم الدولة وهو لقب منحه إياه «ملكشاه».

«وقسيم الدولة» يعنى الشريك أو الوزير الأول للسلطان فكان آق سنقر قاسم ملكشاه فى شؤون الحكم والإدارة لا يتقدمه أحد من رجال السلطنة أى أنه كان الرجل الثانى فى الدولة.

وأرجع المؤرخون إلى أن وصول آق سنقر إلى هذه المنزلة لصداقته القديمة بالسلطان وانتسابه إلى قبيلة تركية لها مكانتها وأهميتها بين القبائل التركية السلجوقية الحاكمة.

وأدى «آق سنقر» خدمات جليلة للدولة السلجوقية داخلياً وخارجياً هو وابنه عماد الدين زنكى، وكذلك أدى آل زنكى خدمات كبرى للإسلام والمسلمين حين وحد عماد الدين الصفوف لمحاربة الصليبيين كما سنوضح ذلك بمشيئة الله.

ومما قدمه «آق سنقر» للسلطان ملكشاه أنه قاد حملة عسكرية لمحاربة العقيليين وطردهم من الموصل والاستيلاء عليها عام ٤٧٧ هـ وشاركه هذا العمل عميد الدولة ابن فخر الدولة.

وبعد مرور سنتين من استيلاء «آق سنقر» على الموصل اشترك مع السلطان ملكشاه فى الاستيلاء على حلب من نواب العقيليين، فولاه السلطان حكم هذه الإمارة الهامة ومعها أعمال اللاذقية وكفر طاب وينبع، واستطاع آق سنقر أن يوسع سلطانه بالاستيلاء على حمص عام ٤٨٣ هـ وحصن أفاميه عام ٤٨٤ هـ.

وفى عام ٤٨٥ اشترك مع السلطان ملكشاه فى حروبه ضد العقيليين قرب الموصل.

(١) السلطان جلال الدولة ملكشاه الأول حكم فى الفترة (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢).

وكان تولى آق سنقر الزنكى أمارة حلب مرحلة جديدة من حكم السلاجقة لها حيث انتهى الحكم العربى لها بعد إن كانت سنوات طويلة من الحروب الداخلية بين القبائل العربية فيما بينها وبين التركمان القادمين من الشرق.

وأحدث آق سنقر تغيرات كبيرة فى حلب داخلياً حيث شاع الأمان والاستقرار فيها خلال سنوات حكمه التى استمرت نحو ثمان سنوات.

واهتم آق سنقر بشؤون الرعية التى كانت مهملة فى السنوات السابقة على حكمه.

فقد أدت الصراعات على الحكم إلى عدم اهتمام الولاة بشؤون السكان والرعية داخلياً وأهملوا الحياة الاقتصادية لهم حتى تراجعت واردات الإمارة وانعدم الأمن فى الطرق وتعطلت الحياة التجارية وكذلك المواد الزراعية لعدم استطاعة الفلاحين من زراعة الأرض.

واستطاع «آق سنقر» فى خلال فترة حكمه لحلب أن يعيد الأمن لها فأقام الحدود الشرعية وطارد الخارجين على القانون وقطع الطرق وقضى عليهم وعلى ما أحدثوه من فساد فى البلاد من السرقات والرشوة وبث الرعب فى السكان.

ووضع «آق سنقر» نظاماً اجتماعياً فريداً فى عصره وهو ما يسمى حالياً بنظام التأمين على البضائع والتجار بعد أن فرض الأمن بالقانون فى الإمارة مما جعل السكان يهبون لمعاونته ومساعدته فى الحكم لما رأوه من تغيرات جذرية فى الإمارة حتى شاع الأمن فيها، فإذا وصل تاجر غريب مثلاً إليها ووضع أمتعته وبضاعته إلى جانبه وغفل عنها حرسها له أهل المدينة، هكذا كان عصر آق سنقر وحكمه لمدينة حلب وما جاورها من بلاد.

ونشطت أحوال التجارة وكثرت الأسواق والبضائع وذاع صيت «آق سنقر» وحسن ذكره، فقال عنه ابن الأثير فى كتابه الكامل فى التاريخ:

وكان قسيم الدولة أحسن الأمراء سياسة لرعيته وحفظاً لهم وكانت بلاده بين رخص عام وعدل شامل وأمن واسع.

وقال ابن كثير رحمه الله فى البداية والنهاية:

- كان من أحسن الملوك سيرة وأجودهم سريرة وكان الرعية فى أمن وعدل ورخص.

ولاشك أن سبب حصول ذلك أن «آق سنقر» قد طبق الشريعة الاسلامية وساد القانون على الجميع فشاع العدل، وهذا أمر ليس بالصعب، يمكن أن يفعله أى حاكم أو رئيس لأى دولة

إذا أراد ذلك.

وقام «آق سنقر» بتجديد عمارة منارة حلب بالجامع عام ٤٨٢ هـ ـ ١٠٨٩ م.

وأنجب «آق سنقر» ابنه عماد الدين زنكى قبل توليه إمارة حلب بعامين التى استمر فيها كما ذكرنا ثمانية أعوام.

وقد عاش عماد الدين زنكى فى حياة والده سنقر عشر سنوات فقد كان الابن الوحيد له، فقد قتل آق سنقر بعد ثمان سنوات من حكمه لحلب على يد القائد السلجوقى «تتش» فى معركة دارت بينهما وانهزم فيها ووقع أسيراً فى تل السلطان قرب حلب فسأله «تتش»: لو ظفرت بى ما كنت صنعت بى.

فقال له «آق سنقر»: كنت أرى قتلك.

فأمر «تتش» بقتله صبراً، ودفن خارج مدينة حلب، ثم أعاد ابنه عماد الدين رفاته إلى داخل المدينة بجانب المدرسة الرجاجية حين ملك المدينة وحكمها.

وكان سبب مقتل «آق سنقر» على يد «تتش» أخى السلطان «ملكشاه الأول» أنه بعد وفاة السلطان ملكشاه ٤٨٥ ـ ١٠٩٢ م نازع أخوه «تتش» أبناءه على الحكم وطلب السلطنة لنفسه.

وتجهز للزحف شرقاً لإخضاع البلاد لسلطانه، وكاتب كلاً من آق سنقر وبوزان يطلب مساعدتهما، واستجابا لذلك واشتركوا فى حرب إبراهيم بن قريش صاحب الموصل لأنه رفض الخطبة فى الموصل لتتش، ورفض أن يعطيه طريقاً إلى بغداد فهزم صاحب الموصل وأخذت منه.

ساروا إلى ميافارقين فملك تتش سائر ديار بكر.

ثم سار تتش إلى أذربيجان وكان بركيارق بن ملكشاه قد قوى أمره وصارت بيده الرى وهمذان فسار ليمنع عمه.

ولما علم تتش بذلك قرر الإسراع فى زحفه باتجاه خراسان لمحاربة ابن أخيه، وعندما وصل إلى مدينة تبريز، حدثت المفاجأة إذ تخلى عنه آق سنقر وبوزان وانضما إلى بركيارق عند مدينة الرى.

فقوى موقفه بهما وكان هذا الانسحاب محطماً لخطة تتش، مما جعله يحارب آق سنقر وينزع منه ولاية حلب وقتله.

فقد رأى آق سنقر أن تبقى السلطنة محصورة فى أبناء سيده ملكشاه الأول وفاء منه له.

وأدرك تتش حرج موقفه، وضعف قواته بعد الانسحابات التى حصلت فى صفوفه، فاضطر إلى التوقف عن الزحف وقتال بركيارق، وآثر الانسحاب إلى الشام، فعاد أدراجه نحو ديار بكر، وتوقف فى الرحبة.

ثم حدث أن أقنع كل من آق سنقر وبوزان السلطان بركيارق بألا يترك تتش وشأنه وحذراه من أطماعه، وأشار عليه بمطاردته وفعلاً تحرك الجميع باتجاه الرحبة.

فلما علم تتش بذلك تركها واجتاز الفرات قاصداً أنطاكية التى بقى فيها مدة ثم عاد إلى دمشق.

وفى الرحبة عقد اجتماع رباعى ضم السلطان بركيارق وآق سنقر وبوزان وعلى بن مسلم بن قريش العقيلى، تمخض عن عقد تحالف بين الحاكمين السلجوقيين من جهة والأمير العقيلى من جهة ثانية، تحت إشراف السلطان، هدفه الوقوف فى وجه تتش.

وعاد السلطان إلى بغداد، بعد أن ترك قوة عسكرية بتصرف آق سنقر، فى حين عاد بوزان إلى الرها، وآق سنقر إلى حلب، فوصل إليها عام ١٠٩٢ م.

وهكذا قام أق سنقر بدور بارز فى إفشال مخططات، تتش ومنعه من الحصول على السلطنة، وساعد بركيارق على الاحتفاظ بها، مدركاً فى الوقت نفسه، أن صاحب دمشق سوف ينتقم للضربة التى وجهت إليه، فأخذ يستعد للتصدى له وانتزاع دمشق منه هذه المرة.

فطلب المساعدة من السلطان بركيارق فأمده بجنود، واستنجد بمن جاوره من الحكام أمثال بوزان حاكم الرها، ويوسف بن آبق حاكم الرحبة، كما انضم إليه جماعة من بنى كلاب وأحداث حلب.

ثم كانت المعركة الأخيرة التى وقع آق سنقر فيها أسيراً ومقتله على يد «تتش» السلجوقى.

فقد كان أول أعمال «تتش» حين عاد منهزماً لم يتحقق حلمه فى الاستيلاء على كرسى السلطنة هو الانتقام من المتسبب فى ذلك وهو «آق سنقر» وبوزان فتحالف مع باغى سيان صاحب أنطاكية وتحقق له ما أراد وقتل «آق سنقر» كما ذكرنا ولكن ابنه عماد الدين زنكى عاد إلى بلاد الشام حاكماً وموحداً للصفوف ومؤسساً لدولة كبرى حققت الكثير للإسلام والمسلمين ومنها خرج صلاح الدين الأيوبى.

تأسيس الدولة الزنكية فى الشام

- عماد الدين زنكى يؤسس الدولة الزنكية لخدمة الإسلام ومحاربة الصليبيين.
- بداية تأسيس الدولة الزنكية بتولى عماد الدين حكم الموصل.
- تحرير إمارة الرها من أيدى الصليبيين بداية الطريق إلى القدس.
- اغتيال عماد الدين زنكى بأيدى الغدر والخيانة.

2

عماد الدين زنكى ابن آق سنقر
يؤسس الدولة الزنكية..
السيرة والمسيرة فى خدمة الإسلام

(السيرة)

استطاع الابن الوحيد «لآق سنقر» عماد الدين بعد مقتل والده على يد «تتش» أن ينتقم لوالده ويستولى على بلاد الشام التى استولى عليها «تتش» وتقر عين أمه قبل موتها بعد أن رأته وهو حاكم للموصل ثم رأته وهو يحاصر دمشق التى قتل صاحبها «تتش» أباه ٥٢٩ هـ وتوفيت عامها.

فقد كان عمر عماد الدين حين توفى والده عشر سنوات عاش منها ثمانية أعوام فى حلب تكونت خلالها ملامح شخصيته وصفات أخلاقه الحميدة.

فقد دربه والده على الفروسية والشجاعة وهو مازال طفلاً ليحمل عبء الجهاد الإسلامى ضد أعداء الإسلام من الصليبيين، فقد ورث عن أبيه الشجاعة والقوة والإقدام والقيادة العسكرية الرائعة والبطولة.

وكان الدور الذى لعبه والد عماد الدين آق سنقر فى خدمة ملكشاه الأول والوفاء لابنه السلطان بركيارق الذى كلفه حياته الفضل الأول فى اهتمام السلطان «بركيارق» بعماد الدين وهو صغير السن.

وقام والى الموصل قوام الدولة «كربوقا» عام ٤٨٩ هـ بأمر السلطان بركيارق بإحضار عماد الدين إليه للعناية به وتربيته وفاءً لوالده وأوصى به مماليكه وقال لهم: هو ابن أخى وأنا أولى الناس بتربيته.

وكان التركمان أنصار آق سنقر قد أحاطوا بعماد الدين كما فعلوا مع والده وحظى بذلك بمكانة مرموقة عند «كربوقا» وظل عنده ملازماً له حتى وفاة «كربوقا» عام ٤٩٥ هـ - ١١٠١ م، وظلت العلاقة طيبة بين حاكم الموصل الجديد الأمير جهامش الذى ظل حاكماً

للموصل من ٤٩٥ حتى وفاته فى ٥٠٠ هـ.

وظل عماد الدين زنكى فى الموصل بعد رفض الانضمام لواليها الجديد «جاولى شقاو» فى عصيانه لأوامر السلطان محمد عام ٥٠٢ هـ، وانضم إلى الوالى الجديد للموصل الأمير مودود بن التونتكين الذى تولى أمر الموصل من عام ٥٠٢ هـ - ٥٠٧ هـ مما رشحه ليكون من كبار الأمراء ويحصل على مزيد من الاقطاعات من السلطان السلجوقى.

وشارك عماد الدين زنكى الأمير «مودود» حروبه ضد الصليبيين وأظهر الشجاعة والبطولة فى تلك الحروب وظل ملازماً له حتى مقتله على أيدى الخونة الباطنية عام ٥٠٧ هـ والباطنية فى الشام طائفة ضالة حاربت الإسلام والمسلمين وتعاونت مع الصليبيين[١] رغم ادعائها الإسلام.

وشارك عماد الدين فى قتال الصليبيين مع الأمير آق سنقر البرسقى فى نفس العام الذى استشهد فيه الأمير مودود سنة ٥٠٧ هـ.

وعاد مرة أخرى إلى الموصل وقد أوصى السلطان محمد به الوالى الجديد «جيوش بك».

ودب الخلاف فى الدولة السلجوقية بعد وفاة السلطان محمد سنة ٥١١ هـ وسعى الوالى جيوش بك مع ابنه مسعود للتوجه إلى بغداد لتنصيب نفسه سلطاناً على سلاجقة العراق ولكن محاولته باءت بالفشل واستتب الأمر للسلطان محمود الذى تولى أمر السلطنة بعد والده السلطان محمد.

وحين حاول جيوش بك إعادة المحاولة للانقضاض على السلطان بعد ثلاثة أعوام من محاولته الأولى رفض عماد الدين تأييده وأشار على المتمردين إطاعة السلطان محمود وعدم عصيانه بوصفه السلطان الشرعى.

وباءت محاولة الجيوش بك بالفشل أيضاً واستحسن السلطان محمود موقف عماد الدين زنكى وأوصى به والى الموصل الجديد الأمير البرسقى عام ٥١٦ هـ.

وشارك عماد الدين مع الأمير البرسقى فى حربه ضد والى الحلة «دبيس» فولاه إمارة واسط وكلفه مهمة الدفاع عنها.

واستطاع عماد الدين أن ينتصر على جيش «دبيس» وأظهر كفاءة فى منصبه الأول الجديد مما جعل الأمير البرسقى أن يوليه إمارة البصرة أيضاً كى يصد هجمات الأعراب عليها.

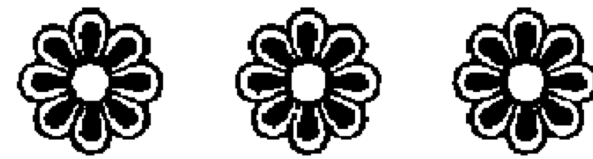
(١) اقرأ كتابنا «العالم رقعة شطرنج» وسلسلة حكومة العالم الخفية، الناشر دار الكتاب العربى.

فنشر عماد الدين الأمن فيها وقضى على الفتن التى كانت بها وأظهر مقدرة عسكرية وإدارية حازمة مما أخاف أعداء الأمير البرسقى منه.

واستطاع عماد الدين التصدى للأمير دبيس بن صدقة أحد أمراء الجنوب العراقى، مما جعل «دبيس» أن يوجه جهوده لمحاربة الخليفة العباسى المسترشد، فتصدى له عماد الدين زنكى والأمير البرسقى قرب الحلة عام ٥١٧ هـ وانتصر عماد الدين عليه ودافع عن الخليفة العباسى.

وقرر السلطان محمود تزويج عماد الدين بأرملة أحد أمرائه الكبار فى احتفال شهده السلطان وكبار القادة السلجوقيين مما زاد من مكانة عماد الدين فى الدولة السلجوقية.

وأعاده إلى البصرة كى يستقر الأمن فيها بعد أن تركها عماد الدين، فعاد إليها وباشر مهامه وأحسن إلى أهلها وقضى على الخطر الذى كان يهدد البصرة من هجمات الأعراب عليها مما رشحه إلى المنصب شحنكية العراق وهو منصب رفيع فى الدولة السلجوقية وقد تولاه بعد صراع السلطان محمود مع الخليفة العباسى المسترشد ثم الصلح بينهما حين رأى الخليفة العباسى أنه لا طاقة له بمحاربة السلطان محمود الذى استنجد بعماد الدين الذى سطع نجمه وعلا فى سماء العالم الإسلامى وقتها.



بداية تأسيس المملكة الزنكية
بتولى عماد الدين حكم الموصل

(بداية المسيرة)

تعتبر الموصل حائط الصد المنيع ضد هجمات الفرنجة الصليبيين على العالم الإسلامى والخلافة العباسية، ولذلك عمد الفقهاء بها بعد وفاة واليها الأمير عز الدين البرسقى عام ٥٢١ هـ ـ ١١٢٧ م خطر تولى أخيه الصغير تحت وصاية أحد المماليك «حاولى» أن الأمر سيؤدى احتلالها لعدم وجود قيادة عسكرية بها.

وتزعم هذا الرأى القاضى الشهرزورى اختيار قائد للمدينة حسن السيرة والإدارة وقائد عسكرى مشهود له بالشجاعة والقيادة العسكرية.

وكان القاضى الشهرزورى على علاقة طيبة بعماد الدين زنكى، فاتصل به وخطط كى يتولى عماد إمارة الموصل حتى لا تقع فى أيدى الصليبيين.

وقد تم لهما ذلك حين أقنع القاضى الفقيه الشهرزورى وزير السلطان السلجوقى بضرورة تولى عماد الدين زنكى أمر الموصل وحلب لصالح الأمة الإسلامية ليصد خطر الصليبيين فقال له: لابد للبلاد من رجل شهم شجاع ـ له رأى وتجربة يذب عنها ويحمى حوزتها(١).

وبالفعل أقنع الوزير وأقنع السلطان بذلك وصدر الأمر السلطانى بتولى عماد الدين أمر الموصل وحلب لمواجهة الغزو الصليبى وذلك عام ٥٢١ هـ ـ ١١٢٧ م.

وبالفعل تولى عماد الدين زنكى مهام الأمور وكانت تلك الخطوة بداية تكوين الدولة الزنكية التى تصدت للغزو الصليبى للشام والعالم الإسلامى وبشرى لتحرير المسجد الأقصى.

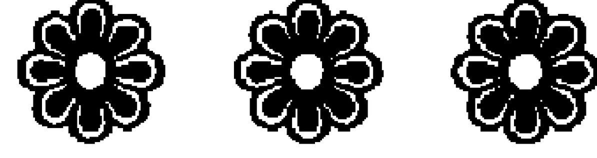
وفى عام ٥٢٢ هـ أصدر السلطان السلجوقى أوامره فى منشور لعماد الدين زنكى سلطانه على الموصل والجزيرة العربية والشام وقد ساعده ذلك على بسط نفوذه وسلطانه على تلك البلاد.

---

(١) انظر الكامل فى التاريخ لابن الأثير.

وقام بتحصين المدن والاستعداد لمواجهة الصليبيين وشحذ الهمم وإذكاء روح الجهاد ضدهم وتجميع القوى الوطنية المسلمة حوله واستكمل مشروعه الجهادى الذى بدأه مع الأمير الشهيد مودود وآق سنقر البرسقى وقام بحصار دمشق والانتصار لمقتل والده.

وبالفعل كانت أولى خطواته الجهادية هى الاستيلاء على أهم الإمارات الصليبية وهى إمارة الرها.



تحرير إمارة «الرها» من أيدى الصليبيين
بداية الجهاد الإسلامى نحو تحرير القدس

أسفرت الحملة الصليبية الأولى عن احتلال مدينة القدس التى كانت تحت حماية الفاطميين الباطنيين الشيعية حيث سلموها للصليبيين عام ١٠٩٩ م، وقبل سقوط القدس فى أيديهم سقطت إمارة الرها بعد حصارها هى ومدينة أنطاكيا وأعلن الأمير الإيطالى «بوهيموند» حاكماً على أنطاكيا، والأمير «بودوان» حاكماً على الرها.

ومدينة الرها تعرف الآن باسم «أورفة» وتقع فى منطقة الجزيرة الفراتية جنوب تركيا.

وقد دخل «بودوان» الرها فى ٢٠ فبراير ١٠٩٨ م وكون إمارة خاصة به فيها واستولى أيضاً على سميساط وسروج وملطية وظلت الرها تحت حكم الصليبيين حتى انتزعها السلطان عماد الدين زنكى عام ١١٤٤م.

ثم استردها الصليبى جوسلان الثانى بالتعاون مع مسيحيى الرها من الأرمن عام ١١٤٦ بعد وفاة عماد الدين زنكى ثم استردها ابنه السلطان نور الدين زنكى فى شهر تشرين الثانى من نفس العامة ١١٤٦ م وتم إجلاء السكان الأرمن المسيحيين الخونة المتعاونين مع الصليبيين منها.

وكانت إمارة الرها أول الإمارات الصليبية التى تكونت فى الشرق الإسلامى بالشام ١٠٩٧ م ٤٩١ هـ، وأول الإمارات الصليبية التى تم تحريرها أيضاً بأيدى المسلمين عام ١١٤٤م.

وكان لسقوطها فى أيدى المسلمين الأثر الكبير فى نفوس المسلمين والصليبيين على السواء.

لأن الرها تتميز عن بقية الإمارات الصليبية بموقعها فى الحوض الأوسط لنهر الفرات حيث تحملت عبء الدفاع عن بقية الإمارات الصليبية فى بلاد الشام.

وذلك لقربها من الخلافة العباسية ثم لوقوفها فى وجه التركمان الذين كانت تعج بهم منطقة الجزيرة عقب التفكك الذى أصاب السلاجقة فى بلاد الشام والعراق عقب وفاة السلطان ملكشاه ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م.

ولم تقتصر أهمية الرها على موقعها الاستراتيجى وكونها خط الدفاع الأول عن بقية

الإمارات الصليبية في بلاد الشام بل إنها شكلت خطراً سياسياً على خطوط المواصلات الإسلامية بين الشام وآسيا الصغرى والعراق ومنطقة الجزيرة.

ومما يوضح ذلك أن الحملة التى قام بها كربوقا صاحب الموصل سنة ٤٩١ هـ/ ١٠٩٨ م نجدة للمسلمين بأنطاكية قد تعطلت بعض الوقت حول الرها فى محاولة لانتزاعها من بدوين الأول.

وعلى الرغم من أن الرها لم تقع فى نطاق الأراضى المقدسة فى فلسطين فقد عدها الصليبيون من أشرف المدن عندهم بعد بيت المقدس وأنطاكية والقسطنطينية وفيرة الثروات ساعدت أمراء الرها على توسيع رقعتهم فامتدت إمارة الرها الواقعة على ضفتى نهر الفرات من راوندان وعين ثاب غرباً إلى مشارق ومن بهنسى وكيسوم شمالاً إلى منبج جنوباً.

واكتسبت الرها أهمية بما تهيأ لها من حكام اتصفوا بالقوة والشجاعة استطاعت الصمود فى وجه المقاومة الإسلامية، على الرغم من أن الرها كانت تعانى من نقطتى ضعف واضحتين أحدهما الحدود الطبيعية إذ لا توجد لها موانع طبيعية تحميها وتكسبها وقاية ومناعة وثانيها عدم وجود تجانس بين سكانها إذ كانوا خليطاً من المسيحيين الشرقيين «السريان والأرمن اليعاقبة» ومن الصليبيين الغربيين، فضلاً عن المسلمين الذين تركزوا من مدن بكاملها كسروج والبيرة التى خضعت للصليبيين.

ولم تقتصر أهمية الرها على الجانب الصليبى، بل كانت فى نظر المسلمين من أهم المواقع التى يجب السيطرة عليها.

كانت ظروف الرها الداخلية مؤاتية لعماد الدين زنكى، إذ اتصف أميرها جوسلين الثانى بضعف الشخصية وإنسياقه وراء العواطف والأهواء وعدم امتلاكه مقدرة سياسية، وبعد نظر.

والواقع أن جوسلين الثانى تأثر فى نشأته بالميول الأرمينية بفعل أن والدته كانت منهم، فترعرع وفى نفسه ميل إلى الأرمن وغيرهم من السكان الأصليين من الطوائف النصرانية الشرقية وفضلهم على النصارى الغربيين الأمر الذى أثار الفرسان الصليبيين وأوجد نوعاً من عدم الاستقرار داخل الإمارة.

وعرف عن صاحب الرها أنه كان من عدم الاستقرار داخل الإمارة.

وأنه كان من ذلك النوع الذى يؤثر الراحة والعافية، حتى أنه فى الوقت الذى هاجم فيه عماد الدين زنكى إمارته، اختار أن يترك مدينته ليقيم فى تل باشر عن الضفة الغربية للفرات.

إضافة إلى أن المسلمين أحاطوا بهذه الإمارة من كل جانب، وفصلها نهر الفرات عن بقية الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام؛ كل هذه العوامل ساعدت على سقوطها.

والجدير ذكره أنها شكلت خطراً كبيراً على المواصلات الإسلامية بين حلب والموصل وبغداد وسلاجقة الروم فى آسيا الصغرى، ما كانت عائقاً حال دون قيام الوحدة الإسلامية فى بلاد الشام والجزيرة بسبب تدخلها المستمر لصالح خصوم عماد الدين زنكى من الأمراء المسلمين فى المنطقة.

لذلك كان الاستيلاء عليها نصراً كبيراً له الأثر الكبير فى نفوس المسلمين.

ومن العوامل التى ساعدت على سقوط الرها فى أيدى عماد الدين أنها تعرضت لغارات مستمرة من جانب جيش الموصل على مدى أربعة عقود من الزمان.

إضافة إلى براعة عماد الدين العسكرية وخبرته فى المعارك، واطمئنان الصليبيين إلى قدرتهم العسكرية فجاءت هجمة عماد الدين على المدينة مفاجأة كبيرة وصدمة عظيمة زلزلت الأرض من تحت أقدامهم.

ولم يكتف عماد الدين فى حربه للصليبيين بالقتال المباشر بالجيوش النظامية وإنما اتبع معهم أسلوب حرب العصابات، فشن عليهم الغارات المتتابعة فى فترة غيابه عن الشام.

واعتمد فى هذا النوع من القتال على الأتراك التركمان بعد أن وفر لهم السلاح والمؤن وجعل قاعدتهم مدينة حلب.

وقد شنت تلك السرايا من التركمان الغارات على الصليبيين وقطعت عليهم طرق تموينهم وإمدادهم حتى إنهم قتلوا منهم أعداداً كثيرة وكان لهذا الأسلوب القتالى الأثر الكبير فى هزيمة الصليبيين فى الرها وسهولة استيلاء عماد الدين عليها.

ففى شهر رجب عام ٥٢٤ هـ جهز عماد الدين قوة عسكرية للإغارة على الصليبيين وبعد عام واحد قاد حملة أخرى فى تل باشر فقتل منهم الكثير واستمرت تلك الحملات لتضعف من قوى الصليبيين حتى قام الصليبيون فى الرها بالإغارة على حلب فخرج إليهم جيش عماد الدين فقتل منهم الكثيرين وأسر أيضاً الكثيرين وعاد جيش التركمان إلى حلب دون أن يصاب أحد من جنده بأذى.

وفى جمادى الآخرة من نفس العام قام سوار على رأس قوة من الفرسان بالإغارة على

تل باشر، فتصدى له صليبيو ذلك الموقع، إلا أنه تمكن من هزيمتهم، وحصد رؤوس ألف رجل، حملها معه إلى حلب.

وفى ربيع الأول من العام التالى سار إلى قنسرين، على رأس قوة من فرسان أنطاكية، فلقيهم عسكر حلب بقيادة سوار وأسفر القتال عن انتصار الصليبيين واضطر قائد زنكى إلى مصالحتهم، إلا أنه ما لبث أن باغت إحدى سرياهم بهجوم سريع وتمكن من قتل معظم أفرادها، ثم قفل عائداً إلى حلب.

ولم يمض سوى وقت قصير حتى أغار فرسان الرها على أطراف حلب الشمالية فى طريقهم إلى أحد المعسكرات الصليبية فأوقع بهم سوار وحليفه أمير منبج، وأباد عدداً كبير منهم، بينما وقع معظم الباقين فى الأسر.

ثم ما لبث سوار أن قام ـ فى نفس العام ـ بغارة واسعة على المواقع الصليبية فى منطقة الجزر، وأوقع بأعدائه عند حارم ثم عاد إلى حلب محملاً بالغنائم والأسلاب.

وأخذ نطاق الغارات والهجمات المفاجئة يتسع شيئاً فشيئاً، وشهد رجب من عام ٥٣٠ هـ محاولة واسعة قام بها سوار، إذ سار على رأس ثلاثة آلاف فارس من التركمان وفاجأ بلاد اللاذقية وأعمالها بهجوم مباغت لم يكن الصليبيون يحسبون له أى حساب، وتمكن بذلك من أسر سبعة آلاف أسير، والحصول على مقادير كبيرة من الغنائم، واجتاح عشرات من القرى والمزارع الصليبية ملأ المسلمون أيديهم منها بالأسرى والغنائم.

وقد استبشر مسلمو المنطقة أيما استبشار لهذا النصر الكبير الذى أحرزه سوار، والذى كان بالنسبة لصليبيى الشمال نكبة لم يمنوا بمثلها.

والواقع أن ما شاهدته أنطاكية، خلال عامى ٥٢٩ هـ، ٥٣٠ هـ من فتن داخلية بسبب النزاع على الحكم، أسهم إلى حد كبير فى عجز هذه الإمارة عن الدفاع عن نفسها إزاء هجمات المسلمين الأمر الذى دفع قائدهم إلى استغلال الفرصة وتحقيق نصر كبير ضد صليبيى الشمال وفى أواخر العام التالى قام سوار بهجوم مباغث ضد سرية بيزنطية كبيرة العدد، كانت تتقدم شرقاً، وتمكن من قتل وأسر عدد من أفرادها ثم قفل عائداً إلى مقره فى حلب.

ولم تمض سوى أشهر معدودات على هذا الهجوم حتى قام الصليبيون والبيزنطيون بإرسال قوات مشتركة لاحتلال قلعة الأثارب القريبة من حلب، وبعد أن حققت هذه القوات

هدفها، أوكل إليها حراسة أسرى المسلمين الذين جمعوا فى هذا الموقع.

إلا أن سوار ما لبث أن خرج على رأس قواته وهاجم الحامية الصليبية والبيزنطية، وتمكن من استخلاص معظم أسرى المسلمين من أيديهم، وعاد بهم إلى حلب التى عمها السرور وسادتها الأفراح لهذا النصر الذى حققه أميرها.

وفى عام ٥٣٣ هـ هاجم سوار عدداً من المواقع الصليبية واستولى على بعض الغنائم، إلا أن فرسان الصليبيين تمكنوا من اللحاق به وإنزال هزيمة بقواته أسفرت عن أسر ما يزيد عن ألف فارس منهم، وانسحب هو إلى حلب بمن سلم من جنده.

واستمرت المناوشات بين الطرفين طيلة السنين التالية، وأصابها بعض الفتور خلال عامى ٥٣٤ ـ ٥٣٥ هـ. أثر فشل زنكى فى الاستيلاء على دمشق، وتحالف الصليبيون والدمشقيون ضده.

إلا أن هذه المناوشات ما لبثت أن استعرت من جديد فى عام ٥٣٦ هـ والسنين التى تلته، ففى الأشهر الأولى من هذا العام قام الصليبيون بهجوم سريع ضد بعض المواقع الإسلامية غربى حلب، ولدى تفرقهم،أرسل سوار قوة من التركمان بقيادة ابنه علم الدين، أغارت على المواقع الصليبية وتوغلت إلى أسوار أنطاكية، ثم عادت تحمل معها كثيراً من الغنائم والأسلاب.

وبعد فترة قصيرة أغار لجة التركى على بعض المناطق الصليبية فى الشمال فساق وسبى وقتل، وذكر أن عدد القتلى بلغ سبعمائة رجل وفى رمضان من العام نفسه هاجم سوار معسكراً صليبياً عند جسر الحديد، إلى الشمال الشرقى من أنطاكية، بعد أن اجتاز بقواته نهر العاصى صوب تجمعات العدو، وتمكن من قتل معظم أفراد المعسكر، وأسر الباقين.

وما لبث أمير أنطاكية أن خرج ـ العام التالى ـ للإغارة على وادى بزاعة القريب من حلب، فتصدى له سوار وأجبره على الانسحاب.

واستغل جوسلين الفرصة فقام بهجوم على تجمعات المسلمين عند ضفاف الفرات، وتمكن من أسر تسعمائة رجل منهم، ثم ارتأى الطرفان عقد هدنة بينهما لم يكن لأمير أنطاكية نصيب فيها.

وهكذا ظل القتال مستمراً بين هذه الإمارة وقوات حلب وعندما خرجت طائفة كبيرة من تجار أنطاكية وفى جمادى الأول من عام ٥٣٨هـ ـ تحرسها قوة من الفرسان فى طريقها إلى بعض البلاد الصليبية المجاورة ومعها مال كثير وأموال ومتاع باغتها المسلمون، وأوقعوا بها،

وتمكنوا من إبادة أفراد قوته.

وهكذا أضعفت جيوش عماد الدين الصليبيين فى بلاد الشام حتى جاءت جيوش صلاح الدين ومن بعده بيبرس وغيرهما من طردهم من بلاد الشام حتى عادوا فى العصر الحديث ليحتلوا العراق وفلسطين ويهددوا باقى البلاد الإسلامية الأخرى فى حملة صليبية أخيرة على الشرق الإسلامى.

فلا ريب فى أن التجارب السابقة أثبتت أن إمارة الرها مرشحة أكثر من غيرها لكى تكون أولى الإمارات الصليبية المعرضة للسقوط فى أيدى قادة الجهاد الإسلامى حينذاك، وقد أجهدها أمر الإغارات المستمرة من جانب أمراء الموصل خلال فترة تزيد على أربعة عقود من الزمان على نحو مثل موتا بطيئاً لها إلى أن تم الإجهاز عليها.

ويضاف إلى ذلك براعة عماد الدين العسكرية الذى فاجأ تلك الإمارة الصليبية بالهجوم، بعد أن اطمأن الصليبيون إليه وتصوروا أنه لن يهاجم فاستغل فرصة غياب أميرها جوسلين الثانى عنها ووجه لها ضربته القاضية التى انتهت بإسقاطها.

وهكذا أثبت ذلك القائد الكبير أنه اختار التوقيت الملائم لذلك العمل العسكرى العظيم لقد حقق عماد الدين زنكى بفتح الرها أهم إنجازاته التى قام بها ضد الصليبيين طوال مدة حكمه وكان لهذا النصر نتائج هامة فى العالم الإسلامى والعربى.

فقد تأكد للمسلمين أن حركة الجهاد الإسلامى وصلت سن الرشد وتجاوزت المراهقة السياسية والعسكرية دون أن يكون ذلك إجحافاً بإنجازات القادة السابقين على زنكى لاسيما الأمير مودود.

وإذا كانت أولى الإمارات الصليبية تهاوت تحت أيديهم فإنها البداية، واليوم إسقاط الرها وغداً إسقاط باقى الكيان الغازى الدخيل.

وهذا ما حدث فعلاً ومن الآن فصاعداً لن تعود عقارب الساعة إلى الوراء، بل التقدم إلى الأمام بكل ثقة، وإباء. وهذا ما سيحدث آخر الزمان بإذن الله تعالى.

وأيضاً تأكد منطق التاريخ من أن مثل تلك الكيانات الصليبية غير الشرعية لن تستمر على الأرض المسلمة، لأن أبناء المنطقة أصحاب الهوية الدينية الموحدة لن يقبلوا بذلك الوضع السياسى والعسكرى الدخيل.

وبالتالى عاد التجانس لمنطقة شمال العراق ولم تعد الرها تمثل دور الفصل والكيان الصليبى الحاجز المانع من الاتصال بين كل من سلاجقة آسيا الصغرى، وسلاجقة الروم، وكذلك بلاد فارس.

وارتفع فى سماء الشام راية الجهاد عالية آذنة بقرب تحرر القدس.

وكذلك أدى سقوط الرها بمثل هذه الصورة إلى تحرك الحلف الدفاعى الاستراتيجى القائم بين الكيان الصليبى فى الشرق والرحم الأم فى أوربا فلم يكن ذلك الغرب يسمح لامتداده السياسى، والتاريخى فى الشرق أن ينهار قطعة قطعة، فكان لابد من إعادة الأمور إلى نصابها وإجهاز فعاليات إمارة الموصل.

ومن ثم كان قيام الحملة الصليبية الثانية عام ٥٤٢ هـ وهى من النتائج المباشرة لإسقاط الرها وهو أمر يوضح لنا بجلاء كيف أن قادة الجهاد الإسلامى حاربوا قوى عالمية، ولم تكن مجرد قوى محلية محدودة التأثير والفعالية، وأنهم بالفعل كانوا جزءاً من صراع قارى أو عالمى على نحو يجعل لهم مكانة بارزة فى تاريخ المسلمين.

وقد مدح الشعراء الإنجاز الكبير الذى قام به عماد الدين لفتحه إمارة الرها، فقد وصف ابن الأثير جيش عماد الدين فى خروجه لفتح الرها فقال:

بجيش جاش بالفرسان حتى ... ظننت البرَّ بحراً من سلاح

وألسنة من العذبات حمر ... تخاطبنا بأفواه الرياح

وأورع جيشه ليل بهيم ... وغُرَّته عمود للصباح

صفوح عند قدرته ولكن ... قليل الصفح ما بين الصفاح

فكان ثباته للقلب قلباً ... وهيبته جناحاً للجناح

وهنأ الشاعر ابن القيسرانى القاضى كمال الدين الشهرزورى بهذا الفتح فقال:

إن الصفائح يوم صافحت الرها ... عطفت عليها كل أشوس ناكب

فتح الفتوح مبشراً بتمامه ... كالفجر فى صدر النهار الآيب

لله آية وقفة بدرية ... نصرت صحابتها بأيمن صاحب

ظفــر كــمــال الدين كنت لقــاحــه   كم ناهض بالحــرب غيــر مــحــارب

وأمــــدكم جــيش الملائك نصـــرة   بكتـــائب مـــحــفــوفــة بكتــائب

جبنوا الدُّبور وقـد تم ريح الصبـا   جند النبــوة هل لهــا من غــالب

وهكذا كان فتح الرها بداية لما بعدها، إذ لم يكن من الصعب على عماد الدين زنكى أن يستكمل مهمته بفتح باقى المعاقل الصليبية التابعة لهذه الإمارة.

فاستغل فرصة ضعف أحوال الصليبيين فى المنطقة فى أن يحقق قسطاً كبيراً من برنامجه الجهادى وأن يكون لنفسه مكانة خاصة فى التاريخ الإسلامى كسياسى بارع وعسكرى متمكن ومسلم واعٍ أدرك الخطر الذى حاق بالعالم الإسلامى من قبل الصليبيين فقد استطاع أن يوجه الظروف التاريخية القائمة لصالح المسلمين وذلك بتجميعه القوى الإسلامية، بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة فى نطاق دولة واحدة.

واستطاع بحنكة أن يستغل أقصى ما يمكن أن تقدمه دولته من إمكانات فى سبيل ذلك، وتشكيل الجبهة الإسلامية وضرب الصليبيين.

ويعتبر عماد الدين أول قائد سلجوقى قام بتجميع القوى الإسلامية وفق خطة معينة ليحارب بها تزايد الخطر الصليبى الذى لم توقفه المحاولات الجدية التى سبقت وبخاصة تلك التى تمت على يد كل من مودود بن التونتكين ٥٠٢ هـ ـ ٥٠٧ هـ وإيلغازى وبلك الأرتقين ٥١٨ ـ ٥٢٠ هـ.

وقد مهد عماد الدين زنكى الطريق لقادة التحرير من بعده فلم تكن جهود ابنه نور الدين محمود ومن بعده صلاح الدين الأيوبى سوى تمام العمل الذى بدأه عماد الدين زنكى وفى نفس الطريق.

وبعد استشهاد عماد الدين تولى القيادة ابنه البطل الفذ والمجاهد الشهير نور الدين محمود الملك العادل.

اغتيال عماد الدين زنكى فى قمة نشاطه الجهادى ضد الصليبيين بأيدى الغدر والخيانة

تم اغتيال عماد الدين زنكى خلال حصاره لقلعة جعبر عام ٥٤١ هـ بواسطة رئيس حرسه المدعو «يرنقش» الباطنى وهو نائم حيث انقض عليه وقتله.

قال ابن الأثير: ختم الله بالشهادة أعماله.

وذكر أصحاب السير والتاريخ أن قاتل عماد الدين كان باطنياً من طائفة الإسماعيلية فى الشام والتى اتخذت أسلوب اغتيال زعماء أهل السنة غيلة بأن ترسل أتباعهم كى يندسوا فى صفوف المجاهدين حتى تحين فرصة لاغتيال الزعماء.

وهذا ما حدث حين انضم «يرنقش» فى صفوف عماد الدين زنكى حتى صار من حراسه المقربين، فلما حانت الفرصة اغتاله وهو نائم فى سريره وأسرع إلى أصحاب القلعة التى حاصرها عماد الدين وكانت على وشك الاستسلام وأخبرهم بما أقدم عليه وأراهم الأدلة على فعلته وانضم إليهم وأعلن الخبر فى معسكر عماد الدين مما أحدث الاضطراب فيه واضطر قواده وعلى رأسهم ابنه نور الدين بفك الحصار والانسحاب والعودة(١).

وقد اتفق كل من ابن القلانسى وغيره إلى أن القاتل الخائن كان من أصول صليبية أفرنجية وانه كان باطنى المذهب والعقيدة وان قائد قلعة جعبر حرضه على قتل سيده كى يتخلص من الحصار الذى فرضه عليهم عماد الدين.

وكان أمراء الحصن يميلون ويعطفون على أصحاب المذهب الشيعى الباطنى الإسماعيلى.

وقد أكد ابن القلانسى وابن واصل ورنسمان أن القاتل الخائن قد أقدم على قتله بالتفاق مع الصليبيين بعد الضربات القاصمة التى وجهها إليهم عماد الدين زنكى.

وتذكر كتب التاريخ أن القاتل توجه بعد اغتياله عماد الدين إلى أسوار قلعة جعبر بسكينه الملطخ بدماء سيده وهو يصيح فى الحرس:

(١) يتفق كل من ابن القلانسى وسبط ابن الجوزى والعماد الأصفهانى على تلك الرواية.

ـ قتلت زنكى.

فلم يصدقوه حتى أراهم السكين وعلامة أخرى قد أخذها من عماد الدين.

فأصعده الحرس إلى قائد القلعة وتحققوا من صدق كلامه وأوى «يرنقش» إليه وأكرمه وفرح بما فعل وأذاع الخبر فى جيش عماد الدين زنكى.

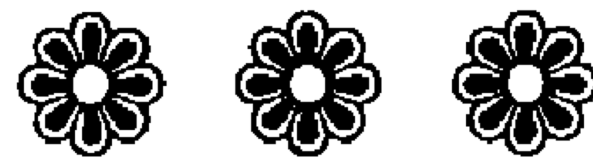
ويذكر ابن النديم إلى رد الفعل الذى احدثه خبر مقتل عماد الدين فى أهل القلعة حين ناداهم: إنى قتلت زنكى.

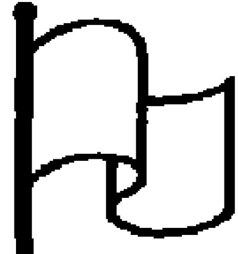
فقالوا له: اذهب إلى لعنة الله، فقد قتلت المسلمين كلهم بقتله.

وتروى كتب التاريخ أن القاتل قد أخذ جزاء فعلته فيما بعد ولم يقبض ثمناً لخيانته من أسياده حين قاموا بطرده بعد وقت قصير من لجوئه إليهم خوفاً من نور الدين زنكى ابن عماد الدين أمير حلب.

وتم القبض على القاتل بواسطة جنود عماد الدين وتم قتله جزاء وفاقاً لما فعله.

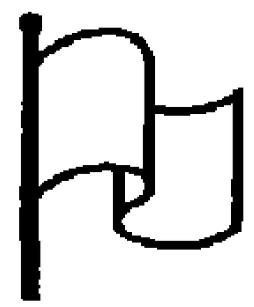
رحم الله عماد الدين زنكى وأجزل له العطاء فقد مهد الطريق لمن جاء بعده، ابنه نور الدين الذى استكمل طريق الجهاد الذى بدأه والده حتى استشهد هو الآخر وجاء بعدهما صلاح الدين الأيوبى، ومازالت المسيرة مستمرة حتى قيام الساعة.





الدولة الزنكية والمسيرة الجهادية في عهد نور الدين زنكي ضد الصليبيين

- نور الدين زنكى والمسيرة الجهادية ضد الصليبيين فى الشام.
- مناقب وأعمال نور الدين زنكى.
- ولاية نور الدين زنكى من أزهى عصور التاريخ الإسلامى.
- سياسة نور الدين زنكى لإعادة المذهب السنى فى بلاد الشام قبل احتلال الفاطميين لها.
- فتوحات نور الدين زنكى.
- صلاح الدين يخرج من عباءة نور الدين زنكى.



3

قيادة نور الدين زنكى مسيرة الجهاد الإسلامية ضد الصليبيين فى الشام

بعد اغتيال عماد الدين زنكى كما ذكرنا انقسمت الدولة الزنكية بين أبنائه، فقد كان له أربعة أولاد هم: سيف الدين غازى وهو الأكبر، ونور الدين محمود، وقطب الدين مودود، ونصرة الدين.

وتشهد كتب التاريخ أن هؤلاء الأولاد كانوا نجباء ذوى أخلاق حميدة وشجاعة مثل أبيهم، وقد قام بتربيتهم أديب شاعر هو على بن منصور السروجى.

وكان ابنه الثانى نور الدين محمود متواجداً مع أبيه فى حصار قلعة جعبر والتى استشهد فيها أبوه وعاد بعد مقتله إلى حلب.

أما الابن الأكبر سيف الدين غازى فقد كان وقتها مقيماً فى شهرزور وهى إقطاعية لأبيه.

وبعد مقتل عماد الدين سار نور الدين ببعض العسكر إلى حلب ومعه خاتم أبيه فملكها هى وتوابعها فى ربيع الآخر عام ٥٤١ هـ ـ ١١٤٦ م وكان يبلغ من العمر ثلاثين عاماً.

ودب الصراع على السلطة والحكم عقب مقتل عماد الدين بين ولديه سيف الدين ونور الدين وقد استغل الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود السلجوقى تلك الخلافات كى يستأثر بالسلطة فى الموصل وحلب لنفسه إلا أن خطته فشلت بفضل الوزير جمال الدين الأصفهانى أحد قواد عماد الدين الذى استطاع إبقاء الدولة الزنكية فى أولاد عماد الدين.

فاستلم حكم الموصل والجزيرة سيف الدين، وحكم مدينة حلب وما جاورها من مدن الشام نور الدين زنكى.

أما أخوهما نصرة الدين أمير أميران فقد حكم حران تابعا لأخيه نور الدين، فى حين كان الأخ الرابع قطب الدين مودود فى رعاية أخيه سيف الدين.

وهكذا انقسمت الدولة الزنكية بين أولاد عماد الدين بعد أن كانت دولة موحدة إلا أن العلاقات بينهم كانت طيبة وساد التعاون بين الأخوين لحرمة الإسلام خشية أن يستغل اعداء الأسرة انقسام دولة ابيهم ويهاجموها ويقضوا عليها.

واستطاع الأخوان سيف الدين ونور الدين أن يتعاونا على البر والتقوى والجهاد ضد الصليبيين وكان من مظاهر هذا التعاون المشترك اشتراك عساكر سيف الدين مع عساكر نور الدين فى الجهاد ضد الصليبيين والدفاع عن دمشق حين حاصرها الصليبيون عام ٥٤٣ هـ ـ ١١٤٨ م.

واشتركا أيضاً فى فتح حصن العُريمة وطرد الصليبيين من الحصن.

وكذلك اشتركا فى هزيمة الصليبيين فى موقعة إنب وفى فتح أفامية عام ٥٤٤ هـ ـ ١١٤٩ م.

واستمر التعاون بينهما حتى وفاة سيف الدين زنكى بالموصل عام ٥٤٤ هـ ـ ١١٤٩م بعد حكم الموصل ثلاث سنين وشهراً وعشرين يوماً ودفن بالمدرسة التى بناها بالموصل وكان عمره نحو أربع وأربعين سنة.

وبوفاة سيف الدين غازى زنكى أستأثر أخوه نور الدين محمود زنكى بحكم الدولة الزنكية بمفرده وواصل جهاده ضد الصليبيين ووضع خطة محكمة لتحرير القدس والبلاد التى احتلها الصليبيون بالشام حتى إنه جهز منبراً لوضعه فى المسجد الأقصى، عرف فيما بعد بمنبر السلطان نور الدين زنكى والذى أحرقه اليهود بعد احتلالهم للقدس عام ١٩٦٧ م.

وقد أجمع المؤرخون على عدل ذلك الملك وإخلاصه فى خدمة الإسلام وجهاده فى سبيل الله، ولنقرأ سوياً ما كتب عنه وعن جهاده وعدله فى رعيته وما قدمه للإسلام:

كان مولده فى العاشر من شهر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة هجرية ومكث فى الملك ثمانية وعشرين عاماً ومات شهيداً عن عمر يناهز ثمانية وخمسين عاماً.

نشأ نور الدين فى كفالة والده، وتعلم القرآن والفروسية والرمى، وكان شهماً شجاعاً ذا همة عالية، وقصد صالح، وحرمة وافرة وديانة بينة.

أظهر نور الدين ببلاده السنة. وأمات البدعة، ومن ذلك أمره بالتأذين بـ (حىّ على الصلاة، حىّ على الفلاح)، ولم يكن يؤذن بهما فى دولة أبيه وجده، وإنما كان يؤذن بـ (حىّ على خير العمل) شعار الرافضة المبتدعة الذين كانوا كثيرين فى أيامه.

كان نور الدين محباً للسنة حريصاً على اتباعها، قال عنه ابن عساكر: «ولقد حكى عنه من صحبه فى حضره وسفره أنه لم يكن يسمع منه كلمة فحش فى رضاه ولا فى ضجره، وإن أشهى ما إليه كلمة حق يسمعها أو إرشاد إلى سنة يتبعها».

حكى الشيخ أبو البركات أنه حضر مع عمه الحافظ أبى القاسم مجلس نور الدين لسماع شىء من الحديث، فمر أثناء الحديث أن النبى ﷺ خرج متقلداً سيفاً، فاستفاد نور الدين رحمه الله أمراً لم يكن يعرفه، وقال: «كان رسول الله ﷺ يتقلد السيف!!».

يشير إلى التعجب من عادة الجند إذ هم على خلاف ذلك لأنهم يربطونه بأوساطهم، فلما كان من الغد مر وأنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه، فخرج من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك، ويعلق ابن قاضى شهبة على هذه الحادثة فيقول: «رحم الله هذا الملك الذى لم يفرط فى الاقتداء بالنبى ﷺ بمثل هذه الحالة. بل لما بلغته رجع بنفسه ورد جنده عن عوائدهم اتباعاً لما بلغه عن نبيه ﷺ فما الظن بغير ذلك من السنن».

وروى أبو شامة المقدسى: «وبلغنى من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط. أنه قرئ عليه جزء من حديث كان له به رواية، فجاء فى جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يبتسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك.

وقال: إنى لأستحى من الله تعالى أن يرانى مبتسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج(١).

ومع أن نور الدين رحمه الله حنفى المذهب إلا أنه نشر مذاهب أهل السنة الأربعة، وبنى المدارس، ووقف الأوقاف، وأظهر العدل والإنصاف.

يقول الإمام ابن عساكر: «بلغنى أنه فى الحرب رابط الجأش، ثابت القدم، حسن الرمى بالسهام، صليب الضرب عند ضيق المقام، يتقدم أصحابه عند الكرة، ويحمى منهزمهم عند الفرة، ويتعرض بجهده للشهادة لما يرجو بها من كمال السعادة»(٢).

وقال ابن الأثير: «وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما، فإنه كان أصبر الناس فى الحرب، وأحسنهم مكيدة ورأياً، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم، وبه كان يضرب المثل فى ذلك، سمعت جمعاً كثيراً من الناس لا أحصيهم يقولون: إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه، كأنه خلق منه لا يتحرك ولا يتزلزل»(٣).

---

(١) انظر كتاب الروضتين ـ أبو شامة المقدسى والكواكب الدرية لابن قاضى شهبة.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر.

(٣) الكامل فى التاريخ لابن الأثير.

وقال الحافظ ابن كثير: «وأما شجاعته فيقال: إنه لم ير على ظهر فرس أشجع ولا أثبت منه».

وقال كذلك: «وكان شجاعاً صبوراً فى الحرب، يضرب المثل به فى ذلك، وكان يقول: قد تعرضت للشهادة غير مرة، فلم يتفق لى ذلك، ولو كان فى خير ولى عند الله قيمة لرزقنيها، والأعمال بالنيات.

وقال له يوماً قطب الدين النيسابورى: بالله يا مولانا السلطان لا تخاطر بنفسك، فإنك لو قتلت قتل جميع من معك وأخذت البلاد، وفسد المسلمون.

فقال له: اسكت يا قطب الدين فإن قولك إساءة أدب مع الله، ومن هو محمود؟ من كان يحفظ الدين والبلاد قبلى غير الذى لا إله إلا هو؟ ومن هو محمود؟

قال فبكى من كان حاضراً رحمه الله»(١).

وكان نور الدين رحمه الله إذا حضر الحرب أخذ قوسين وجعبتين، وباشر القتال بنفسه.

وعند حصن الأكراد عام ٥٥٨ هـ هاجم الصليبيون معسكر نور الدين رحمه الله على حين غفلة وهو فى قلة من أصحابه؛ فانسحب بسرعة إلى حمص وأخذ ما يحتاجه من خيام وتجهيزات عسكرية، وعاد فعسكر على بحيرة (قدس) على بعد أربعة فراسخ فحسب من مكان الهجوم.

يقول ابن الأثير: «فكان الناس لا يظنون أنه يقف دون حلب، فكان رحمه الله أشجع من ذلك وأقوى عزماً»، وعلى بحيرة (قدس) اجتمع إليه كل ناج من المعركة فقال له بعض أصحابه: ليس من الرأى أن تقيم هاهنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجىء إلينا ونحن على هذه الحال؛ فوبخه وأسكته وقال: «إذا كان معى ألف فارس لا أبالى بأعدائى قلوا أم كثروا، والله لا أستظل بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام وثأرى».

وأرسل إلى حلب يطلب مزيداً من الأموال والعدد.

وكان فى نية الصليبيين الهجوم على حمص باعتبارها أقرب المواقع إليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين رحمه الله قريباً منها قالوا: إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوة ما يمنعنا.

وقال عنه أحد الأمراء الذين تأخروا فى الاستجابة لندائه للمساعدة فى فتح حارم: «إن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة فهو يلقى نفسه والناس معه فى المهالك».

---

(١) البداية والنهاية.

ولقد حكى عنه بعض من خدمه مدة ووازره على فعل الخير أنه سمعه يسأل الله أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير[1].

قال ابن الأثير: ومن عدله أنه لم يكن يعاقب العقوبة التى يعاقب بها الملوك فى هذه الأعصار على الظنة والتهمة؛ بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد فدفع الله به عن الناس من الشر ما يوجد فى غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة فى العقوبة والأخذ بالظنة، وأمنت بلاده مع سعتها، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر.

قال: وحكى لى من أثق به أنه دخل يوماً إلى خزانة المال فرأى فيها مالاً أنكره، فسأل عنه، فقيل إن القاضى كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا.

قال: إن هذا المال ليس لنا، ولا لبيت المال فى هذه الجهة شىء. وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين ليرده على صاحبه. فأرسله متولى الخزانة مرة أخرى، فرآه، فأنكر على النواب، وقال لهم: ألم أقل لكم يعاد هذا المال على أصحابه؟ فذكروا له قول كمال الدين، فرده إليه وقال الرسول: قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا، وأما أنا فرقبتى دقيقة لا أطيق حمله، والمخاصمة عليه بين يدى الله تعالى. يعاد قولاً واحداً.

قال: ومن عدله أيضاً بعد موته وهو من أعجب ما يحكى أن إنساناً كان بدمشق غريباً، استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله.

فلما توفى تعدى بعض الأجناد على هذا الرجل، فشكاه، فلم ينصف. فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكى وقد شق ثوبه وهو يقول: يا نور الدين: لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا؛ أين عدلك! وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى وكلهم يبكى ويصبح.

فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له: احفظ البلد والرعية وإلا خرج عن يدك. فأرسل إلى ذلك الرجل وهو عند تربة نور الدين يبكى والناس معه فطيب قلبه ووهبه شيئاً وأنصفه، فبكى أشد من الأول.

فقال له صلاح الدين: لم تبكى؟ قال: أبكى على سلطان عدل فينا بعد موته.

فقال صلاح الدين: هذا هو الحق، وكل ما ترى فينا من عدل فمنه تعلمناه.

قال ابن الأثير: كان نور الدين رحمه الله أول من بنى داراً للكشف وسماها دار العدل.

---

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير.

وكان سبب بنائها أنه لما طال مقدمه بدمشق وأقام بها أمراؤه، وفيها أسد الدين شيركوه وهو أكبر أمير معه، وقد عظم شأنه وعلا مكانه، حتى صار كأنه شريك فى الملك واقتنوا الأموال وأكثروا؛ تعدى كل واحد منهم على من يجاوره فى قرية أو غيرها.

فكثرت الشكاوى إلى كمال الدين فأنصف بعضهم من بعض، ولم يقدم على الإنصاف من أسد الدين شيركوه. فأنهى الحال إلى نور الدين، فأمر حينئذ ببناء دار العدل.

فلما سمع أسد الدين بذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم: اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببى وحدى؛ وإلا فمن هو التى يمتنع على كمال الدين؟ ووالله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنه.

فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة فى ملك فافصلوا الحال معه، وأرضوه بأى شىء أمكن، ولو أتى ذلك على جميع ما بيدى.

فقالوا له: إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا فى الطلب.

فقال: خروج أملاكى عن يدى أسهل على من أن يرانى نور الدين بعين أنى ظالم، أو يساوى بينى وبين آحاد العامة فى الحكومة.

فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم، وأرضوا خصماءهم، وأشهدوا عليهم.

فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات.

وكان يجلس فى الأسبوع يومين وعنده القاضى والفقهاء؛ وبقى كذلك مدة فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين.

فقال نور الدين لكمال الدين: ما أرى أحداً يشكو من شيركوه.

فعرفه الحال، فسجد شكراً لله تعالى.

وقال: الحمد لله الذى جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا.

قال ابن الأثير: فانظر إلى هذه المعدلة ما أحسنها، وإلى هذه الهيبة ما أعظمها وإلى هذه السياسة ما أسدها؛ هذا مع أنه كان لا يريق دماً، ولا يبالغ فى عقوبة، وإنما كان يفعل هذا صدقة فى عدل وحسن نيته(١).

---

(١) انظر الروضتين والكامل فى التاريخ.

وقال أيضاً: وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما، فإنه أصبر الناس فى الحرب وأحسنهم مكيدة ورأياً، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم، وبه كان يضرب المثل فى ذلك. سمعت جمعا كثيراً من الناس لا أحصيهم يقولون إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه، كأنه خلق عليه لا يتحرك ولا يتزلزل.

وكان أحسن الناس لعباً بالكرة لعبة من لعب الحرب وأقدرهم عليها.

وكان ربما ضرب الكرة ويجرى بالفرس ويتناولها من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان.

وكانت يده لا ترى والجوكان فيها بل يكون فى كم قبائه استهانة باللعب.

قال: وكان رحمه الله يكثر إعمال الحيل والمكر الخداع مع الفرنج، خذلهم الله تعالى، وأكثر ما ملكه من بلادهم به.

ومن جيد الرأى ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن صاحب الدروب، فإنه ما زال يخدعه ويستميله، حتى جعله فى خدمته سفرا وحضرا؛ وكان يقاتل به الفرنج، وكان يقول: إنما حملنى على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك، وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها إذا أراد قتال من بلاد الإسلام، فإذا طلب انحجر فيها فلا يقدر عليه.

فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التالف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج.

قال: وحين توفى نور الدين رحمه الله وسلك غيره غير هذا الطريق ملك متولى الأرمن بعد مليح كثيرا من بلاد الإسلام وحصونهم، وصار منه ضرر عظيم، وخرق واسع لا يمكن رقعه.

قال: ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده؛ فإنه كان إذا توفى أحدهم وخلف ولدا أقر الإقطاع عليه، فإن كان الولد كبيرا استبد بنفسه، وإن كان صغيرا رتب معه رجلا عاقلا يثق إليه فيتولى أمره إلى أن يكبر.

فكان الأجناد يقولون هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها، وكان سبباً عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر فى المشاهد والحروب.

وأما ما فعله فى بلاد الإسلام من المصالح مما يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم.

من ذلك أنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها؛ فمنها حلب، وحماة، وحمص، ودمشق، وبارين، وشيزر، ومنبج، وغيرها من القلاع والحصون، وحصنها وأحكم بناءها، وأخرج

عليها من الأموال ما لا تسمح به النفوس.

وبنى أيضاً المدارس بحلب، وحماة، ودمشق، وغيرها للشافعية والحنفية.

وبنى الجوامع فى جميع البلاد، فجامعه فى الموصل إليه النهاية فى الحسن والإتقان.

ومن أحسن ما عمل فيه أنه فوض أمر عمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر الملا رحمة الله وهو رجل من الصالحين، فقيل له إن هذا لا يصلح لمثل هذا العمل. فقال: إذا وليت العمل بعض أصحابى من الأجناد والكتاب أعلم أنه يظلم فى بعض الأوقات، ولا يفى الجامع بظلم رجل مسلم، وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظنى أنه لا يظلم، فإذا ظلم كان الإثم عليه لا علىّ.

قال: وهذا هو الفقه فى الخلاص من الظلم.

وبنى أيضاً بمدينة حماة جامعا على نهر العاصى من أحسن الجوامع وأنزهها.

وجدد فى غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم، إما بزلزلة أو غيرها، وبنى البيمارستانات فى البلاد؛ ومن أعظمها البيمارستان - أى مستشفى للعلاج - الذى بناه بدمشق، فإنه عظيم كثير الخرج جداً.

قال ابن الأثير: بلغنى أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء فحسب، بل على كافة المسلمين من غنى وفقير.

وقد وقفت على كتاب وقفه فلم أره مشعراً بذلك، وإنما هذا كلام شاع على ألسنة العامة ليقع ما قدره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء للفقراء فيه، والله المستعان.

وإنما صرح بأن ما يعز وجوده من الأدوية الكبار وغيرها لا يمنع منه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء، فحصن ذلك بذلك، فلا ينبغى أن يتعدى إلى غيره، لاسيما وقد صرح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء والمنقطعين.

وقال بعد ذلك: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أعطى.

وروى أن نور الدين رحمه الله شرب من شراب البيمارستان فيه، وذلك موافق لقوله فى كتاب الوقف: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أعطى. والله أعلم.

وبلغنى فى أصل بنائه نادرة، وهى أن نور الدين رحمه الله وقع فى أسره بعض أكابر الملوك من الفرنج، خذلهم الله تعالى، فقطع على نفسه فى فدائه مالاً عظيماً؛ فشاور نور الدين أمراءه فكل أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين.

ومال نور الدين إلى الفداء بعد ما استخار الله تعالى، فأطلقه ليلاً لئلا يعلم أصحابه، وتسلم المال.

فلما بلغ الفرنجى مأمنه مات، وبلغ نور الدين خبره، فأعلم أصحابه فتجمعوا من لطف الله تعالى بالمسلمين حيث جمع الحسنيين، وهما الفداء وموت ذلك اللعين.

فبنى نور الدين رحمه الله بذلك المال هذا البيمارستان ومنع المال الأمراء، لأنه لم يكن عن إرادتهم كان(١).

وهذا الفعل وغيره يدل على مدى صدقه وتقواه الله رب العالمين وقد اتفق على ذلك المؤرخون والمعاصرون له من أهل السير والتاريخ، فقد كان رحمه الله من أولياء الله الصالحين نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله مثل أبيه وأجداده رحمهم الله.

قال ابن الأثير: وبنى أيضاً الخانات فى الطرق، فأمن الناس وحفظت أموالهم، وباتوا فى الشتاء فى كن من البرد والمطر.

وبنى أيضاً الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنج وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادى؛ فإذا رأوا من العدو أحداً أرسلوا الطيور فأخذ الناس حذرهم، واحتاطوا لأنفسهم فلم يبلغ العدو منهم غرضاً؛ وكان هذا من ألطف الفكر وأكثرها نفعاً.

قال: وبنى الربط والخانقاهات فى جميع البلاد للصوفية ووقف عليها الوقوف الكثيرة وأدر عليهم الإدرارات الصالحة، وكان يحضر مشايخهم عنده ويقربهم، ويدينهم ويبسطهم؛ ويتواضع لهم؛ وإذا أقبل أحدهم إليه، يقوم له مذ تقع عينه عليه، ويعتنقه ويجلس معه على سجادته، ويقبل عليه بحديثه.

وكذلك كان أيضاً يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام، ويجمعهم عند البحث والنظر، فقصدوه من البلاد الشاسعة، من خراسان وغيرها.

وبالجملة كان أهل الدين عنده فى أعلى محل وأعظمه، وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك، وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم، وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يقول: ومن المعصوم؟! وإنما الكامل من تعد ذنوبه.

قال: وبلغنى أن بعض أكابر الأمراء حسد قطب الدين النيسابورى، الفقيه الشافعى، وكان قد استقدمه من خراسان، وبالغ فى إكرامه والإحسان إليه؛ فحسده ذلك الأمير فنال

(١) كتاب الروضتين فى إخبار الدولتين ـ لأبى شامة المقدسى.

منه يوماً عند نور الدين.

فقال له: يا هذا إن صح ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها وهى العلم والدين.

وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت وليست لكم حسنة تغفرها، ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك؛ وأنا أحتمل سيئاتكم أفلا أحتمل سيئة هذا، إن صحت، مع وجود حسنته علىّ؟! إننى والله لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأوذينك. فكف عنه.

قال ابن الأثير: هذا والله هو الإحسان والفعل الذى ينبغى أن يكتب على العيون بماء الذهب.

وبنى بدمشق أيضاً دار الحديث، ووقف عليه وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة، وهو أول من بنى داراً للحديث فيما علمنا. وبنى أيضاً فى كثير من بلاده مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة.

وبنى أيضاً مساجد كبيرة ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن.

قال: وهذا فعل لم يسبق إليه، بلغنى من طرف بإعمال الشام أن وقوف[1] نور الدين فى وقتنا هذا، وهو ثمان وستمائة، كل شهر تسعة آلاف دينار صورية، وليس فيها ملك غير صحيح شرعى ظاهراً وباطناً، فإنه وقف ما انتقل إليه وورث عنه، أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه.

وقد لخص تلك الإنجازات ابن عساكر:

أما إنجازاته الاجتماعية فقد لخصها ابن عساكر فى قوله: «وأدر على الضعفاء والأيتام الصدقات، وتعهد ذوى الحاجة من أولى التعفف بالصلات، حتى وقف وقوفاً على المرضى والمجانين، وأقام لهم الأطباء والمعالجين.

وكذلك على جماعة العميان، ومعلمى الخط والقرآن، وعلى ساكنى الحرمين ومجاورى المسجدين، وأكرم أمير المدينة الحسين، وأحسن إليه، وأجرى عليه الضيافة لما قدم عليه وجهز معه عسكراً لحفظ المدينة، وقدم لهم بما يحتاجون إليه من المؤونة، وأقطع أمير مكة إقطاعاً سنياً، وأعطى كلاً منهما ما يأكله هنياً مرياً.

ورفع عن الحجاج ما كان يؤخذ منهم من المكس، وأقطع أمراء العرب الإقطاعات لئلا يتعرضوا للحجاج بالنحس.

---

(١) الوقوف هى الأوقاف الشرعية التى ترصد لخدمة النفع العام للمسلمين ابتغاء مرضاة الله تعالى.

وأمر بإكمال سور مدينة الرسول، واستخراج العين التى بأحد[1] وكانت قد دفنتها السيول.

ودعى له بالحرمين، واشتهر صيته فى الخافقين، وعمر الربط والخانقاهات والبيمارستانات.

وبنى الجسور فى الطرق والخانات، ونصب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين، وأجرى الأرزاق على معلميهم وعليهم وبقدر ما يكفيهم.

وكذلك صنع لما ملك سنجار وحران والرها والرقة ومنبج وشيراز وحماه وحمص وبعلبك وصرخد وتدمر، فما من بلد منها إلا وله فيه حسن أثر، وما من أهلها أحد إلا نظر له أحسن نظر، وحصل الكثير من كتب العلوم ووقفها على طلابها، وأقام عليها الحفظة من نقلتها وطلابها وأربابها، وجدد كثيراً من ذى السبيل وهدى بجهده إلى سواء السبيل.

وقد كان السلطان نور الدين رحمه الله زاهداً متواضعاً، لا يحب علواً فى الأرض ولا فساداً، تلقى يوماً من بغداد هدية تشريف عباسية، ومعها قائمة بألقابه التى كان يذكر بها على منابر بغداد «.. اللهم أصلح المولى السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط المثاغر نور الدين وعدته، ركن الإسلام وسيفه، قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومعزها، رضىّ الإمامة وأثيرها، فخر الملة ومجدها، شمس المعالى وملكها، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها، محيى العدل فى العالمين، منصف المظلوم من الظالمين ناصر دولة أمير المؤمنين..».

لكن نور الدين رحمه الله أسقط جميع الألقاب وطرح دعاءً واحداً يقول: «اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود زنكى!!»[2].

وعندما التقت قواته فى (حارم) بالصليبيين الذين كانوا يفوقونهم عُدة وعَدداً، انفرد نور الدين رحمه الله تحت تل حارم، وسجد لربه عز وجل، ومرغ وجهه، وتضرع وقال: «يا رب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك، أيش فضول محمود فى الوسط؟».

يقول أبو شامة: «يشير نور الدين هنا إلى أنك يا رب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر.

وبلغنى ـ يعنى أبو شامة ـ أنه قال: اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً.. من هو

---

(١) أى جبل «أحد» بالمدينة المنورة.

(٢) الكواكب الدرية ـ لأبى شامة.

محمود حتى ينصر؟»(١).

وحكى أبو شامة قائلاً: «وبلغنى أن إماماً لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط فى منامه النبى ﷺ وقال له: أعلم نور الدين أن الفرنج قد رحلوا عن دمياط فى هذه الليلة، فقال: يا رسول الله، ربما لا يصدقنى، فاذكر لى علامة يعرفها.

فقال: قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم وقلت: يا رب انصر دينك ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى ينصر؟».

قال فبهت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه كان ينزل إليه بغلس، ولايزال يتركع فيه حتى يصلى الصبح، قال فتعرضت له فسألنى عن أمرى، فأخبرته بالمنام وذكرت له العلامة، إلا أننى لم أذكر لفظة الكلب.

فقال نور الدين: اذكر العلامة كلها وألح على فى ذلك، فقلتها، فبكى - رحمه الله - وصدق الرؤيا، فأرخت تلك الليلة، فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك فى تلك الليلة».

أما نفقته فقد كانت قصداً، يقول ابن كثير: «كان نور الدين عفيف البطن والفرج، مقتصداً فى الإنفاق على أهله وعياله فى المطعم والملبس حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء فى زمانه أعلى نفقة منه، من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا»(٢).

ويحكى رضيع الخاتون زوجة نور الدين، أنها أرسلته إلى نور الدين تطلب زيادة فى مخصصاتها المالية، يقول: «فلما قلت له ذلك تنكر واحمر وجهه ثم قال: من أين أعطيها، أما يكفيها مالها؟ والله لا أخوض نار جهنم فى هواها!! إن كانت تظن أن الذى بيدى من الأموال هى لى فبئس الظن!! إنما هى أموال المسلمين، ومرصدة لمصالحهم، ومعدة لفتق - إن كان - من عدو الإسلام، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها، ثم قال: لى بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكاً قد وهبتها إياها فلتأخذها!!

قال الرضيع: وكان يحصل منها قدر قليل، نحو عشرين ديناراً.

وقال ابن الأثير: «أحضر نور الدين الفقهاء، واستفتاهم فى أخذ ما يحل له، فأخذ ما أفتوه بحله، ولم يتعده إلى غيره البتة، ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة، وحكى لى عنه أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحضرها عنده، فوصفت له فلم يلتفت إليها.

---

(١) انظر كتاب الروضتين - لأبى شامة المقدسى. (٢) البداية والنهاية لابن كثير.

وبينما هو معه فى حديثها، إذ قد جاءه رجل صوفى فأمر له بها، فقيل له: إنها لا تصلح لهذا الرجل، ولو أعطى غيرها لكان أنفع له، فقال: أعطوها له فإنى أرجو أن أعوض عنها فى الآخرة، فسلمت إليه فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أو سبعمائة، وأنا أشك أنها كانت تساوى أكثر».

ويقول سبط ابن الجوزى: «كان ـ يعنى نور الدين ـ إذا أقام الولائم العظيمة لا يمد يده إليها إنما يأكل من طبق خاص فيه طعام بسيط».

وكان يقترض أحياناً ليأكل يقول ابن كثير: «كان عمر الملاء رجلاً من الصالحين الزاهدين، وكان نور الدين يستقرض منه فى كل رمضان ما يفطر عليه، وكان يرسل إليه بفتيت ورقاق فيفطر عليه».

وأما عن صدق رؤياه فجاء أنه «رأى النبى ﷺ فى ليلة واحدة ثلاث مرات، وهو يقول له فى كل واحدة منها: يا محمود أنقذنى من هذين الشخصين، لشخصين أشقرين تجاهه.

فاستحضر وزيره قبل الصبح فأخبره، فقال له: هذا أمر حدث فى مدينة النبى ﷺ ليس له غيرك.

فتجهز ـ نور الدين ـ وخرج على عجل بمقدار ألف راحلة وما يتبعها من خيل وغير ذلك، حتى دخل المدينة على غفلة، فلما زار طلب الناس عامة للصدقة.

وقال: لا يبقى بالمدينة حد إلا جاء، فلم يبق إلا رجلان مجاوران من أهل الأندلس نازلان فى الناحية التى قبلة حجرة النبى ﷺ من خارج المسجد عند دار آل عمر بن الخطاب.

قالا: نحن فى كفاية، فجد فى طلبهما حتى جىء بهما فلما رآهما قال للوزير هما هذان، فسألهما عن حالهما وما جاء بهما، فقالا لمجاورة النبى ﷺ فكرر السؤال عليهما حتى أفضى إلى العقوبة، فأقرا أنهما من النصارى ووصلا لكى ينقلا النبى ﷺ من هذه الحجرة الشريفة.

ووجدهما قد حفرا نقباً تحت الأرض من تحت حائط المسجد القبلى يجعلان التراب فى بئر عندهما فى البيت.

فضرب أعناقهما عند الشباك الذى شرقى حجرة النبى ﷺ خارج المسجد وركب متوجهاً إلى الشام راجعاً، فصاح به من كان نازلاً تحت السور واستغاثوا وطلبوا أن يبنى لهم سوراً يحفظهم فأمر ببناء هذا السور الموجود اليوم».

إن الناظر إلى سيرة نور الدين رحمه الله ليرى حياة حافلة بالإنجاز والعطاء، والبذل والجهاد، ويتعجب كيف استطاع أن يبلغ تلك المنزلة.

ويتذكر قول ابن القيم: «فيا من يرى علو تلك المرتبة لا تنس الدرج، كم خاض بحراً ملحاً حتى وقع بالعذب! وكم تاه فى مهمه قفر حتى سمى بالدليل! وكم أنضى مراكب الجسم! وفض شهوات الحس! وواصل السرى - ليلاً ونهاراً - وأوقد نار الصبر فى دياجير الهوى».

فلله كم من بحر ملح خاضه نور الدين وكم من غصص الصبر تجرع! وكم من الشهوات خالف! وكم من المباح هجر! وكم من الجهد البدنى والرياضة الروحية قدم! حتى وصل إلى تلك المرتبة التى تنحسر عنها الأبصار.

وأرى أن أهم الأسباب التى أهلته لذلك الفضل وتلك المنزلة: مواظبته على العبادة وإخلاصه وتجرده.

قال أبو شامة المقدسى سمعت ابن شداد يقول: «بلغنا بأخبار التواتر عن جماعة يعتمد على قولهم أنه كان أكثر الليالى يصلى ويناجى ربه، مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدى الصلوات الخمس فى أوقاتها، بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها،... وكان كفار القدس يقولون: إن نور الدين له مع الله سر!! فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل، والله يستجيب دعاءه ويعطيه سؤله وما يرد يده خائبة، فيظفر علينا».

وقال: «كان من عادة نور الدين أنه كان ينزل إلى المسجد بغلس، ولايزال يركع حتى يصلى الصبح».

وقال ابن الأثير: «حدثنى صديق لنا بدمشق كان رضيع الخاتون زوجة نور الدين فقال: كان نور الدين يصلى فيطيل الصلاة، وله أوراده فى النهار، فإذا جاء الليل وصلى العشاء نام، ثم يستيقظ نصف الليل، ويقوم إلى الوضوء والصلاة والدعاء إلى بكرة، ثم يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة».

وقال ابن عساكر: «كان كثير المطالعة للعلوم الدينية، متبعاً للآثار النبوية، مواظباً على الصلوات فى الجماعات، مراعياً لأدائها فى الأوقات، مؤدياً لفروضها ومسنوناتها، عاكفاً على تلاوة القرآن.

قال ابن الأثير: وأما هيبته ووقاره فإليه النهاية فيهما. ولقد كان كما قيل: شديد فى غير عنف، رقيق فى غير ضعف.

واجتمع له ما لم يجتمع لغيره، فإنه ضبط ناموس الملك مع أجناده وأصحابه إلى غاية لا مزيد عليها.

وكان يلزمهم بوظائف الخدمة الصغير منهم والكبير، ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف.

وأما من عداه، كأسد الدين شيركوه، ومجد الدين ابن الداية، وغيرهما فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياماً إلى أن يأمرهم بالقعود.

وكان من هذه العظمة وهذا الناموس القائم إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفى أو الفقير يقوم له ويمشى بين يديه، ويجلسه إلى جانبه كأنه أقرب الناس إليه.

وكان إذا أعطى أحدهم شيئاً يقول: إن هؤلاء لهم فى بيت المال حق، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا. وكان مجلسه كما روى فى صفة مجلس رسول الله ﷺ مجلس حلم وحياء لا تؤبن فيه الحُرَم؛ وهكذا كان مجلسه لا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشاورة فى أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو، ولا يتعدى هذا. بلغنى أن الحافظ ابن عساكر الدمشقى، رَحِمَهُ اللَّهُ، حضر مجلس صلاح الدين الأيوبى لما ملك دمشق فرأى فيه من اللغط وسوء الأدب من الجلوس فيه مالاً حد عليه(١).

فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المحدثين وقلة استماعهم.

فقام وبقى مدة لا يحضر المجلس الصلاحى؛ وتكرر من صلاح الدين الطلب له، فحضر، فعاتبه صلاح الدين يوسف على انقطاعه.

فقال: نزهت نفسى عن مجلسك فإننى رأيته كبعض مجالس السوقة، لا يستمع إلى قائل، ولا يرد جواب متكلم. وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين فكنا، كما قيل، كأن على رءوسنا الطير، تعلونا الهيبة والوقار، فإذا تكلم أنصتنا وإذا تكلمنا استمع لنا.

فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه أنه لا يكون منهم ما جرت به عادتهم إذا حضر الحافظ.

قال ابن الأثير: فهكذا كانت أحواله جميعها رحمه الله مضبوطة محفوظة.

وأما حفظ أصول الديانات فإنه كان مراعياً لها لا يهملها، ولا يمكن أحداً من الناس من

---

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير.

إظهار ما يخالف الحق. ومتى أقدم مقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته؛ وكان يبالغ فى ذلك ويقول: نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق؛ والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل.

قال: وحكى أن إنساناً بدمشق يعرف بيوسف بن آدم، كان يظهر الزهد والنسك وقد كثر أتباعه، أظهر شيئاً من التشبيه، فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حماراً وأمر بصفعه، فطيف به فى البلد جميعه ونودى عليه: هذا جزاء من أظهر فى الدين البدع. ثم نفاه من دمشق، فقصد حران وأقام بها إلى أن مات.

قال ويسوق الله القصار الأعمار إلى البلاد الوخمة(١).

وذكر العماد الكاتب فى أول كتابه البرق الشامى أنه قدم دمشق فى شعبان سنة اثنتين وستين وخمسمائة فى دولة الملك نور الدين محمود بن زنكى؛ وأخذ فى وصفه بكلامه المسجوع فقال:

كان ملك بلاد الشام وممالكها، والذى بيده ممالكها، العادل نور الدين، أعف الملوك وأتقاهم وأثقبهم رأياً وأنقاهم؛ وأعدلهم وأعبدهم، وأزهدهم وأجهدهم؛ وأظهرهم وأطهرهم، وأقواهم؛ وأقدرهم؛ وأصلحهم عملاً، وأنجحهم أملاً؛ وأرجحهم رأياً، وأوضحهم آياً؛ وأصدقهم قولاً؛ وأقصدهم طولاً.

وكان عصره فاصلاً، ونصره واصلاً وحكمه عادلاً، وفضله شاملاً؛ وزمانه طيباً، وإحسانه صيباً؛ والقلو بمعابته ومحبته متلية والنفوس بعاطفته وعارفته متملية؛ وأمور متقبلة، وأوامره ممتثلة؛ وجده منزه عن الهزل ونوابه فى أمن العزل، ودولته مأمونة، وروضته مصونة؛ والرياسة كاملة، والسياسة شاملة؛ والزيادة زائدة، والسعادة مساعدة؛ والعيشة ناضرة، والشيعة ناصرة. والإنصاف ضاف، والإسعاف عاف؛ وأزر الدين قوى، وظمأ الإسلام روى، وزند النجح ورى؛ والشرع مشروع، والحكم مسموع؛ والعدل مولى والظلم معزول، والتوحيد منصور والشرك مخذول؛ وللتقى شروق، وما للفسوق سوق.

وهو الذى أعاد رونق الإسلام، إلى بلاد الشام؛ وقد غلب الكفر، وبلغ الضر؛ فاستفتح معاقلها، واستخلص عقائلها؛ وأشاع بها شعار الشرع فى جميع الحل والعقد، والإبرام والنقض، والبسط والقبض، والوضع والرفع.

وكانت للفرنج فى أيام غيره على بلاد الإسلام بالشام قطائع فقطعها، وعفى رسومها

---

(١) انظر كتاب الروضتين ـ والكامل فى التاريخ.

ومنعها؛ ونصره الله عليهم مراراً حتى أسر ملوكهم، وبدد سلوكهم؛ وصان الثغور منهم، وحماها عنهم وأحيا معالم الدين الدوارس وبنى للأمة المدارس؛ وأنشأ الخانقاهات للصوفية، وكثرها فى كل بلاد وكثر وقوفها، وقرر معروفها، وأدنى للوافدين من جنان جنابه قطوفها؛ وأجد الأسوار والخنادق، وأنمى المرافق، وحمى الحقائق؛ وأمر فى الطرقات ببناء الربط والخانات؛ وضاقت ضيوف الفضائل، وفاضت فيوض الأفاضل؛ وهو الذى فتح مصر وأعمالها، وأنشأ دولتها ورجالها.

ثم ذكر العماد الأصفهانى فى أثناء حوادث سنة تسع وستين، وهى السنة التى توفى فيها نور الدين، قال:

وفى هذه السنة أكثر نور الدين من الأوقاف والصدقات وعمارة المساجد المهجورة، وتعفية آثار الآثام، وإسقاط كل ما يدخل فى شبهة الحرام، فما أبقى سوى الجزية والخراج، وما تحصل من قسمة الغلات على قويم المنهاج.

قال وأمرنى بكتابة مناشير لجميع أهل البلاد فكتب أكثر من ألف منشور؛ وحسبنا ما تصدق به على الفقراء فى تلك الأشهر فذلك على ثلاثين ألف دينار.

وكانت عادته فى الصدقة أن يحضر جماعة من أماثل البلد من كل محلة، ويسألهم عمن يعرفن فى جوارهم من أهل الحاجة، ثم يصرف إليهم صدقاتهم.

وكان برسم نفقة الخاصة فى كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفى قرطيس، يصرفه فى كسوته ونفقته وحوائجه المهمة، حتى أجرة خياطه، وجامكية طباهة، ويستفضل منه ما يتصدق به آخر الشهر.

وأما ما كان يهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم فإنه كان لا يتصرف فى شىء منه، لا قليل ولا كثير، إذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضى يحصل ثمنه، ويصرف فى عمارة المساجد المهجورة.

وتقدم بإحصاء ما فى محال دمشق فأناف على مائة مسجد، فأمر بعمارة ذلك كله وعين له وقوفاً.

قال: ولو اشتغلت بذكر وقوفه وصدقاتهم فى كل بلد لطال الكتاب ولم يبلغ إلى أمد. أبيته الدالة على خلوص نيته تغنى عن خبرها بالعيان، ويكفى أسوار البلدان عن الربط والمدارس على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب، وفى شرح طوله طول، وعمله لله مبرور مقبول.

وواظب على عقد مجالس الوعاظ؛ ونصب الكرسى لهم فى القلعة له للإنذار والاتعاظ، وأكبرهم الفقيه قطب الدين النيسابورى، وهو مشغوف ببركة أنفاسه، واغتنام كلامه واقتباسه.

ووفد من بغداد ابن الشيخ أبى النجيب الأكبر، وبسط له فى كل أسبوع المنبر، وشاقه وعظه، وراقه معناه ولفظه.

وكذلك وفد إليه من أصبهان الفقيه شرف الدين عبد المؤمن بن شورّوه، وما أثمن تلك الأيام وأبرك تلك النشوة.

ذكر الحافظ أبو القاسم فى تاريخه أنه ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة.

وأن جده آق سنقر ولى حلب وغيرها من بلاد الشام.

ونشأ أبوه زنكى بالعراق ثم ولى ديار الموصل والبلاد الشامية؛ وظهرت كفايته فى مقابلة العدو عند نزوله على شيزر حتى رجع خائباً، وفتح الرها، والمعرة وكفر طاب، وغيرها من الحصون الشامية واستنقذها من أيدى الكفار.

فلما انقضى أجله قام ابنه نور الدين مقامه، وذلك سنة إحدى وأربعين وخمسمائة؛ ثم قصد نور الدين حلب فملكها وخرج غازياً فى أعمال تل باشر، فافتتح حصوناً كثيرة من جملتها قلعة عزاز، ومرعش، وتل خالد؛ وكسر إبرنس إنطاكية وقتله وثلاث آلاف فرنجى معه؛ وأظهر بحلب السنة وغير البدعة التى كانت لهم فى التأذين، وقمع بها الرافضة، وبنى بها المدارس، ووقف الأوقاف، وأظهر العدل، وحاصر دمشق مرتين وفتحها فى الثالثة.

فضبط أمورها وحصن سورها، وبنى بها المدارس والمساجد، وأصلح طرقها، ووسع أسواقها، ومنع من أخذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم بدار الطبخ، وسوق الغنم، والكيالة، وغيرها، وعاقب على شرب الخمر، واستنقذ من العدو ثغر بانياس والمنيطرة وغيرهما.

وكان فى الحرب ثابت القدم، حسن الرمى، صليب الضرب، يَقْدُمُ أصحابه، ويتعرض للشهادة وكان يسال الله تعالى أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير.

ووقف رحمه الله تعالى وقوفاً على المرضى ومعلمى الخط والقرآن وساكنى الحرمين.

وأقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا للحجاج، وأمر بإكمال سور المدينة واستخراج العين التى بأحد، وبنى الربط والجسور والخانات، وجدد كثيراً من قنى السبيل. كذا صنع فى غير دمشق من البلاد التى ملكها.

ووقف كتباً كثيرة، وحصل فى أسره جماعة من أمراء الفرنج، كسر الروم والأرمن والفرنج على حارم وكان عدتهم ثلاثين ألفاً، ثم فتح حارم وأخذ قرى أنطاكية.

ثم فتح الديار المصرية وكان العدو قد أشرف على أخذها.

ثم أظهر بها السنة وانقمعت البدعة.

وكان حسن الخط كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعاً للآثار النبوية، مواظباً على الصلوات فى الجماعات، عاكفاً على تلاوة القرآن، حريصاً على فعل الخير، عفيف البطن والفرج، مقتصداً فى الإنفاق، متحرياً فى المطاعم والملابس، لم تسمع منه كلمة فحش فى رضاه ولا فى ضجره.

وأشهى ما إليه كلمة حق يسمعها أو إرشاد إلى سنة يتبعها(١).

وقال أبو الحسن بن الأثير: قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه.

قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجر له، وظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها، وإحسان يوليه وإنعام يسديه.

ونحن نذكر من يعلم به محله فى أمر دنياه وأخراه؛ فلو كان فى أمة لافتخرت به، فكيف بيت واحد.

أما زهده وعبادته وعلمه فإنه كان مع سعة ملكه، وكثرة ذخائر بلاده وأموالها لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين.

أحضر الفقهاء واستفتاهم فى أخذ ما يحل له من ذلك فأخذ ما أفتوه بحله، ولم يتعده إلى غيره ألبتة.

ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة.

ومنع من شرب الخمر وبيعها فى جميع بلاده ومن إدخالها إلى بلد ما وكان يحد شاربها الحد الشرعى، كل الناس عنده فيه سواء(٢).

---

(١) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر.

(٢) الكامل فى التاريخ لابن الأثير.

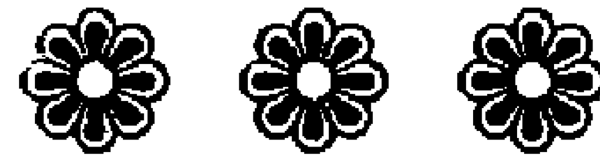
ولاية نور الدين زنكى رحمه الله
من أزهى عصور التاريخ الإسلامية

تعد فترة ولاية نور الدين من أخصب الفترات التى مرت بالمسلمين بعد الخلفاء الراشدين؛ إذ شهدت نمواً كبيراً وطفرة حقيقية فى المجالات كافة: السياسية والاقتصادية والعلمية والجهادية، وقد صرح بفضل نور الدين عدد كبير من العلماء والمؤرخين، نقتطف من أقوالهم ما يلى:

- قال الإمام أبو شامة: «ملك نور الدين دمشق سنة تسع وأربعين، وملكها صلاح الدين سنة سبعين، فبقيت دمشق فى المملكة النورية عشرية سنة، وفى المملكة الصلاحية تسع عشرة سنة تمحى فيها السيئة وتكتب الحسنة.

وهذا من عجيب ما اتفق فى العمر ومدة الولاية ببلدة معينة لملكين متعاقبين مع قرب الشبه بينهما فى سيرتهما، والفضل للمتقدم فكانت زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله، والإرشاد إلى عظم محله، فإنه أصل ذلك الخير كله، مهد الأمور بعدله وجهاده، وهيبته فى جميع بلاده، مع شدة الفتق، واتساع الخرق، وفتح من البلاد، ما استعين به على مداومة الجهاد، فهان على من بعده على الحقيقة سلوك تلك الطريقة لكن صلاح الدين أكثر جهاداً وأعم بلاءًا.

صبر وصابر، ورابط وثابر، وذخر الله له من الفتوح أنفسه، وهو الذى فتح الأرض المقدسة؛ فرضى الله عنهما».



اهتمامه بالشعر كوسيلة إعلامية هامة فى عصره

الشعر قديماً وحديثاً لعب دوراً إعلامياً فى الهاب حماس الشعوب، وكان نور الدين يحب الشعر ويعجب به، لأنه كان يدرك أثر الشعر فى إثارة الشعور وتحريكه ولاسيما شعر الجهاد ووصف المعارك.

وكان لا يعجبه المدح فى الشعر لأنه لا يحب مبالغات الشعراء، ومزايداتهم بالمدح، ولأنه كان مقتدياً بالسلف الصالح كالخلفاء الراشدين، فلا يأخذه بهرج القول مكان يحب الشعر الملتزم ولذلك طلب من العماد الأصفهانى أن يعمل مثنويات شعرية فى معنى الجهاد على لسانه فقال:

الغزو نشاطى، وإليه طربى ... مالى فى العيش غيره من أرب
بالجد وبالجهاد نجح الطلب ... والراحة مستودعة فى التعب
لا راحة فى العيش سوى أن أغزو ... سيفى طرباً إلى العلى يهتز
فى ذل ذوى الكفر يكون العز ... والقدرة فى غير جهاد عجز

ويقول الأصفهانى فى موضع آخر: كنت راكباً مع نور الدين فى أعقاب إحدى جولاته الظافرة ضد الصليبيين عند طبرية فسألنى: كيف تصف ما جرى؟ فمدحته بقصيدة مطلعها:

عقدت بنصرك راية الإيمان ... وبدت لعصرك آية الإحسان

ولذلك يشهد عصر نور الدين تألق عدد من كبار الشعراء، كان يقف فى قمتهم ابن القيسرانى والعماد الأصفهانى وابن منير، وابن الدهان الموصلى، أولئك الذين وجدوا فى دولة نور الدين الأرضية الصالحة لازدهار الشعر الذى طرق أبواباً واسعة، وخطا إلى آفاق بعيدة المدى ما كان لهم أن يرحلوا إليها بقصائدهم المبدعة لولا أن لقوا من نور الدين إعجاباً وتوافقاً وانسجاماً(١).

---

(١) كتاب الروضتين مصدر سابق.

وأما ما تضمنه قول الوهرانى، وقول ابن منقذ من إثارة إلى بخل نور الدين أو حرصه على المال. فهذا أمر مستبعد وفيه كثير من المبالغة، ولو كان نور الدين، كما يقولان لما ازدحم الشعراء على بابه يمدحونه ويسجلون انتصاراته، ولما أجمع أغلب شعراء عصره على مدحه بالكرم والجود، حتى أسامة بن منقذ نفسه، ولما اختص بمدحه بعض الشعراء ولازموه فترات طويلة.

ومما يرد على هؤلاء من ادعائهم بخل نور الدين تذكر كتب التاريخ فى سيرة نور الدين: حضر صبى وبكى عند نور الدين، وذكر أن أباه محبوس على أجرة حجرة من حجر الوقف - يعنى وقف الجامع - فسأل عن حاله؟

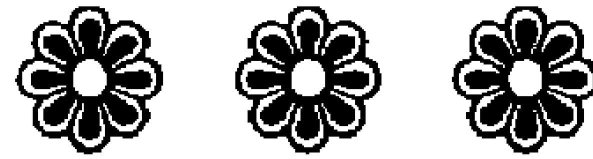
فقالوا: هذا الصبى ابن الشيخ أبى سعد الصوفى وهو رجل زاهد قاعد فى حجرة للوقف، وليس له قدرة على الأجرة وقد حبسه وكيل الوقف، لأنه اجتمع عليه أجرة سنة، فسأل: كم أجرة السنة؟

قالوا: مائة وخمسون قرطاساً.

وذكروا سيرته وطريقته وفقره فرق له وأنعم عليه.

وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها، وتقدم بذلك بإخراجه من الحبس فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأن الإنعام كان فى حقه(١).

وهناك من القصص الكثيرة تدل على كرم نور الدين زنكى وعدم إسرافه على الشعراء المداحين فقد كان يكره شعر المدح ويرحب بالشعر الجهادى المحفِّز على الجهاد فى سبيل الله.



(١) انظر عيون الروضتين (١/ ٢٥٧).

وسائل نور الدين فى القضاء على المذهب الشيعى وإظهار المذهب السنى والتصوف السنى فى دولته

نفوذ الشيعة فى حلب يظهر بوضوح فى أواخر أيام سيف الدولة حيث انتشر المذهب الشيعى الباطنى والإسماعيلى فى زمن حكم سيف الدولة الحمدانى (٣٣٣ - ٣٥٦ هـ/ ٩٤٤ - ٩٦٧) لأن بنى حمدان كانوا يعتنقون مذهب الشيعة الإمامية فيسروا لدعاة هذا المذهب الطريق لنشر الدعوة فيها ثم عملوا بعد ذلك على إزالة شعائر السنة وإحلال شعائر الشيعة محلها، فزادوا فى الأذان حى على خير العمل محمد وعلى خير البشر.

فكان هذا مبدأ ظهور الإمامية بحلب، ومازال نفوذهم يزداد نتيجة لتعاقب بعض الأسر الشيعية على حكمها: كآل مرداس والعقليين حتى أصبح شعار الرفض بها ظاهراً.

وإلى جانب الشيعة الإمامية وجدت قلة من الشيعة الإسماعيلية ازداد نفوذهم فى حلب فى عهد رضوان بن تتش الذى أمل أن ينصروه على أخيه دقاق، ويساعدوه فى أخذ دمشق منه.

ومن ثم بنى لهم بحلب أول دار للدعوة ودعا على منابرها للفاطميين فترة يسيرة من الزمن ومن هؤلاء وأولئك تكون مجتمع الشيعة فى حلب.

ومعظم هؤلاء الشيعة كانوا متعصبين وكان المذهب الشيعى متغلغل فى حلب.

فقام نور الدين محمود باتخاذ خطوات بعد عامين تقريباً من استقراره فى حلب فأمر الشيعة بترك حى على خير العمل فى الأذان وأنكر عليهم إنكاراً شديداً جهرهم بسب صحابة رسول الله ويحذرهم من مغبة العود إلى ما نهوا عنه.

فعظم هذا الأمر على الطائفة الإسماعيلية، وأهل التشيع، وضاقت له صدورهم وهاجوا وماجوا ثم سكنوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة، والهيبة المحذورة(١).

ثم أبعد بعض زعماء الشيعة عن حلب، ممن كان يخشى خطرهم، وكان على رأس المبعدين والد المؤرخ ابن أبى طى.

وواكبت هذه الخطوة السياسية خطوة فكرية هامة: وهى إنشاء مدرستين سنيتين

(١) كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة المقدسى.

كبيرتين: إحداهما للحنفية وهى المدرسة الحلاوية التى أنشأها نور الدين فى العام ذاته ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م وأسند التدريس فيها إلى برهان الدين أبى الحسن على بن الحسن البلخى حيث استدعاه نور الدين من دمشق فجاء وألقى بها الدروس على الفقهاء وكان هو وتلاميذه خير عون لنور الدين فى تنفيذ سياسته الرامية إلى مناهضة الشيعة ونصرة الكتاب والسنة.

يذكر بعض المؤرخين أن البلخى جلس تحت منارة المسجد وأمر بعض الفقهاء بالصعود إليها وقت الأذان وقال لهم: من لم يؤذن الأذان المشروع فألقوه من المنارة على رأسه، فأذنوا الأذان المشروع.

وأما المدرسة الثانية التى أنشأها نور الدين فى حلب فهى المدرسة النفرية النورية، وقد أنشأها (سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م) لتدريس المذهب الشافعى وتولى التدريس بها قطب الدين مسعود بن محمد النيسابورى ت ٥٧٨ هـ، ١١٨٢ م أحد أساتذة نظامية نيسابور، وقد كان حضر إلى دمشق فى عام ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥ م وأقام بها يعظ ويعلم، فأقبل عليه الناس فاستدعاه نور الدين إلى حلب وأسند إليه التدريس بهذه المدرسة.

ولم يكن اختيار النيسابورى لتولى الأستاذية بهذه المدرسة من قبيل المصادقة فالرجل له قدم راسخة فى علوم السنة والمنطق وعلوم الكلام ويملك من القدرات العقلية والفكرية ما يمكنه من إنزال هزائم فادحة فى مجال الفكر للعقيدة الشيعية الرافضية.

وكان نور الدين بحاجة ماسة إلى العلماء الذين تخرجوا ودرسوا فى المدارس النظامية، فبيئة حلب قد دخلت فى طور التجديد لمنهج أهل السنة ومحاربة التشيع الباطنى المتسلح بالفلسفة للدفاع عن عقيدته.

ورغم أن نور الدين محمود يتبع مذهب الإمام أبى حنيفة إلا أنه أنشأ للشافعية فى حلب ثلاث مدارس هى: النفرية والعصرونية والشعيبية وأسند الأولى إلى أستاذ من أساتذة النظاميات، والثانية إلى تلميذ من أنبغ من خرجت نظامية بغداد وهو شرف الدين بن أبى عصرون.

وفى الوقت الذى لم ينشأ لأهل مذهبه إلا مدرسة واحدة وهى الحلاوية السالفة الذكر.

وقمع شبهات المبتدعة من الشيعة الرافضة أكثر من غيرهم وذلك بسبب خبرة المدارس النظامية وخريجيها على مواجهة المد الباطنى الشيعى وقدرتها على كشف باطلها بأسلوب علمى رصين إضافة إلى اهتمام المدارس النظامية بنشر العلم الشرعى والإحياء السنى الكبير.

ولأن البيئة الحلبية تحتاج إلى ذلك النوع من علماء أهل السنة والذى يقوى هذا المذهب

أن نور الدين لم يسلك سبيلاً متشابهاً لهذا المسلك فى دمشق بعد أن أستولى عليها، إذا كانت حفاوته بمدارس الحنفية أكثر، فأنشأ فيها أشهر مدارسه وهى: النورية الكبرى، كما بنى للحنفية مدرسة أخرى بجامع القلعة عرفت بالنورية الصغرى.

أما الشافعية فإنه أسس لهم مدرستين أو ثلاثاً على خلاف بين المؤرخين.

ولم تقف جهود نور الدين فى حلب عند حد العناية بإنشاء المدارس الحنفية والشافعية، بل إنه كان حريصاً على أن يستفيد من جهود علماء السنة على اختلاف مذاهبهم فى محاربة الفكر الشيعى، والتمكين لمذهب السنة.

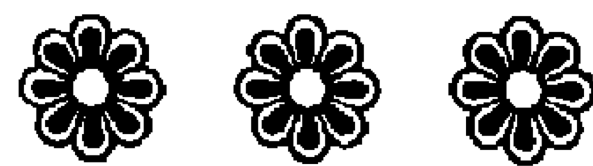
ولذلك كان يعتنى أيضاً بعلماء المالكية والحنابلة وفقهائهم، فأوقف زاويتين بالمسجد الجامع فى حلب، وخصص إحداهما لفقهاء الحنابلة والأخرى للمالكية وبذلك نجح نور الدين فى التخفيف من حدة الصراع المذهبى بين المذاهب السنية المختلفة وتوحيدها فى جبهة واحدة ووفقه الله فى توحيد جهود علماء السنة لمحاربة الفكر الشيعى.

وإنشاء خوانق الصوفية وكانت فى ذلك العصر مكاناً للعبادة وقد أصبح التصوف السنى فى ذلك العصر اتجاها له نفوذه وسيطرته وتقديره على المستوى الرسمى والشعبى.

فكانت المدرسة القادرية فى توعية عوام الأمة خصوصاً فى عاصمة الخلافة وجهود الغزالى ومحاولته تنقية التصوف من كثير من الشوائب وأن يمزج بينه وبين الشريعة مزجاً تاماً.

فقد كان الصوفية فى ذلك العصر محل تقدير الحكام واحترامهم وخاصة نور الدين الذى كان يستفيد منهم فى الدعاء وجمع المعلومات عن الأعداء، وفى الجهاد، وكان يرحب بهم فى بلاطه ويتواصل مع شيوخهم ويبنى لهم الخوانق فى أنحاء مملكته.

واستطاعت الدولة النورية التأثير على التصوف السنى، وساهم التصوف السنى فى محاربة الدولة الفاطمية ومد نفوذه فى أنحاء بلاد الشام ومصر مع توسع الدولة النورية خارجياً والتى كانت من وسائلها دعم التصوف السنى لمقاومة المذهب الإسماعيلى والتيار الفلسفى.



محاربة الشيعة لنور الدين زنكى ومحاولة القضاء على جهوده لإحياء مذهب أهل السنة

قاوم الشيعة نور الدين فى حلب لدعم المذهب السنى بها وظلوا ينتهزون الفرصة المواتية ليعودوا بحلب مرة أخرى إلى ما كانت عليه بيئة شيعية يمارسون فيها شعائرهم بحرية تامة كما كان لهم ذلك فى الماضى.

وكانت محاولتهم الأولى فى هذا السبيل عام ٥٥٢ هـ/ ١١٥٧ م عندما مرض نور الدين بحلب حتى أشيع بموته ووصل أخوه نصرة الدين إلى حلب ليخلفه فى ولايته، فمنعه والى القلعة من الدخول إليها.

فتجمع حوله أحداث الشيعة وأبدوا استعدادهم لنصرته شريطة أن يسمح لهم بالعودة إلى ممارسة شعائرهم التى أبطلها نور الدين، فوعدهم بذلك.

واشتعلت نيران الفتنة بين السنة والشيعة وقام الشيعة بنهب بعض المراكز التعليمية السنية كالمدرسة العصرونية وغيرها من دور أهل السنة.

ولما علم نور الدين بالأمر أرسل إلى قاضى المدينة أبى الفضل هبة الله بن أبى جرادة بأن يمضى إلى الجامع ويصلى بالناس، ويعاد الأذان إلى ما كان عليه فشرع المؤذنون فى الأذان السنى فاجتمع تحت المنارة من عوام الشيعة خلق كثير.

فخرج إليهم القاضى وحذرهم وبين لهم أن نور الدين قد عوفى وأنه هو الذى أمر بهذا فانصرفوا وسكتت الفتنة وانتهى الأمر بذلك.

ثم قاموا بحرق مسجد حلب الجامع وكان يتخذ مكاناً للدرس إلى جانب العبادة، فكان فيه الكثير من الزوايا التى وقفها نور الدين على المالكية والحنابلة وعلماء الحديث عام ٥٦٤هـ.

فأعاد نور الدين بناء الجامع ووسعه وخصص له أوقافاً كثيرة وكان ذلك بعد استيلاء نور الدين على مصر الفاطمية فى ربيع الآخر من هذا العام، إذ أيقن الإسماعيلية أن نور الدين ماض فى تضييق الخناق على الشيعة وأنه عازم على استئصال هذا المذهب من مصر والشام.

فكانت خطوات نور الدين العقائدية فى حلب خطوات مدروسة تدل على وعى وإدراك كاملين للهدف الذى يريد تحقيقه من وراء إنشاء هذه المؤسسات السنية الهادفة، وظهر هذا الوعى واضحاً من جانب نور الدين عندما تحدث مجد الدين ابن الداية بلسانه إلى الفقهاء فى حلب قائلاً: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم، ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين(١).

كما كان نور الدين ـ رحمه الله ـ يدرك قيمة العلم سلاحاً يواجه به العدو كما يواجهه بالقوة العسكرية، ولاشك أن نور الدين فى هذه النظرة كان يعيش فى عصره بعقلية العصر الذى نعيشه.

وقد أثمرت جهود نور الدين فى حلب وتسابق أمراؤه وأعيان دولته وخلفاؤه من بعده إلى إنشاء المؤسسات العلمية حتى غدت حلب بعد فترة يسيرة نسبياً مركزاً من مراكز الثقافة السنية بعد أن كانت وكراً من أوكار الشيعة.

وقد أحصى المؤرخ عز الدين شداد ت ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م مدارس حلب فى أيامه فوجدها أربعاً وخمسين مدرسة موزعة بين المذاهب الفقهية الأربعة منها: إحدى وعشرون للشافعية، واثنتان وعشرون للحنفية، وثلاث للمالكية والحنابلة، وثمانى دور للحديث الشريف بالإضافة إلى إحدى وثلاثين خانقاه للصوفية.

وبعد سنوات انقرض المذهب الإسماعيلى الباطنى فى حلب فى حدود عام ٦٦٠ هـ/ ١٢٠٢ م وأخفى الشيعة الإمامية معتقداتهم حتى انتهى بهم الأمر إلى أن أخذوا يتنكرون وبأفعال السنة يتظاهرون.

ولم يبق منهم غير عدة بيوت يقذفهم بعض الناس بالرفض والتشيع، مع أن ظاهرهم على كمال الاستقامة وموافقة السنة وذلك بفضل الله ثم جهود المصلح الكبير نور الدين وخلفائه الذين اقتدوا به فى الإكثار من المدارس السنية وتعيين الأساتذة الأكفاء لها، والإنفاق عليها بسخاء.

واستطاع نور الدين أيضاً أن يقضى على الشيعة فى دمشق كما فعل فى حلب فقد استولى نور الدين على دمشق قد خضع لزيادة فى أعبائه العسكرية حيث أصبح مجاوراً لمملكة بيت المقدس أكبر المراكز الصليبية قوة وأخطرها شأناً.

---

(١) كتاب الروضتين، مصدر سابق.

ولذا فإن المنهج الذى سلكه نور الدين فى دعم المذهب السنى قصد إلى مواجهة هذه الحالة من ناحية ومن ناحية أخرى لابد أن تصبح دمشق بمثابة مركز إشعاع عقائدى تنطلق منه جهود علماء السنة للقضاء على المذاهب المنحرفة وتمهيد الطريق لسيطرة المذهب السنى وأهل الجماعة كما حدث فى حلب وغيرها.

فإنشاء المدارس السنية غير أن مدارسه فى دمشق اهتمت بفقهاء المذهبين: الحنفى والشافعى.

وكانت عناية نور الدين بمدارس الفريق الأول أكثر استجابة لميل طبيعى إلى هذا المذهب الذى كان يعتنقه دون تعصب.

فأنشأ المدرسة النورية الكبرى، وجعلها وقفاً على الحنفية وأول من درس بها شيخ الحنفية بدمشق: بهاء الدين بن عسكر المعروف بابن العقادة ت (٥٩٦/ ١١٩٩م) ووصف ابن جبير هذه المدرسة عندما زارها فى عام ٥٨٠ هـ/ بأنها «من أحسن مدارس الدنيا منظراً، وهى قصر من القصور الأنيقة.

كما جعل لهم مدرسة أخرى بجامع القلعة وهى المدرسة النورية الصغرى.

وأما المدارس الشافعية التى نسب إنشاؤها إلى نور الدين فآراء مؤرخى المدارس متضاربة حولها.

ومع عناية نور الدين بتشييد المدارس التى تعنى بتراث الإمامين أبو حنيفة والشافعى فإنه لم يهمل أصحاب المذهبين الآخرين إهمالاً تاماً، بل وقف على زاوية المغاربة وهم مالكية بالجامع الأموى ما يغنيهم على تحصيل العلم ويوفر لهم حياة كريمة.

وواصل نور الدين فى دمشق سياسته التى اتبعها فى حلب تجاه الصوفية فشيد لهم - خانقاه - خارج المدينة وصفها ابن جبير بقوله: ومن أعظم ما شاهدناه لهم (الصوفية) موضع يعرف بالقصر، وهو صرح عظيم، مستقل فى الهواء، فى أعلاه مساكن لم ير أجمل إشراقاً منها.

كما عين لهم نور الدين من ينظر فى أمر ربطهم وزواياهم، وأسند هذه المهمة إلى شيخ الشيوخ أبى الفتح عمر بن على بن حمويه.

وأظهر نور الدين عنايته بالحديث الشريف دراسة وتدريساً، ومن هنا بنى أكبر دار للحديث فى دمشق، ووكل أمر مشيختها إلى أحد أعلام عصره، وهو الحافظ الكبير: تقى الدين أبو القاسم على بن الحسين بن هبة الله بن عساكر المتوفى (٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م).

وكان عمدة فى الحديث والفقه وعلم الكلام، وصفه ابن خلكان بأنه: من أعيان الفقهاء الشافعية ولكن غلب عليه الحديث فاشتهر به.

جهاد نور الدين زنكى وفتوحاتـــــه

وأما عن فتوحاته فى خلال فترة حكمه، فقد بدأها بعد أن تولى الحكم حين استنقذ إمارة «الرها» التى فتحها أبوه عماد الدين ثم استردها «ابن جوسلين» الصليبى كما ذكرنا من قبل.

ولما استقر له الأمر مع أخيه خرج مجاهداً غازياً فى أعمال تل باشر فافتتح حصوناً كثيرة، وافتتح قلعة أفامية وقلعة عزاز وتل باشر، ودلوك ومرعش وقلعة عينتاب ونهر الجوز، وحصن البارة وقلعة الراوندان، وقلعة تل خالد، وحصن كفر لاثا، وحصن بسرفوت بجبل بنى عليم.

وغزا حصن أنب، فقصده الأبرنس ملك أنطاكية وكان من أبطال العدو وشياطينهم الكبار ولقيهم نور الدين فهزمهم وقتله ومعه ثلاثة آلاف صليبى.

وحاصر دمشق مرتين فلم يتيسر له فتحها، ثم قصدها الثالثة فتم له الصلح مع ملكها معين الدين وصاهره وتزوج ابنته واجتمعت كلمتاهما على العدو الصليبى لما وازره وجعله وزيره وسلم أهلها إليه البلدة وكانت فيها الأسعار مرتفعة ويسودها الخوف من استعلاء كلمة الكفار فقام بضبط أمورها وحصن سورها وبنى فيها المدارس والمساجد وأفاض على أهلها عن الخير الوفير.

وأدر الله على رعيته ببركة نور الدين أرزاقها ورفع عن أهلها الغلاء والضرائب وأمر بترك ما يؤخذ على صناعة الخمر من مكس بضرائب وحرم صنعتها وبيعها وشربها ولله الحمد(١).

---

(١) انظر تاريخ دمشق ـ لابن عساكر.

صلاح الدين الأيوبى يخرج من عباءة السلطان نور الدين زنكى وذكر الخلاف بينهما

خرج نور الدين زنكى من عباءة والده عماد الدين زنكى وورث عنه - كما ذكرنا - الشجاعة والتدين والجهاد فى سبيل الله وتأسيس دولة هدفها الأول والأسمى تخليص البلاد الإسلامية من الاحتلال الصليبى وتحرير القدس والمسجد الأقصى.

ولهذا قام نور الدين زنكى بصناعة منبر للمسجد الأقصى وهو متيقن بأن الله عز وجل سيحرر هذا المسجد المقدس من أيدى الصليبيين، كما أننا متيقنون أن الله سبحانه وتعالى سوف يخلصه من أيدى أخس خلقه اليهود الصهاينة.

وإذا كان القدر لم يمهل نور الدين زنكى من تحقيق هدفه المنشود من تحرير المسجد الأقصى، ووافته المنية شهيداً فإن أحد قواده الكبار وتلامذته صلاح الدين الأيوبى قد حقق ما كان يرنو ويسعى إليه سيده نور الدين زنكى ولذلك فقد كان أول عمل له بعد أن حرر المسجد الأقصى من الصليبيين إن جاء بالمنبر الذى صنعه نور الدين إلى المسجد الأقصى.

وقد عمل بعض المؤرخين من أصحاب الغرض - مثل ابن أبى طى - على تضخيم الخلاف الذى حدث بين نور الدين وصلاح الدين رحمهما الله وحملوا على نور الدين كثيراً، ونسبوا له ما لا يليق به، وقد أحسن الإمام أبو شامة إذ رد عليهم كلامهم.

وبين سبب حملهم على نور الدين رحمه الله بقوله: «ابن أبى طى متهم فيما ينسبه إلى نور الدين مما لا يليق به، فإن نور الدين رحمه الله كان قد قضى على الشيعة بحلب وأبطل شعارهم، وقوى أهل السنة.

وكان والد ابن أبى طى من رؤوس الشيعة فنفاه من حلب، فلهذا هو فى الكتاب كثير الحمل على نور الدين رحمه الله فلا يقبل منه ما ينسبه إليه مما لا يليق به. والله أعلم.

كان صلاح الدين رحمه الله وأسرته محل تكريم السلطان نور الدين رحمه الله، ذلك أن أسد الدين شيركوه - عم صلاح الدين - هو الذى مهد الأمر لنور الدين ليصير حاكماً على حلب، وقد حفظ نور الدين لأسد الدين رحمهما الله هذا الجميل.

وكان ما رآه نور الدين من شجاعة أسد الدين وجلده على جهاد الفرنجة، دافعاً لحفظ الجميل، فأكرمه وجعله مقدمة عسكره، وأقطعه حتى صارت له حمص والرحبة وغيرهما.

ولما تعلقت همة نور الدين بدمشق أمر أسد الدين أن يرسل إلى أخيه نجم الدين أيوب ـ والد صلاح الدين ـ ليترك دمشق ويلتحق بخدمة نور الدين، ففعل.

وصار أسد الدين ونجم الدين عند نور الدين فى المحل الأعلى والمكان الأسمى، لاسيما نجم الدين، فإن جميع الأمراء كانوا إذ دخلوا على نور الدين لا يقعدون حتى يأمرهم نور الدين بذلك، إلا نجم الدين فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك».

ولما خاف نور الدين رحمه الله على مصر من أن يدخلها الفرنجة؛ أمر صلاح الدين أن يسير إلى عمه أسد الدين فى حمص يأمره بالحضور إليه، ويحثه على الإسراع، فلما فعل وعاد مع عمه أمرهما نور الدين بالخروج فى الجيش إلى مصر.

يقول صلاح الدين: «قال لى نور الدين: لابد من مسيرك مع عمك، فشكوت إليه المضايقة، وقلة الدواب، وما أحتاج إليه فأعطانى ما تجهزت به، وكأنما أساق إلى الموت، وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته، فسرت معه، فلما استقر أمره وتوفى أعطانى الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه»(١).

وبعد وفاة أسد الدين، خلفه صلاح الدين، «وثبت قدمه، ورسخ ملكه، وهو نائب عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين فى البلاد كلها، ولا يتصرفون إلا عن أمره، واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وبذل لهم الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه»(٢).

ذكر الإمام أبو شامة أن العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين رحمهما الله توترت مرتين: الأولى عندما طلب صلاح الدين من نور الدين أن يرسل إليه إخوته فرفض نور الدين.

وقد فسر المغرضون هذا الرفض بأنه خوف من نور الدين على القوة المتنامية لصلاح الدين، وخشيته أن يسهم وجود إخوته معه فى زيادة هذه القوة، أما المنصفون من المؤرخين فقد بينوا عكس ذلك ونقلوا عن نور الدين أنه قال مبيناً سبب رفضه: «أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد»، وعضدوا قولهم بأن نور الدين أرسل أخاه صلاح الدين فى جيش الإمداد الذى وجهه إلى مصر عندما زحف الفرنجة إليها.

---

(١) انظر كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ـ لابن أبى شامة المقدسى.

(٢) المصدر السابق.

ونصح شمس الدولة تورانشاه بن أيوب الأخ الأكبر لصلاح الدين نصيحة غالية تبين مدى حرصه على استتباب الأمر لصلاح الدين.

إذ قال له: «إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذى كان يقوم فى خدمتك وأنت قاعد، فلا تسر فإنك تفسد البلاد، وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامى وتخدمه بنفسك كما تخدمنى فسر إليه، واشدد أزره وساعده على ما هو بصدده».

فقال تورانشاه: أفعل معه من الخدمة والطاعة ما يصل إليك - إن شاء الله تعالى - فكان كما قال.

أما الثانية: فقد أوردها الإمام أبو شامة نقلاً عن ابن الأثير إذ قال: «وفى سنة سبع وستين أيضاً جرى ما أوجب نفرة نور الدين من صلاح الدين، وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين، يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلاد الفرنج والنزول على الكرك ومحاصرته، ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه ويجتمعا هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم.

فبرز صلاح الدين من القاهرة فى العشرين من المحرم وكتب إلى نور الدين يعرفه أن رحيله لا يتأخر.

وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو، فلما أتاه الخبر بذلك رحل من دمشق عازماً على قصد الكرك فوصل إليه، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال البلاد، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد إليها، فلم يقبل نور الدين عذره.

وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين، فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده، وعزم على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها.

فبلغ الخبر إلى صلاح الدين فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمى، ومعهم سائر الأمراء وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه، واستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشىء.

فقام ابن أخيه تقى الدين عمر وقال: إذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد، ووافقه غيره من أهله فشتمهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه، وكان ذا رأى ومكر وكيد وعقل، وقال لتقى الدين: اقعد، وسبه.

وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك أتظن فى هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك

الخير مثلنا؟

فقال: لا، فقال نجم الدين: والله لو رأيت أنا ـ وهذا خالك ـ نور الدين لا يمكننا إلا أن نترجل إليه، ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا.

فإذا كنا نحن هكذا كيف يكون غيرنا؟ وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه، ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه، وهذه البلاد له وقد أقامك فيها، فإن أراد عزلك فأى حاجة به إلى المجئ، يأمرك بكتاب حتى تقصد خدمته، ويولى بلاده من يريد.

وقال للجماعة كلهم: قوموا عنا، فنحن مماليك نور الدين وعبيده، ويفعل بنا ما يريده، فتفرقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر.

ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع العظيم وتطلعهم على ما فى نفسك فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم الأمور إليه وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحداً، وكانوا أسلموك إليه.

وأما الآن بعد هذا المجلس فسيكتبون إليه ويعرفونه قولى، وتكتب أنت إليه وترسل فى هذا المعنى وتقول: أى حاجة إلى قصدى؟ يجئ نجاب يأخذنى بحبل يضعه فى عنقى، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده، والأيام تندرج، والله كل وقت فى شأن.

ففعل صلاح الدين ما أشار به والده.

فلما رأى نور الدين رحمه الله الأمر هكذا عدل عن قصده.

وكان الأمر كما قال نجم الدين: توفى نور الدين ولم يقصده ولا أزاله، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها.

وأقول: أنى له أن يعرف بما قاله نجم الدين لصلاح الدين مختلياً به، والصواب أن نأخذ بظاهر الأمر وهو أن نجم الدين يرى حقيقة ـ لا سياسة ـ أنه وصلاح الدين تحت قيادة نور الدين.

وقد أكد ابن الأثير فى أكثر من موضع أن السبب فى غضب نور الدين من صلاح الدين هو أنه رأى منه ـ أى من صلاح الدين ـ فتوراً من غزو الفرنج من ناحيته، «وكان نور الدين لا يرى إلا الجد فى غزوهم بجهده وطاقته»(١).

---

(١) المصدر سابق.

وقال أبو شامة: «ولو علم نور الدين ماذا ادخر ـ الله تعالى ـ للإسلام من الفتوح الجليلة على يد صلاح الدين من بعده لقرت عينه، فإنه بنى على ما أسسه نور الدين رحمه الله من جهاد المشركين، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها ـ رحمهما الله تعالى ـ.

وبعد وفاة نور الدين ظل صلاح الدين على وفائه لنور الدين، وظهر ذلك فى مواقف عدة منها:

ـ سعى صلاح الدين رحمه الله إلى ولاية ولد نور الدين ـ الملك الصالح ـ لصغر سنه، وفاء لنور الدين رحمه الله وحفظاً لوحدة الأمة، ورد على من عاتبه على ذلك ظناً منه أن صلاح الدين طمع فى ملك نور الدين بقوله: «إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم، وألف كلمتهم، وللبيت الأتابكى ـ بيت نور الدين ـ أعلاه الله إلا ما حفظ أصله وفرعه، ودفع ضره وجلب نفعه، فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة، والمحبة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العداة، وبالجملة إنا فى واد، والظانون بنا ظن السوء فى واد ولنا من الصلاح مراد، ولا يقال لمن طلب الصلاح إنك قادح، ولا لمن ألقى السلاح إنك جارح»(١).

ولما تجمع الروافض حول ابن نور الدين ـ صغير السن ـ عرضوا عليه نصرته على أن يأذن لهم بأن «يجهروا بـ (حى على خير العمل) فى الأذان، وقدام الجنائز بأسماء الأئمة الاثنى عشر، وأن يصلوا على أمواتهم خمس تكبيرات، وأشياء كثيرة اقترحوها مما كان قد أبطله نور الدين ـ رحمه الله ـ فأجيبوا إلى ذلك»، ولم يكن أمام صلاح الدين رحمه الله إلا أن يعمل على أخذ البلاد منهم، فقاومهم حتى طلبوا الصلح فأجابهم وعفا وعف، وكفى وكف، وأبقى للملك الصالح ـ ابن نور الدين ـ حلباً وأعمالهم وأراد له الإعزاز فرد له عزار».

ولرد مدينة «عزار» قصة تبين حب صلاح الدين لنور الدين إذ بعث الملك الصالح أخته بنت نور الدين إلى صلاح الدين فى الليل، فدخلت عليه فقام قائماً، وقبل الأرض وبكى على نور الدين، فسألت أن يرد عليهم «عزار».

فقال سمعاً وطاعة، فأعطاهم، وقدم لها من الجواهر والتحف والمال شيئاً كثيراً».

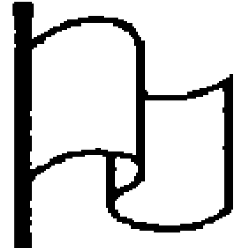
ولم يدخل صلاح الدين حلب إلا بعد وفاة ابن نور الدين.

ـ عندما فتح صلاح الدين بيت المقدس، «أمر بالوفاء بالنذر النورى ـ أى نذر نور الدين ـ ونقل المنبر ـ الذى بناه نور الدين ليضعه فى المسجد الأقصى ـ إلى موضعه القدسى، فعرفت بذلك كرامات نور الدين التى أشرق نورها بعده بسنين»(٢).

ـ لم يُذكر نور الدين أمام صلاح الدين إلا وترحم عليه وذكره بالخير، حتى إنه قال إن كل عدل فيه إنما تعلمه من نور الدين رحمه الله.

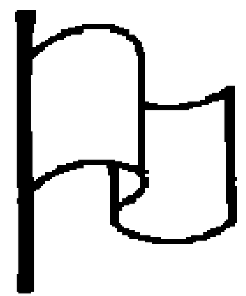
---

(١) المصدر سابق. (٢) المصدر سابق.



نور الدين زنكى والدولة الفاطمية الشيعية

- محاولات نور الدين زنكى لتوحيد الصف العربى الإسلامى بالقضاء على الدولة الفاطمية.
- سياسة نور الدين فى التعامل مع الدولة الفاطمية.
- الخلافات والصراعات بين الوزراء فى الدولة الفاطمية تؤدى إلى نهايتها على أيدى نور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبى.
- تصدى نور الدين زنكى للغزو الصليبى مصر.



4

أحوال مصر والدولة الفاطمية فى عصر نور الدين زنكى ومحاولته الاستيلاء عليها لتوحيد الصف الإسلامى فى مواجهة الصليبيين

ظهرت الخلافة الفاطمية التى تدعى كذباً الانتساب للسيدة فاطمة بنت النبى ﷺ فى المغرب وكان مؤسسها من نسل رجل يهودى وادعى حقه فى إمامة المسلمين وهو عبيد الله المهدى حيث ادعى المهدية فى بلاد الشام أولاً.

وكان فى المغرب الإسلامى رجل آخر ينتمى إلى الطائفة الإسماعيلية الشيعية هو عبد الله بن ميمون واتصل بمدعى المهدية واجتمع الاثنان على تكوين دولة بزعامة مدعى المهدية حيث أن شخصية المهدى المنتظر الذى يخرج آخر الزمان سوف يجتمع عليه الناس ويكون خليفة للمسلمين، وكانت أحوال الخلافة العباسية إلى تفكك.

ونجح أبو عبد الله الشيعى داعية الإسماعيلية فى إعلان قيام الدولة الفاطمية فى «رقادة» عاصمة دولة الأغالبة فى (٢١ من ربيع الآخر ٢٩٦ هـ = فبراير ٩٠١ م) فى جمع الأتباع، وجذب الأنصار إلى دعوته، مستغلاً براعته فى الحديث، وقدرته على الإقناع، وتظاهره بالتقوى والصلاح، ثم صارح بعض زعماء كتامة بحقيقة دعوته بعد أن اطمأن إليهم، وأنه داعية للمعصوم من أهل البيت، ولمح إلى أنهم هم السعداء الذين اختارهم القدر ليقوموا بهذه المهمة الجليلة.

وبعد أن أحسن أبو عبد الله الشيعى تنظيم جماعته، والتزموا طاعته، بدأ فى مرحلة الصدام مع القوى السياسية الموجودة فى المنطقة، فشرع فى سنة (٢٨٩ هـ = ٩٠١ م) فى مهاجمة دولة الأغالبة، ودخل معها فى عدة معارك، كان أشهرها معركة «كينوتة» فى سنة (٢٩٣ هـ = ٩٠٦ م) التى كانت نقطة تحول فى ميزان القوى لصالح أبى عبد الله الشيعى؛ حيث توالت انتصاراته على دولة الأغالبة.

فسقطت فى يده قرطاجنة، وقسطنطينة، وقفصة، ودخل «رقادة» عاصمة الأغالبة فى (أول رجب ٢٩٦ هـ، ٢٦ من مارس ٩٠٩ م).

خرج عبيد الله المهدى من مكمنه فى «سلمية» من أرض حمص ببلاد الشام فى سنة

(٢٩٢ هـ = ٩٠٥ م)، واتجه إلى المغرب، بعد الأنباء التى وصلته عن نجاح داعيته أبى عبد الله الشيعى فى المغرب، وإلحاح (كتامة) فى إظهار شخصية الإمام الذى يقاتلون من أجله.

وبعد رحلة شاقة نجح عبيد الله المهدى فى الوصول إلى «سجلماسة» متخفياً فى زى التجار، واستقر بها.

ومن ملجئه فى سلجماسة فى المغرب الأقصى أخذ عبيد الله المهدى يتصل سرّا بأبى عبد الله الشيعى الذى كان يطلعه على مجريات الأمور.

ثم لم يلبث أن اكتشف «اليسع بن مدرار» أمير سجلماسة أمر عبيد الله؛ فقبض عليه وعلى ابنه «أبى القاسم» وحبسهما، وظلا فى السجن حتى أخرجهما أبو عبد الله الشيعى بعد قضائه على دولة الأغالبة.

وكان أبو عبد الله الشيعى حين علم بخبر سجنهما قد عزم على السير بقواته لتخليصهما من السجن، فاستخلف أخاه «أبا العباس» واتجه إلى سجلماسة، ومر فى طريقه إليها على «تاهرت» حاضرة الدولة الرسمية فاستولى عليها، وقضى على حكم الرستميين، وبلغ سجلماسة فحاصرها حتى سقطت فى يده، وأخرج المهدى وابنه من السجن.

ويذكر المؤرخون أن أبا عبد الله الشيعى حين أبصر عبيد الله المهدى ترجل وقابله بكل احترام وإجلال، وقال لمن معه: هذا مولاى ومولاكم قد أنجز الله وعده وأعطاه حقه وأظهر أمره.

وأقام أبو عبد الله الشيعى وعبيد الله المهدى فى سجلماسة أربعين يوماً، ثم رحلوا عائدين فدخلوا رقادة فى يوم الخميس الموافق (٢٠ من شهر ربيع الآخر ٢٩٧ هـ = ٧ من يناير ٩١٠ م).

وخرج أهل القيروان مع أهل رقادة يرحبون بالإمام المهدى، وفى يوم الجمعة التالى أمر عبيد الله أن يذكر اسمه فى الخطبة فى كل من رقادة والقيروان، معلنا بذلك قيام الدولة الفاطمية وظهور الخلافة الثالثة بعد الخلافة العباسية والخلافة الأموية فى الأندلس، أى ثلاثة خلفاء فى وقت واحد.

واستهدف عبيد الله الفاطمى منذ أن بويع بالخلافة واستقامت له الأمور أن يدعم مركزه، وأن تكون كل السلطات فى يديه، وأن يكون السيد المطلق على الدولة الناشئة والدعوة الإسماعيلية.

وكان لابد من أن يصطدم مع أبى عبد الله الشيعى مؤسس الدولة، ولم يجد غضاضة فى التخلص منه بالقتل فى سنة (٢٩٨ هـ = ٩١١م) بعد أن أقام له دعائم ملكه، وأنشأ دولة بدهائه وذكائه قبل سيفه وقوته.

أثار مقتل أبى عبد الله الشيعى فتنة كبيرة قام بها أتباعه من أهل كتامة، وقدموا طفلاً ادعوا أنه المهدى المنتظر، وامتدت هذه الدعوة وقويت.

واضطر عبيد الله إلى إرسال حملة قوية إلى أرض كتامة بقيادة ابنه لقمع هذه الفتنة، فألحق بهم الهزيمة وقتل الطفل الذى ولوه باسم المهدى.

وخاب أمل أهل المغرب فى عبيد الله المهدى، وساء ظنهم به بعد أن ذهبت الوعود التى وعدهم بها أبو عبد الله الشيعى سُدى، فلم ينقطع الفساد بخلافة المهدى، ولم يحل العدل والإنصاف محل الظلم والجور، بالإضافة إلى السياسة المالية المتعسفة التى انتهجها الفاطميون فى جمع الضرائب، والتفنن فى تنويعها حتى فرضوا ضريبة على أداء فريضة الحج.

وزاد الأمر سوءاً قيام عبيد الله المهدى ودعاته بسب الصحابة على المنابر فيما عدا على بن أبى طالب، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسى، والتغيير فى صيغة الأذان.

وهو ما لا يمكن أن يقبله شعب نشأ على السنة، وتعصب لمذهب الإمام مالك.

وكان من نتيجة ذلك أن اشتعلت عدة ثورات ضد عبيد الله المهدى، ولكنه وإن نجح فى إخمادها فإنه أصبح غير مطمئن على نفسه فى مجتمع يرفض مذهبه ويقاطع دولته مقاطعة تامة.

ولذا حرص على أن يبعد عن السكنى فى رقادة مركز المقاومة السنى، وأسس مدينة جديدة عرفت باسم «المهدية» فى سنة (٣٠٢ هـ = ٩١٥م) على طرف الساحل الشرقى لإفريقية (تونس) فوق جزيرة متصلة بالبر، ولم ينتقل إليها إلا فى سنة (٣٠٨ هـ = ٩٢٠ م) بعد أن استكمل بناءها وتشييدها.

وأقام تحصيناتها ومرافقها المختلفة، وأصبحت المهدية قلعة حصينة للفاطميين بالمغرب ومركزاً لعملياتهم الحربية والبحرية، وظلت حتى مطالع العصر الحديث أكبر مركز إسلامى للجهاد فى البحر المتوسط.

تطلع المهدى إلى فتح مصر والأندلس؛ لأنه رأى أن المغرب لم تسلس له قيادتها، وتشتعل فيها الثورات من وقت لآخر، كما أنها قليلة الموارد.

وبدأ فى التأهب لفتح هذين الإقليمين؛ فوجه أولى حملاته إلى مصر بقيادة «حباسة بن يوسف» فى سنة (٣٠١ هـ = ٩١٣ م) فدخل مدينة «سرت» بالأمان.

ثم زحف إلى «أجدابية»، واستولى عليها بالأمان، ثم دخل «برقة».

وفى أثناء إقامته ببرقة التقى بالجيوش العباسية، ودارت بينهما عدة معارك انتهت بهزيمة العباسيين.

وزحف «حباسة» نحو الإسكندرية، وأدركه «أبو القاسم بن عبيد الله المهدى» بجيش كبير فدخلا الاسكندرية معاً، بعد أن غادرها أهلها، وواصلا الزحف حتى الفيوم.

لكن الحملة اضطرت إلى الرجوع والانسحاب بعد ظهور قوات العباسيين بقيادة «مؤنس الخادم».

ثم تكررت المحاولة سنة (٣٠٧ هـ = ٩١٩ م) ولكن لم يكتب لها النجاح، كما أن محاولات المهدى لفتح الأندلس باءت بالفشل.

وقد نبهت هذه المحاولات الخلافة العباسية إلى أن استمرار هذه المحاولات يتطلب وجوداً عسكرياً قوياً فى مصر، بعد أن اكتشف القائد مؤنس الخادم الذى تصدى لهذه المحاولات وجود موالين للفاطميين فى مصر.

فأسند العباسيون إلى «ابن طغج الإخشيد» ولاية مصر، بالإضافة إلى ولايته على الشام؛ حتى يتمكن من مواجهة خطط الفاطميين.

وفاة عبيد الله المهدى

وبعد فترة حكم ناهزت ربع قرن من الزمان توفى المهدى فـ« (١٥ من ربيع الأول ٣٢٢ هـ = ٥ من مارس ٩٣٤ م) وخلفه ابنه أبو القاسم محمد، وكانت فترة عبيد الله المهدى بمثابة عهد التأسيس وإرساء القواعد، بعد عهد التمهيد والإعداد على يد الداعى أبى عبد الله الشيعى.

وقام ابنه القائم بأمر الله محمد بالخلافة بعده ومات عام ٣٣٢ هـ ثم ابنه المنصور إسماعيل الذى توفى عام ٣٤١ هـ.

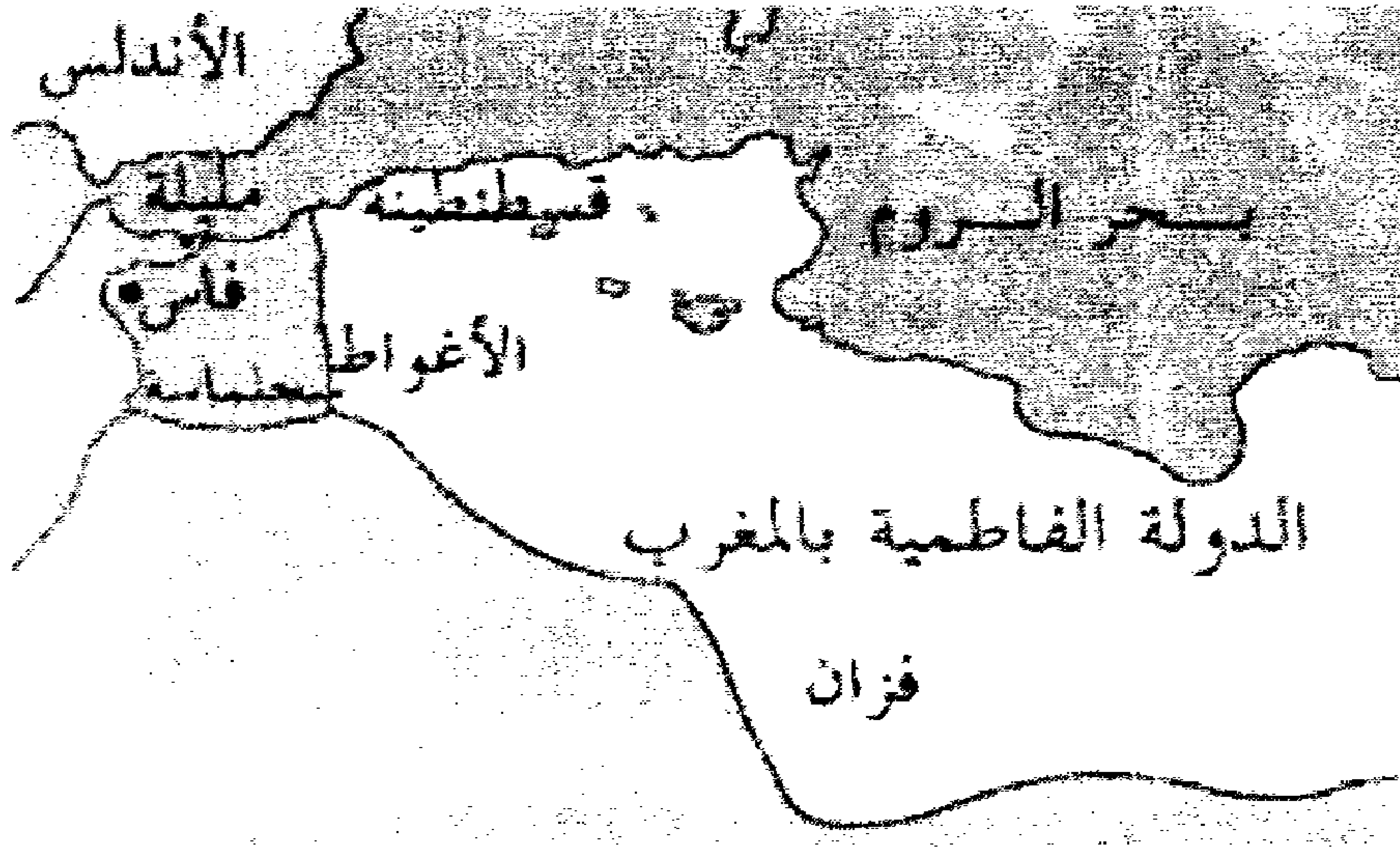
ثم ابنه المعز لدين الله معد الفاطمى الذى توسعت دولة الفاطميين فى عهده واحتل مصر وبنى القاهرة ودخلها عام ٣٦٢ هـ ـ مات ٣٦٥ هـ.

ثم تعاقب الخلفاء الفاطميون حكم بلاد المغرب العربى ومصر والشام والحجاز حتى انتهت دولتهم على يد نور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبى وكان آخرهم الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله الذى خلعه صلاح الدين الأيوبى ومات بها فكانوا أربعة عشر خليفة قال عنهم الإمام الذهبى: أربعة عشر متخلفاً لا مستخلفاً.

ونذكر ما قاله بعض علماء المسلمين:

قال ابن كثير فى البداية والنهاية: ثم دخلت سنة إحدى عشرة وأربعمائة، فيها عدم الحاكم بأمر الله بمصر ـ حيث قتل ـ وذلك أنه لما كان لليلة الثلاثاء لليلتين بقيتا من شوال فُقد الحاكم ابن المعز الفاطمى فاستبشر المؤمنون والمسلمون بذلك.

لأنه كان جباراً عنيداً وشيطاناً مريداً، ولنذكر شيئاً من صفاته القبيحة وسيرته الملعونة أخزاه الله:



حدود الدولة الفاطمية بالمغرب العربى
قبل استيلائها على مصر والشام والحجاز



حدود الدولة الفاطمية بعد توسعها
بعد ضم مصر والشام والحجاز

كان كثير التلون فى أفعاله وأحكامه، وأقواله وأحكامه جائراً، وقد كان يروم أن يدعى الألوهية كما ادعاها فرعون.

فكان قد أمر الرعية إذا ذكر الخطيب على المنبر اسمه أن يقوم الناس على أقدامهم صفوفاً إعظاماً لذكره واحتراماً لاسمه!!

فعل ذلك فى سائر ممالكه حتى فى الحرمين الشريفين!!

وكان قد أمر أهل مصر على الخصوص إذا قاموا عند ذكره خروا سجداً له!!

حتى إنه ليسجد بسجودهم من فى الأسواق من الرعاع وغيرهم ممن كان يصلى الجمعة، وغيرهم ويسجدون للحاكم بأمر الله(١)!!.

وأمر فى وقت لأهل الكتابين ـ اليهود والنصارى ـ بالدخول فى دين الإسلام كرهاً ثم أذن لهم بالعودة إلى دينهم!!.

وضرب كنائسهم ثم عمرها، وضرب كنيسة القمامة ثم أعمرها.

وابتنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ثم قتلهم وخربها.

وألزم الناس بغلق الأسواق نهاراً وفتحها ليلاً!!

فامتثلوا ذلك دهراً طويلاً حتى اجتاز مرة برجل يعمل النجارة فى أثناء النهار فوقف عليه فقال: ألم أنهكم؟

فقال: يا سيدى لما كان الناس يتعيشون بالنهار كان يسهرون بالليل، ولما كانوا يتعيشون بالليل سهروا بالنهار فهذا من جملة السهر.

فيبتسم وتركه وأعاد الناس إلى أمرهم الأول.

وأضاف ابن كثير: فكان يدور بنفسه فى الأسواق على حمار له، وكان لا يركب إلا حماراً، فمن وجده قد غش فى معيشة أمر عبداً أسود معه يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى وهذا أمر منكر ملعون لم يسبق إليه.

وكان قد منع النساء من الخروج من منازلهن وقطع شجر الأعناب حتى لا يتخذ الناس منها خمراً.

ومنعهم من طبخ الملوخية.

وقد توافق الناس على قتله وتم ذلك فى جبل المقطم وأخفوا جثته وقيل إن الذى اغتالته أخته وزعم أحد وزرائه أنه لم يمت وصعد إلى السماء وأنه سينزل آخر الزمان.

وهذه بعض من سيرة أحد الخلفاء الفاطميين الذين حاولوا فرض المذهب الشيعى على البلاد التى حكموها.

وكان الفاطميون كما قال ابن قيم الجوزية رحمه الله فى إغاثة اللهفان، منهم من القرامطة الباطنية الذين لا يؤمنون بمبدأ ولا دين ولا يحلون حلالاً ولا يحرمون حراماً وكانوا يقتلون أهل العلم والإيمان ويدعون أهل الإلحاد والكفر وكان أفجرهم وأكفرهم الحاكم بأمر الله.

وحين حكم الفاطميون مصر واتسعت حدود دولتهم حتى شملت الشام والحجاز بلاد الحرمين الشريفين حاولوا سرقة جسد النبى ﷺ ونقلها إلى مصر كما ادعوا أنهم نقلوا جسد الشهيد الحسين رضي الله عنه ولكن محاولتهم باءت بالفشل لأن الله عز وجل قد حفظ نبيه ورسوله ﷺ حياً وميتاً.

واستأثر وزراء الدولة بالنفوذ منذ النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى.

وبدأ عصر الوزراء العظام الذى يملكون السلطة والخليفة الفاطمى مثل الخليفة العباسى لا يملك شيئاً.

ويرز منهم الأفضل بن بدر الجمالى فى عهد المستعلى بالله الفاطمى (٤٨٧ - ٤٩٥ هـ) والآمر بأحكام الله (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) وطلائع بن رزيق فى عهد الخليفة الفائز (٥٤٩ - ٥٥٥ هـ) وكان ذلك فى عهد نور الدين زنكى سلطان الدولة الزنكية.

واستمرت دولة الفاطميين وخلافتهم المزعومة من عام ٢٩٦ هـ حتى وفاة آخرهم العاضد بالله عام ٣٦٧ هـ.

وانتهى أمرهم وكأنهم لم يكونوا على ظهر الأرض.

وفى ظل سيطرة الوزراء على الدولة اختار الوزير الفاطمى طلائع بن رزيق عبد الله بن يوسف بن الحافظ من أبناء البيت الحاكم خليفة الدولة ولقبه بالعاضد لدين الله عام ٥٥٥ هـ - ١١٦٠ م وكان عمره عشر سنين.

وكانت تلك عادة الوزراء فى أواخر عهد تلك الدولة اختيار صغار السن خلفاء حتى يسهل قيادتهم وتصريف شؤون المملكة حسب أهوائهم.

واستطاع العاضد بعد قوة شوكته أن يتخلص من الوزير ابن رُزيك فى العام التالى من توليه الخلافة وعين محله ابنه العادل بن طلائع بن رزيك. ثم خلعه وعين الوزير شاور والى الصعيد مكانه عام ٥٥٨ هـ - ١١٦٣ م.

وفى عهد الوزير طلائع بن رُزيك لم يدخل نور الدين فى تحالف عسكرى معه إلا أنه اهتم بالاتصالات الدبلوماسية وقد وصلت فى ٥٥٢ هـ/ ١١٥٧ م سفارة من جانب نور الدين.

وتكرر ذات الأمر فى العام التالى أى ٥٥٣ هـ/ ١١٥٨ م وردت الدولة الفاطمية على تلك السفارة بأن تم إعادة السفير النورى إلى بلاده، ومعه هدايا وأسلحة تقدر بثلاثين ألفاً من الدنانير، وعينيات تقدر بسبعين ألفاً من أجل دعم صراع نور الدين مع الصليبيين.

ثم سفارة أخرى من نور الدين فى عام ٥٥٤ هـ/ ١١٥٩ م ومن جهة أخرى أظهرت الدولة الفاطمية ودها له.

فأرسل العاضد فى عام ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م بالخلع إليه والواقع أن التعليل المنطقى لذلك أن الفاطميين بعد أن فقدوا عسقلان عام ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م أدركوا من ذى قبل؛ خطورة الصليبيين عليهم وضرورة الاستفادة من قوة الدولة النورية وثقلها السياسى والعسكرى.

وعندما سادت الفوضى إدارة الحكم فى الدولة الفاطمية، وتحكم الوزراء بالأمر دون الخلفاء طمع الصليبيون بغزو مصر.

فهاجموها المرة تلو المرة وعندها جرد نور الدين محمود حملاته العسكرية لتخليص مصر من مطامعهم، ولإعادة أرض مصر إلى منهج أهل السنة والجماعة، وجمع كلمة المسلمين.

ومما ساعده فى نجاح خطته فى القضاء على دولة الفاطميين الشيعية: حالة الفوضى التى سادت مصر آخر أيامها فقد أصبحت الدولة تعانى كثيراً من مظاهر الانحلال والفساد، حتى صار من الأمور الشائعة، أن يصبح الخليفة أو الوزير مقتولاً، خلال الصراع الدائر بين الوزراء أنفسهم، أو بين الوزراء والخلفاء.

فقد قتل الظافر على يد وزيره، وتحكم الوزراء فيمن جاء بعده وفى اختيار من يشاءون. وقتل الوزراء بعضهم بعضاً.

فقد تولى الوزارة فى عام واحد ثلاثة وزراء: العادل بن رزيك، وشاور وضرغام، فضعفت الدولة وسادة الفوضى فى البلاد.

وقد قام الوزير الفاطمى ابن السلار من قبل وهو سنى المذهب بمحاولة الاتصال بنور الدين من أجل شن عمليات حربية مشتركة على أساس أن يتقدم نور الدين بقواته من الشمال ويقوم الأسطول الفاطمى بمهاجمة المدن الساحلية الشامية الصليبية.

وتوسط أسامة بن منقذ بين الجانبين وعرض عليه ابن السلار أن يأخذ الأموال والهدايا لسلطان حلب عارضاً عليه القيام بمنازلة طبرية، وفى نفس الوقت يقوم الأسطول الفاطمى بمهاجمة غزة.

وفى حالة موافقة نور الدين على ذلك يقدم له ابن منقذ الأموال لمساعدته، فإن رفض فعلى الأخير أن يجند بالأموال عدداً من الفرسان لقتال الصليبيين عند عسقلان.

غير أنه عندما وصل إلى بلدة بصرى وقابل نور الدين أوضح له مدى انشغاله بأمر دمشق وأنها تقف سداً منيعاً دون التعاون المشترك مع الفاطميين إذ أنها لم تكن حينذاك قد سقطت بعد فى قبضته.

لكن ابن السلار استمر فى صراعه مع الصليبيين فجهز فى عام ٥٤٦ هـ/ ١١٥١ م أسطولاً أنفق عليه مالاً وفيراً وهاجم به المدن الساحلية الصليبية.

وقد قال الذهبى عن الوزير ابن السلار: وكان بطلاً شجاعاً، مقداماً شافعياً سنياً، ليس على دين العبيدية، احتفل بالمذهب السلفى، وبنى له المدرسة، لكنه فيه ظلم وعسف وجبروت.

وتجددت المحاولات السابقة فى عهد الوزير طلائع ابن زريك الذى اتصل بنور الدين محمود عن طريق أسامة بن منقذ غير أن نور الدين لم يتعجل وكان يرى أن الفرصة المناسبة لم تأت بعد.

وكان نور الدين يرى أن القضاء على الصليبيين يبدأ بتوحيد الصفوف وفتح دمشق ثم مصر ومن هنا يمكن الالتفاف على الكيان الصليبى والقضاء وتحرير القدس.

وهذا ما حدث بعد أن تمكن من السيطرة سلمياً كما ذكرنا على دمشق وأصبحت تحت سيطرته وحكمه ثم تمكن من ضم مصر إليه كما سيأتى بعد محاولات عن طريق وزيره وأحد قواده شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبى.

ثم حانت الفرصة حين قامت منافسات بين الوزيرين الفاطميين «ضرغام» «وشاور» حيث نجح «ضرغام» فى عزل شاور وطرده من مصر والجلوس مكانه فى الوزارة، فلجأ «شاور» إلى نور الدين زنكى فى الشام عام ٥٥٩ هـ واستنجد «ضرغام» بالصليبيين.

فحضر ملك القدس الصليبى «عمورى» بحملة صليبية على مصر لنصرة الوزير الفاطمى واحتلال مصر.

ووعد «شاور» نور الدين بثلث دخل مصر سنوياً ودفع رواتب الجند وأن يكون نائباً له بمصر إذا ساعده فى التغلب على الوزير ضرغام ويكون أسد الدين شيركوه مقيماً بعسكره بمصر ويشاركه فى حكم مصر بأمر نور الدين.

ونظراً لتدخل الصليبيين فى أمور الحكم بمصر وإرسالهم جيوشهم فى محاولة احتلالها تشجع نور الدين فى التصدى لهم وتخليص مصر من حكم الفاطميين فجهز لذلك حملة عسكرية بقيادة قائده أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبى.

وعلم ضرغام بالاستعدادات التى تجرى فى دمشق لتجهيز حملة لمساعدة شاور، فاحتاط للأمر، واستنجد بعمورى الأول فى محاولة منه للدخول فى لعبة توازن القوى.

وعقد معه اتفاقاً لمساعدته ضد نور الدين محمود وتعهد له بالمقابل أن يدفع جزية سنوية يقررها الملك كما وافق على أن تدخل مصر فى تبعية الصليبيين وأجبر الخليفة الفاطمى العاضد على توقيع هذا الاتفاق.

وكان طبيعياً أن يقبل عمورى الأول هذا العرض الذى سيتيح له فرصة لا تعوض لدخول مصر وهو الأمل الذى سعى إليه الصليبيون منذ أكثر من نصف قرن، فأعد على الفور حملة عسكرية من أجل الزحف على مصر.

وخرج أسد الدين شيركوه على رأس حملته الأولى إلى مصر فى شهر جمادى الآخرة ٥٥٩ هـ/ شهر نيسان أبريل ١١٦٤ م بصحبة ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب الذى كان يناهز السابعة والعشرين من عمره وسار على الطريق المحدد للحملة، والذى يمر عبر أراضى يسيطر عليها الصليبيون.

ورافق نور الدين الحملة بجيشه إلى ما يلى دمشق للحيلولة دون التعرض لأفرادها، وراح يهاجم الأطراف الشمالية لمملكة بيت المقدس المجاورة لدمشق لتحويل أنظار الصليبيين عن مصر.

وسار أسد الدين شيركوه على رأس جيشه الكثيف عبر الصحراء، بصحبة شاور، فعبر الكرك ومر بالشوبك ثم أيلة، فالسويس ومنها إلى القاهرة وقد بلغ من السرعة فى سيره أنه اجتاز برزخ السويس قبل أن يستعد الصليبيون للتدخل.

فأرسل ضرغام قوة عسكرية بقيادة أخ له يدعى ناصر الدين، للتصدى لهم وأسفر لقاء الطرفين فى بلبيس عن انتصار واضح لأسد الدين شيركوه وتراجع ناصر الدين مهزوماً إلى القاهرة.

فطارده أسد الدين شيركوه ووصل فى أواخر جمادى الآخر إلى العاصمة المصرية.

فخرج إليه ضرغام بكل ما يملك من قوة لإدراكه بأن هذه المعركة هى معركته الأخيرة وجرى اللقاء تحت أسوار القاهرة.

اتسمت المعركة بالعنف وانتهت بانتصار أسد الدين شيركوه بعد أن تخلى الجيش والناس والخليفة عن ضرغام، وقتل أثناء محاولته الفرار قرب مشهد السيدة نفيسة فى شهر رجب ٥٥٩ هـ/ شهر حزيران ١١٦٤ م.

كما قتل أخوه ناصر الدين ودخل أسد الدين شيركوه القاهرة منتصراً وأعاد شاور إلى منصبه فى الوزارة، ثم أقام معسكره خارجها.

وبعد أن ضمن شاور عودته إلى منصب الوزارة عاد إلى طبيعته التى اتصف بها ـ من المكر والخداع ـ ليدخل فى صراع جديد مع أسد الدين شيركوه، فأساء معاملة الناس وتناسى وعوده لنور الدين محمود بل سرعان ما ظهرت عليه إمارات الغدر فنقض اتفاقيته معه.

وطلب من شيركوه الخروج من مصر وأن يعود فوراً مع قواته إلى بلاد الشام، لكن هذا الأخير رفض الاستجابة لطلبه، ورد على موقفه المتقلب، فسارع إلى الاستيلاء على بلبيس وحكم البلاد الشرقية.

ولم يسع شاور إلا أن يستنجد بالملك عمورى الأول الذى كان يتأهب للزحف على مصر، وأخذ يخوفه من نور الدين وفعل كما فعل ضرغام من الاستعانة بالكافر على المسلم.

وعرض عليه أن يؤدى له مبلغ ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الرحلة من بيت المقدس إلى نهر النيل، البالغ عددها سبعاً وعشرين مرحلة.

ـ يمنح هدية لكل من يصحبه من فرسان الأسبتارية الذين كانوا يشكلون عماد جيش مملكة بيت المقدس، فى محاولة منه لإغراء فرسانها بالاشتراك بالحملة.

ـ يتكفل بنفقات علف أفراسهم، مقابل مساعدته لإخراج أسد الدين شيركوه من مصر ولاشك بأن عمورى الأول كان آنذاك يراقب تطورات الموقف السياسى والعسكرى فى مصر، فلما علم بزحف أسد الدين شيركوه ازدادت مخاوفه، ولما وصلت إليه دعوة شاور رحب بها.

وبذلك لم يضع الفرصة عليه لدخول مصر وإن اختلف الحليف، الأمر الذى لا يهمه فى شىء فكل ما يعنيه هو دخول مصر بعد أن فشلت حملته الأولى عليها عام ٥٥٨ هـ.

وعندما أتيحت الفرصة مرة أخرى لدخول مصر بادر عمورى الأول، فور تلقيه دعوة شاور، إلى عقد مجلس فى بيت المقدس حضره بارونات المملكة.

وتقرر فيه تلبية دعوة شاور بعد أن أوضح للمجلس أن فى قدرته تجهيز حملة لغزو مصر دون أن يضعف من دفاعات المملكة، وبخاصة أنه وصل وقتئذ من أوروبا عدد من الحجاج لزيارة بيت المقدس يمكن الاستفادة منهم فى المجهود الحربى وأمل فى أن يتمكن من احتلال مصر لحساب الصليبيين.

وقرر بأن يتولى بوهيموند الثالث، أمير أنطاكية، إدارة شؤون المملكة خلال غيابه.

وأسرع ملك بيت المقدس بالزحف إلى مصر على رأس قواته للمرة الثانية فى شهر رمضان عام ٥٥٩ هـ/ شهر آب عام ١١٦٤ م واتصل فور وصوله إلى فاقوس بشاور واتفقا على حصار أسد الدين شيركوه فى بلبيس وصمد هذا الحصن للحصار مدة ثلاثة أشهر دافع أسد الدين شيركوه خلالها عن مواقعه.

وفجأة قرر عمورى الأول الدخول فى مفاوضات معه للجلاء المزدوج عن مصر، تلقى عمورى الأول أنباء مزعجة من بلاد الشام بتعرض ممتلكاته لضغط من نور الدين محمود، ففضل العودة للدفاع عنها.

وأدرك فى الوقت نفسه أن حملته مقضى عليها بالفشل فى ظل امتناع أسد الدين شيركوه فى بلبيس.

وكان موقف أسد الدين شيركوه صعباً أيضاً، فالمؤن بدأت بالنفاد فضلاً عن تفوق القوات الصليبية الفاطمية المشتركة فى العدد وأن الوضع العسكرى ليس فى صالحه لذلك قبل الدخول فى مفاوضات الصليبية الفاطمية المشتركة فى العدد وأن الوضع العسكرى ليس فى صالحه.

لذلك قبل الدخول فى المفاوضات الصليبية الفاطمية المشتركة من أجل الجلاء عن مصر إلا أن الله نصر جنوده وألقى الرعب فى قلوب أعدائه وأعدائهم وتحقق لهم النصر فيما بعد تلك الحملة(١).

وتم الاتفاق بين الرجلين على الخروج من مصر فى شهر ذى الحجة، شهر تشرين الأول وسار الجيشان الإسلامى والصليبى فى طريقين متوازيين عبر شبه جزيرة سيناء بعد أن تركا شاور يسيطر على مقاليد الحكم.

وكان شيركوه آخر من غادر البلاد للحاق بجيشه وكان شاور الفائز الحقيقى فى هذا الصراع الذى انتهى لمصلحته، فتخلص من الجيوش الإسلامية الشامية والصليبية على السواء كما تخلص من ضرغام وأضحى طوال العامين التاليين صاحب الأمر والنهى والمتحكم فى مقاليد البلاد.

ووضع أسد الدين شيركوه نفسه بعد عودته من مصر، تحت تصرف نور الدين محمود.

وأصبحت مصر محور تفكير أسد الدين شيركوه وحديثه فى مجالسه ومحور أفكاره، ولم ينقطع عن تبادل الآراء مع أصدقائه فيها الذين كانوا يزودونه بأخبارها وأرسله نور الدين محمود فى تلك الأثناء بمهمة إلى بغداد، فاستغل وجوده فى عاصمة الخلافة ليثير حماس الخليفة المستنجد بالله حيث راح يقص عليه أخبار مصر وأحوالها، وما شاهده وخبره بنفسه، فتأثر الخليفة بما سمعه وشجعه على العودة إليها.

(١) لم يصحب صلاح الدين عمه شيركوه فى هذه الحملة وإنما شاركه فى الحملة الثانية.

أعد نور الدين محمود حملة ثانية وأرسلها إلى مصر فى شهر ربيع الأول عام ٥٦٢ هـ/ شهر كانون الثانى عام ١١٦٧ م بقيادة أسد الدين شيركوه وصحبة ابن أخيه صلاح الدين وسير معه جماعة من الأمراء.

وبلغ تعداد هذه القوات ألفى فارس، ورافقه نور الدين حتى أطراف البلاد خوفاً من تعرض الصليبيين له.

وسار أفراد الحملة فى طريق محفوفة بالأخطار، فالصليبيون الذين كانوا على طريقهم رابضين فى الكرك والشوبك قد ينقضون عليهم وينكلون بهم، وهم بعيدون عن مناطقهم، والبدو يلاحقونهم وينقلون أخبارهم إلى الصليبيين، وكان عليهم أن يغيروا طريق سيرهم أحياناً للتخفى.

كما عرقلت الطبيعة زحفهم، إذ أن عاصفة رملية عنيفة هبت عليهم وقضت على عدد من الرجال وبعض الزاد وعلى الرغم من ذلك واصلوا رحلتهم إلى مصر وتوافر لشاور من الوقت ما جعله يستنجد مجدداً بعمورى الأول، إذ أيقن أن أسد الدين شيركوه إذ قدم إلى مصر هذه المرة، فإنه سوف يبقى فيها ولا يغادرها.

لذلك فإنه لم يتوان عن الاتصال بملك بيت المقدس والتفاوض معه، موضحاً له الخطر الذى يمثله نور الدين محمود على مملكة بيت المقدس لو نجح فى امتلاك مصر.

رحب عمورى الأول بدعوة شاور طمعاً فى امتلاك مصر وإبعاد نور الدين محمود وجيوشه عنها، حتى لا يتمكن من تطويق مملكته التى ستصبح فى وسط ممتلكات نور الدين محمود.

وقبل أن تستكمل الاستعدادات وردت الأنباء بأن أسد الدين شيركوه يجتاز صحراء سيناء.

فلم يسع عمورى الأول إلا أن يرسل ما تيسر الحصول عليه من الجند لعرقلة تقدمه، غير أن هذا التدبير جاء متأخراً.

وعلم أسد الدين شيركوه بأن جيشاً صليبياً شرع فى الزحف باتجاه مصر، عندئذ اجتاز الصحراء باتجاه الجنوب الغربى ليتفادى مواجهة مبكرة مع الصليبيين حتى بلغ نهر النيل عند إطفيح على مسافة أربعين ميلاً جنوبى القاهرة.

ثم عبر على الضفة الغربية والتزمها فى سيره حتى وصل إلى الجيزة وعسكر بمواجهة الفسطاط، وتصرف فى البلاد الغربية وحكمها نيفاً وخمسين يوماً.

وخرج عمورى الأول من بيت المقدس فى شهر ربيع الأول عام ٥٦٢ هـ شهر كانون الثانى عام ١١٦٧ م متوجهاً إلى مصر فى حملته الثالثة على هذا البلد، واجتاز الطريق المألوف من غزة إلى العريش.

ثم اخترق الصحراء إلى بلبيس وخاف شاور من ظهوره المفاجئ وساوره القلق لعدم التنسيق معه، ويبدو أنه لم يكن على علم بوصول شيركوه إلى إطفيح، ولم يطمئن إلا عندما أرسل كشافته إلى الصحراء للوقوف على حقيقة الوضع.

عندئذ خرج لاستقبال الملك الصليبى والتقى به، وأنزله عمورى الأول فى معسكره على الضفة الشرقية لنهر النيل على مسافة ميل واحد من أسوار القاهرة.

وأجرى مع شاور مباحثات تعهد شاور خلالها بأن يدفع أربعمائة ألف دينار مقابل طرد أسد الدين شيركوه من مصر، على أن يجرى دفع نصف هذا المبلغ على الفور، ثم يبذل النصف الآخر فيما بعد، واشترط أن يقسم عمورى الأول على هذا.

ولدعم هذه الاتفاقية وإعطائها صيغة رسمية، أرسل عمورى الأول كلاً من هيو، سيد قسارية، وجفرى، مقدم فرسان الداوية، إلى الخليفة الفاطمى للحصول منه على الموافقة الرسمية عليها، فاستقبل الرسولان استقبالاً حافلاً فى القصر الفاطمى وتم التصديق على المعاهدة.

وكان من الطبيعى أن يرحب الصليبيون بهذه الاتفاقية التى تجعل منهم حماة لمصر والخلافة الفاطمية، وتبعد أسد الدين شيركوه بوصفه المنافس الوحيد لهم فى السيطرة على هذا البلد.

كان أسد الدين والجيش قد ساروا إلى الصعيد فبلغوا مكاناً يعرف بالبابين، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءهم فأدركوهم به فى الخامس والعشرين من جمادى الأولى وكان قد أرسل إليهم جواسيس.

فعادوا وأخبروه بكثرة عَدَدهم وعُددهم، وجدهم فى طلبه، فعزم على لقائه وقتالهم، وأن تحكم السيوف بينه وبينهم، إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات فى هذا المقام الخطر الذى عطبهم فيه أقرب من السلامة، لقلة عددهم وبعدهم عن بلادهم فاستشارهم.

فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقى والعود إلى الشام وقالوا له: إن نحن انهزمنا فإلى أين نلتجئ وبمن نحتمى، وكل هذه الديار من جندى وعامى وفلاح عدو لنا، ويودون لو شربوا دماءنا؟

وحق لعسكر عدتهم ألفا فارس قد بعدوا عن ديارهم ونأى ناصرهم أن يرتاع من لقاء عشرات ألوف، مع أن كل أهل البلاد عدو لهم.

فلما قالوا ذلك قام إنسان من المماليك النورية يقال له شرف الدين بزغش - وكان من الشجاعة بالمكان المشهور - وقال: من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون فلاحاً أو مع النساء فى بيته والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلاء تعذرون فيه ليأخذن إقطاعاتكم وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: أتأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفار.

قال: أسد الدين هذا رأى وبه أعمل ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم كثر الموافقون لهم على القتال.

فاجتمعت الكلمة على القتال فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على استعداد للقتال وإنه جعل صلاح الدين ابن أخيه فى قلب الجيش.

وقال له ولمن معه: فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فارجعوا فى أعقابهم.

واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم فى الميمنة.

فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيه، فقاتلهم من به قتالاً يسيراً.

ثم انهزموا بين أيديهم، فتبعوهم فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الفرنج الذين حملوا على القلب فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون.

وهكذا نصر الله جنوده رغم قلة عددهم على الكثرة من الصليبيين والخونة من المسلمين.

ثم سار أسد الدين إلى ثغر الإسكندرية وجبى ما فى طريقها من القرى والسواد من الأموال، ووصل إلى الإسكندرية فتسلمها من غير قتال.

سلمها أهلها إليه فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه، وعاد إلى الصعيد وتملكه وجبى أمواله وأقام به حتى صام رمضان.

وأما المصريون والفرنج فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم وأقاموا عوض من قتل

منهم، واستكثروا وحشدوا وساروا إلى الإسكندرية ـ وبها صلاح الدين فى عسكر يمنعونها منهم، وقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج، فاشتد الحصار وقل الطعام بالبلد، فصبر أهله على ذلك.

ثم إن أسد الدير سار من الصعيد نحوهم، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، ووصله رسل المصريين والفرنج يطلبون الصلح.

وبعد مفاوضات بين الطرفين تم عقد صلح على الأسس التالية:

رفع الحصار عن الإسكندرية وتبادل الأسرى وخروج شيركوه وجيشه من مصر:

وانتهت المفاوضات إلى:

خروج القوات النورية والصليبية من مصر، وتبادل الأسرى يتعهد شاور بألا يعاقب رعاياه فى الإسكندرية وفى غيرها من الجهات الذين ساندوا أسد الدين شيركوه.

ومهما يكن من أمر، فقد دخل عمورى الأول مدينة الإسكندرية فى (شهر شوال/ شهر آب) فى حين غادرها صلاح الدين فى موكب عسكرى حافل على الرغم مما أصاب السكان من ضيق لرحيله.

والتقى الرجلان وأعجب كل منهما بالآخر، حتى لقد قام ملك بيت المقدس بإمداد صلاح الدين ببعض المراكب لنقل الجرحى المسلمين إلى بلاد الشام.

على أن متاعب السكان لم تنته، فلم يكد أتباع شاور يدخلون المدينة حتى ألقوا القبض على كل من جرى الاشتباه فى أنه تعاون مع صلاح الدين وقد احتج هذا الأخير لدى عمورى الأول الذى نصح شاور بأن يطلق سراح الأسرى.

وكانت هذه هى المرة الثانية التى يغدر شاور عندما عادت القوات الشامية إلى مصر عام ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م.

ورغم خروج جيش نور الدين من مصر بقى مندوب من الملك الصليبى يشارك فى حكم البلاد!!

مما جعل نور الدين يفكر فى إعادة المحاولة لتخليص مصر من الحكم الفاطمى والصليبى معاً. وسبب هذه الحملة أن الفرنجة كانوا قد جعلوا لهم شحنة فى القاهرة، وتسلموا أبوابها، وحكموا المسلمين حكماً جائراً.

فلما رأوا أنه ليس فى البلاد من يردهم، أرسلوا إلى ملكهم - عمورى - فى القدس، يستدعونه ليملك مصر، وهونوا عليه أمرها، فتردد خوفاً من سوء العاقبة.

ثم سار مع فرسانهم على كره منه حتى وصلوا بلبيس مستهل صفر ونهبوها، وقتلوا وأسروا من فيها.

ثم ساروا إلى «الفسطاط» فأمر شاور بإحراقها وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة، وأن ينهب البلد خوفاً من أن يملكها الإفرنج، فنهبت المدينة وبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً.

ثم حاصر الفرنجة القاهرة وضيقوا على أهلها.

وكان شاور هو المتولى للعساكر والقتال فضاق به الأمر وضعف عن ردهم، فأخلد إلى الحيلة وراسل ملكهم عمورى ووعده بمال عظيم ألف ألف دينار مصرية يعجل بعضها الآن، ودفع لهم منها «مائة ألف دينار» وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال، فرحلوا قريباً.

وجعل يجمع لهم المال فلم يستطع أن يجمع إلا خمسة آلاف دينار حيث أن المصريين كانوا قد احترقت دورهم، ونهبت أموالهم.

وأمام هذا الغزو الصليبى لمصر استنجد الخليفة الفاطمى بنور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين وأرسل فى الكتب شعور النساء وقال له: هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج وعرض على نور الدين مقابل إنقاذ البلاد من الصليبيين: ثلث البلاد، ومنح قادته الإقطاعات، مع إشراك شيركوه فى الحكم كوزير له.

وبالفعل استجاب له نور الدين وأرسل الحملة الثالثة وأعدها إعدادا قوياً وأعطى قائد الحملة (شيركوه) مائتى ألف دينار، سوى الثياب والدواب والأسلحة، وحكمه فى العسكر والخزائن، يأخذ حاجته فاختار من العسكر ألفى فارس، وجمع من فرسان التركمان ستة آلاف وسار نور الذين وشيركوه إلى باب دمشق، ورحلوا إلى رأس الماء.

وأعطى نور الدين كل فارس منهم عشرين ديناراً، معونة غير محسوبة وأضاف إلى شيركوه جماعة أخرى من الأمراء، منهم صلاح الدين الأيوبى.

وسار أسد الدين مجداً فلما قارب مصر، رحل الفرنجة إلى بلادهم بخفى حنين، خائبين مما أملوا، وسمع نور الدين بعودتهم فسره ذلك، وأمر بضرب البشائر فى البلاد ولما وصل أسد الدين القاهرة، دخلها واجتمع بالعاضد، الذى خلع عليه وفرح به أهل مصر، وأجريت على عساكره الجرايات الكثيرة.

وأما شاور فلم يفصح عما فى نفسه، وشرع يماطل أسد الدين فيما وعد به من المال، ورواتب الجند، وعزم على الغدر أيضاً.

فقرر أن يقيم وليمة لأسد الدين وأمرائه ثم يغدر بهم ويقتلهم، فنهاه ابنه الكامل عن ذلك وقال له: ولله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين.

فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل لنقتلن جميعاً.

فقال: صدقت، ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بين المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً ويملكون البلاد.

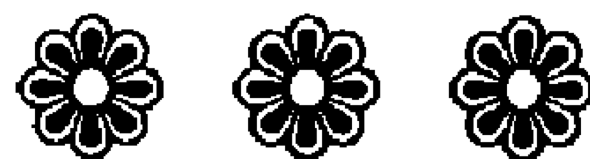
واتفق صلاح الدين وبعض الأمراء على التخلص من هذا الخائن المراوغ شاور فأسروه، وسمع العاضد بذلك فأرسل إلى شيركوه يطلب رأسه، وأذن أسد الدين بقتله فقتل، وأرسل رأسه إلى العاضد فى السابع عشر من ربيع الآخرة، عام ٦٤٣ هـ وانتهى أمره واستراح منهم العباد والبلاد.

ودخل أسد الدين القاهرة، وقصد قصر العاضد فخلع عليه الوزارة، ولقبه الملك المنصور، وأمير الجيوش، واستعمل على الأعمال من يثق به من أصحابه وأقطع البلاد لعساكره.

ولم تطل وزارة شيركوه، حيث توفى فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام رحمه الله رحمة واسعة وخلفه فى الوزارة ابن أخيه صلاح الدين.

وكان أسد الدين من أكبر قادة نور الدين، وقد ادخره الملك العادل للخطوة الكبرى التى كان يمهد لها، وهى ضم مصر إلى بلاد الشام وكان رحمه الله كريماً على جنده، صارماً يعرف كيف يقر النظام فى عسكره فهابه جنده وأحبوه، وركبوا معه المخاطر فى حملات عظيمة رحمه الله.

وبدأت مرحلة جديدة بتولى صلاح الدين الأيوبى الوزارة بعد عمه رحمه الله.



صلاح الدين وزيراً فى مصر

- قدوم صلاح الدين الأيوبى مع عمه أسد الدين شيركوه بناءً على طلب الخليفة العاضد الفاطمى للدفاع عن مصر ضد الغزو الصليبى.
- حكمة صلاح الدين فى إعادة مصر للخلافة العباسية.
- قيام صلاح الدين بإلغاء المذهب الشيعى الباطنى فى مصر والشام وأساليبه فى ذلك.
- تغيير القضاة الشيعة إلى قضاة من أهل السنة وإنشاء المدارس الفقهية بمصر والشام.

5

صلاح الدين الأيوبى فى مصر وزيراً ونائباً لنور الدين زنكى

شرع صلاح الدين الأيوبى منذ أن اعتلى كرسى الوزارة بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه ٥٦٤ هـ فى تثبيت مركزه فى البلاد وتقوية سلطانه بصفته وزيراً ونائباً عن نور الدين زنكى وليس وزيراً للخليفة الفاطمى كما يظن البعض ويحلو لهم أن يصفوه وزيراً للخليفة الفاطمى وأنه خانه بعد أن وثق فيه وهذا من افتراءات الشيعة عليه.

وكان حين توليه الوزارة فى الحادية والثلاثين من عمره وكان أصغر الأمراء سناً ولقبه الخليفة الفاطمى بالناصر فعرف من بعدها بالناصر صلاح الدين.

واستمال صلاح الدين بسياسته الحكيمة الرشيدة قلوب الناس فى مصر وكسب ثقتهم وعمل على إحكام قبضته على شؤون الدولة.

وكانت جهود صلاح الدين تنفيذ خطة نور الدين زنكى فى إنقاذ مصر من الشيعة الفاطمية الباطنية والصليبيين الفرنجة الذين يهددون بلاد الإسلام.

ولم يكن الأمر فى سهولة ويسر وإنما كان الجهاد الأول لصلاح الدين هو توطيد حكمه فى مصر والقضاء على الدولة الفاطمية التى كانت قد بدأ نجمها فى الأفول والذهاب منذ سنوات سبقت قدوم صلاح الدين إليها بناء على طلب الخليفة الفاطمى بعد أن أصبح محتلاً من الصليبيين وقد قام أجداده بتسليم القدس لهم.

فأسند مناصب الدولة إلى أنصاره، وأبعد كبار رجال الخليفة عن القاهرة، وأضعف نفوذهم، وأخذ إقطاعاتهم ومنحها لرجاله وقواده.

ومنع الخليفة من الاتصال بالناس؛ فصار سجين قصره.

وجعل اسم نور الدين محمود يأتى فى الخطبة بعد الخليفة الفاطمى.

أثار ذلك حنق أهل القصر وأتباع الخليفة الفاطمى وجنده من السودان؛ فدبروا مؤامرة لاغتيال صلاح الدين فى أواخر سنة ٥٦٤ هـ غير أنه علم بالمؤامرة؛ فقبض على زعيمها، وقمع الثائرين عليه.

ثم خطا صلاح الدين خطوة كبيرة نحو القضاء على الدولة الفاطمية بإحلال المذهب السنى محل المذهب الشيعى؛ فعمل على إنشاء المدارس لتدريس المذهب السنى.

وكانت المدرسة الناصرية التى أنشئت فى الفسطاط لتدريس المذهب الشافعى أول مدرسة أنشأها صلاح الدين فى مصر، ثم تلاها بإنشاء مدرسة أخرى لتدريس المذهب المالكى.

ثم تبعه أفراد أسرته ورجال دولته، فأنشأوا مدارس أخرى لتدريس المذهب السنى.

ثم عزز ذلك بتعيين صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعى قاضياً للقضاة؛ فجعل القضاء فى سائر الديار المصرية شافعية؛ فاستعاد بذلك المذهب السنى قوته، وأخذ المذهب الإسماعيلى فى الاختفاء تدريجياً حتى لم يبق له أنصار فى مصر.

وعلى الرغم من انفراد صلاح الدين بحكم مصر دون أن ينازعه منازع، وسيطرته على مقاليد الأمور فى مصر؛ فإنه لم يسارع إلى إقامة الخطبة للخليفة المستضئ بالله العباسى.

وأعرض فى بادئ الأمر عن تنفيذ رغبة نور الدين محمود فى إحلال اسم الخليفة العباسى محل الخليفة الفاطمى، واعتذر بتخوفه من أن يثير هذا العمل غضب أهل مصر.

غير أن صلاح الدين إزاء إصرار نور الدين محمود جمع أمراء جيشه ليستشيرهم فى أمر قطع الخطبة للخليفة الفاطمى؛ فترددوا كثيراً، لكن فقيهاً يدعى «الأمير العالم» قطع هذا التردد وأبدى عزمه على القيام بهذا الأمر، حيث صعد المنبر فى أول جمعة من شهر (المحرم ٥٦٧ هـ = سبتمبر ١١٦١ م) قبل الخطيب ودعا للخليفة العباسى فلم يعارضه أحد.

وفى الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء فى مساجد الفسطاط والقاهرة بإسقاط اسم العاضد من الخطبة، وذكر اسم الخليفة العباسى محله، معلناً بذلك نهاية الخلافة الفاطمية، وتبعية مصر للخلافة العباسية.

وكان العاضد إذ ذاك مريضاً فلم يعلمه أهله وأصحابه، ثم لم يلبث أن توفى بعد ذلك بعدة أيام، وبموته انتهت الدولة الفاطمية التى حكم خلفاؤها الأوائل رقعة شاسعة امتدت من المحيط الأطلسى غرباً إلى الخليج العربى شرقاً، ودعى لأحد خلفائها على منابر بغداد عاصمة الخلافة العباسية عاماً بأكمله.

وقد جرت أحداث فى مصر عقب تولى صلاح الدين الوزارة وأصبح الحاكم الفعلى للبلاد باسم السلطان نور الدين زنكى، ومن أهم تلك الأحداث الثورة من أنصار الحكم الفاطمى ضده على الساحة السياسية يساندها جيشها الذى لم يستطع صد الصليبيين عن مصر.

إلا أن الدسائس فى بلاط القصر الحاكم مازالت مستمرة.

فقام صلاح الدين بإخضاع جنود عمه ومماليكه وسيطر عليهم وأحسن إليهم كما أحسن للمصريين وبذل لهم الأموال.

ساعده نور الدين زنكى بإرسال قوة عسكرية بقيادة أخيه شمس الدولة تورانشاه بن أيوب مما ساعده فى تقوية موقفه وإحكام قبضته على الأمور ومقدرات الدولة وتراجع نفوذ الخليفة الضعيف ورجاله.

أثار هذا النجاح فى الإدارة والحكم كبير الطوشية الملقب بمؤتمن الدولة وهو نوبى الأصل وقائد جند السودان الموالين للخليفة الفاطمى.

أدرك مؤتمن الدولة النوبى أن حكم الفاطميين إلى زوال إذا استمر صلاح الدين الأيوبى فى حكم مصر.

وكان يرغب هذا النوبى فى خلافة شاور الوزير الهالك.

إذ أن أحلامه فى السلطة دفعته إلى محاربة صلاح الدين الأيوبى ومحاولة القضاء عليه والإبقاء على الحكم الفاطمى الشيعى فى مصر.

واتصل مؤتمن الدولة بملك القدس الصليبى «عمورى الأول[1]» كى يقوم بحملة صليبية على مصر فيخرج له صلاح الدين فيقبض عليه مؤتمن الدولة ويقتله هو ومن معه!!

لكن صلاح الدين اكتشف المؤامرة ووقع تحت يده الخطاب الذى حاول إرساله مؤتمن الدولة للملك الصليبى، وقتل صلاح الدين مؤتمن الدولة وعزل بقية أتباعه من الخدام الطواشى - الخصيان من العبيد - وكانوا من السودان - أى السود - عن قصر الخلافة واستخدم على القصر بهاء الدين قراقوش.

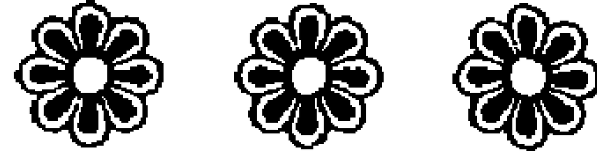
---

(١) «عمورى الأول» ويدعى أيضاً أملريك الأول ملك القدس الصليبى حكم القدس التى اتخذها الصليبيون عاصمة لمملكتهم التى أقاموها فى بلاد الشام العربية الإسلامية بعد الحملة الصليبية الأولى واحتلال القدس.

وكان الملك السابق على «عمورى» وهو بلدوين الثالث الذى هلك عام ١١٦٣ م قد بنى سياسته الخارجية على غزو مصر وقام بحملات متتالية فاشلة وتابعة فيها من جاء بعده «عمورى الأول» ولذلك لجأ إليه الوزير الخائن للعروبة والإسلام كى يحتل مصر ويحافظ على كرسى الوزارة ويعيد إليه حكم مصر، وكان «شاور» قد قام بقتل الوزير الأول «ابن رزيك»، ودخل فى صراع مع الوزير «ضرغام» وانتصر عليه الأخير مما اضطره فى البداية اللجوء إلى نور الدين ثم الصليبيين بعد ذلك.

وإزاء ما فعله صلاح الدين مع الخصيان الحبش قاموا بثورة ضده وكانوا قريباً من خمسين ألفاً، واقتتلوا مع جيش صلاح الدين الأيوبى بين القصرين وقتل خلق كثير من الفريقين وانتصر جيش صلاح الدين وكان يعرف بجيش الشام على جيش الخدام الخصيان من السودان.

وبعد القضاء على شوكة السودان قام صلاح الدين بالقضاء شوكة الأرمن فى مصر وهى الفرقة الأكثر عدداً بعد فرقة السودان فى مصر بعد أن حاولوا القضاء على حركة صلاح الدين الإصلاحية فى مصر.



حكمة صلاح الدين فى إعادة مصر للخلافة العباسية

ومع إحكام صلاح الدين على الأمور فى مصر أخذ نور الدين يلح عليه لاتخاذ الخطوات الحاسمة والضربة القاضية على الفاطميين بإعلان نهاية الخلافة الفاطمية وإعادة مصر للخلافة العباسية بعد انفصال الدولة الفاطمية عنها أكثر من قرنين من الزمان.

وهذا ما حدث بالفعل حين أحل صلاح الدين كما ذكرنا اسم الخليفة العباسى محل الخليفة الفاطمى فى مسجد عمرو بن العاص يوم الجمعة[1]، وكان الخليفة الفاطمى العاضد ينازع الموت وكانت تلك أهم الخطوات التى آذنت برحيل الخلافة الفاطمية التى استمرت نحو قرنين من الزمان إلى غير رجعة.

يقول السيوطى فى تاريخه (تاريخ الخلفاء) فى أخبار سنة ٥٦٧ هـ:

قال العماد الكاتب: استفتح السلطان صلاح الدين بن أيوب سنة سبع بجامع مصر على الطاعة والسمع، وهو إقامة الخطبة الأولى منها بمصر لبنى العباس، وعفت البدعة، وصفت الشرعة.

وأقيمت الخطبة العباسية فى الجمعة الثانية بالقاهرة إلى أن يقول: وسير السلطان نور الدين بهذه البشارة شهاب الدين بن المطهر إلى بغداد، وأمرنى بإنشاء بشارة عامة تقرأ فى سائر بلاد الإسلام، فأنشأت بشارة أولها: الحمد لله معلى الحق ومعلنه، وموهى الباطل وموهنه، ومنها: ولم يبق بتلك البلاد منبر إلا وقد أقيمت عليه الخطبة لمولانا الإمام المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين..).

وقد كان المستضىء هو الخليفة العباسى آنذاك.

وأرسل الخليفة فى جواب البشارة الخلع والتشريفات لنور الدين وصلاح الدين وأعلاماً وبنوداً للخطباء بمصر، وسير للعماد الكاتب خلعة ومائة دينار.

وفى سنة ٥٦٩ هـ أراد جماعة فى مصر إعادة الخلافة إلى آل العاضد فقتلهم صلاح الدين وصلبهم بين القصرين، واعتبر فعلهم من الجرائم الكبرى التى فيها شق جماعة المسلمين.

(١) كان ذلك يوم الجمعة.. أيلول ١١٧١ ـ ٥٦٧ هـ وبذلك عادت مصر إلى الخلافة العباسية وتوحدت معها بعد أن فصلتها الخلافة الفاطمية الشيعية منها.

ولما تولى الخليفة الناصر العباسى (٥٧٥ هـ ـ ٦٢٢ هـ) بعث إلى صلاح الدين الخلع والتقليد.

وكتب صلاح الدين للخليفة يقول: (.. والخادم، ولله الحمد، خلع من كان ينازع الخلافة رداءها، وأساغ الغصة التى أذخر الله للإساغة فى سيفه ماءها).

وهكذا كان صلاح الدين رحمه الله يتبنى وحدة الخلافة وأنه إذا بويع لخليفتين يقتل الآخر منهما، وأن الوفاء واجب لبيعة الأول فالأول كما جاء فى أحاديث رسول الله ﷺ.

فالبداية إلى تحرير القدس قديماً وحديثاً يكون فى الوحدة بين الأمة الإسلامية، فإذا توحدت كلمتهم فتلك بشارة التحرير ونصرة الإسلام بإذن الله تعالى.

ولكن الأمر يستلزم الحكمة فى التصرف ومعرفة الوقت المناسب كما فعل صلاح الدين وذكرته كتب التاريخ عنه من معاصريه وكيف تصرف مع الخليفة العاضد الفاطمى وأهل بيته من بعد وفاة الخليفة.

يروى ابن شداد ـ وهو كاتب صلاح الدين الخاص ومؤرخ سيرته ـ وأبو شامة المقدسى[١] بعض الأمور التى تعكس حكمة صلاح الدين وبعد نظره وفهمه لإخوة الإسلام التى لا تسقط إلا بسقوط أصل الإسلام.

يروى ابن شداد أن نور الدين زنكى لما أرسل إلى صلاح الدين من الشام يأمره بالدعاء لخلفاء بنى العباس على المنابر، وهى الإشارة الرمزية إلى البيعة لهم والتخلص من منافسيهم الفاطميين، «راجعه صلاح الدين فى ذلك خوف الفتنة».

وزاد أبو شامة الأمر توضيحاً بالقول: «فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم عن الإجابة إلى ذلك، لميلهم إلى العلويين».

فصلاح الدين كان حريصاً على توحيد الكلمة بترفق وتلطف، ودون استعجال أو قفز على الوقائع الاجتماعية والثقافية المتراكمة على مر الزمان.

وبعد إصرار نور الدين على أن ينفذ صلاح الدين أمره، انتظر صلاح الدين حتى مرض الخليفة الفاطمى العاضد، فأقعده المرض عن حضور الصلوات وتسيير الشأن العام، فبدأ صلاح الدين فى التنفيذ، ولو أراد تنفيذ الأمر فى صحة الخليفة الفاطمى وقوته لفتح الباب أمام اقتتال داخلى بين المسلمين فى مصر.

---

(١) كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية.

ثم لما مات العاضد بعيد ذلك بمدة وجيزة ندم صلاح الدين على استعجاله فى تحويل الخطبة، وعدم التروى أكثر فى الأمر. قال أبو شامة: «أوما ندم صلاح الدين، فبلغنى أنه كان على استعجال بقطع خطبته وهو مريض، وقال: لو علمت أنه يموت من هذا المرض ما قطعتها إلى أن يموت».

وقبل أن يموت العاضد لم يجد أكثر رحمة وثقة من صلاح الدين ليستودعه أبناءه ويوصيه بإكرامهم، رغم بعد الشقة المذهبية بين الطرفين.

يذكر أبو شامة أن أبا الفتوح بن العاضد أخبره «أن أباه فى مرضه استدعى صلاح الدين فحضر، قال وأحضرنا، يعنى أولاده وهم جماعة صغار، فأوصاه بنا، فالتزم إكرامنا واحترامنا، رحمه الله».

وبناء على وصية العاضد هذه «نقل صلاح الدين أهل العاضد إلى موضع من القصر ووكل بهم من يحفظهم»، كما يروى ابن شداد.

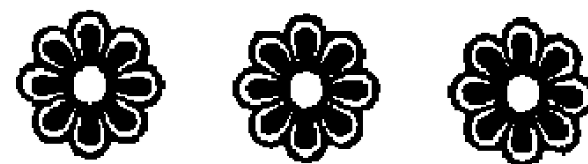
وقد أكد أبو شامة حسن معاملة صلاح الدين لأفراد أسرة الخليفة الفاطمى فكتب: «ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد، ووكل لحفظهم، وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم فى الإيوان فى القصر، وجعل عندهم من يحفظهم».

ونقل أبو شامة عن أبى الفتوح ابن الخليفة العاضد أن سلاح الدين «جعلهم فى دار برجوان فى الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة، وهى دار كبيرة واسعة، كان عيشهم فيها طيباً». وكذلك فليكن الوفاء والمشاعر الإنسانية التى تتجاوز الخلافات المذهبية والطائفية وتتعالى عليها.

ولما مات الخليفة الفاطمى لم يظهر صلاح الدين شماتة ولا غبطة برحيل عدوه المذهبى، كما يشمت حملة الفكر الطائفى اليوم بعضهم ببعض.

بل «جلس السلطان للعزاء، وبالغ فى الحزن والبكاء، والتوديع له إلى قبره(١).

وهكذا اتضحت حكمة صلاح الدين ووفاؤه للغير وإن كانوا على غير مذهبه.



(١) كتاب الروضتين ـ لأبى شامة المقدسى.

قيام صلاح الدين بإلغاء المذهب الشيعى في مصر وأساليبه فى ذلك وبيان حكمته وطرقه السلمية

حكم الفاطميون وهم على المذهب الشيعى الباطنى مصر وبلاد المغرب والشام وبلاد الحجاز (الحرمين الشريفين) أكثر من قرنين من الزمان.

بدأ حكمهم فى المغرب العربى عام ٢٦٥هـ وكان أولهم عبيد الله مؤسس دولتهم الذى مات عام ٣٢٢ هـ وتولى بعده ابنه القائم بأمر الله محمد الذى توفى عام ٣٣٣ هـ، ثم أبنه المنصور إسماعيل الذى توفى عام ٣٤١ هـ.

وخلال تلك الفترة حاول الخلفاء الفاطميون أن يوسعوا الأرض التى يحكمونها واستقطاع أراض جديدة من أراضى الخلافة العباسية التى كان يتحكم فيها السلاطين السابقون.

فكانت محاولات الفاطميين لاحتلال مصر فلم يستطيعوا ذلك رغم محاولاتهم المستمرة حتى نجح قائدهم جوهر الصقلى فى عهد خليفتهم المعز لدين الله معد بن المنصور إسماعيل من احتلال مصر والقضاء على الدولة الأخشيدية الحاكمة فيها التى كانت تحكم باسم الخليفة العباسى وذلك عام ٣٦٢.

وقام جوهر الصقلى ببناء مدينة القاهرة قبل قدوم الخليفة الفاطمى المعز لدين الله.

وتم احتلال بلاد الشام ثم بلاد الحجاز واتسعت دولة الفاطميين منذ عام ٣٦٢ هـ.

وبعد احتلالهم مصر والشام والحجاز قام الفاطميون بنشر المذهب الشيعى الباطنى فى البلاد التى احتلوها بما فيها مصر حتى أذن الله بانقضاء دولتهم ومذهبهم فيها وفى غيرها من البلدان وذلك حين استطاع عماد الدين زنكى ومن بعده نور الدين زنكى من إقامة دولتهم فى بلاد الشام ونشروا المذهب السنى فيها.

وبعد أربعة عشر خليفة انقرضت الدولة الفاطمية فى مصر بعد وصول صلاح الدين الأيوبى وعمه شيركوه بناء على طلب الخليفة العاضد الذى وجد نفسه أمام الاحتلال الصليبى لمصر والقضاء عليه فاستنجد بالملك نور الدين زنكى الذى لبى طلبه وأرسل له كبير قواده

يشركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبى كما ذكرنا.

وبعد أن أقيمت الخطبة لبنى العباس فى مصر بفضل حكمة صلاح الدين الأيوبى بناء على طلب الملك نور الدين زنكى توجهت جهود صلاح الدين للقضاء على المذهب الشيعى وإرجاع المذهب السنى للبلاد المصرية كما فعل نور الدين فى بلاد الشام.

ولم يكن الأمر سهلاً فقد عمل الفاطميون ودعاتهم فى مصر والبلاد التى حكموها على نشر مذهبهم الباطنى المخالف لتعاليم الإسلام الحنيف عن طريق بذل الأموال والترهيب والقتل حتى إنهم أنشأوا الجامع الأزهر لنشر مذهبهم الباطنى.

وكان قيام صلاح الدين بإعادة المذهب السنى لمصر وإلغاء المذهب الشيعى فيها له أسباب كثيرة هامة منها:

أنه وجد فى الشيعية منافساً قوياً له، حيث أعلنوا مراراً مطالبتهم وأحقيتهم بالحكم من صلاح الدين لكونه كردياً من ناحية[1]. وأنه ليس عربياً مصرياً من ناحية أخرى، ومن ناحية ثالثة فهو لا يدين بمذهبهم. حتى إنهم قاموا بثورات ضده.

وأعلن صلاح الدين عن نفسه حامى الخلافة العباسية والمدافع عنها، لذلك أعطى نفسه الحق فى قمع حركات الشيعة بشدة، حيث عدهم خارجين وبعيدين عن مذهب الخلافة العباسية عقيدة وفقهاً.

فقد أرسل الخليفة العباسى المستنجد (ت: ٥٦٦ هـ/ ١١٧٠ م)، إلى نور الدين زنكى (ت: ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م) أن يسقط الخلافة الفاطمية، الذى قام بدوره بالكتابة إلى صلاح الدين يأمره أن ينهى الخلافة الفاطمية) وإعادة مصر إلى الخلافة العباسية كما كانت من قبل أن يغزوها الفاطميين ولتوحيد الدول الإسلامية.

وقد ثبت وبشكل قاطع تحالف بعض الخلفاء الفاطميين ووزرائهم مع الصليبيين ضد صلاح الدين ومن قبله ضد نور الدين محمود، لذلك وجد فيهم عقبة فى سبيل تحرير الأراضى الإسلامية التى اغتصبها الصليبيون وأنهم سلموا لهم القدس من قبل ذلك.

ولهذا أخذ صلاح الدين الأيوبى خطوات هامة لتحقيق هذا الهدف بإنشاء المدارس.

---

(١) كانت أسرته عربية الأصل تعيش فى بلاد الأكراد.

١ ـ إنشاء المدارس الفقهية

وكانت أول مدرسة بنيت فى ديار الإسلام هى المدرسة البيهقية فى نيسابور، ثم المدرسة النظامية فى بغداد.

ثم أخذت المدارس تنتشر فى العراق وخراسان وغيرها من البلدان الإسلامية.

وعندما ملك صلاح الدين مصر، «لم يكن بها شىء من المدارس فقام ببناء عدة مدارس للشافعية والمالكية مقتدياً بالملك نور الدين محمود زنكى الذى بنى عدة مدارس فى بلاد الشام للحنفية والشافعية.

وقد تأسى بصلاح الدين فى إقامة المدارس فى مصر والشام أقرباؤه وأمراؤه والأغنياء من الفقهاء وغيرهم.

وقد مهدت هذه المدارس الطريق أمام طلاب العلم لينهلوا من معين العلوم الشرعية والعربية وغيرها بأيسر جهد، وأقصر وقت. وأقل التكاليف.

وأصبح طالب العلم غير محتاج أن ينتقل من بلد إلى آخر يبحث عن المدرسين بل صار المدرسون هم الذين يأتون إليه فى المدرسة.

وقد جعلت هذه المدارس من عهد صلاح الدين عهداً مشرقاً سواء فى مصر أو بلاد الشام، إذ أصبح محور استقطاب العلماء من جميع البلدان الإسلامية، لما كان يلاقيه الفقهاء من كريم العناية والرعاية.

ولما كان يغدقه صلاح الدين عليهم من أعطيات ومنح كثيرة، فقد بلغت المرتبات للفقهاء والمدرسين بدمشق فى عهده حوالى ثلاثمائة ألف دينار، وكان عددهم حوالى ستمائة مدرس وفقيه.

ولكى يضمن صلاح الدين دخلاً ثابتاً للمدارس التى ينشئها، كان يوقف عليها أوقافاً تكفى للإنفاق على الفقهاء (المدرسين والدارسين) كما هيئت لهذه المدارس كل أسباب الراحة ووسائل العيش، ليتفرغ الدارسون والمدرسون تفرغاً كاملاً للعلم.

وقد هدف صلاح الدين من إنشاء المدارس التى شيدها إلى مقاومة المذهب الشيعى، عن طريق تعليم فقه أهل السنة، ولاسيما مذهبه الذى كان يعتقده وهو المذهب الشافعى.

بالإضافة إلى أنها كانت مراكز لتثقيف الناس وتعليمهم لغتهم وأمور دينهم، وتبصيرهم بما يحيق بهم من مخاطر تهدد وجودهم، فعملت على إثارة روح الجهاد فى الناس، مما جعلهم يلتفون حول زعيمهم، مما مكنهم من تحقيق انتصارات باهرة على الصليبيين، حيث تمكن من فتح أغلب معاقل الصليبيين التى كانت منغرسة فى بلاد الشام.

والمدارس التى بناها صلاح الدين فى مصر هى:

المدرسة الناصرية: بناها صلاح الدين فى مصر (الفسطاط) سنة ٥٦٦ هـ/ ١١٧٠ م مكان سجن المعونة، وكان فى ذلك الوقت وزيراً، وجعل التدريس فيها على المذهب الشافعى.

المدرسة القمحية: بناها صلاح الدين فى أثناء وزارته، وجعل الدراسة فيها على المذهب المالكى.

المدرسة الصلاحية: أنشأها صلاح الدين بعد أن انفرد بحكم مصر، بجوار قبر الشافعى بالقرافة، وجعل التدريس فيها على المذهب الشافعى، وأول من درس بها الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشانى (ت: ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م) وجعل له فى كل شهر أربعين ديناراً عن التدريس. وعشرة دنانير عن النظر فى أوقاف المدرسة.

ورتب له من الخبز فى كل يوم ستين رطلاً، ورواتين من ماء النيل.

ووقف عليها حماماً بجوارها، وحوانيت بظاهرها وجعل فيها معيدين.

المدرسة السيفية: أسسها صلاح الدين بعد أن أصبح ملكاً لمصر، جعل التدريس فيها على المذهب الحنفى.

وعين للتدريس فيها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجينى، ورتب له فى كل شهر أحد عشر ديناراً. وباقى ريع وقفها، يصرفه على ما يراه لطلبة الحنفية المقررين عنده. على قدر طبقاتهم.

والجدير بالذكر أن تأثير صلاح الدين فى بعث المذهب السنى، لم يقتصر على مصر وبلاد الشام، بل امتد إلى الحجاز واليمن اللذين فتحا فى السنوات الأولى من حكمه، بقيادة أخيه شمس الدولة تورانشاه (ت: ٥٧٦ هـ/ ١١٨١ م) الذى أعاد هذه البلاد إلى سلطة الخلافة العباسية الروحية، حيث أمر بأن يخطب فى أيام الجمع للخليفة العباسى، واقتفى نهج أخيه فى محاربة المذهب الشيعى.

كما أن تأثير صلاح الدين فى إحياء مذهب أهل السنة، وصل إلى بغداد نفسها عاصمة

الخلافة العباسية، فنجد خلال الفترة التى حكم بها أن الخلافة العباسية بفضله، قد نفخت فيها روح جديدة، فأكسبتها نشاطاً وقوة لم تألفها منذ فترة طويلة ترجع إلى وفاة الخليفة المعتصم (ت: ٢٢٧ هـ/ ٨٤٢ م)، حيث أصبح وجود الخلافة وجوداً حقيقياً، بعد أن كان صورياً، وصار للخليفة هيبة، ومارس صلاحياته بشكل فعال.

وأصبح بمقدور الخليفة أن يعزل أكبر المتنفذين فى القصر من وزراء وكتاب ديوان وغيرهم، يدل على ذلك أن الخليفة المستضىء بنور الله، استطاع أن يتخلص من قطب الدين قايماز (ت: ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م) وفى العام الذى يليه تمكن من عزل عماد الدين صندل المقتفوى عن الإستادارية، وولى مكانه ابن الصاحب هبة الله بن على.

وآخر خليفة عاصره صلاح الدين، هو الناصر لدين الله (ت: ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥م) الذى خلف المستضىء.

كان أيضاً يتمتع بشخصية قوية. كانت تمثل له هيبة وكانت سيطرته على الأمور أكثر من سابقه يقول فيه السيوطى: كان الناصر قد ملأ القلوب هيبة وخيفة، فكان يرهبه أهل الأقطار، فأحيا بهيبته الخلافة.

وبلغ من تمكنه من السلطة، أن أمر بقتل مجد الدين أبو الفضل ابن الصاحب (ت: ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م)، وهو أستاذ دار الخلافة الذى كان متحكماً فى أمور الدول وكان أمراً طبيعياً، أن يرافق ازدياد قوة الخلافة، ازدياد قوة المذهب الذى تعتقده وتتبناه وهو المذهب السنى، وأن يضعف المذهب المنافس لمذهبها، هو المذهب الشيعى.

ففى عهد الخليفتين السابقين اللذين عاصرهما صلاح الدين نجد انحساراً ملحوظاً للمد الشيعى، يدل على ذلك قول الذهبى (ت: ٧٨٤ هـ/ ١٣٤٧ م) (وفى أيامه - المستضىء بنور الله - اختفى الرفض ببغداد ووهى، وأما بمصر والشام فتلاشى).

كما أنه فى عهد الناصر لدين الله، تعرض الشيعة لمضايقات كثيرة، فضعفت شوكتهم، وقوى نفوذ المذهب السنى).

وبالفعل لقد كان له الفضل الكبير فى بعث ونشر مذهب أهل السنة فقهاً وعقيدة فى أغلب البلاد العربية، لاهتمامه الزائد بالفقهاء والإكثار من إنشاء المدارس. ورسم الطريق لمن بعده فى كيفية المحافظة على أن تبقى راية الإسلام مرفوعة، وفى كيفية المحافظة على أن يظل الدين الإسلامى نقياً خالياً من الشوائب والبدع والهرطقة رحمه الله رحمة واسعة.

٢ ـ تغيير القضاة الشيعة إلى قضاة من أهل السنة

وكان تغيير القضاة الشيعة أمراً طبيعياً بعد إنشاء المدارس الفقهية لأهل السنة، لأن أحكام القضاء قائمة على أحكام الشريعة الإسلامية المستقاة من المذاهب الفقهية وهذا ما فعله صلاح الدين.

فقام بإسناد القضاء فى مصر إلى الفقيه الشافعى صدر الدين بن درياس فى عام ٥٦٦ هـ ـ ١١٧١ م وعهد إليه بتعيين قضاة نيابة عنه فى البلاد المصرية ـ بصفته قاضى القضاة. ولا شك أن تنصيب قاضى قضاة سُنى، مع وجود الخليفة الفاطمى «إجراء له دلالته السياسية الواضحة».

وقد قام ابن درياس بتنفيذ ما أسند إليه من مهام وأثبت جدارة فى عمله.

فقام بنقل خطبة الجمعة من الأزهر إلى المسجد الحاكمى كما قام بإسناد مناصب القضاة فى المدن المصرية إلى فقهاء من الشافعية أسهموا بدورهم فى نشر المذهب الشافعى، وبذلك استعاد المذهب السنى قوته.

وأدى ذلك إلى ضعف المذهب الشيعى، واخذ نجمه بالأفول عن سماء مصر حتى وقتنا الحاضر.

وعندما دخل صلاح الدين دمشق سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٣ م. بعد وفاة نور الدين زنكى، أبقى على قضائها كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزورى (ت: ٥٧٢ هـ/ ١١٧٦ م). رغم ما كان بينهما من عداوة. عندما كان صلاح الدين فى دمشق، قبل قدومه إلى مصر.

وبعد وفاة الشهرزورى. أسند صلاح الدين قضاء دمشق إلى الفقيه شرف الدين عبد الله بن أبى عصرون (ت: ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م) وكان صلاح الدين كلما فتح بلداً يولّى عليه قاضياً من أتباع المذهب الشافعى، وآخر من عيّن من القضاة قبل موته، هو القاضى بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الشافعى الذى عيّنه قاضياً على مدينة القدس وكان ذلك فى سنة (٥٨٨ هـ/ ١١٩٢ م).

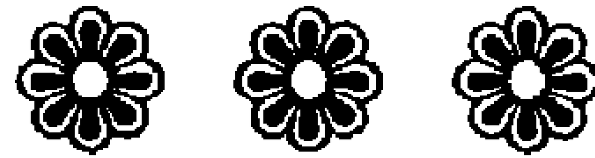
وتجدر الإشارة إلى أن صلاح الدين، قد جعل بعض القضاة مهمتهم، النظر فى المنازعات والخصومات التى تقع بين أفراد الجيش.

وأطلق عليهم قضاة الجند أو قضاة العسكر.

ومن أشهر هؤلاء القضاة، بهاء الدين بن شدّاد، والقاضى شمس الدين محمد ين موسى، المعروف بابن الفرّاش.

ولاهتمامه بمذاهب أهل السنة. ولا سيما المذهب الشافعى، جعل القضاة والمدرسين فى المدارس ممن يتبعونه، فلا غرابة إذن. أن يشيع المذهب الشافعى، وتصبح له الصدارة بين بقية مذاهب أهل السنة، وأدى ذلك إلى انحطاط منزلة المذهب الشيعى واندراسه. وانمحاء أثره، ولم يجرؤ أحد من أهل البلاد على إعلان تشيعه.

وصلاح الدين بجعله القضاء على المذهب الشافعى بدل المذهب الشيعى يعتبر عمله هذا «كمن قام بانقلاب سريع لإجراء تغيير مذهبى، ولكنه لم يكن عنيفاً أو دموياً».



٣ ـ اعتماد صلاح الدين على الفقهاء من أهل السنة فى أمور الحكم

اعتمد صلاح الدين على الفقهاء الذين من أهل السنة فشغلوا أعلى المناصب فى الدولة، فكان منهم الأمير فى الجيش، وكاتب الديوان، والقاضى، والمحتسب، والمدرس، والخطيب.

وإذا كان صلاح الدين، قد حارب خصومه فى الداخل والخارج بالسيف وغيره من أدوات القتال، فإن الفقهاء حاربوا الأعداء بأقلامهم وألسنتهم، عن طريق عملهم فى القضاء وتدريسهم فى المدارس ووعظهم الناس فى المساجد والخانقات فأدّوا دوراً هاماً فى كشف زيف وبطلان مذهب الفاطميين، وفى إذكاء روح الجهاد فى نفوس الجماهير، مما جعلهم يداً واحدة حول صلاح الدين، فمكّنه ذلك من تحقيق انتصاراته الخالدة على الصليبيين.

وأدى الفقهاء وعلى رأسهم الفقيه عيسى الهكّارى (ت: ٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م) دوراً كبيراً فى إقناع كبار الأمراء المعارضين لتولية صلاح الدين، أن يدخلوا فى طاعته. وكان لهذا الدور الأثر الكبير فى تثبيت قدم صلاح الدين فى الحكم.

كما كان للفقيه زين الدين بن النجا (ت: ٦٠٠ هـ/ ١٢٠٤ م) أيضاً، دور مهم فى ترسيخ ملك صلاح الدين فى مصر. حيث يعود الفضل إليه فى كشف المؤامرة الكبيرة التى تزعمها عمارة اليمنى (ت: ٥٦٩ هـ/ ١١٧ م)، والتى استهدفت قتل صلاح الدين وأنصاره، وإعادة الدولة الفاطمية بالتعاون مع الصليبيين الحشيشية الإسماعيلية فى الشام.

فلا غرابة إذن، أن يولى صلاح الدين الفقهاء اهتماماً كبيراً، وأن يجعلهم موضع رعايته وعنايته.

فحفظ لهم جميلهم، ووثق بهم، وقربهم إليه.

وكان صلاح الدين نفسه لديه اطلاع واسع على الفقه الشافعى، حيث كان يحفظ كتاب التنبيه. بالإضافة إلى أنه كان متديناً ورعاً، تقياً، زاهداً، محافظاً على تأدية صلاة الجماعة فى وقتها إلى غير ذلك من الصفات الحسنة التى ربى عليها، ويجب أن لا ننسى، أنه أدرك الدور الخطير الذى يمكن أن يقوم به الفقهاء من حيث قدرتهم على كسب الرأى العام وتحريكه نحو الجهة التى يريدها.

وإدراكاً منه لدور الفقهاء الهام فى المجتمع، اهتم بهم اهتماماً كبيراً، وأفاض عليهم من نعمه وإحسانه، وأغدق الهبات والأعطيات، يدل على ذلك أن العلماء فى دولته، كان لهم إقطاعات، وراتب يقارب الثلاثمائة ألف دينار.

كما قام بتقريب الفقهاء إليه فأحضر هم مجالسه، وكان يحسن الاستماع إليهم ويناقشهم فى كثير من المسائل. فقد كان ذا ثقافة دينية واسعة، حيث حفظ القرآن الكريم وكثيراً من الأحاديث النبوية، بالإضافة إلى معرفته الواسعة بالمذهب الشافعى.

ومن مظاهر اهتمام صلاح الدين بالفقهاء أيضاً، أنه كان كثير الاستشارة لكبارهم، فكان لا يقطع أمراً إلا بعد أخذ رأيهم فيه ويأتى فى طليعة كبار العلماء الذين كان يستشيرهم: كاتب ديوانه القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى (ت: ٥٩٦ هـ/ ١٢٠٠ م) يقول فيه صلاح الدين: لم أفتح البلاد بسيفى وإنما برأى القاضى الفاضل وكان لا يأتى أمراً إلا من بابه.

وبلغ من اعتماد صلاح الدين على رأى القاضى الفاضل أنه فى سنة ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢ م، عندما نوى تأدية فريضة الحج، استشار القاضى الفاضل، فأشار عليه بعدم الخروج للحج خوفاً من رجوع الصليبيين إلى القدس.

وكان صلاح الدين قد حررها من أيديهم. وبالفعل فقد أخذ برأى القاضى الفاضل ولم يحج(١).

ومن بين العلماء الذين أكثر صلاح الدين من استشارتهم: الفقيه زين الدين على بن إبراهيم بن نجا، الذى كان له الفضل ـ كما أشرنا ـ فى كشف مؤامرة عمارة اليمنى، فقد جعله صلاح الدين من كبار مستشاريه، وكان يسميه: عمرو بن العاص. بسبب دهائه وحسن حيلته. وكان كثيراً ما يأخذ برأيه لسداده.

قال أبو شامة المقدسى: كان للفقيه زين الدين بن نجا. منزلة عالية عند صلاح الدين. أحسن السلطان إليه بالأعطيات والإقطاعات، وكان السلطان يستشيره، ويروقه تدبيره ويميل إليه لقديم معرفته، وكريم سجيته(٢).

ومنهم أيضاً: الفقيه أبو محمد عيسى بن محمد الهكارى: الذى كان له الفضل فى إقناع كبار الأمراء المعارضين لتولية صلاح الدين الوزارة وفى الدخول فى طاعته، وكان لهذا الدور الأثر

---

(١) لم يكتب لصلاح الدين أداء فريضة الحج نظراً لانشغاله بالجهاد فى سبيل الله وقد توفى فى العام الذى نوى الحج فيه وقد استقرت الأمور لديه والرجا من الله أن يكتب له ثواب الحج بنيته.

(٢) انظر الروضتين فى أخبار الدولتين ـ لأبى شامة المقدسى.

الكبير فى تثبيت مركز صلاح الدين. حيث جاء فى الساعات الأولى لتولى صلاح الدين الوزارة.

ولم ينس صلاح الدين له هذا الجميل، لذلك قربه إليه، وأكرمه إكراماً وكان كثير الاستشارة له.

وبلغ من اهتمام صلاح الدين بالفقهاء أنه كان شديد الحرص على حضور دروس الفقهاء الوعظية، وكان فى كثير من الأحيان يصحب أبناءه معه لسماعها، ولاسيما دروس الفقيه الزاهد زين الدين بن نجا. ودروس الشيخ أبو الفتوح عبد السلام بن يوسف التنوخى.

كما حرص صلاح الدين على حضور مجالس المحدثين، يقول أبو شامة: «وكان يسمع الحديث بقراءة الإمام تاج الدين البندهى المسعودى»، وفى أثناء زيارته للإسكندرية سمع (الموطأ) على العالم أبى طاهر أحمد بن محمد السلفى (ت: ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١ م).

ومما يدل على اهتمام صلاح الدين بالفقهاء، أنه كان يقوم بزيارتهم فى بيوتهم، والأمثلة على ذلك كثيرة، نذكر منها: أنه عندما قدم إلى دمشق سنة (٥٧١ هـ/ ١١٧٥م). قام بزيارة القاضى كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزورى (ت: ٥٧٢ هـ/ ١١٧٧ م) فى منزله، وأزال ما كان بينهما من سوء تفاهم قديم يرجع إلى أثناء إقامة صلاح الدين فى دمشق قبل رحيله إلى مصر، وقام بتثبيته قاضياً لدمشق ونواحيها.

ومن جملة الحديث الذى دار بينهما خلال تلك الزيارة قول صلاح الدين للقاضى الشهرزورى: ما مشيت إلا لأزيل ما فى خاطرك من الوهم، وأعرفك أن ما فى قلبى لك نكرة فطب نفساً. وقر عيناً. فالأمر أمرك. والبلد بلدك.

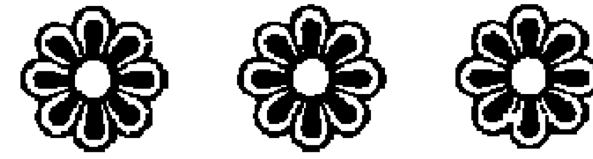
وفى سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م. عندما ترك صلاح الدين (حلب)، سار إلى المَعَرَّة، (معرة النعمان) وهناك قام بزيارة للفقيه الزاهد أبى زكريا المغربى فى بيته.

ولشدة ثقة صلاح الديم بالفقهاء، كان يتخير رسله ومبعوثيه إلى الخلفاء العباسيين والملوك والأمراء من الفقهاء، ممن اشتهر بسعة العلم، وحصافة الرأى، فقد قام صلاح الدين بإرسال وفد برئاسة الفقيه شمس الدين بن أبى المضاء إلى الخليفة العباسى المستضىء بنور الله (ت: ٥٧٥ هـ/ ١١٨٠ م)، وحمله رسالة تتضمن إعلام الخليفة العباسى بعودة الخطبة باسمه فى مصر، وفيها أيضاً يلتمس من الخليفة أن يقلده البلاد التى يحكمها وكل ما يفتحه من بلاد.

وقد نجح ابن أبى المضاء فى مهمته.

وترتب على هذه المهمة أن قام الخليفة بإرسال الخلع العباسية إلى صلاح الدين، وكتاب تقليد له بالبلاد التى يحكمها.

كما أرسل الفقيه عيسى الهكارى إلى الملك العادل نور الدين محمود زنكى، وحمله رسالة يعتذر فيها لنور الدين من تركه لمحاصرة قلعة الكرك وقد نجح الهكارى فى مهمته، حيث أن نور الدين زال ما فى نفسه، من شكوك وظنون ساورته حول إخلاص صلاح الدين له.



٤ ـ محاربته للبدع والفكر المنحرف من العلماء وأسباب قتله لأحد علماء البدعة السَّهْرَوَرْدِى

كما أظهر صلاح الدين رحمه الله مذهب أهل السنة فى مصر والشام بعد أن ملكها عقب وفاة نور الدين زنكى فقد حارب البدع وأهل الفرق والمذاهب الفتاكة كالمعطلة والدهرية والقدرية وغيرهم.

وحين تولى حكم الشام أمر ابنه الملك الظاهر غازى حاكم حلب بعد فتوى العلماء بتكفير أحد دعاة المذاهب المنحرفة الفيلسوف يحيى بن حبش السهروردى عام ٥٨٧ هـ ـ ١١٩١ م وكانت الأسباب التى أبداها الفقهاء أن السهرودى خلط بين الفلسفة اليونانية وديانات الفرس والأديان الوثنية بالإسلام فقال بأن النبوة لا تنتهى وأن الرسول ﷺ ليس بخاتم النبيين، وأن الولى الإمام عند الصوفية أفضل من النبى.

وقد تبنت بعض الفرق التى تنتمى إلى الإسلام هذا المذهب وخاصة بعض مدعى التصوف التى تعد الولى أفضل من النبى فى المنزلة وهناك من الفرق التى تدعى أن الرسول ﷺ ليس بخاتم النبيين وان الخاتم ليس بالأخير وانما هو الأفضل وان معنى قوله تعالى عن رسوله محمد ﷺ انه «خاتم النبيين» أى أفضلهم وادعوا أن الميرزاغلام أحمد القاديانى نبى وأنه المهدى الموعود والمسيح المنتظر أيضاً.

بالإضافة إلى ذلك، كان يقول: إن الله يملك إن شاء أن يخلق نبياً، وسمّى نفسه المؤيد بالملكوت.

لذلك رماه فقهاء حلب بالزندقة والإلحاد، وكتبوا إلى صلاح الدين، وحذروه من فساد عقائد الناس إذا أبقى عليه، فما كان من صلاح الدين، بعد أن ثبت لديه كفر السهروردى، أن كتب كتاباً إلى ابنه الظاهر يأمره فيه بقتل السهروردى.

ثم إنه لو لم يقتله لحدثت فتنة كبيرة، بين أنصار السهروردى وخصومه ممن يعتنقون مذهب أهل السنة عقيدة وفقهاً، تؤدى إلى إزهاق أرواح كثيرة، فينعكس أثر هذه الفتنة على

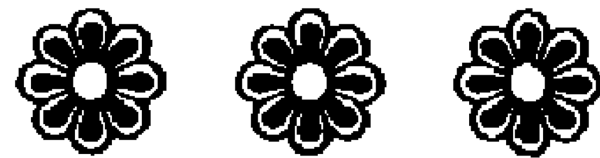
تماسك الجبهة الداخلية، التى كان صلاح الدين حريصاً أشد الحرص، على أن تبقى قوية ومتماسكة، وموحّدة، لتحقيق أسمى أمنياته، وأمنيات المسلمين، بطرد الصليبيين من بلاد الشام، الذين شكّلوا أكبر خطر هدد الإسلام والمسلمين فى ذلك الوقت.

ولا شك فى أن صلاح الدين قد رأى فى التخلص من السهروردى، تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وهذا أمر يتحتم العمل به فلأن تزهق روح واحدة أولى من أن تزهق أرواح كثيرة، وأولى من أن يُمس الدين بسوء، وتتعطل أحكامه، وأى حاكم كان مكانه لا بد من أن يفعل مثله.

وربما كان وراء الدافع لقتل السهروردى، هو أن صلاح الدين خشى على ولده غازى، أن يُفتن بآراء وأفكار السهروردى، وهذا لو تم، فإنه لا شك. سيؤدى إلى حدوث انقسام فى البيت الأيوبى، وهذا مما لا يسمح به صلاح الدين، لما يترتب عليه من أخطار، تؤدى إلى ضياع الجهود التى بذلها من أجل بناء مملكة موحدة وقوية.

يضاف إلى ذلك أن السهروردى فى فلسفته كان متأثراً بالمذهب الإسماعيلى الذى يقول إن أولاد على بن أبى طالب رضي الله عنه هم صور للتجلّى الإلهى، لذلك اعتبره صلاح الدين ثائراً سياسياً يسعى للقضاء على حكمه فأمر بقتله.

وهذا يرد على زعم من قال إن صلاح الدين قتل هذا الرجل ظلماً وعدواناً.



٥ ـ قيام صلاح الدين بنشر المذهب السنى في بلاد الشام والحجاز بإنشاء المدارس الفقهية:

كما فعل صلاح الدين فى مصر حين آلت إليه مقاليد الحكم كوزير وحاكم فعلى بعد موت الخليفة الناصر الفاطمى، ثم تولى حكم الشام والحجاز بعد وفاة الملك نور الدين زنكى من نشر للمذهب السنى فى مصرقام بنفس العمل فى الشام فأنشأ المدارس الفقهية وجدد الموجود منها والتى انشأها سلفه نور الدين زنكى.

ومن هذه المدارس التى أنشأها وشجع غيره من الأغنياء على بنائها أكبر دلالة على اهتمامه بالفقهاء والعلم الشرعى كما أنه أنشأ خانقات للصوفية السنية الغير مبتدعة ومن المدارس التى أنشأها نذكر: ـ

المدرسة الصلاحية: بناها صلاح الدين فى دمشق، وجعل التدريس فيها على المذهب الشافعى.

المدرسة الكلاّسكية: بُنيت فى زمن نور الدين محمود زنكى. وأمر صلاح الدين بتجديد عمارتها سنة ٥٧٥ هـ/ ١١٧٩ م.

المدرسة الغزالية: أسست فى عهد نور الدين محمود زنكى، واهتم صلاح الدين بإصلاحها. وجعل قرية (حزم) من أعمال حوران وقفاً عليها. وعلى المشتغلين بها من العلوم الشرعية وجعل النظر والتدريس فيها لقطب الدين مسعود النيسابورى الشافعى (ت: ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م. وفى سنة ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م أمر ببناء مدرسة فى الإسكندرية خلال زيارته لها كما أمر ببناء مدرسة كبيرة فى الموصل).

والمدرسة الصلاحية: أنشأها صلاح الدين فى مدينة القدس سنة ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢ م. وجعل التدريس فيها على المذهب الشافعى، وجعلها وقفاً على أهل العلم، وإلى الآن يوجد كتاب وقفها منقوشاً على حجر كبير وُضع على باب المدرسة، ونصه كالآتى «بسم الله الرحمن الرحيم، وما بكم من نعمة فمن الله، هذه المدرسة المباركة وقفها مولانا الملك الناصر صلاح

الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين، أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذى محيى دولة أمير المؤمنين، أعزّ الله أنصاره، وجمع له بين خير الدنيا والآخرة، على الفقهاء من أصحاب أبى عبد الله محمد بن ادريس الشافعى ﷺ، سنة ثمان وثمانين وخمسمائة.

مدرسة دار الغزل: جعلها صلاح الدين للمالكية، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة وإلى جانب المدارس، شيد صلاح الدين أيضاً الجوامع الكثيرة والخانقات الصوفية، ولا يخفى أن هذه الأمكنة كان يعقد فيها حلقات دروس فى الفقه ومختلف العلوم الشرعية.

ومن المدارس التى أسست فى عهده والتى بناها غيره من أفراد الشعب نذكر:

المدرسة الإقبالية: أنشأها خادم صلاح الدين جمال الدين بن جمال الدولة وقسمها إلى قسمين أحدهما للشافعية والآخر للحنفية.

مدرسة منازل العز: كانت فى الأصل داراً تابعة للقصر الفاطمى فى القاهرة، اشتراها الأمير تقى الدين بن عمر شاهنشاه بن أيوب، ابن أخى صلاح الدين، وجعلها مدرسة للشافعية سنة ٥٧٤ هـ/ ١١٧٨ م).

(كما بنى هذا الأمير فى دمشق المدرسة التقوية) وأنشأ مدرستين بالفيوم للشافعية والمالكية كما بنى مدرسة فخمة فى حماة.

المدرسة العادلية: عمرها أخو صلاح الدين العادل أبو بكر أيوب، فى القاهرة، وكان بناؤها متقناً محكماً لا نظير له فى بنيان المدارس.

المدرسة الشامية: بنتها أخت صلاح الدين ست الشام فى دمشق، وهى من مدارس الشافعية.

مدرسة الصاحبية: بنتها ربيعة خاتون فى دمشق للحنابلة.

المدرسة الأزكشية: بناها الأمير سيف الدين أيازكوج الأسدى. أحد أمراء صلاح الدين وجعلها وقفاً على الفقهاء من الحنفية.

المدرسة العاشورية: كانت داراً لليهودى ابن جميع الطبيب كاتب الأمير بهاء الدين قراقوش، فاشترتها منه الست عاشوراء بنت ساروح الأسدى زوجة الأمير أيازكوج الأسدى، ووقفتها على الحنفية، وكانت من دور الحسنة.

المدرسة الفاضلية: بناها القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى (ت: ٥٩٦ هـ/ ١٢٠٠ م) سنة ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م. ووقفها على الشافعية والمالكية، ووقف بها ما يقارب مائة ألف كتاب.

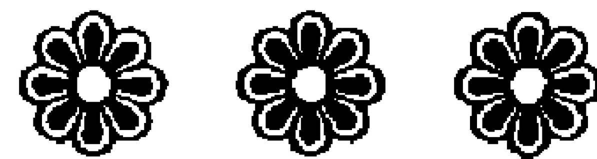
المدرسة العصرونية: أنشأها قاضى القضاة الفقيه شرف الدين أبو سعيد عبد الله بن محمد بن أبى عصرون (ت: ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م).

المدرسة القطبية: بناها قطب الدين خسرو بن بلبل بن شجاع الهدبانى فى سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م. وجعلها وقفاً على الفقهاء الشافعية.

المدرسة الأرسوقية: بناها التاجر عفيف الدين عبد الله بن محمد الأرسوقى (ت: ٥٩٣ هـ/ ١١٩٧ م) فى سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م).

أما الجامع الأزهر الذى بناه الفاطميون ليكون مركزاً لنشر عقائد الشيعة، لم يعد يحتل المرتبة الأولى بين مراكز العلم، بل أصبح فى المرتبة الثانية من الأهمية ويرجع ذلك إلى المدارس الكثيرة التى أحدثها صلاح الدين، ثم إلى نقله خطبة الجمعة من الأزهر إلى الجامع الحاكمى. وبقيت الخطبة معطلة بالجامع الأزهر إلى عهد السلطان المملوكى الظاهر بيبرس (ت: ٦٧٦ هـ/ ١٢٧٧ م).

وبهذا استكمل صلاح الدين المشوار الذى بدأه عماد الدين زنكى ومن بعده ابنه نور الدين زنكى من توحيد الصفوف وإحياء المذهب السنى فى العالم الإسلامى تمهيداً لجمع الشمل وقتال الصليبيين وتحرير البلاد الإسلامية من براثن احتلالهم لها وقد توج صلاح الدين هذا المشوار بتحرير المسجد الأقصى.



دور النساء (الخاتونات) من بنى أيوب
فى إثراء الحياة العلمية والدينية

قامت نساء بنى أيوب بإنشاء المؤسسات التعليمية كالمدارس ودور الحديث، بل تفقه بعضهن فى الدين ورواية الحديث وتحولت دورهن إلى قبلة للعلم والعلماء، ووجد منهن محدثات أخذ عنهن الحديث رجال بارزون آنذاك، ومن هؤلاء الخاتونات أخوات صلاح الدين الأيوبى:

أولاً: أخوات صلاح الدين ودورهن فى إنشاء المؤسسات التعليمية والدينية:

١ ـ الخاتون ست الشام:

من أبرز هؤلاء الخاتون ست الشام[1] بنت الأمير نجم الدين وأخت السلطان الكبير صلاح الدين الأيوبى التى اهتمت بالحياة العلمية والثقافية بشكل كبير، تمثل ذلك بإنشائها مدرستين كبيرتين بدمشق.

أما المدرسة الأولى فهى المدرسة الشامية البرانية؛ وعرفت أيضاً بالمدرسة الحسامية نسبة إلى حسام الدين عمر بن لاجين، ابن الخاتون ست الشام.

وتقع فى ظاهر دمشق بمحلة العونية.

ويذكر أن مكانها كان يعرف بالعقيبة الكبرى بالقرب من سوق صاروجا الذى كان يسمى من قبل بالعينية.

وكانت هذه المدرسة أحادية المذهب حيث أوقفتها الخاتون ست الشام على أصحاب المذهب الشافعى.

وتعتبر هذه المدرسة من أكبر المدارس وأعظمها فى مدينة دمشق، وبها كثير من الفقهاء، وذلك نظراً لكثرة الأوقاف التى أوقفتها عليها الخاتون ست الشام، حيث قدر ما أوقفته عليها «ثلاثمائة فدان، حده قناة الريجانية إلى أوائل القبيبات إلى قناة حجيرا ودرب البويضا ومنه إلى وادى التحتانى ووادى السفرجل، وقدره نحو عشرين فداناً ومنه ثلاثة كروم وغير ذلك.

(١) كان يطلق على نساء العائلة المالكة الأيوبية لقب خاتون.

وحتى تضمن الخاتون ست الشام استمرار ما أوقفته على المدرسة الشامية البرانية، ولكى لا يتعدى عليه أحد أرسلت وكيلها ابن الشيرجى إلى قاضى القضاة زكى الدين ليحضر إليها بدارها فحضر ومعه أربعون عدلاً من أعيان دمشق ليشهدوا على أنها أوقفت أملاكها على تلك المدرسة.

وبذلك ظلت المدرسة التى عرفت بالشامية البرانية قبلة للعلم والعلماء طوال العصر الأيوبى.

واستمرت حتى العصر المملوكى، فخرجت الكثير من العلماء والفقهاء والمحدثين والمفسرين، منهم تقى الدين بن الصلاح، وشمس الدين بن الأعرج، وشمس الدين بن المقدسى وغيرهم الكثير.

ومما تجدر الإشارة إليه إلى الخاتون ست الشام كان من شروطها لمن يدرس فى هذه المدرسة ألا يجمع بينها وبين غيرها من المدارس.

ولعل هذا يعطى انطباعاً عن طبيعة عمل المدرسين فى العصر الأيوبى، فمنهم من كان يقتصر عمله فى مدرسة واحدة، وهناك من كان يجمع بالتدريس بين أكثر من مدرسة.

أما المدرسة الثانية فقد عرفت بالمدرسة الشامية الجوانية.

وتقع قبلى البيمارستان النورى بدمشق، ويبدو أنها كانت من قبل داراً للخاتون ست الشام، حيث تذكر المصادر أن دارها كانت بالقرب من البيمارستان النورى بدمشق.

كما يذكر النويرى أن الخاتون ست الشام عندما لحق بها المرض «جعلت دارها مدرسة ووقفت عليها وقوفاً».

وكانت هذه المدرسة أيضاً أحادية المذهب، أوقفتها الخاتون ست الشام على أصحاب المذهب الشافعى.

ويذكر النعيمى الأوقاف التى أوقفتها الخاتون ست الشام على هذه المدرسة ومنها ضيعة بيزينة، وأخرى تعرف بجرمانا من بيت لهيا، وعدة أسهم من ضيعة تعرف بالتينة والضيعة المعروفة بمجدل القرية ونصف ضيعة تعرف بمجدل السويداء ولعل هذا يوضح مدى اهتمام الخاتون ست الشام وحرصها على أن تستمر هاتان المدرستان قائمتين على عملهما، كما يوضح أيضاً مدى اهتمامها بدراسة وتدريس المذهب الشافعى الدى يبدو أنها كانت تنتمى إليه.

لذا فقد أوقفت عليهما الكثير من الأوقاف لتضمن استمرار سير العملية التعليمية،

واستمرارية إيرادات ومصروفات المدرسة ومرتبات مدرسيها وهيكلها الإدارى، حيث كان ينفق من إيرادات هذه الأوقاف على تلك الجوانب.

ويتضح مما سبق الدور الكبير الذى قامت به الخاتون ست الشام فى إثراء الحياة العلمية والثقافية فى العصر الأيوبى خاصة وأن دارها كانت قبلة للعلم والعلماء، كما كانت ملجأ للقاصدين.

٢ـ السيدة ربيعة خاتون:

أما السيدة ربيعة خاتون، أخت السلطان صلاح الدين الأيوبى، فقد قامت أيضاً بدور كبير فى إثراء الحياة العلمية والثقافية فى العصر الأيوبى.

فمنذ أن وصلت إلى دمشق بعد وفاة زوجها مظفر الدين كوكبورى فى عام ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م وأقامت بها بدأت تجذب حولها الدارسين والعلماء.

وكان على رأسهم الشيخة الصالحة العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلى التى أنشأت مدرسة للحنابلة بدمشق تقع شرقى الرباط الناصرى وكان لها تصانيف كثيرة.

وقد قامت السيدة العالمة أمة اللطيف فى خدمة ربيعة خاتون، ويقال إنها هى التى أشارت عليها بإنشاء المدرسة التى عرفت بالصاحبية، فأنشأتها السيدة ربيعة خاتون، وهى تقع على سفح جبل قاسيون من الشرق.

وأوقفت التدريس فيها إلى الناصح بن الحنبلى فى عام ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١ م.

وهى الآن معروفة ومشهورة فى حارة الأكراد بدمشق ومما تجدر الإشارة إليه أن السيدة الفاضلة العالمة أمة اللطيف كانت دائماً فى خدمة السيدة ربيعة خاتون؛ وكانت ربيعة خاتون ترجع إليها فى كثير من الأمور.

لذا فقد أجزلت لها الكثير من الأموال لإنفاقها على ما تؤلفه من تصانيف.

ولما توفيت ربيعة خاتون لقيت السيدة العالمة أمة اللطيف الكثير من الشدائد والمتاعب بسبب ما منحته لها ربيعة خاتون من أموال؛ فقد صودرت أموالها، بل وطولبت بالأموال التى منحتها لها ربيعة خاتون، واعتقلت بقلعة دمشق.

وظلت فى حبسها إلى أن أطلقت من الحبس بعد ثلاث سنوات.

وقد توفيت السيدة ربيعة خاتون عن عمر يناهز الثمانين عاماً فى دمشق بدار العقيقى فى عام ٦٤٣ هـ/ ١٢٤٥ م، ودفنت فى مدرستها التى أوقفتها على الحنابلة بسفح جبل قاسيون.

ولم تحدد المصادر من الذى اعتقل أمة اللطيف؟ ولماذا اعتقلت؟ فربما يكون السبب وراء ذلك مرافقتها للسيدة ربيعة خاتون أثناء حياتها، ومكوثها فى بيتها بعد وفاتها.

وقد تزوج الملك الأشرف موسى الأيوبى ابن الملك المنصور إبراهيم، صاحب حمص، السيدة الفاضلة العالمة أمة اللطيف بعد إطلاق سراحها، وسافرت معه إلى الرحبة حيث توفيت بها فى عام ٦٥٣ هـ/ ١٢٥٥ م.

ولعل هذا كان رداً لاعتبار هذه العالمة الفاضلة التى أسهمت هى الأخرى بدور كبير بمصنفاتها وعلمها فى إثراء الحركة العلمية خلال العصر الأيوبى.

ولعل ما سبق يوضح مدى اهتمام السيدة ربيعة خاتون بالدارسين والعلماء، حتى إنها كانت تصاحبها فى بيتها العالمة الفاضلة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلى.

يضاف إلى ذلك أن السيدة ربيعة خاتون كان لها الكثير من الأوقاف التى أوقفتها على المدارس وفى وجوه الخير، مما يدل على قيامها بدور كبير فى الحركة العلمية آنذاك.

وإذا كان لست الشام وربيعة خاتون، أختا السلطان الكبير صلاح الدين الأيوبى، هذا الدور الكبير فى الحركة العلمية فى بلاد الشام وخاصة دمشق، فقد كان للخاتونات بنات السلطان العادل الأيوبى أيضاً دورهن البارز فى الحركة العلمية فى مصر والشام إبان تلك الفترة.

أما السلطان صلاح الدين الأيوبى فلم يكن له سوى ابنة واحدة وهى مؤنسة خاتون التى تزوجها ابن عمها الملك الكامل محمد ابن السلطان الملك العادل الأيوبى.

والحقيقة أن المصادر لم تعط معلومات وافية عن مؤنسة خاتون ابنة السلطان صلاح الدين الأيوبى.

وربما يرجع هذا إلى كثرة الأبناء الذكور للسلطان صلاح الدين الذين شغلوا أماكن كثيرة فى الدولة الأيوبية، يضاف إلى هذا انشغال الأقلام فى تلك الفترة بأخبار الجهاد ضد الصليبيين والأحوال السياسية فى الدولة الإسلامية.

ثانياً: الخاتونات بنات السلطان العادل الأيوبى ودورهن فى إنشاء المدارس العلمية والدينية:

كان للسلطان العادل الأيوبى عدة بنات ظهر لمعظمهن دور كبير فى إثراء الحركة العلمية فى مصر والشام فى العصر الأيوبى.

ويقول ابن واصل فى ذكر أولاد الملك العادل الأيوبى «كان للملك العادل فيما أعلم ستة عشر ولداً ذكراً سوى البنات».

ولم يحدد عدد هؤلاء البنات، فى حين ذكر الحنبلى أربعاً فقط من بنات السلطان العادل الأيوبى، وهن غازية خاتون، وضيفة خاتون، اللتان تزوجهما الملك الظاهر، صاحب حلب، الواحدة بعد الأخرى وملكة خاتون، التى تزوجها الملك المنصور، صاحب حماة.

ثم أضاف إليهن تلك التى تزوجها معز الدين قيصر شاه ابن سلطان سلاجقة الروم ولم يحدد اسمها.

وقد وجد أن هناك ثلاث بنات أخريات من بنات السلطان العادل الأيوبى لم يذكرهن الحنبلى، إحداهن التى تزوجها ابن عمها الملك العزيز عثمان، صاحب مصر، والثانية عصمة الدين مؤنسة خاتون، والثالثة زهرة خاتون.

يبدو أن السلطان الملك العادل كان له عدد كبير من البنات، وقد أسهم معظمهن بدور كبير فى الحركة العلمية ومن هؤلاء:

١ ـ **الخاتون السيدة ضيفة خاتون**: التى حكمت حلب لمدة ست سنوات نيابة عن ابن ابنها الملك الناصر، وكان لها دور بارز فى إثراء الحركة العلمية فى حلب، حيث اهتمت بالعلم والعلماء، وقربت إليها أهل العلم والدين وبذلت لهم الكثير.

فضلاً عن أنها أنشأت مدرسة شافعية المذهب فى عام ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٦ م بظاهر حلب عرفت بمدرسة الفردوس.

تقع خارج باب المقام وقد عينت فيها السيدة ضيفة خاتون عدداً كبيراً من القراء والفقهاء والصوفية.

٢ ـ **أما عصمة الدين مؤنسة خاتون**: ابنة الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، وشقيقة الملك الأوحد قطب الدين أحمد، فقد ولدت فى عام ٦٠٣ هـ/ ١٢٠٦م، وعاشت فى مصر، وتعلمت بها، وبرعت فى دراسة الحديث حتى أصبحت من أشهر محدثات عصرها.

فسمع منها وتخرج على يديها الكثير من المحدثين.

ومما يؤكد هذا أن الحافظ أبا العباس أحمد قد خرج لها أحاديث كثيرة حدثت بها، ولم يقتصر جهد السيدة عصمة الدين مؤنسة خاتون فى الحياة العلمية على دراسة الحديث وتدريسه فقط، بل اهتمت بالأدب ودراسته، فضلاً عن ذلك فقد أنشأت مدرسة فى مصر فى

أول حارة زويلة برحبة كوكاى عرفت بالمدرسة القطبية، نسبة إلى أخيها الملك الأوحد قطب الدين أحمد.

وكانت تلك المدرسة بمثابة معهد علمى كبير خصص لدراسة العديد من العلوم الدينية؛ إذ كانت مركزاً لدراسة الفقه الشافعى والحنفى إلى جانب أنها كانت داراً لإقراء القرآن الكريم، يدرس فيها القرآن الكريم وعلومه.

ولكى يستمر سير العملية التعليمية فى تلك المدرسة أمرت السيدة مؤنسة خاتون بشراء وقف ينفق من إيراده على متطلباتها.

وكل هذا يؤكد أن عصمة الدين مؤنسة خاتون قد لعبت دوراً كبيراً فى الحركة العلمية؛ إذ كانت ضمن أشهر علماء عصرها فى العلوم الدينية والأدبية، ولكنها برعت بصفة خاصة فى علم الحديث.

وقد أنشأت المدرسة القطبية التى عنيت بدراسة العديد من فروع العلوم، مما يدل على اسهاماتها الفعالة فى إثراء الحركة العلمية ليس فى العصر الأيوبى فحسب، بل امتد جهدها أيضاً إلى العصر المملوكى.

حيث امتد عمرها منذ ولادتها فى عام ٦٠٣ هـ/ ١٢٠٦ م إلى أن توفيت فى عام ٦٩٢ هـ ١٢٩٣ م، عن عمر يناهز التسعين عاماً.

ويقول المقريزى عنها أنها «كانت عاقلة، دينة فصيحة، لها أدب وصدقات كثيرة وتركت مالاً جزيلاً».

ولاشك أن رواية المقريزى إنما تدل على فصاحة وسعة علم وتدين هذه السيدة الفاضلة.

كما تدل أن دارها كانت قبلة للعلم والعلماء فضلاً عن كثرة صدقاتها وبرها بالفقراء ودور العلم.

٣ - **كذلك برز دور السيدة زهرة خاتون**: ابنة الملك العادل سيف الدين أبى بكر ابن أيوب، فى الحركة العلمية فى العصر الأيوبى، إذ أنشأت المدرسة العادلية الصغرى بدمشق داخل باب الفرج، شرقى باب القلعة.

ويشير إلى ذلك ابن شداد[1] أن المدرسة العادلية الصغرى منشئتها زهرة خاتون بنت

---

(١) النوادر السلطانية - لابن شداد.

الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب.

فقد كانت تلك المدرسة من قبل داراً وحماماً تعرف بدار ابن موسك، ثم اشترتها زهرة خاتون، وحولتها إلى مدرسة، وأوقفت عليها الكثير من الأوقاف للإنفاق عليها، كما عينت فى المدرسة «مدرساً ومعيداً وإماماً ومؤذناً وبواباً وعشرين فقيها».

ويتضح من هذه الرواية أمران مهمان، أما الأمر الأول فهو شكل الهيئة التعليمية فى مدارس العصر الأيوبى؛ إذ كان على رأس تلك الهيئة المدرس الذى كان دائماً يختار على أساس شهرته ومكانته وسعة علمه، ويعتبر من مشايخ علماء العصر؛ لأن هذا الاعتبار تتوقف عليه سمعة وشهرة المدرسة.

لذا فقد كان من واجبات المدرس أن يعطى الدرس حقه شرحاً وتوضيحاً؛ ثم يأتى بعده المعيد، الذى كانت مهمته كما أوضحها القلقشندى، إعادة ما ألقاه المدرس على الطلبة بعد انصرافه ليزداد فهمهم.

كما عرف السبكى المعيد بأنه «عليه قدر زائد على سماع الدرس ومن تفهمهم بعض الطلبة ونفعهم وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة».

ويتضح من هذا أن المعيد كان يساعد المدرس، حيث يعيد على الطلبة ما ألقاه المدرس، فهو أكبر منهم درجة ويجلس معهم ليستمع إلى ما يعطيه المدرس، ثم يرجع إليه الطلاب ليشرح لهم ما قد يكون قد صعب عليهم.

ولعل هذا يبين أيضاً أن المدارس الأيوبية كانت أشبه بجامعات اليوم؛ مما يدل على أنها كانت فى أوج من الرقى والإتقان.

وإلى جانب المدرس والمعيد، كان يعين عدد كبير من الفقهاء فى المدرسة الأيوبية.

الأمر الثانى فهو أن المدرسة الأيوبية كانت بمثابة مسجد تقام فيها الصلاة؛ لذا فقد كان يعين فيها مؤذن وإمام، مما يدل على مدى التشابه بين المسجد والمدرسة الأيوبية.

ويرجع السبب فى هذا التشابه إلى أن كلا منهما كان يتقرب بإنشائهما العبد إلى ربه، فإذا كان إنشاء المساجد يعتبر من أجل الأعمال التى يمكن أن يتقرب بها المسلم إلى ربه فإن المدارس أيضاً اعتبرت قلاعاً للعقيدة وحصوناً للدين؛ لأن الإسلام حث على العلم والتعلم، ومادام الهدف متقارباً بين المسجد والمدرسة، فإن الوظائف والمهام تشابهت إلى حد كبير يقترب من التطابق، بمعنى أن المسجد صار مكاناً للعبادة والدرس، فى حين صارت المدرسة

مكاناً للدرس والعبادة.

وكذا السيدة زهرة خاتون، ابنة السلطان العادل الأيوبى، قد أسهمت هى الأخرى بدور فى الحركة العلمية فى العصر الأيوبى، تمثل فى إنشاء المدرسة العادلية التى تخرج منها الكثير من العلماء.

وهكذا أسهمت الخاتونات بنات السلطان العادل الأيوبى فى إثراء الحركة العلمية فى مصر والشام فى العصر الأيوبى.

ومما تجدر الإشارة إليه أن السلطان العادل قد أنجب ستة عشر ولداً كان فى طليعتهم الملك الكامل محمد، سلطان مصر والشام، والملك المعظم عيسى، صاحب دمشق، والملك الأشرف موسى، صاحب الجزيرة، وغيرهم كانوا جميعاً على ثقافة عالية، ومعرفة غزيرة بالعلوم الدينية والأدبية.

فضلاً عن معرفتهم نظم الشعر العربى وإسهامهم الكبير فى دفع الحركة العلمية بما أنشؤوه من مدارس ومساجد وزوايا وربط ودور للحديث انتشرت بكل من مصر والشام وكانت بمثابة معاهد علمية كبيرة.

ثالثاً: دور نساء أخريات من العائلة الأيوبية:

١ ـ السيدة عذراء خاتون ابنة نور الدولة شاهنشاه:

السيدة عذراء خاتون بنت الأمير نور الدولة شاهنشاه نجم الدين أخو السلطان صلاح الدين أنشأت مدرسة بحارة الغرباء بدمشق داخل باب النصر فى عام ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م.

وقد أشارت المصادر إلى أن السيدة عذراء خاتون قد أوقفت تلك المدرسة على تدريس المذهبين الشافعى والحنفى.

أى أنها كانت مدرسة ثنائية المذهب؛ مما يدل على أنها تخرج منها الكثير من العلماء والفقهاء على المذهبين الشافعى والحنفى.

٢ ـ السيدة خديجة خاتون ابنة الملك المعظم عيسى:

السيدة خديجة خاتون بنت الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل سيف الدين أبى بكر ينسب إليها إنشاء المدرسة المرشدية بدمشق والتى تقع فى جبل الصالحية على نهر يزيد بجوار دار الحديث الأشرفية.

وتعتبر تلك المدرسة من المدارس الحنفية بدمشق، حيث كان يدرس فيها المذهب الحنفى.

والمعروف أن أباها الملك المعظم عيسى كان الوحيد من أبناء السلطان العادل الأيوبى الذى اتبع المذهب الحنفى، بل «كان مغالياً فى التعصب لمذهب أبى حنيفة»، «وقال له أبوه مرة: كيف اخترت مذهب أبى حنيفة وأهلك كلهم شافعية؟

فقال: يا خوند، أما ترغبون أن يكون فيكم رجل واحد مسلم»!!

لذلك يبدو أن السيدة خديجة خاتون اتبعت هى الأخرى ـ مثل أبيها ـ المذهب الحنفى، وأوقفت هذه المدرسة على دراسته.

وقد أوقفت السيدة خديجة خاتون على المدرسة المرشدية الحنفية أوقافاً كثيرة. وقد كتبت على عتبة بابها ما نصه: «هذا ما أوقفت الست الجليلة عصمة الدين خديجة خاتون بنت السلطان المعظم شرف الدين عيسى ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر.

وذلك حصته من بستان الكليب: خمسة أسهم، وثلثا سهم، وخمس سهم، وسبع سهم، ومن طاحخون الطرف الخمس، ودار بجبل الصالحية، وحصة بقرية تقى الدين سبعة أسهم ونصف سهم، ومن الجنة سهم ونصف، وبستان الماردانية بكماله».

ويتضح من هذا كثرة الأوقاف التى أوقفتها السيدة خديجة خاتون على تلك المدرسة للإنفاق منها على مدرسيها وفقهائها ومبانيها، وحتى تضمن استمرار تلك المدرسة يدرس فيها المذهب الحنفى الذى اتبعه من قبل والدها الملك المعظم عيسى.

٢ ـ السيدة مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر الأيوبى:

السيدة مؤنسة خاتون، ابنة الملك المظفر صاحب حماة أنشأت المدرسة الخاتونية بحماة، والتى أوقفت عليها أوقافاً كثيرة، فضلاً عن العديد من الكتب المتنوعة فى مختلف العلوم.

ولعل هذا يعطى انطباعاً على أن الكثير من المدارس الأيوبية كانت غالباً ما يلحق بها مكتبة تحوى العديد من الكتب المتنوعة ليستفيد منها شيوخ ومدرسو وطلاب العلم ومريدو تلك المدارس.

ويبدو أن المدرسة الخاتونية قد أنشئت فى العصر المملوكى، وهى الفترة التى عاشت فيها السيدة مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر صاحب حماة.

ويؤكد ذلك أبو الفدا فيقول: «ودخل الملك المظفر ومضى إلى دار الوزير المعروفة بدار الأكرم داخل باب المغار وهى الآن مدرسة تعرف بالخاتونية، وقفتها عمتى مؤنسة خاتون بنت

الملك المظفر المذكور».

والمعروف أن أبا الفدا من ملوك حماة الأيوبيين الذين حكموا حماة فى العصر المملوكى: وتعد مؤنسة خاتون هذه عمته كما يذكر، وقد توفى فى عام ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م؛ مما يؤكد أنها عاشت فى العصر المملوكى.

٤ ـ خاتون بنت عبد العزيز المغيث ابن الملك المعظم عيسى بن السلطان العادل الأيوبى:

وقد تزوجت من ابن عمها غازى ابن الملك الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى، وكانت مقيمة فى القاهرة وتوفيت بها فى عام ٦١٢ هـ/ ١٣١٢ م فى العصر المملوكى.

٥ ـ ست خاتون بنت الملك الجواد يونس بن المعظم مودود ابن السلطان العادل الأيوبى:

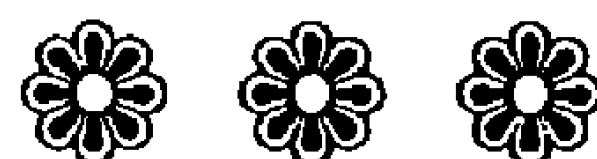
وعاشت فى دمشق وتوفيت بها فى ربيع عام ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٣ م ودفنت بقاسيون.

٦ ـ خاتون بنت الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل سيف الدين (أبو بكر):

وكانت تعيش فى دمشق فى دارها التى عرفت بدار كافور «وكانت رئيسة محترمة ولم تتزوج قط وليس فى طبقاتها من بنى أيوب غيرها فى هذا الحين»: وقد توفيت فى ٢١ شعبان عام ٧٢٣ هـ/ ١٣٢٣ م.

ولعل التعبير عنها بلفظ «رئيسة محترمة» يشير إلى أنها كانت من عالمات الفقه والحديث والوعظ والإرشاد فى ذلك العصر.

والخاتونات الثلاث التى تم ذكرهن وهن: خاتون بنت عبد العزيز وست خاتون بنت الملك الجواد وخاتون بنت الملك الصالح قد عشن فى العصر المملوكى.



بين نور الدين زنكى وصلاح الدين

- أسباب الخلاف بين السلطان نور الدين زنكى وقائده صلاح الدين الأيوبى وافتراءات المغرضين.
- أول غزوات صلاح الدين من مصر، وفتح اليمن وضمها للدولة الأيوبية الجديدة.
- الثورة على صلاح الدين فى مصر بعد إلغاء الحكم الفاطمى بها وبعد وفاة نور الدين زنكى.

6

الخلاف بين نور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبى واستثمار البعض هذا الخلاف للهجوم على صلاح الدين والنيل منه

شهد العام ٥٦٧ هـ خلافاً ليس هيناً بين السلطان نور الدين زنكى وقائده صلاح الدين الأيوبى الذى انفرد بحكم مصر بعد وفاة آخر الخلفاء الفاطميين العاضد واستطاعة صلاح الدين السيطرة على الثورات التى قامت ضده من أنصار الحكم الفاطمى كما ذكرنا.

والسبب فى الخلاف هو اختلاف وجهات النظر بين الرجلين وعصيان صلاح الدين أوامر نور الدين باعتباره يحكم مصر باسمه إلا أن الوحشة انتهت بحكمة صلاح الدين الأيوبى الذى استمع لنصح والده نور الدين ولنستمع إلى ما ذكره ابن الأثير عن هذه الواقعة.

ذكر ابن الأثير ما حدث من الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين فقال:

وفى سنة ٥٦٧ هـ حدث ما أوجب نفرة نور الدين عن صلاح الدين وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلد الإفرنج والنزول على الكرك ومحاصرته ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه ويجتمعا هناك على حرب الإفرنج والاستيلاء على بلادهم.

فبرز صلاح الدين من القاهرة فى العشرين من المحرم وكتب إلى نور الدين يعرفه أن رحيله لا يتأخر.

وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو فلما أتاه الخبر بذلك رحل من دمشق عازماً على قصد الكرك فوصل إليه وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه.

فأرسل صلاح الدين إليه كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال البلاد المصرية لأمور بلغته عن بعض شيعة العلويين وأنهم عازمون على الوثوب بها.

وأنه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد إليها فلم يقبل نور الدين عذره.

وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين فحيث لم

يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده وعزم على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها.

ووصل الخبر إلى صلاح الدين فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمى ومعهم سائر الأمراء وأعلمهم ما بلغه عن عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه واستشارهم.

فلم يجبه أحد منهم بشىء فقام تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين وقال إذا جاء قاتلناه وصددناه عن البلاد.

ووافقه غيره من أهله فشتمهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه وكان ذا رأى ومكر وعقل وقال لتقى الدين اقعد وسبه.

وقال لصلاح الدين أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك أتظن أن فى هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا.

فقال: لا.

فقال والله لو رأيت أنا وهذا خالك شهاب الدين نور الدين لم يمكنا إلا أن نترحل به ونقبل الأرض بين يديه ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا.

فإذا كنا نحن هكذا كيف يكون غيرنا وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه وهذه البلاد له وقد أقامك فيها.

وإن أراد عزلك فأى حاجة له إلى المجىء يأمرك بكتاب مع تجاب حتى تقصد خدمته ويولى بلاده من يريد.

وقال للجماعة كلهم قوموا عنا ونحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد فتفرقوا على هذا.

وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر.

ولما خلا أيوب بابنه صلاح الدين قال له أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما فى نفسك فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه عن البلاد جعلك أهم الأمور إليه وأولاها بالقصد ولو قصدك لم تر معك أحداً من هذا العسكر وكانوا أسلموك إليه.

وأما الآن بعد هذا المجلس فسيكتبون إليه ويعرفونه قولى.

وتكتب أنت إليه وترسل فى المعنى وتقول أى حاجة إلى قصدى يجبى نجاب يأخذنى بحبل يضعه فى عنقى فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك واستعمل ما هو أهم عنده والأيام تندرج والله فى كل وقت فى شأن والله لو أراد نور الدين قصبة من قصب سكرنا لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل.

ففعل صلاح الدين ما أشار به والده وقد ذكرنا ذلك سابقاً.

فلما رأى نور الدين الأمر هكذا عدل عن قصده وكان الأمر كما قال نجم الدين أيوب.

وتوفى نور الدين ولم يقصده وهذا كان من أحسن الآراء وأجودها.

إلى هنا تنتهى القصة وانتهى الخلاف بين الرجلين وقد توفى نور الدين زنكى بعدها بمرض أصابه.

وكانت وفاته بسبب خوانيق اعترته ـ وهو ما يعرف اليوم الجلطة الدموية.

ولم يفلح الأطباء فى علاجه.

وكانت وفاته يوم الأربعاء حادى عشر من شوال عام ٥٦٩ هـ وذلك فى قلعة دمشق.

قال ابن شداد فى كتابه النوادر السلطانية:

ولقد حكى لى السلطان ـ أى صلاح الدين الأيوبى ـ قال: كان بلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن يكاشف ويخالف ويشق عصاه، ويلقى عسكره بحصاف يرده إذا تحقق قصده وكنت وحدى أخالفهم وأقول: لا يجوز أن يقال شىء من ذلك، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته(١).

وهذا الموقف من صلاح الدين يدل على حرصه على عدم شق عصا الطاعة ووفاء لنور الدين سيده وقائده وملكه رغم انفراده بكل قوى مصر ومواردها.

أما أعداء صلاح الدين الأيوبى وهم من أتباع الفاطميين حتى الآن يتشرون مقالات على شبكة الإنترنت تهاجم صلاح الدين وتتهمه بالخيانة والغدر والإدمان على الخمر.

بل ذهب البعض لاتهامه بأنه مسيحى صليبى خائن للعروبة والإسلام!!

---

(١) انظر كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية «بهاء الدين بن شداد، وهو صديق وكاتب السلطان صلاح الدين الأيوبى.

وهما يعضدون به موقفهم الساذج ما ذكره أحدهم فى كتاب صدر له عن صلاح الدين الأيوبى.

حتى إنهم يستشهدون بما جاء فى كتاب الروضتين لأبى شامة المقدسى عن تلك الواقعة:

«وكان نور الدين قد شرع بتجهيز السير إلى مصر، لأخذها من صلاح الدين لأنه رأى منه فتوراً فى غزو الفرنج من ناحية.

فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر، يطلب العساكر ليتركها بالشام لمنعه من الفرنج ليسير هو بعساكره إلى مصر، فإنه ـ صلاح الدين ـ كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه، فكان يحتمى بهم عليه ولا يؤثر استئصالهم».

وأضاف: وكان نور الدين لا يرى إلا الجد فى غزوهم بجهده وطاقته، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو وعلم غرضه، تجهز بالسير إليه، فأتاه أمر الله الذى لا يرد».

ولكن الثابت تاريخياً كما ذكرنا أن صلاح الدين أرسل إلى نور الدين زنكى وشرح له موقفه وكيف أن الأمور لم تستقر فى مصر وأن هناك ثورة متوقعة ضده من أنصار الفاطميين وأن نور الدين قبل هذا الغدر منه وألغى مقدمه إلى مصر لأخذها من صلاح الدين.

أما موقفه من الخليفة العاضد فهذا أمر طبيعى لما فعله الفاطميون فى الوطن العربى من التمزق وشق عصا الطاعة للخليفة العباسى.

وأن البيعة له مقدمة على البيعة لخليفة جاء بعده.

ومما قيل عن صلاح الدين من افتراءات أنه كان شارباً للخمر وأنه يحب اللهو!!

فقالوا: رغم جنوح المؤرخين غالباً إلى تجنب الخوض فى الأمور الشخصية والأهواء النفسية للحكام والسلاطين الذين يؤرخون لهم إيثاراً للسلامة وخوفاً من الوقوع تحت غضبهم والانتقام منهم فإن بعض أقلام هؤلاء المؤرخين ألقت الضوء إلى تلك الممارسات.

وذكروا ما جاء فى كتاب زبدة الحلب فى تاريخ حلب لكمال الدين بن العديم الجزء الثانى: «فأرسل العاضد إلى صلاح الدين وأحضره عنده وولاه الوزارة بعد عمه، وخلع عليه ولقبه بالملك الناصر، فاستتب أحوال وبذل المال وتاب عن شرب الخمر».

وذكر قول بهاء الدين بن شداد وهو من المؤرخين الذين أشادوا بصلاح الدين ومن المصاحبين المرافقين له فى حياته قوله فى كتابه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية:

«وشكر نعمة الله فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو».

ويعقبون بقولهم: وإذا كان أنصار صلاح الدين قد اعترفوا بأنه كان سكيراً خميراً قبل توليه الوزارة فالله وحده يعلم ما إذا كان قد تاب أم لا؟ ولاسيما إذا عرفنا أنه لم تكن يومذاك مصحات لمعالجة المدمنين وإعادتهم للصواب فالمدمن من يومذاك لا علاج لإدمانه، ويبدو أن إدمان شرب الخمر كان متأصلاً فى الأسرة الأيوبية فالأفضل ابن صلاح الدين وخليفته فى دمشق أقبل على شرب المسكر واللهو واللعب»[١].

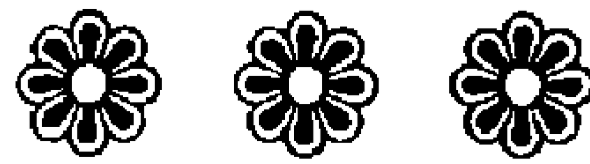
وهذا الاتهام الباطل لصلاح الدين مفادة ذكر المؤرخين أنه كان شارباً للخمر قبل توليه أمر الوزارة فى مصر، وأنه لما أنعم الله عليها بها كان شكره لله عملياً بأن تاب عن الخمر واستقام أمره.

فكيف يحق لهذا الكاتب وغيره أن يتهم صلاح الدين بأنه استمر فى شرب الخمر بصفته أنه مدمن له وأنه لا علاج لإدمان الخمر فى ذلك الزمن.

فالمؤرخون الذين ذكروا تلك الواقعة كانوا صادقين فى نقل سيرة صلاح الدين ومناقبه وقد سطروا كل شىء، وأن شربه للخمر كان قبل توليه الوزارة وقد تاب عن ذلك.

وبالتالى فلا يحق لهم إلقاء الاتهامات الباطلة حول سيرة هذا البطل الكبير.

ونكتفى بعرض هذا النموذج من حقد البعض على شخص البطل المجاهد الناصر لدين الله وسنة رسوله ﷺ ومحرر القدس بإذن الله ونستكمل سيرته العطرة.



(١) كتاب صلاح الدين الأيوبى بين العباسين والفاطميين والصليبيين - حسن الأمين.

أول غزوات صلاح الدين من مصر، وفتح اليمن وضمها إلى الدولة الأيوبية الجديدة

استهل صلاح الدين حكمه فى مصر باسم نور الدين زنكى بالخروج سنة ثمان وستين وخمسمائة هجرية أن خرج بالجيش يريد بلاد الكرك والشوبك وكانت تقوم تلك البلاد بقطع الطريق لمن يريد الديار المصرية من القوافل.

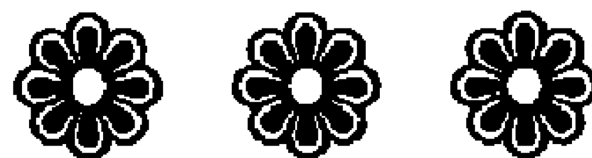
فخرج إليها وحاصرها ثم جرى بين حكامها مع الصليبيين وقعات، ثم عاد إلى الديار المصرية دون فتح تلك البلاد.

وفى هذه السنة توفى والد صلاح الدين الأمير نجم الدين أيوب بمصر وكان سبب الوفاة وقوعه عن فرسه.

وفى العام التالى سنة ٥٦٩ أرسل صلاح الدين أخاه الأكبر شمس الدولة تورانشاه إلى اليمن حين بلغه أن رجلاً يدعى عبد النبى بن مهدى وهو من أسرة حكمت زبيد أعوام سنة ٥٥٤، ٥٦٩ م.

وأنه استولى على حصون اليمن، ويزعم أنه خليفة المسلمين وأنه ينتشر ملكه إلى الأرض كلها.

فمضى إليه أخوه الأكبر على رأس قوة عسكرية فاستولى على معظم اليمن وفتح الله عليه فتوحاً كبيراً وقتل الخارجى واستقر بها حيناً من الزمن حتى استقرت الأمور فأناب عليها من يخلفه وعاد إلى أخيه السلطان صلاح الدين بعد ذلك ليشاركه غزواته وسيأتى ذكر وفاته بالإسكندرية بمصر عام ٥٧٦ هـ.



استمرار الثورة على صلاح الدين الأيوبى في مصر بعد وفاة نور الدين زنكى

بعد القضاء على الثورة التى قام بها أنصار الدولة الفاطمية من أهل النوبة والسودان على صلاح الدين قامت ثورة أخرى منهم أيضاً تزعمها رجل يدعى «الكنز» - ويقال له الكند - فى أسوان والنوبة من أقصى الجنوب المصرى وقد أطلق عليه البعض عباس بن شادى وكان من مقدمى الدولة الفاطمية(١).

والكنوز هم قبيلة عربية الأصل زحفت إلى الجنوب المصرى وخالطت أهل النوبة وتزوجت منهم واستقروا حول مدينة أسوان وبلاد النوبة ومنح الخليفة الفاطمى كبيرهم لقب كنز الدولة كما منحه الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله حكم النوبة حتى عرفوا كلهم بكنز الدولة.

قال المقريزى فى البيان والإعراب: «ولم تزل الإمارة فيهم وكلهم يعرفون بكنز الدولة حتى كان آخرهم كنز الدولة فقتله الملك العادل أبو بكر بن أيوب فى صفر سنة ٥٧٠ هـ عندما خالف السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وجمع لحربه وقتل أخا أبى الهيجا السمين ودعا للأمير داود بن العاضد أخى الخليفة الفاطمى الهالك.

وكان قتله على مدينة طود بعد حروب شديدة.

وقال ابن شداد فى كتابه النوادر السلطانية: «والكنز إنسان مقدم من المصريين فقد انتزح إلى أسوان فأقام بها، ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان(٢) عليه ويخيل لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة مصرية.

فاجتمع عليه خلق كثير وجمع وافر من السودان وقصد قوص (مدينة) وأعمالها.

ووجه صلاح الدين إليهم أخاه الملك العادل على رأس قوة عسكرية كبيرة فقاتلهم وقضى عليهم وقتل منهم خلقاً عظيماً واستأصل شأفتهم وأخمد ثورتهم.

وبعد تلك الثورة المصرية على صلاح الدين استقر له الأمر فى مصر مما شجعه على ضم بلاد الشام إلى دولته وقتال الصليبيين.

وتلك الواقعة تؤكد أن صلاح الدين كان محقاً حين رفض تنفيذ أمر نور الدين كما ذكرنا من الخروج بجيشه إلى الشام لمحاصرة الصليبيين وترك مصر تعج بالثورة ضده.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير.

(٢) يطلق السودان على ذوى البشرة السوداء وخاصة فى الجنوب المصرى من النوبة وأهل السودان الدولة.

محاولة الصليبيين غزو مصر عام ٥٧٠ هـ
والقضاء على صلاح الدين أول الموجات الفاشلة

لم ينقض عام ٥٧٠ هـ الذى شهد ثورة كنز الدولة بجنوب مصر على صلاح الدين ومحاولته إعادة الحكم الفاطمى المنتهى حتى جمع الإفرنج - الصليبيون - جموعهم لغزو مصر وصلاح الدين للقضاء عليه ظناً منهم أن الثورات ضده فى البلاد المصرية قد أضعفته فداخلهم الطمع فى غزوه بحراً.

فجاءوا فى جيش بحرى قوامه ستمائة قطعة بحرية ما بين سفينة كبيرة وتسمى «شينى»(١)، والطريدة أو الطراد وهى سفينة برسم حمل الخيل تحمل أربعين فرساً.

و «بطسة» وهى السفينة الكبيرة أيضاً لحمل السلاح والرجال فتحمل نحو ستمائة وخمسين جندياً وغير ذلك.

وكانت قوام تلك الحملة العسكرية ثلاثين ألفاً نزلوا ثغر الإسكندرية فى شهر صفر سنة ٥٧٠ هـ أى فى نفس التوقيت الذى قامت فيه ثورة «كنز الدولة» فى جنوب مصر كما ذكرنا وهذه الثورة شجعت الإفرنج على تلك الغزوة.

وكانت تلك الغزوة فى مستهل سنة ٥٧٠ هـ وكان صلاح الدين قد عزم التوجه إلى الديار الشامية لضمها إلى الديار المصرية بعد وفاة نور الدين زنكى واضطراب الأحوال بها مما يشجع الصليبيين لإعادة احتلالها.

فكانت تلك الحملة العسكرية الصليبية فى شمال البلاد المصرية حيث ثغر الإسكندرية وثورة عارمة من المصريين الموالين للدولة الفاطمية المنتهية فى أقصى الجنوب كما ذكرنا.

فكان لازماً على صلاح الدين القضاء على تلك الثورة وصد تلك الغزوة.

هكذا كان عام ٥٧٠ هـ، من أصعب الأعوام وأشدها على صلاح الدين تقرر فيه بقاؤه وتعضدت دولته، هجوم من أقصى الشمال، وثورة من أقصى الجنوب لعلها كانت على اتفاق من أجل القضاء على صلاح الدين والجيش التركى الشامى الذى يقوده.

أرسل صلاح الدين قوة عسكرية بقيادة أخيه للقضاء على ثورة الجنوب وأخرى إلى

أقصى الشمال حيث ثغر الإسكندرية للقضاء على الغزو الصليبي.

قال ابن كثير رحمه الله: استهلت هذه السنة والسلطان الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب قد عزم على الدخول إلى بلاد الشام لأجل حفظه من الفرنج، ولكن دهمه أمر شغله عنه.

وذلك أن الفرنج قدموا إلى الساحل المصري في أسطول لم يسمع بمثله وكثرة مراكب وآلات من الحرب والحصار والمقاتلة من جملة ذلك مائتا «شيني» في كل منها مائة وخمسون مقاتلاً، وأربعمائة قطعة أخرى(١).

وكان قدومهم من جزيرة صقلية إلى ثغر الإسكندرية قبل رأس السنة بأربعة أيام.

فنصبوا المنجنيقات ـ مثل المدافع حالياً ـ والدبابات حول البلد ـ وهي دبابات بدائية عرفت في ذلك العصر ـ وبرز إليهم أهل الإسكندرية وقاتلوا قتالاً شديداً لمدة أيام وقتل من الفريقين خلق كثير.

وقام أهل الإسكندرية بحرق آلات الحرب الصليبية المجانيق والدبابات، فأضعف ذلك قلوب الفرنج وأثار الرعب فيهم.

وكانت تلك المقاومة الشعبية لأهل مصر الدافع القوي في هزيمة الصليبيين قبل قدوم جيش صلاح الدين وانهزم الإفرنج وقتل منهم الكثير وتركوا أسلحتهم وفروا هاربين إلى سفنهم بعد هجوم المصريين عليهم واستحوذ المصريون الأبطال على أموالهم وخيولهم وخيامهم.

وبذلك فشلت تلك الحملة الصليبية بفضل المقاومة الشعبية المصرية مما دعم موقف صلاح الدين في مصر وشجعه على التوجه لضم بلاد الشام.

وكان النصر في هذه المعركة بمثابة تأييد رباني لصلاح الدين حيث ألقى الله الرعب في قلوب الصليبيين قبل قدوم عسكر صلاح الدين.

قال ابن شداد عن تلك الغزوة: وأدخل الله في قلوبهم من الخوف والرعب ما لا يمكنهم الصبر معه وعادوا خائبين خاسرين بعد أن ضايقوا الثغر وزحفوا عليه ثلاثة أيام وقاتلوه قتالاً شديداً وعصمه الله منهم.

ولما أحسوا بحركة السلطان نحوهم ما لبثوا أن خلفوا مناجيقهم وراءهم وآلتهم فخرج أهل البلد إلى نهبها وإحراقها وكان من أعظم النعم من الله تعالى على المسلمين وأمارة كل سعادة ونجاح ولله الحمد والمنة(٢).

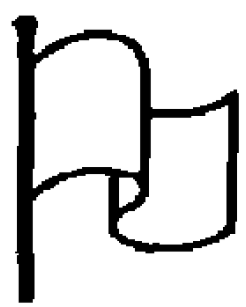
---

(١) تحمل تلك السفينة نحو ١٥٠ جنديا.

(٢) البداية والنهاية جـ ١٢ ـ مصدر سابق.

أحوال العالم العربى والإسلامى قبل ظهور صلاح الدين

- انقسام العالم الإسلامى إلى دويلات صغيرة رغم وجود الخلافة العباسية.
- وجود خلافتين فى العالم الإسلامى الخلافة العباسية السنية والخلافة الفاطمية الشيعية الباطنية.
- الدويلات العربية منذ عام ٩٢٩ م حتى ظهور صلاح الدين.



7

ظهور الانقسام فى العالم الإسلامى بوجود خلافة عباسية وخلافة فاطمية

مع ضعف الخلفاء العباسيين ظهرت الخلافة الفاطمية فى المغرب العربى واستولت بعد ذلك على مصر ثم توسعت فاستولت على الشام والحجاز وأصبحت دولة خلافة يسمى زعيمها بأمير المؤمنين كالخليفة العباسى.

وقد اعتمدت الخلافة الفاطمية على كونها مناصرة للشيعة وممثلة لهم فى المذهب رغم كون خلفائها لا ينتمون إلى آل البيت النبوى.

وانقسم العالم العربى إلى دويلات صغيرة قبل ظهور الخلافة الفاطمية وبعدها وقبل ظهور صلاح الدين الأيوبى، وهذا الانقسام بين المسلمين أدى إلى الاحتلال الصليبى للمشرق العربى.

ولم يكن الأمر سهلاً لتوحيد تلك الدويلات الصغيرة فى هذا العالم العربى، فكانت مسيرة صلاح الدين الأيوبى من أجل توحيدها صعبة إلى أنها حققت أهدافها فى النهاية بتحرير المسجد الأقصى.

وخلال الفترة من ٩٢٩ م حتى ظهور صلاح الدين شهد العالم العربى نحو إحدى عشرة دولة صغيرة وتلك الدويلات وهى:

١ ـ الدولة الحمدانية (٩٢٩ ـ ١٠١٥ م):

ونسبها يعود إلى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب العربية، وهى شيعية المذهب تأسست أولاً بشمالى العراق، واتخذت الموصل عاصمة لها، وذلك فى عهد أميرها (ناصر الدولة أبو محمد الحسن) ٩٢٩ ـ ٩٦٨ م.

وفى عهد أميرها (سيف الدولة أبو الحسن على) استولوا على حلب وحمص، فكونوا دولتهم بالشام على حساب الإخشيديين، وفى بلاطهم بحلب ازدهرت الحركة الفكرية، فكان الفارابى واحداً من الإعلام الذين احتضنهم بلاط الحمدانيين.

كذلك كان (المتنبى) الشاعر العربى ذو الصيت الذى خلد بأشعاره قتال الحمدانيين ضد البيزنطيين.

وعندما ناءت هذه الإمارة بعبء الصراع ضد البيزنطيين من ناحية والفاطميين من ناحية أخرى، ضمها آخر أمرائها (مرتضى الدولة أبو نصر منصور بن لؤلؤ) إلى الفاطميين سنة ١٠١٥ م.

٢ ـ دولة بنى طاهر ٨٢٠ ـ ٨٧٢ م:

وهى ثالث حالة انفصال عن الدولة العباسية بعد الأدراسية فى المغرب والأغالبية فى تونس.

أسسها طاهر ابن الحسين الخراسانى (الأعور)، كان المأمون قد كافأه على القتال معه ضد أخيه الأمين، وبعد الانتصار، جعل خراسان له ولمن يرثه ولاية خالصة.

ووسع بنو طاهر نطاق ولايتهم حتى حدود الهند، ونقلوا قاعدتهم من الرى إلى نيسابور، حيث ظلت لهم السلطة حتى أزاحهم الصفاريون سنة ٨٧٢ م.

٣ ـ دولة بنى صفار (٨٦٧ ـ ٩٠٨ م):

يرجع تأسيس الدولة الصفارية إلى يعقوب بن ليث الصفار. وكان هذا كما يستدل من اسمه(١) يشتغل فى النحاس ظاهراً، ويشتغل بأعمال اللصوصية سراً.

وكان لمهارته وفروسيته وشدة شوكته، قد استرعى انتباه عامل الخليفة على سجستان، ونال إعجابه، فعهد إليه بقيادة الجيش، والظاهر أنه خلف الوالى نفسه.

أخذ يعقوب يتوسع بولايته حتى شملت فارس والهند، وأخذ يتهدد بغداد العاصمة وخليفتها (المعتمد).

ولم يطل أمد الدولة الصفارية إذ انتهت إلى دولة جديدة هى السامانية بعد ٤١ سنة من حياتها.

٤ ـ دولة بنى سامان (٨٧٤ ـ ٩٩٩ م):

حكم بنو سامان فارس وما وراء النهر مدة ١٢٥ عاماً، ويرجع نسبهم إلى سامان أحد نبلاء (بلخ) من أتباع (زرادشت).

وكان مؤسس دولتهم (نصر بن أحمد) ٨٧٤ ـ ٨٩٢ م، إلا أن موطد أركان الحكم، هو إسماعيل أخوه، فهو الذى انتزع خراسان من قبضة بنى صفار عام ٩٠٣ م.

نشأ بنو سامان عمالاً مسالمين لبنى طاهر، ثم ما لبثوا أن وسعوا حكمهم حتى شمل

---

(١) هناك نوع من النحاس يسمى (الصفر).

سجستان وكرمان وجرجان وخراسان، وتمتعوا بسلطة مستقلة، وإن كانوا يدينون فى الظاهر للخليفة فى بغداد، وكانوا فى نظره أمراء أى حكاماً لهذه المقاطعات بل عمالاً على الخراج لا أكثر، برغم استقلالهم فى الشؤون الداخلية.

وكانت بخارى عاصمتهم وسمرقند سيدة مدنهم كادتا أن تسبقا بغداد بالعلم والفن.

وقد قدم الرازى الطبيب الشهير كتابه الطبى المعروف ب (المنصورى) نسبة لأميرهم المنصور.

كما أن الأمير السامانى (نوح الثانى) ٩٧٦ م استدعى ابن سينا وكان يافعا تحت العشرين من عمره إلى بخارى وهيأ له خزانة كتبها الملكية.

وظهر فيها الشاعر (الفردوسى) والمؤرخ (البلعمى) وهما أول من عاد ليكتب بالفارسية ويترجم من العربية للفارسية.

٥ ـ الغزنويون (٩٦٢ ـ ١١٨٦ م):

كان من بين الموالى الأتراك لبنى سامان رجل اسمه (ألب تكين) أسندت إليه المناصب العالية، وكان آخر الأمر رئيساً للحرس ثم والى خراسان عام ٩٦١، ثم خلعه الأمير السامانى.

فهرب إلى الشرق وانتزع (غزنة) فى أعالى الجبال فى أفغانستان وأنشأ بها دولة مستقلة نمت وكبرت، بفضل صهره (سبكتين ٩٧٦ ـ ٩٩٧ م).

وكان أمراء غرنة الستة عشر من سلالة هذا الصهر.

وكان أعظم من ظهر فى هذه الدولة محمود الغزنوى (٩٩٩ ـ ١٠٣٠ م) ابن سبكتكين وقد قام هذا بسبع عشرة حملة على الهند والبنجاب وقصبتها لاهور أدت إلى الاستيلاء عليها، وبعض أنحاء السند ثم اتجه غرباً حتى احتل إيران كاملة، وهو أكبر توسع يمهد للانقضاض على قلب الدولة العباسية فى بغداد.

٦ ـ دولة بنى بويه (٩٣٢ ـ ١٠٥٥ م):

ينحدر أمراء هذه الدولة من أصول عرقية غير عربية، فهم من قبيلة جبلية سكنت الديلم على الساحل الجنوبى من بحر قزوين.

ولقد بدأت حياتهم الإدارية والسياسية فى خدمة آل سامان ثم بدأت عملية تكوين إمارتهم فى عهد أميرهم (عماد الدولة ـ أبى الحسن على) ٩٣٢ ـ ٩٤٩ م، بعد احتلالهم أصبهان ثم شيراز التى اتخذوها عاصمة لدولتهم.

وفى عهد ثالث أمرائهم (معز الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه)، امتد نفوذهم إلى بغداد، فسيطروا على خليفتها الذى أصبح لعبة فى أيديهم، تولية وعزلاً، بل وقتلاً.

ولقب أمراؤهم منذ ذلك الحين بلقب: أمير الأمراء، وأضيفت أسماؤهم إلى أسماء الخلفاء فى خطبة الجمعة، وعلى النقود المسكوكة.

وفى عهد خامس أمرائهم (عضد الدولة أبو شجاع فناخسرو) ٩٧٩ - ٩٨٣ م، اتسعت دولتهم حتى قاربت خلافة هارون الرشيد، كما نافست فى الفكر والإنشاءات دولة العباسيين.

فاتصل ببلاط عضد الدولة الذى تلقب بلقب (شاهنشاه) وجهاز دولته، أعلام فى الفكر والطب والتاريخ من أمثال (مسكويه) ١٠٣٠ م والرازى الطبيب والفيلسوف ٩٢٣ م والمتنبى ٩٦٥ م وأبى على الفارسى ٩٨٧ م.

كما ازدهر فى ظل هذه الدولة ذات المذهب الشيعى، نشاط جماعة (إخوان الصفا)، وعرف فكر المعتزلة صحوته من خلال تسامح الدولة معه، وكان إمام المعتزلة (عبد الجبار أحمد) ١٠٢٤ م قاضى القضاة للدولة. كما تولى وزارة الدولة (الصاحب ابن عباد) ٩٩٥ م الذى كان على مذهب أهل العدل والتوحيد.

وقد انهارت دولة بنى بويه، بدخول القائد السلجوقى (طغرل بك) إلى بغداد عام ١٠٥٥ م، فى عهد الأمير البويهى الثالث عشر (الملك الرحيم أبو نصر خسرو فيروز).

٧ - الدولة السلجوقية (١٠٣٧ - ١١٨٦ م):

يرجع نسب هذه الدولة إلى قبيلة (الغز) التركمانية، وهى من القبائل الرحل، تبعت زعيمها (سلجوق)، فانحدروا من سهول قرغيز ببلاد التركستان إلى ناحية (بخارى) حيث اعتنقوا الإسلام، وتمذهبوا بالمذهب السنى.

وبالغارات والحروب وصلوا خراسان ثم استولوا على (مرو) ونيسابور وبلخ وجرجان وطبارستان وخوارزم وهمذان والرى وأصبهان.

فاقتطعوا بذلك أجزاء من الدولة الغرنوية والدولة البويهية، ولقد اتخذوا من (أصبهان) عاصمة لهم وتلقب أميرهم بلقب السلطان.

وفى عهد (ركن الدولة طغرل بك أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق) ١٠٣٧ - ١٠٦٣ م، أزاحوا عن بغداد وخليفتها - الذى كان آنذاك (القائم) الخليفة العباسى السادس والعشرون، نفوذ بنى بويه ومارسوا هم السيطرة فيها.

ثم امتدت دولتهم فشملت الشام بعد أن اقتطعتها من الدولة الفاطمية، وحاربت جيوشهم، الروم البيزنطيين.

فانتزعت منهم آسيا الصغرى، حيث نشروا فيها الإسلام وأقاموا بها إحدى إماراتهم التى تصدت مع إمارتهم فى الشام لغزوات الصليبيين.

وقد عرفت هذه الدولة غير العربية، عهداً من الازدهار التعليمى والفكرى، على عهد وزيرها الفذ (نظام الملك) أبو محمد الحسن الدهستانى (١٠١٨ ـ ١٠٩٢ م) الذى أسس المدرسة (النظامية) فى بغداد.

وفى هذا العهد هذا عاش وكتب وأنتج أعلام منهم أبو حامد الغزالى ١٠٥٩ ـ ١١١١ وعمر الخيام ١١٢١ م.

وقد صدت هذه الدولة غير ذى مرة سقوط بغداد والخلافة فيها لصالح الفاطميين أصحاب المذهب الشيعى.

٨ ـ الدولة الزيادية (فى اليمن ٨١٧ ـ ١١٦٠ م):

أسسها محمد بن إبراهيم الزيادى، بناء على نصيحة من الوزير الحسن بن سهل للمأمون، لإيقاف المفسدين فى تهامة والانفصاليين.

فجعل المأمون ولاية اليمن لهذا الرجل، وجعل ولاية العهد فيها من ذريته.

فاختط الزيادى هذا والذى ينتسب إلى زياد بن أبى سفيان، مدينة (زبيد) سنة ٨١٨ م، لتكون حاضرة تهامة ومركزاً لها.

وهى أول دولة مستقلة فى اليمن بعد الاسلام.

٩ ـ الدولة اليعفرية (اليمن ٨٦١ ـ ٩٩٧ م):

نسبها يعود إلى (يعفر بن السكسك بن وائل بن حمير)، أحد ملوك حمير قبل الإسلام. ومؤسسها هو (يعفر بن عبد الرحيم بن إبراهيم الحوالى)، الذى كان أبوه عبد الرحيم نائباً عن والى الخليفة المعتصم فى نجد يمن وصنعاء.

ولما توفى عبد الرحيم أصبح (يعفر) والياً، والذى يعتبر مؤسس للدولة اليعفرية المستقلة فى صنعاء. رغم استقلالها فقد كان يدفع خراجها لآل زياد ويحمل لهم لـ (زبيد)، وكأنه عاملاً لهم أو نائباً عنهم على تلك المنطقة.

١٠ ـ الدولة الأرتقية ١١٠١ ـ ١٤٠٨ م :

نسب الدولة الأرتقية هذه إلى (أرتق بن أكسب التركماني) وهو مملوك من مماليك السلطان ملكشاه السلجوقي، وقائد من قواده.

ورغم أنها مملكة صغيرة تقع شمال العراق، فقد انقسمت منذ بدايتها إلى قسمين: (مملكة الحصن) وملوكها ثمانية انتهت على يد الأيوبيين عام ١٢٢٣ . (ومملكة ماردين) وملوكها التي انتهت على يد العثمانيين سنة ١٤٠٨ م.

١١ ـ دول الأتابكة:

وهي حوالي ١٢ أتابكة صغيرة، كل حكامها ذو أصول تركية. منها أتابكية دمشق وأتابكية سوريا وأتابكية سنجار وأتابكية الجزيرة وأتابكية أربيل وأتابكية أذربيجان وأتابكية فارس وأتابكية لورستان وأتابكية خوارزم وأتابكية أرمنية وأتابكية الموصل والتي خرجت منها الدولة الزنكية.

١٢ ـ الدولة الزنكية (١١٢٧ ـ ١٢٥٠ م):

انطلقت تلك الدولة من أتابكية الموصل.. وأسسها عماد الدين الزنكي وهو ابن رقيق تركي.

وقامت كمؤسسة فروسية عسكرية، تمثل الاستجابة للتحديات التي فرضتها الحملات الصليبية، وكانت الخطوة الحاسمة عندما تقدمت جيوشها نحو الغرب فوحدت دمشق مع الموصل.

وانتقلت عاصمتها إلى حلب، وكان ذلك في عهد سلطانها الملك العادل (نور الدين الزنكي) الذي حرر الرها وأقساها من أنطاكية من الصليبيين.

وفي مرحلة من مراحل صراع نور الدين زنكي ضد الصليبيين، ركزوا على مصر مستغلين الخلافات الداخلية، بين وزيري (العاضد) الخليفة الفاطمي آنذاك، (شاور) الذي استعان بالصليبيين وحالفهم و (ضرغام) الذي كان يريد محاربة الصليبيين ونفوذهم في مصر.

فاستعانت الخلافة الفاطمية، بجيش (نور الدين) السني، وتوحدت جهودهما أمام الخطر المشترك فانحسرت موجة التهديد والغزو الصليبي عن مصر.

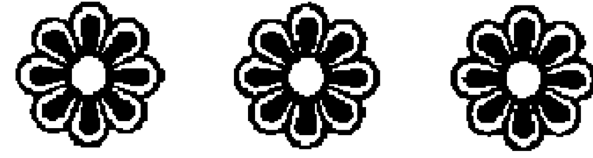
فأرسل نور الدين زنكي كبير قواده أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين لصد الصليبيين عن مصر والتمهيد لأبناء الخلافة الفاطمية في آخر معاقلها مصر وهذا ما حدث بالفعل كما ذكرنا.

وانتهت الدولة الزنكية بموت نور الدين زنكى وظهور دولة بنى أيوب.

وأما على مستوى الخلافة وإمارة المؤمنين فقد كان قبل صلاح الدين ثلاثة من الخلفاء فى العراق الخليفة العباسى، وفى مصر والشام والحجاز والمغرب العربى الخليفة الفاطمى.

وأيضاً كان يوجد الخلافة فى الأندلس التى أسسها عبد الرحمن الداخل الأموى وكل هؤلاء كان يحمل لقب أمير المؤمنين.

لكن الحقيقة أن العالم قبل ظهور صلاح الدين كان منقسما إلى دويلات وإن الخلفاء سواء كانوا العباسيين أو الفاطميين أو غيرهم كانت خلافتهم صورية، فجاء صلاح الدين لتوحيد هذا الشتات ورفع راية الجهاد ضد العدو الحقيقى للأمة الإسلامية ثم عادت الأمور كما كانت من بعده.



صلاح الدين وتأسيس الدولة الأيوبية في الشام

- توجه صلاح الدين للشام بعد استقرار الأحوال في مصر عام ٥٧٠ هـ وحروبه فيها لتوحيد الصف العربي المسلم.
- محاولة أهل حلب اغتيال صلاح الدين.
- أول معارك صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين في الشام.
- ومعاركه في الشام.

8

توجه صلاح الدين إلى الشام بعد استقرار الأحوال فى مصر عام ٥٧٠ هـ وحروبه فيها لضمها إلى دولته

شهد هذا العام ٥٧٠ من أوله أحداثا عظاما كما ذكرنا ثورة فى الجنوب المصرى وغزو الصليبيين لشمال البلاد وفشل تلك الحملة وهزيمتها هزيمة منكرة على أيدى المصريين، ثم توجه صلاح الدين بعد استقرار الأحوال فى مصر وانتهاء أمر الدولة العبيدية المسماه الفاطمية حيث بلاد الشام.

فكانت الأحوال بعد موت السلطان الملك العادل نور الدين محمود زنكى عام ٥٦٩ هـ رحمه الله أن خلفه ولده الملك الصالح إسماعيل بدمشق وكان بقلعة حلب ابن الداية وقد قبض الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين بواسطة قائده سابق الدين على بدر الدين وشمس الدين وأخيه حسن وهم أولاد الداية وكانوا مسؤلون عن قلعة حلب.

وكان الملك الصالح إسماعيل صغير السن طفلاً لا ينهض بأعباء الملك وقد اختلف أصحابه واختلت تدابيرهم وخاف بعضهم من بعض حتى أن نائب دمشق شمس الدين بن المقدم قد أرسل إلى السلطان صلاح الدين ليتولى أمر الملك فى الشام حتى تستقر الأمور وتجتمع الكلمة.

وبالفعل استجاب صلاح الدين لتلك الدعوة وقصد المسير إلى دمشق فدخلها سلماً دون قتال فى شهر ربيع الأول سنة ٥٧٠ هـ، فقد سلم المدينة نائبها الذى أرسل إليه يدعوه إلى القدوم.

فنزل صلاح الدين حين دخل دمشق فى دار والده نجم الدين أيوب رحمه الله وهى دار العقيلى وجاء أعيان البلد للتسليم والترحيب به، وسلم نائب قلعة دمشق الطواشى ريحان له، ثم أظهر صلاح الدين لهم أنه أحق الناس بتربية ولد نور الدين زنكى.

وعامل صلاح الدين أهل دمشق بالإحسان وأبطل عنهم المكوس والضرائب ففرح الناس به وأنفق عليهم أموالاً طائلة وصعد القلعة واستقر قدمه فى ملكها.

ثم توجه إلى حماه فتسلمها من صاحبها عز الدين جبريل ثم أرسله إلى مدينة حلب كى

يسلموا إليه المدينة وينضموا إليه سلماً إلا أن ملك الموصل سيف الدين غازى ابن مودود بن عماد الدين زنكى قد أرسله أخاه لقتال صلاح الدين فى حلب وقد خشى أن يستفحل أمر صلاح الدين ويعلو شأنه وهكذا كانت أحوال الحكام.

واجتمع أهل حلب وعلى رأسهم ابن الملك نور الدين الذى دعاهم لقتال صلاح الدين فأجابوه لذلك، واشترط الروافض من الشيعة عليه أن يعاد الأذان بحى على خير العمل وأن يكون لهم فى الجامع الكبير وأن يذكر أسماء الأئمة الاثنى عشر بين يدى الجنائز وغيرها من المطالب التى تخص مذهبهم المخالف لأهل السنة فأجيبوا إلى ذلك، فحاول الشيعة الإسماعيلية المعروفة بالحشاشين اغتيال صلاح الدين كعادتهم بعد أن فشلوا فى حربهم، لكن الله أنجاه من كيدهم وانتصر عليهم(١).

وقد أرسل صاحب الحبشة فى حلب نفراً من أصحابه لاغتيال صلاح الدين فلم يظفروا به وقتلوا بعض الأمراء ثم ظهر عليهم صلاح الدين فظفر بهم وقتلهم جميعاً، وبعد فشل الإسماعيلية الباطنية من اغتيال صلاح الدين تحالفوا مع الصليبيين فى الشام ضده فراسلوا القومص صاحب طرابلس الصليبى فاستجاب لهم وحاول غزو حمص، لكن صلاح الدين صده عنها.

وأخذ صلاح الدين قلعة حلب قسراً ثم رجع إلى حلب ليحاصرها ويقاتل أهلها حتى استسلموا وصالحوه فملكها أيضاً.

وكان الصراع محتدم بين أحفاد عماد الدين زنكى على امتلاك الموصل والمدن الشامية ومنها ما حدث بين سيف الدين غازى بن مودود بن عماد الدين زنكى سلطان الموصل وأخو نور الدين وأخوه عماد الدين ملك سنجار حين بلغه رغبته فى الانضمام إلى صلاح الدين.

فذهب إليه وحاصره حتى بلغه انتصار صلاح الدين على الجيش الذى أرسله إليه للدفاع عن حلب فصالح أخاه ثم سار إلى «نصيبين» وخيم على جانب نهر الفرات من ناحية الشام وراسل «كمشتكين» والملك الصالح بن نور الدين فخرج إليه الملك الصالح إسماعيل(٢) بنفسه فالتقاه قريب القلعة فرحب به ثم أمره بالعودة للقلعة وسار هو حتى نزل بعين المباركة وأقام بها فترة وعسكر حلب يخرجون إليه لخدمته.

---

(١) اقرأ كتابنا «العالم رقعة شطرنج» لتتعرف أكثر على الطائفة الإسماعيلية وهم من الشيعة الباطنية وكيف حاربت الإسلام وتحالفت مع الصليبيين فى الشام ضد المسلمين، الناشر دار الكتاب العرب.

(٢) هو الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين زنكى وكان صغير السن.

ثم صعد سيف الدين غازى إلى قلعة «جريدة» ثم إلى تل السلطان وهى قرية شرقى مدينة آلب نسبة إلى السلطان السلجوقى أرسلان، وكان معه جيش كبير لمحاربة صلاح الدين.

ولم يهاجم سيف الدين غازى صلاح الدين وتأخر فى ذلك، وصلاح الدين ينتظر وصول الإمدادات من مصر.

وفى العاشر من شوال سنة ٥٧١ هـ التقى الفريقان وحدثت مصادمة عظيمة وقتال كبير كانت الغلبة لجيش سيف الدين غازى فى أول الأمر ثم حمل صلاح الدين بنفسه فانكسر القوم وهزموا وأسر منهم جمعاً عظيماً من كبار الأمراء ثم منَّ عليهم وأطلق سراحهم.

وعاد سيف الدين غازى إلى حلب وأخذ منها خزانتها وعاد إلى بلاده فى الموصل، ولم يلاحق صلاح الدين جيش سيف الدين المنهزم، وسار قاصدا قلعة «اعزاز» يحاصرها فى ذى القعدة من نفس السنة ٥٧١ هـ وحاول الشيعة الإسماعيلية اغتياله لكن الله أنجاه منهم وظفر بهم، وسقطت القلعة فى يديه[١].

ولما كان صلاح الدين بحماه وصلت إليه رسل الخليفة العباسى المستضىء بأمر الله بالخلع السنية والأعلام السود ـ أعلام العباسيين. والتوقيع من الديوان بالسلطنة لصلاح الدين على بلاد مصر والشام.

وكانت تلك الرسل والموافقة من الخليفة العباسى بإقرار سلطنة صلاح الدين على الشام ومصر بتوحيد البلاد تحت إمرته لمحاربة العدو الخارجى للأمة الإسلامية.

وكان فى هذا الزمان من الخلافة العباسية يقوم الخليفة بتعيين سلطاناً على البلاد كما ذكرنا من قبل ويكون مثل رئيس الوزراء أو رئيس السلطة التنفيذية فى العصر الحالى.

ويكون نظام الخلافة العباسى فى هذا العصر وبالتحديد ابتداء من أيام الخليفة العباسى المعتز بالله محمد بن المتوكل[٢] قد تحول نظام الحكم من المركزية المتسلطة على كل أمور الحكم إلى اللامركزية أو بمعنى آخر من النظام الملكى أو الرئاسى إلى النظام النيابى كما هو الحال فى إنجلترا تحديداً.

---

(١) وكان أهل حلب قد صالحوا صلاح الدين إلا أنهم نقضوا الصلح وانضموا إلى الملك سيف الدين صاحب الموصل.

(٢) وقيل إن سيطرة الأتراك على الخلفاء العباسيين منذ أن جاء بهم الخليفة المعتصم بالله بدلاً من العرب والفرس ثم استفحل أمرهم وقتلوا الخلفاء بدايةً بالخليفة المنتصر بالله محمد ثم بعده المستعين وغيرهما الكثير.

محاولة أهل حلب اغتيال صلاح الدين

واستخلف على دمشق أخاه شمس الدولة على دمشق واستناب على حماه ابن خاله صهر الأمير شهاب الدين محمد وحمص إلى ابن عمه ناصر الدين بن شيركوه أسد الدين.

وقد استتب له الأمر فى الشام ومصر وتلك هى بداية الانطلاقة الجهادية له، إلا «حلب» فقد ظلت محاصرة حتى عام ٥٧٢ م حين طلب أهلها منه الصلح وتوسلوا إليه فصالحهم على أن تكون حلب وأعمالها للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين وقلعة «اعزاز».

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله محاولة أهل حلب اغتيال صلاح الدين بعد هزيمتهم فى المعركة التى دارت بينهم بقيادة سيف الدين غازى صاحب الموصل وصلاح الدين:

فلما رجعت الجيوش إلى حلب وقد انقلبوا شر منقلب وندموا على ما نقضوا من الأيمان وشقهم العصا على السلطان، حصنوا البلد خوفاً من الأسد، وأسرع صاحب الموصل فوصلها، وما صدق حتى دخلها.

فلما فرغ الناصر - صلاح الدين - مما غنم أسرع السير إلى حلب وهو فى غاية القوة، فوجدهم قد حصنوها، فقال: المصلحة أن ينادى إلى فتح الحصون التى حول البلد، ثم نعود إليهم فلا يمتنع علينا منهم أحد.

فشرع بفتحها حصناً حصناً ويهدم أركان دولتهم ركناً ركناً.

ففتح مراغة ومنبج ثم سار إلى إعزاز فأرسل الحلبيون إلى سنان الرافضى فأرسل جماعة لقتل السلطان.

فدخل جماعة منهم فى الجيش فى زى الجند فقاتلوا أشد القتال حتى اختلطوا بهم فوجدوا ذات يوم فرصة والسلطان ظاهر للناس فحمل عليه واحد منهم فضربه بالسكين على رأسه فإذا هو محترس منهم باللأمة - أى البيضة وهى مثل الخوذة على الرأس - فسلمه الله غير أن السكين مرت على خده فجرحته جرحاً هيناً.

ثم أخذ الفداوى - أى الفدائى الشيعى من الطائفة الإسماعيلية - رأس السلطان إلى

الأرض ليذبحه، ومن حوله ـ من جنود صلاح الدين ـ أخذتهم الدهشة، ثم ثاب إليهم عقلهم فبادروا إلى الفداوى ـ الفدائى ـ فقتلوه وقطعوه ثم هجم آخر على بعض الأمراء فقتل أيضاً، ثم هرب الرابع فأدرك فقتل وبطل القتال ذلك اليوم.

ثم صمم السلطان على البلد ففتحها، وأقطعها ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وقد اشتد حنقه على أهل حلب لما أرسلوا إليه الفداوية ـ الفدائيين.

وقد ذكرنا تلك الواقعة إجمالاً فى سياق ذكر الإسماعيلية الباطنية التى من أساليبها الاغتيالات السياسية وكانت تتحالف مع الصليبيين ضد المسلمين وقد قتل بنفس الأسلوب الكثير من الأمراء والخلفاء فى الشام وغيرها.

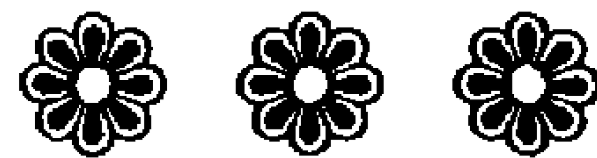
وظل صلاح الدين محاصراً لحلب حتى عام ٥٧٢ هـ فسألوه وتوسلوا إليه أن يصالحهم فصالحهم كما ذكرنا.

ثم ارتحل صلاح الدين عن حلب فقصد الإسماعيلية الباطنية الذين حاولوا إغتياله فحاصرهم فى حصنهم «مصبات» فقتل وسبى وحرق وضرب ديارهم.

ثم شفع فيهم خاله «شهاب الدين محمود بن تتش» صاحب حماه لأنهم جيرانه فقبل شفاعته وصالحهم ثم كر راجعاً إلى دمشق.

وفى نفس العام ٥٧٢ تزوج صلاح الدين بالسيدة خاتون عصمة الدين بنت معين الدولة وكانت زوجة السلطان نور الدين محمود رحمه الله.

ثم سافر بعد تلك الأحداث الجسام إلى مصر فى ربيع الأول من نفس العام.



أول معارك وحروب صلاح الدين الأيوبى مع الصليبيين (الفرنجة) فى «الرملة» بعد استقرار الأمر له فى بلاد الشام

فى عام ٥٧٣ هـ بعد أن عاد صلاح الدين من بلاد الشام واستقرت به الحال بمصر أمر بناء قلعته الشهيرة بقلعة صلاح الدين أو قلعة الجبل وأحاط السور على القاهرة، فكانت القلعة تحفة معمارية فى زمانه حتى الآن.

وقد تولى بناء القلعة وعمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش أحد المماليك لتقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب.

فى هذه السنة ٥٧٣ هـ أواخر جمادى الأولى سار صلاح الدين يوسف بن أيوب من مصر إلى ساحل الشام لقصد بلاد الفرنج وجمع معه عساكر كثيرة وجنوداً غزيرة فلم يزالوا يجدون السير حتى وصلوا مدينة عسقلان المحتلة فى الرابع والعشرين منه فنهبوا وأسروا وقتلوا وأحرقوا وتفرقوا فى تلك الأعمال مغيرين.

فلما رأوا أن الفرنج لم يظهر لهم عسكر ولا اجتمع لهم من يحمى البلاد من المسلمين طمعوا وانبسطوا وساروا فى الأرض آمنين مطمئنين ووصل صلاح الدين إلى الرملة عازماً على أن يقصد بعض حصونهم ليحاصره.

فوصل إلى نهر فازدحم الناس للعبور فلم يرعهم إلا والفرنج أشرفت عليهم بأبطالها وطلابها وكان مع صلاح الدين بعض العسكر لأن أكثرهم تفرقوا فى طلب الغنيمة.

فلما رآهم وقف لهم فيمن معه وتقدم بين يديه تقى الدين عمر بن محمد ابن أخى صلاح الدين فباشر القتال بنفسه بين يدى عمه فقتل من أصحابه جماعةوكذلك الفرنج.

وكان لتقى الدين ولد اسمه أحمد وهو من أحسن الشباب أول ما تكاملت لحيته فأمره أبوه بالحملة عليهم فحمل عليهم وقاتلهم وعاد سالماً قد أثر فيهم أثراً كثيراً فأمره بالعودة إليهم ثانية فحمل عليهم فقُتل شهيداً ومضى حميداً رحمه الله.

وتمت الهزيمة على المسلمين وحمل بعض الفرنج على صلاح الدين فقاربه حتى كاد أن يصل إليه فقتل الفرنجى بين يديه وتكاثر الفرنج عليه فمضى منهزماً يسير قليلاً ويقف ليحلقه العسكر إلى أن دخل الليل فسلك البرية إلى أن مضى فى نفر يسير إلى مصر ولقوا فى طريقهم مشقة شديدة من قلة الطعام والماء.

وأما العسكر الذين كانوا دخلوا بلاد الفرنج فى الغارة فإن أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير.

قال ابن الأثير رحمه الله(١):

وكان من جملة من أسر الفقيه عيسى الهكارى وهو من أعيان الأسدية وكان جمع العلم والدين والشجاعة وأسر أيضاً أخوه الظهير وكانا قد سارا منهزمين فضلا الطريق فأخذا ومعهما جماعة من أصحابهما وبقوا فى الأسر سنين فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بستين ألف دينار وجماعة كثيرة من الأسرى.

ووصل صلاح الدين إلى القاهرة نصف جمادى الآخرة ورأيت كتاباً كتبه صلاح الدين بخط يده إلى أخيه شمس الدولة تورانشاه وهو بدمشق يذكر الوقعة وفى أوله: لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما أنجانا الله سبحانه منه إلا أمر يريده سبحانه: وما ثبتت إلا وفى نفسها أمر. فى هذه السنة فى جمادى الأول حصر الفرنج أيضاً مدينة حماه وسبب ذلك أنه وصل من البحر إلى الساحل الشامى كبير من الفرنج من أكبر طواغيتهم فرأى صلاح الدين بمصر قد عاد منهزماً فاغتنم خلو البلاد لأن شمس الدولة بن أيوب كان بدمشق ينوب عن صلاح الدين وليس عنده كثير من العسكر.

وكان أيضاً كثير الانهماك فى اللذات مائلاً إلى الراحات فجمع ذلك الكند الفرنجى من بالشام من الفرنج وفرق فيهم الأموال وسار إلى مدينة حماه فحصرها وبها صاحبها شهاب الدين محمد خال صلاح الدين وهو مريض شديد المرض وكان طائفة من العسكر الصلاحى بالقرب منها فدخلوا إليها وأعانوا من بها.

وقاتل الفرنج على البلد قتالاً شديداً وهجموا بعض الأيام على طرف منه وكادوا يملكون البلد قهراً وقسراً فاجتمع أهل البلد مع العسكر إلى تلك الناحية واشتد القتال وعظم الخطب على الفريقين واستبسل المسلمون وحاموا عن الأنفس والأهل والمال فأخرجوا الفرنج من البلد إلى ظاهره. ودام القتال ظاهر البلد ليلاً ونهاراً وقويت نفوس المسلمين حين أخرجوهم من البلد وطمعوا فيهن وأكثروا فيهم القتل فرحل الفرنج حينئذ خائبين وكفى الله المسلمين شرهم.

---

(١) الكامل فى التاريخ ـ مصدر سابق.

وساروا إلى حارم فحصروها وكان مقامهم على حماة أربعة أيام ولما رحل الفرنج عن حماة مات صاحبها شهاب الدين الحارمى وكان له ابن من أحسن الشباب مات قبله بثلاثة أيام.

قتل كمشتكين وحصار الفرنج حارم:

فى هذه السنة قبض الملك الصالح بن نور الدين على سعد الدين كمشتكين وكان المتولى لأمر دولته والحاكم فيها وسبب قبضه أنه كان بحلب إنسان من أعيان أهلها يقال له أبو صالح بن العجمى وكان مقدماً عند نور الدين محمد.

فلما مات نور الدين تقدم أيضاً فى دولة ولده الملك الصالح وصار بمنزلة الوزير الكبير المتمكن لكثرة أتباعه بحلب ولأن كل من كان يحسد كمشتكين انضم إلى صالح وقووا جنابه وكثروا سواده وكان عنده إقدام وجرأة فصار واحد الدولة بحلب ومن يصدر الجماعة عن رأيه وبأمره.

فبينما هو فى بعض الأيام بالجامع وثب به الإسماعيلية الباطنية فقتلوه ومضى شهيداً.

وتمكن بعده سعد الدين وقوى حاله فلما قتل أحال الجماعة قتله على سعد الدين وقالوا: هو وضع الباطنية عليه حتى قتلوه وذكروا ذلك للملك الصالح ونسبوه إلى العجز وأنه ليس له حكم وأن سعد الدين قد تحكم عليه واحتقره واستصغره وقتل وزيره ولم يزالوا به حتى قبض عليه. وكانت قلعة حارم لسعد الدين قد أقطعه إياها الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين زنكى فامتنع من بها بعد قبضه وتحصنوا بها فسير سعد الدين عليها تحت الاستظهار ليأمر أصحابه بتسليمها إلى الملك الصالح فأمرهم بذلك فامتنعوا فعذب كمشتكين وأصحابه لا يرونه ولا يرحمونه فمات فى العذاب وأصر أصحابه على الامتناع والعصيان.

فلما رأى الفرنج ذلك ساروا إلى حارم من حماة فى جمادى الأولى على ما نذكره ظناً منهم أنهم لا ناصر لهم وأن الملك الصالح صبى قليل العسكر وصلاح الدين بمصر فاغتنموا هذه الفرصة ونازلوها وأطالوا المقام عليها مدة أربعة أشهر.

ونصبوا عليها المجانيق والسلالم فلم يزالوا كذلك إلى أن بذل لهم الملك الصالح مالاً وقال لهم: إن صلاح الدين واصل إلى الشام وربما أسلم القلعة ومن بها إليه.

فأجابوه حينئذ إلى الرحيل عنها فلما رحلوا عنها سير إليها الملك الصالح جيشاً فحصروها وقد بلغ الجهد منهم بحصار الفرنج وصاروا أنهم طلائع وكان قد قتل من أهلها وجرح الكثير فسلموا القلعة إلى الملك الصالح فاستناب بها مملوكاً كان لأبيه اسمه سرخك[1].

(١) انظر الكامل فى التاريخ لابن الأثير.

هزيمة الصليبيين عند غزوهم مدينة حماه عام ٥٧٤

فى هذه السنة ٥٧٤ هـ فى ربيع الأول سار جمع كثير من الفرنج بالشام إلى مدينة حماة وكثر جمعهم من الفرسان والرجالة طمعاً فى النهب والغارة فشنوا الغارة ونهبوا وخربوا القرى وأحرقوا وأسروا وقتلوا.

فلما سمع العسكر المقيم بحماة ساروا إليهم وهم قليل متوكلين على الله تعالى فالتقوا واقتتلوا وصدق المسلمون القتال فنصرهم الله تعالى وانهزم الفرنج وكثر القتل والأسر فيهم واستردوا منهم ما غنموه من السواد.

وكان صلاح الدين قد عاد من مصر إلى الشام فى شوال من السنة المتقدمة وهو نازل بظاهر حمص فحملت الرؤوس والأسرى والأسلاب إليه فأمر بقتل الأسرى فقتلوا.

تمرد ابن المقدم على صلاح الدين:

فى هذه السنة عصى شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم على صلاح الدين ببعلبك وكانت له قد سلمها إليه صلاح الدين لما فتحها جزاء له حيث سلم إليه ابن المقدم دمشق على ما سبق ذكره فلم تزل بيده إلى الآن فطلب شمس الدولة بن أيوب أخو صلاح الدين منه بعلبك وألح عليه فى طلبها لأن تربيته ونشأته كانا بها وكان يحبها ويختارها على غيرها من البلاد وكان الأكبر.

فلم يمكن صلاح الدين مخالفته فأمر شمس الدين بتسليمها إلى أخيه ليعوضه عنها فلم يجب إلى ذلك وذكره العهود التى له وما اعتمده معه من تسليم البلاد فلم يصغ إليه ولج عليه فى أخذها وسار ابن المقدم إليها واعتصم بها.

فتوجه إليه صلاح الدين وحصره بها مدة ثم رحل عنها من غير أن يأخذها وترك عليه عسكراً يحصره فلما طال عليه الحصار أرسل إلى صلاح الدين يطلب العوض عنها ليسلمها إليه فعوضه عنها وسلمها فأقطعها صلاح الدين أخاه شمس الدولة.

الغلاء والوباء ينتشران فى هذا العام:

فى هذه السنة انقطعت الأمطار بالكلية فى سائر البلاد الشامية والجزيرة والبلاد العراقية والديار البكرية والموصل وبلاد الجبل وخلاط وغير ذلك واشتد الغلاء.

وكان عاماً فى سائر البلاد فبيعت غرارة الحنطة بدمشق وهى اثنا عشر مكوكاً بالموصلى بعشرين ديناراً صورية عتقاً وكان الشعير بالموصل كل ثلاثة مكاكى بدينار أميرى وفى سائر البلاد ما يناسب ذلك.

واستسقى الناس فى أقطار الأرض فلم يسقوا وتعذرت الأقوات وأكلت الناس الميتة وما ناسبها ودام كذلك إلى آخر سنة خمس وسبعين.

ثم تبعه بعد ذلك وباء شديد عام أيضاً كثر فيه الموت وكان مرض الناس شيئاً واحداً وهو السرسام وكان الناس لا يلحقون يدفنون الموتى إلا أن بعض البلاد كان أشد من البعض.

ثم إن الله تعالى رحم العباد والبلاد والدواب وأرسل الأمطار وأرخص الأسعار.

قال ابن الأثير:

ومن عجيب ما رأيت أننى قصدت رجلاً من العلماء الصالحين بالجزيرة لأسمع عليه شيئاً من حديث النبى ﷺ فى شهر رمضان سنة خمس وسبعين والناس أشد ما كانوا غلاء وقنوطاً من الأمطار وقد توسط الربيع ولم تجئ قطرة واحدة من المطر.

فبينا أنا جالس ومعى جماعة ننتظر الشيخ إذ أقبل إنسان تركمانى قد أثر عليه الجوع وكأنه قد أخرج من قبر فبكى وشكا الجوع فأرسلت من يشترى له خبزاً فتأخر إحضاره لعدمه وهو يبكى ويتمرغ على الأرض ويشكو الجوع فلم يبق فينا إلا من بكى رحمة له وللناس ففى الحال تغيمت السماء وجاءت نقط من المطر متفرقة فضج الناس واستغاثوا ثم جاء فأكل التركمانى بعضه.

غارات الفرنج على بلاد المسلمين فى الشام:

فى هذه السنة فى ذى القعدة اجتمع الفرنج وساروا إلى بلد دمشق مع ملكهم فأغاروا على أعمالهما فنهبوا وأسروا وقتلوا وسبوا.

فأرسل صلاح الدين فرخشاه ولد أخيه فى جمع من العسكر إليهم وأمره إذا قاربهم يرسل إليه يخبره على جناح طائر ليسير إليه وتقدم إليه أن يأمر أهل البلاد بالانتزاح من بين يدى الفرنج فسار فرخشاه فى عسكره يطلبهم فلم يشعر إلا والفرنج قد خالطوه.

فاضطر إلى القتال فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس وألقى فرخشاه نفسه عليهم وغشى الحرب ولم يكلها إلى سواه فانهزم الفرنج ونصر المسلمون عليهم وقتل من مقدميهم جماعة ومنهم «همفرى» وما أدراك ما همفرى به كان يضرب به المثل فى الشجاعة والرأى فى الحرب وكان بلاء صبه الله على المسلمين فأراح الله من شره.

وقتل غيره من أضرابه ولم يبلغ عسكر فرخشاه ألف فارس.

أيضاً أغار البرنس صاحب أنطاكية ولاذقية على جشير المسلمين بشيزر وأخذه وأغار صاحب طرابلس على جمع كثير من التركمان فاحتجف أموالهم وكان صلاح الدين على «بانياس» فسير ولد أخيه تقى الدين عمر إلى حماة وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه إلى مصر وأمرهما بحفظ البلاد.

كان الفرنج قد بنوا حصناً منيعاً يقارب «بانيتس» عند بيت يعقوب عليه السلام بمكان يعرف بمخاضة الأحزان فلما سمع صلاح الدين بذلك سار من دمشق إلى «بانياس» وأقام بها وبث الغارات على بلاد الفرنج ثم سار إلى الحصن ليخربه.

ثم يعود إليه عند اجتماع العساكر فلما نازل الحصن قاتل من به من الفرنج ثم عاد عنه فلما دخلت سنة ٥٧٥ هـ لم يفارق «بانياس» بل أقام بها وخيله تغير على بلاد العدو.

وأرسل جماعة من عسكره مع جبالى الميرة ـ الطعام ـ فلم تشعر إلا والفرنج مع ملكهم قد خرجوا عليهم فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه الخبر فسار فى العساكر مجداً حتى وافاهم فى القتال فقاتل الفرنج قتالاً شديداً وحملوا على المسلمين عدة حملات كادوا يزيلونهم عن مواقفهم.

ثم أنزل الله نصره على المسلمين وهزم المشركين وقتلت منهم مقتلة كثيرة ونجا ملكهم فريداً وأسر منهم كثير: ابن البيرزان صاحب الرملة ونابلس وهو أعظم الفرنج محلاً بعد الملك.

وأسروا أيضاً أخا صاحب جبيل وصاحب طبرية ومقدم الداوية ومقدم الاسبارتية وصاحب جنين وغيرهم من مشاهير فرسانهم وطواغيتهم.

فأما ابن البيرزان فإنه فدى نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية وإطلاق ألف أسير من المسلمين.

وكان أكثر العمل فى هذا اليوم لعز الدين فرخشاه ابن أخى صلاح الدين.

وكان ذلك سبب الظفر ثم عاد صلاح الدين إلى «بانياس» من موضع المعركة وتجهز

للدخـول إلى ذلك الحـصن ومـحـاصـرته فـسـار إليـه فـى ربيع الأول وأحـاط به وقـوى طمـعـه بالهزيمة المذكورة فى فتحه وبث العساكر فى بلد الفرنج للإغارة ففعلوا ذلك.

وجمعوا من الأخشاب والزرجون شيئاً كثيراً ليجعله متارس للمجانيق فقال له جاولى الأسدى وهو مقدم الأسدية وأكابر الأمراء: الرأى أننا نجربهم بالزحف أول مرة ونذوق قتال من به وننظر الحال معهم فإن استضعفناهم وإلا فننصب المجانيق ما يفوت.

فقبل رأيه فنودى بالزحف إليه والجد فى قتاله فزحفوا واشتد القتال وعظم المر فصعد إنسان من العامة بقميص خلق من باشورة الحصن وقاتل على السور لما علاه وتبعه غيره من أضرابه ولحق بهم الجند فملكوا الباشورة فصعد الفرنج حينئذ منها إلى أسوار ليحموا نفوسهم وحصنهم إلى أن يأتيهم المدد.

وكان الفرنج قد جمعوا فى طبرية فألح المسلمون فى قتال الحصن خوفاً من وصول الفرنج وإزاحتهم عنه وأدركهم الليل فأمر صلاح الدين بالمبيت «بالباشورة» إلى الغد ففعلوا.

فلما كان الغد أصبحوا وقد نقبوا الحصن وعمقوا النقب وأشعلوا النيران فيه وانتظروا سقوط السور فلم يسقط لعرضه فإنه كان تسعة أذرع بالنجارى يكون الذراع ذراعاً ونصفاً فانتظروه يومين ليسقط فلم يسقط.

فأمر صلاح الدين بإطفاء النار التى فى النقب فحمل الماء والقى عليها فطفئت.

وعاد النقابون فنقبوا وخرقوا السور وأوقدوا فيه النار.

فسقط يوم الخميس لست بقين من ربيع الأول ودخل المسلمون الحصن عنوة وأسروا كل من فيه وأطلقوا من كان به من أسارى المسلمين وقتل صلاح الدين كثيراً من أسرى الفرنج وأدخل الباقين إلى دمشق.

وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن وعفى أثره وألحقه بالأرض.

وكان قد بذل للفرنج ستين ألف دينار مصرية ليهدموه بغير قتال فلم يفعلوا ظناً منهم أنه إذا بقى بناؤه تمكنوا به من كثير من بلاد الإسلام.

وأما الفرنج فاجتمعوا بطبرية ليحموا الحصن فلما أتاهم الخبر بأخذه فت فى أعضادهم فتفرقوا إلى بلادهم وأكثر الشعراء فيه الحديث وفى هذه السنة كانت الحرب بين عسكر صلاح الدين يوسف بن أيوب ومقدمه ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وبين عسكر الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان صاحب بلاد قونية وأقصرا.

وسببها أن نور الدين محمود بن زنكى بن آق سنقر رحمه الله كان قد أخذ قديماً من قلج أرسلان حصن رعبان وكان بيد شمس الدين بن المقدم إلى الآن فطمع فيه قلج أرسلان بسبب أن الملك الصالح بحلب بينه وبين صلاح الدين فأرسل إليه من يحصره فاجتمع عليه جمع كثير يقال: كانوا عشرين ألفاً.

فأرسل إليهم صلاح الدين تقى الدين فى ألف فارس فواقعهم وقاتلهم وهزمهم وأصلح حال تلك الولاية وعاد إلى صلاح الدين.

ولم يحضر معه تخريب حصن الأحزان فكان يفتخر ويقول: هزمت بألف مقاتل عشرين ألفاً.

وفاة السلطان سيف الدين زنكى صاحب الموصل عام ٥٧٦ هـ:

توفى سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى صاحب الموصل وديار الجزيرة وكان مرضه السل وطال به ثم أدركه فى آخره سرسام ومات عام ٥٧٦ هـ.

ومن عجيب ما يحكى أن الناس خرجوا سنة خمس وسبعين يستسقون لانقطاع الغيث وشدة الغلاء وخرج سيف الدين فى موكبه فثار به الناس وقصدوه بالاستغاثة وطلبوا منه ان يأمر بالمنع من بيع الخمر فأجابهم إلى ذلك فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمارين وخربوا أبوابها ودخلوها ونهبوها وأراقوا ما بها من خمور وكسروا الظروف وعملوا ما لا يحل.

فاستغاث أصحاب الدور إلى نواب السلطان وخصوا بالشكوى وجلاً من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق ولم يكن له يد فى الذى فعله العامة من النهب وما لا يجوز فعله إنما هو أراق الخمور ونهى العامة عن الذى يفعلونه فلم يسمعوا منه فلما شكى الخمارون منه أحضر بالقلعة وضرب على رأسه فسقطت عمامته.

فلما أطلق لينزل من القلعة نزل مكشوف الرأس فأرادوا تغطيته بعمامته فلم يفعل.

وقال: والله لا غطيت رأسى حتى ينتقم الله لى ممن ظلمنى!

فلم يمض غير أيام حتى توفى الدزدار الذى تولى أذاه.

ثم يعقبه موت سيف الدين واستمر بها إلى أن مات وعمره حينئذ نحو ثلاثين سنة[1].

وكانت ولايته عشر سنين وثلاثة أشهر وكان حسن الصورة مليح الشباب تام القامة ابيض اللون وكان عاقلاً وقوراً قليل الالتفات إذا ركب وإذا جلس عفيفاً لم يذكر عنه ما ينافى العفة.

---

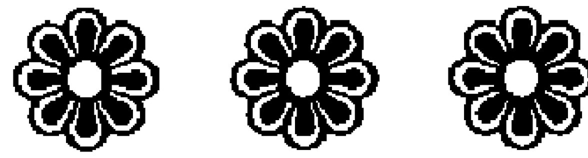
(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير، الكامل فى التاريخ ـ مصدر سابق.

وكان غيوراً شديد الغيرة لا يدخل دوره غير الخدم الصغار فإذا كبر أحدهم منعه وكان لا يحب سفك الدماء ولا أخذ الأموال على شح فيه وجبن.

ولما اشتد مرضه أراد أن يعهد بالملك لابنه معز الدين سنجر شاه وكان عمره حينئذ اثنتى عشرة سنة فخاف على الدولة من ذلك.

لأن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد تمكن بالشام وقوى أمره وامتنع أخوه عز الدين مسعود بن مودود من الإذعان لذلك والإجابة إليه فأشار الأمراء الأكابر ومجاهد الدين قايماز بأن يجعل الملك بعده فى عز الدين أخيه لما هو عليه من الكبر فى السن والشجاعة والعقل وقوة النفس وأن يعطى ابنيه بعض البلاد ويكون مرجعهما إلى عز الدين عمهما والمتولى لأمرهما مجاهد الدين قايماز ففعل ذلك وجعل الملك فى أخيه وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه وقلعة عقر الحميدية لولده الصغير ناصر الدين كسك.

فلما توفى سيف الدين ملك بعده الموصل والبلاد أخوه عز الدين مسعود وكان المدبر للدولة مجاهد الدين قايمز نائبه وهو الحاكم فى الجميع واستقرت الأمور له.



حرب صلاح الدين قلج أرسلان

عام ٥٧٦ هـ سار صلاح الدين من الشام إلى بلاد قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان وهى ملطية وسيواس وما بينهما وقونية ليحاربه.

قال ابن الأثير فى سبب الخلاف:

وسبب ذلك أن نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر كان قد تزوج ابنة قلج أرسلان المذكور وبقيت عنده مدة.

ثم إنه أحب مغنية فتزوجها ومال إليها وحكمت فى بلاده وخزائنه وأعرض عن ابنة قلج أرسلان.

وتركها نسياً منسيّا فبلغ أباها الخبر فعزم على قصد نور الدين وأخذ بلاده فأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يستجير به ويسأله كف يد قلج أرسلان عنه.

فأرسل صلاح الدين إلى قلج أرسلان فى المعنى فأعاد الجواب: إننى كنت قد سلمت إلى نور الدين عدة حصون مجاورة بلاده لما تزوج ابنتى فحيث آل الأمر معه إلى ما تعلم فأنا أريد أن يعيد إلى ما أخذه منى.

وترددت الرسل بينهما فلم يستقر حال فيها فهادن صلاح الدين الفرنج وسار فى عساكره.

وكان الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب فيها فتركها ذات البسار على تل باشر إلى رعبان فأتاه بها نور الدين محمد وأقام عنده.

فلما سمع قلج أرسلان بقربه منه أرسل إليه أكبر أمير عنده ويقول له: إن هذا الرجل فعل مع ابنتى كذا ولابد من قصد بلاده وتعريفه محل نفسه.

فلما وصل الرسول واجتمع بصلاح الدين وأدى الرسالة امتعض صلاح الدين لذلك واغتاظ وقال للرسول: قل لصاحبك والله الذى لا أدخل إلا هو لئن لم يرجع لأسيرن إلى ملطية وبينى وبينها يومان ولا أنزل عن فرسى إلا فى البلد ثم جميع بلاده وآخذها منه.

فرأى الرسول أمراً شديداً فقام من عنده وكان قد رأى العسكر وما هو عليه من القوة والتجمل وكثرة السلاح والدواب وغير ذلك وليس عنده ما يقاربه.

فعلم أنه إن قصدهم أخذ بلادهم فأرسل إليه من الغد يطلب أن يجتمع به فأحضره فقال له: أريد أن أقول شيئاً من عندى ليس رسالة من عند صاحبى وأحب أن تنصفنى.

فقال له: قل!!

قال: يا مولانا ما هو قبيح بمثلك وأنت من أعظم السلاطين وأكبرهم شأناً أن تسمع الناس عنك أنك صالحت الفرنج وتركت الغزو ومصالح المملكة وأعرضت عن كل ما فيه صلاح لك ولرعيتك وللمسلمين عامة وجمعت العساكر من أطراف البلاد البعيدة والقريبة وسرت وخسرت أنت وعساكرك الأموال الكثيرة من أجل قحبة مغنية ما يكون عذرك عند الله تعالى.

ثم عند الخليفة وملوك الإسلام والعالم كافة واحسب أن أحداً ما يواجهك بهذا أما يعلمون أن الأمر هكذا.

ثم احسب أن قلج أرسلان مات وهذه ابنته أرسلتنى إليك تستجير بك وتسألك أن تنصفها من زوجها فإن فعلت فهو الظن بك أن لا تردها.

فقال: والله الحق بيدك وإن الأمر لكما تقولن ولكن هذا الرجل دخل على وتمسك بى ويقبح تركه لكنك أنت اجتمع به وأصلح الحال بينكم على ما تحبون وأنا أعينكم عليه وأقبح فعله عنده ووعد من نفسه بكل جميل.

فاجتمع الرسول بصاحب الحصن وتردد القول بينهم.

فاستقر أن صاحب الحصن يخرج المغنية من عنده بعد سنة وإن كان لا يفعل ينزل صلاح الدين عن نصرته ويكون هو وقلج أرسلان عليه واصطلحوا على ذلك.

وعاد صلاح الدين عنه إلى الشام وعاد نور الدين إلى بلاده.

فلما انقضت المدة أخرج نور الدين المغنية عنه فتوجهت إلى بغداد وأقامت بها إلى أن ماتت.

ثم قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الأرمنى بعد فراغه من أمر قلج أرسلان وسبب ذلك أن ابن ليون الأرمنى قد استمال قوماً من التركمان وبذل لهم الأمان فأمرهم أن يرعوا مواشيهم فى بلاده وهى بلاد حصينة كلها حصون منيعة والدخول إليها صعب لأنها مضائق وجبال وعرة.

ثم غدر بهم وسبى حريمهم وأخذ أموالهم وأسر رجالهم بعد أن قتل منهم من حان أجله.

ونزل صلاح الدين على النهر الأسود وبث الغارات على بلاده فخاف ابن ليون على حصن له على رأس جبلن أن يؤخذ فخربه وأحرقه فسمع صلاح الدين بذلك فأسرع السير

إليه فأدركه قبل أن ينقل ما فيه من ذخائر وأقوات فغنمها وانتفع المسلمون بما غنموه.

فأرسل ابن ليون يبذل إطلاق ما عنده من الأسرى وأعيدت أموالهم وعاد صلاح الدين عنه فى ملك يوسف بن عبد المؤمن مدينة قفصة.

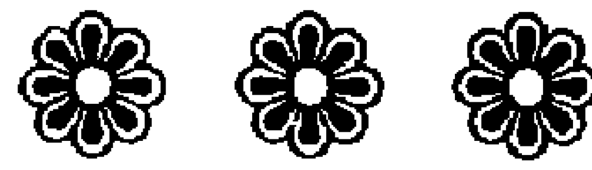
وفى نفس العام سنة ٥٧٦ هـ توفى السلطان توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين وهو الذى افتتح بلاد اليمن عن أمر أخيه وملكها فترة حتى استقرت الأمور بها وكان حكمه لها باسم أخيه صلاح الدين.

ثم عاد إلى الشام عام ٥٧١ هـ فشارك أخاه السلطان صلاح الدين فى بعض معاركه وجهاده، واستنابه أخيه على دمشق فترة من الزمن.

ثم استنابه على الاسكندرية فأصيب بالقولونج ومات به ودفن فى قصر الإمارة.

ثم نقل بعد ذلك إلى الشام.

وفى هذا العام سار قرقوش وزير صلاح الدين إلى مدينة فاس المغربية واستحوذ عليها[١].



---

(١) انظر المصدر السابق.

أحداث عظام قبل حطين

- وفاة ملك الموصل وملك حلب وفتح صلاح الدين بعض حصون الأرمن.
- إخماد ثورة حطان بن منقذ فى اليمن.
- ضم صلاح الدين بعض المدن والقرى فى الديار الشامية والعراقية.
- استيلاء صلاح الدين على مدينة سنجار.
- حصاره للموصل والتصالح مع ملكها.
- القضاء على محاولة الصليبيين غزو الحرمين الشريفين براً ثم بحراً.
- استيلاء صلاح الدين على حلب صلحاً فى سنة ٥٧٩ هـ وحارم وغزو بيسان.
- استيلاؤه على مدينة ميفارقين.
- مرض صلاح الدين ونذره لله.

9

وفاة ملك الموصل وملك حلب
وفتح بعض حصون الأرمن

توفى صاحب الموصل الملك سيف الدين غازى بن مودود بن عماد الدين زنكى عام ٥٧٦ هـ وكان شاباً فى الثلاثين من عمره فى شهر صفر.

واتفق الأمراء على تولية أخيه عز الدين مسعود مكانه لصغر سن ابنه عز الدين سنجر شاه، وخوفهم من صلاح الدين.

وتوفى الملك الصالح بن نور الدين صاحب حلب فى العام التالى سنة ٥٧٧ فى شهر رجب ولم يبلغ العشرين من عمره مسموماً فقد سمه الأمير علم الدين سليمان ابن حيدر وكان حسن السيرة مثل أبيه نور الدين زنكى رحمهما الله.

واستخلف أهل حلب ابن عمه عز الدين مسعود بن قطب الدين ملك الموصل مكانه.

وطلب عماد الدين أخو الملك عز الدين مسعود من أخيه أن يقايضه من مدينة حلب إلى سنجار وألح عليه.

وبالفعل وافق عز الدين مسعود على طلب أخيه وأعطاه مدينة حلب وتسلم هو مدينة «سنجار» الذى كان يحكمها عماد الدين أخوه ومعها الخابور والرقة ونصيبين وسروج وغيرها من الثغور الهامة التى تقف سداً منيعاً أمام الأفرنج.

ولما سمع صلاح الدين بتلك الأمور ولاهتمامه بتلك البلاد الصغيرة الملاصقة للصليبيين وخوفه من استيلائهم علها لاضطراب أحوال ملوكها سار إليهم من مصر فى جيشه حتى أتى الفرات فعبره إلى الموصل، فهرب من مواجهته صاحب الموصل واستحوذ صلاح الدين على بلاد الجزيرة كلها كما سيأتى ذكر ذلك.

وقام بمحاصرة الموصل ولم يدخلها كما سيأتى بيانه ثم تركها.

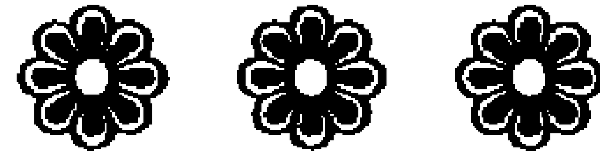
ثم قصد مدينة حلب فتسلمها من عماد الدين سلماً دون قتال.

وكان الخليفة العباسى قد طلب من صلاح الدين بعد وفاة صاحب الموصل سيف الدين غازى بن مودود زنكى أن يبقى بلاد الرها وسروح والرقة وحران والخابور ونصيبين فى يد

الملك الجديد للموصل عز الدين مسعود فامتنع صلاح الدين من ذلك وقال له: هذه البلاد هى حفظ ثغور المسلمين وتركها فى يده وطلبنا منه ليساعدنا على غزو الفرنج فلم يفعل.

ولذلك استردها صلاح الدين منه حتى يؤمن تلك الثغور فى حربه ضد الصليبيين فيما بعد.

وقام أمير الكرك الصليبى بالإغارة على شمال الحجاز على مدينة «تيماء» قاصداً غزو المدينة المنورة مدينة رسول الله ﷺ، فتصدى له صلاح الدين من دمشق وصده عن غزوه وجعل سرية عسكرية قائمة ناحية الحجاز لصد هذا الأمير الصليبى، وسيأتى ذكر محاولة الصليبيين غزو مكة والمدينة المنورة بحراً والتصدى لهم عام ٥٧٨ هـ.



إخماد ثورة حطان بن منقذ فى اليمن

عام ٥٧٧ سير صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغدكين إلى بلاد اليمن وأمره بتملكها وقطع الفتن بها وفوض إليه أمرها وكان عز الدين عثمان الزنجيلى متولى عدن بعث إلى صلاح الدين يعرفه باختلال البلاد ويشير بإرسال بعض أهله إليه لأن حطان بن منقذ كان قوى عليه فخافه عثمان فجهز صلاح الدين أخاه سيف الإسلام وسيره إلى أهل اليمن فوصل إلى مدينة «زبيد» فى عام ٥٧٨ هـ.

فخافه حطان بن منقذ وتحصن فى بعض القلاع فلم يزل به سيف الإسلام يؤمنه ويهدى إليه ويتلطفه حتى نزل إليه فأحسن صحبته واعتمد معه ما لم يكن يتوقعه من الإحسان.

فلم يثق حطان به وطلب منه دستوراً ليقصد الشام فامتنع فى إجابته إظهاراً للرغبة فى كونه عنده فلم يزل حطان يراجعه حتى أذن له فأخرج أثقاله وأمواله وأهله وأصحابه وكل ما له وسير الجميع بين يديه.

فلما كان الغد دخل على سيف الإسلام ليودعه قبض عليه واسترجع جميع ماله فأخذه عن آخره لم يسلم منه قليل ولا كثير ثم سجنه فى بعض القلاع وكان آخر العهد به فقيل إنه قتله وكان فى جملة ما أخذ منه الأموال والذهب والعين فى سبعين غلافاً زردية مملوءة عيناً.

قال ابن كثير: وكانت تقارب ألف ألف دينار ـ أى حوالى مليون[١].

وأما عز الدين عثمان الزنجيلى فإنه لما سمع ما جرى على حطان خاف فسار نحو الشام خائفاً يترقب وسير معظم أمواله فى البحر فصادفهم مراكب فيها أصحاب سيف الإسلام فأخذوا كل ما لعز الدين ولم يبق إلا ما صحبه فى الطريق.

وقال ابن كثير إن الزنجيلى قد خرج إلى الشام قبل قدوم طغتكين إلى اليمن. وله أوقاف مشهورة بمكة واليمن.

مناوشات مع الصليبيين:

سار صلاح الدين إلى بلاد الفرنج فى ربيع الأول فقصد طبرية فنزل بالقرب منها

---

(١) انظر البداية والنهاية ـ مصدر السابق.

وخيم فى الأقحوانة من الأردن وجاءت الفرنج بجموعها فنزلت فى طبرية فسير صلاح الدين ابن أخيه فرخشاه إلى بيسان فدخلها قهراً وغنم ما فيها وقتل وسبى وجحف الغور غارة شعواء فعم أهله قتلاً وأسراً وجاءت العرب فأغارت على جنين واللجون وتلك الولاية حتى قاربوا مرج عكا.

وسار الفرنج من طبرية فنزلوا تحت جبل كوكب فتقدم صلاح الدين إليهم وأرسل العساكر عليهم يرمونهم بالنشاب فلم يبرحوا ولم يتحركوا للقتال.

فأمر ابنى أخيه تقى الدين عمر وعز الدين فرخشاه فحملا على الفرنج فيمن معهما فقاتلوا قتالاً شديداً ثم إن الفرنج انحازوا على حمايتهم فنزلوا «غفربلا» فلما رأى صلاح الدين ما قد أثخن فيهم وفى بلادهم عاد عنهم إلى بيروت.

وكان قد أمر الأسطول المصرى بالمجىء فى البحر إليها فساروا ونازلوها وأغاروا عليها وعلى بلدها وسار صلاح الدين فوافاهم ونهب ما لم يصل الأسطول إليه وحصرها عدة أيام.

وكان عازماً على ملازمتها إلى أن يفتحها فأتاه الخبر وهو عليها أن البحر قد ألقى سفينة للفرنج فيها جمع عظيم منهم إلى دمياط وكانوا قد خرجوا لزيارة البيت المقدس فأسروا من بها إلى أن غرق منهم الكثير فكان عدة الأسرى ألفاً وستمائة وستة وسبعين أسيراً فضربت بذلك البشائر.

عبور صلاح الدين الفرات وملكه ديار الجزيرة

فى هذه السنة عبر صلاح الدين الفرات إلى الديار الجزرية وملكها. وسبب ذلك أن مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على بن بكتكين وهو مقتطع حران كان قد أقطعه إياها عز الدين أتابك المدينة والقلعة ثقة به واعتماداً عليه أرسل إلى صلاح الدين هو يحاصر بيروت يعلمه بها أنه معه محب لدولته ووعده النصرة له إن عبر الفرات ويطمعه فى البلاد ويحثه على الوصول إليها.

فسار صلاح الدين عن بيروت ورسل مظفر الدين تترى إليه يحثه على المجئ فجد صلاح الدين السير مظهراً أنه يريد حصر حلب ستراً للحال.

فلما قارب الفرات سار إليه مظفر الدين فعبر الفرات واجتمع به وعاد معه فقصد البيرة وهى قلعة منيعة على الفرات من الجانب الجزرى.

وكان صاحبها قد سار مع صلاح الدين وفى طاعته فعبر هو وعسكره الفرات على

الجسر الذى عند البيرة.

وكان عز الدين صاحب الموصل ومجاهد الدين لما بلغهما وصول صلاح الدين إلى الشام قد جمعا العسكر وسارا إلى نصيبين ليكونا على أهبة واجتماع لئلا يتعرض صلاح الدين إلى حلب ثم تقدما إلى دارا فنزلا عندها.

فجاءهما أمر لم يكن فى الحساب فلما بلغهما عبور صلاح الدين الفرات عادا إلى الموصل.

وأرسلا إلى الرها عسكراً يحميها ويمنعها فلما سمع صلاح الدين ذلك قوى طمعه فى البلاد.

ولما عبر صلاح الدين الفرات كاتب الملوك أصحاب الأطراف ووعدهم وبذل لهم البذول على نصرته فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن إلى ما طلب منه لقاعدة كانت قد استقرت بينهما لما كان نور الدين عنده بالشام فإنه استقر الحال أن صلاح الدين يحصر آمد ويملكها ويسلمها إليه.

وسار صلاح الدين إلى مدينة الرها فحصرها فى جمادى الأولى وقاتلها أشد قتال.

ووالى الزحف عليها وكان بها حينئذ مقطعها وهو الأمير فخر الدين مسعود ابن الزعفرانى فحيث رأى شدة القتال أذعن إلى التسليم وطلب الأمان وسلم البلد وصار فى خدمة صلاح الدين فلما ملك المدينة زحف إلى القلعة فسلمها إليه الدزدار الذى بها على مال أخذه.

فلما ملكها سلمها إلى مظفر الدين مع حران ثم سار عنها على حران إلى الرقة فلما وصل إليها كان بها مقطعها قطب الدين ينال بن حسان المنبجى فسار عنها إلى عز الدين أتابك وملكها صلاح الدين وسار إلى الخابور قرقيسيا وماكسين وعابان فملك جميع ذلك وهى من أهم الثغور كما أوضح صلاح الدين فى رده على الخليفة العباسى.

فلما استولى على الخابور جميعه سار إلى نصيبين فملك المدينة لوقتها وبقيت القلعة فحصرها عدة أيام فملكها أيضاً وأقام بها ليصلح شأنها ثم أقطعهما أميراً كان معه يقال له أبو الهيجاء السمين وسار عنه ومعه نور الدين صاحب الحصن.

وأغار الصليبيون على دمشق ونهبوا القرى ووصلوا إلى داريا وأرادوا تخريب جامعها فأرسل النائب بدمشق إليهم جماعة من النصارى يقولون لهم: إذا خربتم الجامع جددنا عمارته وخربنا كل بيعة لكم فى بلادنا ولا نمكن أحداً من عمارتها.

فتركوه ولما وصل الخبر إلى صلاح الدين بذلك أشار عليه من يتعصب لعز الدين بالعود فقال: يخربون قرى ونملك عوضها بلاداً ونعود نعمرها ونقوى على قصد بلادهم ولم يرجع

فكان كما قال.

لما ملك صلاح الدين نصيبين جمع أمراءه وأرباب المشورة عنده واستشارهم بأى البلاد يبدأ وأيها يقصد بالموصل أم بسنجار أم بجزيرة ابن عمر.

فاختلفت آراؤهم فقال له مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين: لا ينبغى أن يبدأ بغير الموصل فإنها فى أيدينا لا مانع لها فإن عز الدين ومجاهد الدين متى سمعا بمسيرنا إليها تركاها وسارا عنها إلى بعض القلاع الجبلية.

ووافقه ناصر الدين محمد ابن عمه شيركوه وكان قد بذل لصلاح الدين مالاً كثيراً ليقطعه الموصل إذا ملكها وقد أجابه صلاح الدين إلى ذلك فأشار بهذا الرأى لهواه فسار صلاح الدين إلى الموصل.

وكان عز الدين صاحبها ومجاهد الدين قد جمعا العساكر الكثيرة ما بين فارس وراجل وأظهرا من السلاح وآلات الحصار ما حارت له الأبصار.

وبذلا الأموال الكثيرة وأخرج مجاهد الدين من ماله كثيراً واصطلى الأمور بنفسه فأحسن تدبيرها وشحنوا ما بقى بأيديهم من البلاد كالجزيرة وسنجار وإربل وغيرها من البلاد بالرجال والسلاح والأموال.

وسار صلاح الدين حتى قارب الموصل وترك عسكره وانفرد هو ومظفر الدين وابن عمه ناصر الدين بن شيركوه ومعهم نفر من أعيان دولته وقربوا من البلد فلما قربه رآه وحققه فرأى ما هاله وملأ صدر أصحابه فإنه رأى بلداً عظيماً كبيراً ورأى السور والفصيل ملئا من الرجال وليس فيه شرافة إلا وعليها رجل يقاتل سوى من عليه من عامة أهل البلدة.

فلما رأى ذلك علم أنه لا يقدر على أخذه وأنه يعود خائباً فقال لناصر الدين ابن عمه: إذا رجعنا إلى المعسكر فاحمل ما بذلت من المال فنحن معك على القول.

فقال صلاح الدين: قد رجعت عما بذلت من المال فإن هذا البلد لا يرام.

فقال له ولمظفر الدين: غررتمانى وأطعمتمانى فى غير مطمع ولو قصدت غيره قبله لكان أسهل أخذاً بالاسم والهيبة التى حصلت لنا ومتى نازلناه وعدنا منه ينكسر ناموسنا ويفل حدنا وشوكتنا.

قال ابن الأثير:

ثم رجع إلى معسكره وكان نزوله عليه فى رجب فنازله وضايقه ونزل محاذى باب كندة

وأنزل صاحب الحصن بباب الجسر وأنزل أخاه تاج الملوك عند الباب العمادى وأنشب القتال فلم يظفر وخرج عليه يوماً بعض العامة فنالوا منه.

ولم يمكن عز الدين ومجاهد الدين أحداً من العسكر أن يخرجوا لقتال بل ألزموا الأسوار.

ثم إن تقى الدين أشار على عمه صلاح الدين بنصب منجنيق فقال: مثل هذا البلد لا ينصب عليه منجنيق ومتى نصبناه أخذوه ولو خربنا برجاً أصلحوه من يقدر على الدخول للبلد وفيه هذا الخلق الكثير.

فألح تقى الدين وقال: نجربهم به فنصب منجنيقاً فنصب عليه من البلد تسعة مجانيق وخرج جماعة من العامة فأخذوه وجرى عنده قتال كثير.

فأخذ بعض العامة لألكة من رجليه فيها المسامير الكثيرة ورمى بها أميراً يقال له جاولى الأسدى مقدم الأسدية وكبيرهم فأصاب صدره فوجد لذلك ألماً شديداً.

وأخذ اللاكة وعاد عن القتال إلى صلاح الدين وقال: قد قاتلنا أهل الموصل بحماقات ما رأينا بعد مثلها وألقى اللاكة وحلف أنه لا يعود يقاتل عليها أنفة حيث ضرب بهذه.

ثم إن صلاح الدين رحل من قرب لبلد ونزل متأخراً خوفاً من البيات فإنه لقربه كان لا يأمن ذلك وكان سببه أيضاً أن مجاهد الدين أخرج فى بعض الليالى جماعة من باب السر الذى للقلعة ومعهم المشاعل.

فكان أحدهم يخرج من الباب وينزل إلى دجلة مما يلى عين الكبريت ويطفئ المشعل فرأى العسكر الناس يخرجون فلم يشكوا فى الكبسة فحملهم ذلك على الرحيل والتأخر ليتعذر البيات على أهل الموصل.

وكان صدر الدين شيخ الشيوخ رحمه الله وقد وصل إليه قبل نزوله على الموصل ومعه بشير الخادم وهم من خواص الخليفة الناصر لدين الله فى الصلح فأقاما معه على الموصل.

وترددت الرسل إلى عز الدين ومجاهد الدين فى الصلح فطلب عز الدين إعادة البلاد التى أخذت منهم فأجاب صلاح الدين إلى ذلك بشرط أن تسلم إليه حلب.

فامتنع عز الدين ومجاهد الدين ثم نزل عن ذلك وأجاب إلى تسليم البلاد بشرط أن يتركوا إنجاد صاحب حلب عليه فلم يجيبوه إلى ذلك أيضاً وقال عز الدين: هو أخى وله العهود والمواثيق ولا يسعنى نكثها.

ووصلت أيضاً رسل قزل أرسلان صاحب أذربيجان ورسل شاه أرمن صاحب خلاط فى المعنى.

فلم ينتظم أمر ولا تم صلح فلما رأى صلاح الدين أنه لا ينال من الموصل غرضاً ولا يحصل على غير العناء والتعب وأن من بسنجار من العساكر الموصلية يقطعون طريق من يقصدونه من عساكره وأصحابه سار من الموصل إليها.

استيلاء صلاح الدين على «سنجار»:

لما سار صلاح الدين عن الموصل إلى سنجار سير مجاهد الدين إليها عسكراً قوة لها ونجدة فسمع بهم صلاح الدين فمنعهم من الوصول إليها وأوقع بهم وأخذ سلاحهم ودوابهم وسار إليها ونازلها.

وكان بها شرف الدين أمير أميران هندوا أخو عز الدين صاحب الموصل فى عسكر معه فحصر البلد وضايقه وألح فى قتاله.

فكاتبه بعض أمراء الأكراد الذين به من الزرزارية وخامر معه وأشار بقصده من الناحية التى هو بها ليسلم إليه البلد فطرقه صلاح الدين ليلاً فسلم إليه ناحيته فملك الباشورة لا غير.

فلما سمع شرف الدين الخبر استكان وخضع وطلب الأمان فأمن ولو قاتل على تلك الناحية لأخرج العسكر الصلاحى عنها ولو امتنع بالقلعة لحفظها ومنعها ولكنه عجز فلما طلب الأمان أجابه صلاح الدين إليه فأمنه وملك البلد.

وسار شرف الدين ومن معه إلى الموصل واستقر جميع ما ملكه صلاح الدين بملك سنجار فإنه كان قصد أن يسترد المواصلة إذا فارقه لأنه لم يكن فيه حصن غير الرها.

فلما ملك سنجار صارت على الجميع كالسور واستتاب بها سعد الدين بن معين الدين أنز وكان من أكابر الأمراء وأحسنهم صورة ومعنى.

وسار هو ومن معه من الجنود إلى حران ليستريح جنوده بعض الوقت.

مفاوضات الجلاء عن الموصل:

فى سنة ٥٧٨ هـ فى ذى الحجة اجتمع عز الدين صاحب الموصل وشاه أرمن صاحب خلاط على قتال صلاح الدين.

وسبب ذلك أن رسل عز الدين ترددت إلى شاه أرمن يستنجده ويستنصره على صلاح الدين فأرسل شاه أرمن إلى صلاح الدين عدة رسل فى الشفاعة إليه بالكف عن الموصل وما

يتعلق بعز الدين فلم يجبه إلى ذلك وغالطه.

فأرسل إليه أخيراً مملوكه سيف الدين بكتمر الذى ملك خلاط بعد شاه أرمن فأتاه وهو يحاصر سنجار يطلب إليه أن يتركها ويرحل عنها وقال له: إن رحل عنها وإلا فتهدده بقصده ومحاربته.

فأبلغه بكتمر الشفاعة فسوفه فى الجواب رجاء أن يفتحها فلما رأى بكتمر ذلك أبلغه الرسالة الثانية بالتهديد وفارقه غضبان ولم يقبل منه خلعة ولا صلة وأخبر صاحبه الخبر وخوفه عاقبة الإهمال والتوانى عن صلاح الدين.

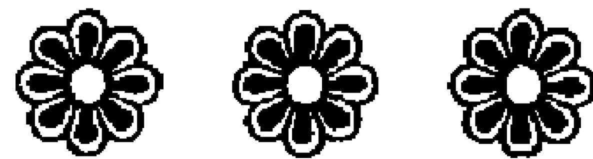
فسار شاه أرمن من خلاط وكان مخيماً بظاهرها وسار إلى ماردين وصاحبها حينئذ قطب الدين بن نجم الدين ألبى وهو ابن أخت شاه أرمن وابن خال عز الدين وحموه لأن عز الدين كان قد زوج ابنته قطب الدين وحضر مع شاه أرمن دولة شاه صاحب بدليس وأرزن وسار أتابك عز الدين من الموصل فى عسكره جريدة من الأثقال.

وكان صلاح الدين قد ملك «سنجار» وسار عنها إلى حران وفرق عساكره فلما سمع باجتماعهم سير إلى تقى الدين ابن أخيه وهو بحماة يستدعيه فوصل إليه مسرعاً وأشار عليه بالرحيل وحذره منه آخرون.

وكان هوى صلاح الدين فى الرحيل فرحل إلى رأس عين.

فلما سمعوا برحيله تفرقوا فعاد شاه أرمن إلا خلاط واعتذر بأنه أجمع العساكر ورجع عز الدين إلى بلاده.

وأقام قطب الدين بماردين وسار صلاح الدين فنزل بحرزم تحت ماردين عدة أيام.



القضاء على محاولة الصليبيين
غزو الحرمين الشريفين

فى هذه السنة عمل أمير الكرك الصليبى أسطولاً وفرغ منه بالكرك ولم يبق إلا جمع قطعه بعضها إلى بعض وحملها إلى بحر أيلة وجمعها فى أسرع وقت.

وفرغ منها وشحنها بالمقاتلة وسيرها فساروا فى البحر وافترقوا فرقتين: فرقة أقامت على حصن أيلة وهو للمسلمين يحصرونه ويمنع أهله من ورود الماء فنال أهله شدة شديدة وضيق عظيم وأما الفرقة الثانية فإنهم ساروا نحو عيذاب.

وأفسدوا فى السواحل ونهبوا وأخذوا ما وجدوا من المراكب الإسلامية ومن فيها من التجار وبغتوا الناس فى بلادهم على حين غفلة منهم فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجياً قط لا تاجراً ولا محارباً.

وكان بمصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب ينوب عن أخيه صلاح الدين فجهز أسطولاً وسيره وفيه جمع كثير من المسلمين ومقدمهم حسام الدن لؤلؤ مجداً فى طلبهم فابتدأ بالذين على أيلة فانقض عليهم وفتك بهم وأسر منهم الكثير.

وسار من وقته بعد الظفر يقص أثر الذين قصدوا «عيذاب» فلم يرهم وكانوا قد أغاروا على ما وجدوه بها وقتلوا من لقوه عندها وساروا بعد ذلك المرسى ليفعلوا كما فعلوا فيه.

وكانوا عازمين على الدخول إلى الحجاز مكة والمدينة حرسهما الله تعالى وأخذ الحاج ومنعهم عن البيت الحرام والدخول بعد ذلك إلى اليمن.

فلما وصل لؤلؤ إلى «عيذاب» ولم يرهم سار يقفو أثرهم فبلغ رابغ وساحل الجوزاء وغيرهما.

فأدركهم بساحل الجوزاء فأوقع بهم هناك فلما رأوا وشاهدوا الهلاك خرجوا إلى البر واعتصموا ببعض تلك الشعاب.

فنزل لؤلؤ من مراكبه إليهم وقاتلهم أشد قتال وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هناك فركبها وقاتلهم فرساناً ورجالة فظفر بهم وقتل أكثرهم وأخذ الباقين أسرى وأرسل بعضهم

إلى «منى» ـ وهى بمشاعر الحج ـ لينحروا بها عقوبة لمن أراد إخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ وعاد بالباقين إلى مصر فقتلوا جميعهم.

فى سنة ٥٧٨ فى جمادى الأولى توفى عز الدين فرخشاه ابن أخى صلاح الدين وكان ينوب عنه بدمشق وهو ثقته من أهله وكان اعتماده عليه أكثر من جميع أهله وامرائه وكان شجاعاً كريماً فاضلاً عالماً بالأدب وغيره وله شعر جيد من بين أشعار الملوك.

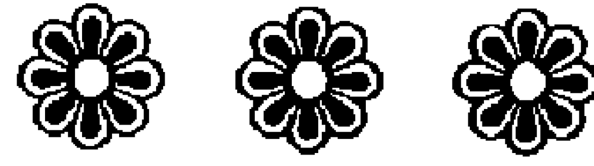
وكان ابتداء مرضه أنه خرج من دمشق إلى غزو الفرنج فمرض وعاد مريضاً فمات ووصل خبر موته إلى صلاح الدين وقد عبر الفرات إلى الديار الجزرية فأعاد شمس الدين محمد بن المقدم إلى دمشق ليكون مقدماً على عسكرها.

ومات فخر الدولة أبو المظفر بن الحسن بن هبة الله بن المطلب فى نفس العام.

كان أبوه وزير الخليفة وأخوه أستاذ الدار فتصوف هو من زمن الصبا وبنى مدرسة ورباطاً ببغداد عند عقد المصطنع وبنى جامعاً بالجانب الغربى منها.

وتوفى الأمير أبو منصور هاشم ولد المستضىء بأمر الله ودفن عند أبيه.

وتوفى أبو العباس أحمد بن على بن الرفيعى من سواد واسط وكان صالحاً ذا قبول عظيم عند الناس وله من التلامذة ما لا يحصى كل هذا فى نفس العام.



استيلاء صلاح الدين
على مدينة آمد عام ٥٧٩ هـ

بعد أن نزل صلاح الدين بحرزم سار متوجهاً إلى «آمد» على طريق البارعية وكان نور الدين محمد بن قرا أرسلان يطالبه فى كل وقت بقصدها وأخذها وتسليمها إليه على ما استقرت القاعدة بينهما فوصل إلى آمد سابع عشر ذى الحجة من سنة ثمان وسبعين.

ونازلها وأقام يحاصرها فور وصوله إليها وذلك عام ٥٧٩ هـ.

وكان الحاكم فيها بهاء الدين بن نيسان وكان صاحبها ليس له من الأمر شىء من ابن نيسان فلما نازلها صلاح الدين أساء ابن نيسان التدبير ولم يعط الناس من الذخائر شيئاً ولا فرق فيهم ديناراً ولا قوتاً وقال لأهل البلد: قاتلوا عن نفوسكم.

فقال له بعض أصحابه: ليس العدو بكافر حتى يقاتلوا عن نفوسهم.

فلم يفعل شيئاً. وأمسك عنهم المؤن والسلاح!!

وقاتلهم صلاح الدين ونصب المجانيق وزحف إليها وهى الغاية فى الحصانة والمنعة بها وبسورها يضرب المثل وابن نيسان على حاله من الشح بالمال وتصرفه تصرف من ولت سعادته وأدبرت دولته.

فلما رأى الناس ذلك منه تهاونوا بالقتال وجنحوا إلى السلامة، واتفقوا على مسالمة صلاح الدين.

وكانت أيام ابن نيسان قد طالت وثقلت على أهل البلد لسوء صنيعه وتضييقه عليهم فى مكاسبهم فالناس كارهون لها محبون لانقراضها.

وأمر صلاح الدين أن يكتب على السهام إلى أهل البلد يعدهم الخير والإحسان إن أطاعوه ويتهددهم إن قاتلوه فزادهم ذلك تقاعداً وتخاذلاً وأحبوا ملكه وتركوا القتال فوصل النقابون إلى السور فنقبوه وعلقوه فلما رأى الجند وأهل البلد ذلك طمعوا فى ابن نيسان واشتطوا فى المطالب.

فحين صارت الحال كذلك أخرج ابن نيسان نساءه إلى القاضى الفاضل وزير صلاح

الدين يسأله أن يأخذ له الأمان ولأهله وماله وأن يؤخره ثلاثة أيام حتى ينقل ماله بالبلد من الأموال والذخائر فسعى له الفاضل فى ذلك فأجابه صلاح الدين إليه.

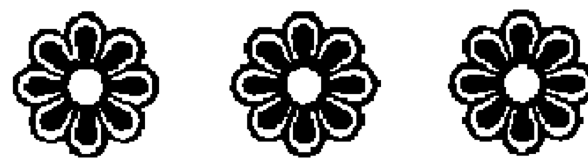
فسلم البلد فى العشر الأول من المحرم هذه السنة وأخرج خيمه إلى ظاهر البلد وأراد نقل ماله فتعذر ذلك عليه لزوال حكمه عن أصحابه وعصيانهم أمره ونهيه.

فأرسل إلى صلاح الدين يعرفه الحال ويسأله مساعدته على ذلك فأمده بالدواب والرجال فنقل البعض وسرق البعض وانقضت الأيام الثلاثة قبل الفراغ فمنع من الباقى راح عن البلدة بما استطاع حمله.

وهكذا تكون أخلاق الحكام الظلمة المستبدة.

وكانت أبراج المدينة مملوءة من أنواع الذخائر فتركها بحالها ولو أخرج البعض منها لحفظ البلد وسائر نعمه وأمواله.

لكن إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه فلما تسلمها صلاح الدين سلمها نور الدين إلى صاحب الحصن فقيل له قبل تسليمها: إن هذه المدينة فيها من الذخائر ما يزيد على ألف ألف دينار فلو أخذت ذلك وأعطيته جندك وأصحابك وسلمت البلد إليه فارغاً لكان راضياً فإنه لا يطمع فى غيره.



استمرار مسيرة صلاح الدين في السيطرة على باقى مدن الشام

بعد فراغ صلاح الدين من أمر آمد سار إلى الشام وقصد تل خالد وهى من أعمال حلب فحصرها ورماها بالمنجنيق فنزل أهلها وطلبوا الأمان فأمنهم وتسلمها فى المحرم أيضاً.

ثم سار منها إلى عين تاب فحصرها وبها ناصر الدين محمد وهو أخو الشيخ إسماعيل الذى كان خازن نور الدين محمود بن زنكى وصاحبه وكان قد سلمها إليه نور الدين فبقيت معه إلى الآن.

فلما نازله صلاح الدين أرسل إليه يطلب أن يقر الحصن بيده وينزل إلى خدمته ويكون تحت حكمه وطاعته فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وحلف له عليه فنزل إليه وسار فى خدمته وكان أيضاً فى المحرم من هذه السنة.

ذكر وقعتين مع الفرنج فى البحر والشام:

مازلنا فى العام ٥٧٩ هـ فى العاشر من المحرم سار أسطول المسلمين من مصر فى البحر فلقوا سفينة فيها نحو ثلثمائة من الفرنج بالسلاح التام ومعهم الأموال والسلاح إلى فرنج الساحل فقاتلوهم وكان الظفر للمسلمين.

وأخذوا الفرنج أسرى فقتلوا بعضهم وأبقوا بعضهم أسرى وغنموا ما معهم وعادوا إلى مصر سالمين.

وفيها أيضاً سارت عصابة كبيرة من الفرنج من نواحى الدارم إلى نواحى مصر ليغيروا وينهبوا فسمع بهم المسلمون فخرجوا إليهم على طريق صدر وأيلة فنزل الفرنج بمنطقة بها ماء يقال له العسيلة وسبقوا المسلمين إليه فأتاهم المسلمون وهم عطاش قد أشرفوا على الهلاك فرأوا الفرنج قد ملكوا الماء.

فأنشأ الله سبحانه وتعالى بلطفه سحابة عظيمة فمطروا منها حتى رووا وكان الزمان قيظاً والحر شديداً فى بر مهلك.

فلما رأوا ذلك قويت نفوسهم ووثقوا بنصر الله لهم وقاتلوا الفرنج فنصرهم الله عليهم فقتلوهم ولم يسلم منهم إلا الشريد الفريد وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله تعالى[1].

---

(١) الكامل فى التاريخ ـ ابن الأثير.

استيلاء صلاح الدين على حلب صلحاً عام ٥٧٩ هـ

سار صلاح الدين من عين تاب إلى حلب فنزل عليها فى المحرم أيضاً فى الميدان الأخضر وأقام به عدة أيام ثم انتقل إلى جبل جوشن فنزل بأعلاه وأظهر أنه يريد أن يبنى وكان صاحب حلب عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى ومعه العسكر النورى وهم مجدون فى القتال فلما رأى كثرة الخرج كأنه شح بالمال فحضر يوماً عنده بعض أجناده وطلبوا منه شيئاً فاعتذر بقلة المال عنده.

فقال له بعضهم: من يريد أن يحفظ مثل حلب يخرج الأموال ولو باع حلى نسائه.

فمال حينئذ إلى تسليم حلب وأخذ العوض منها وأرسل مع الأمير طمان الياروقى وكان يميل إلى صلاح الدين وهواه معه فلهذا أرسله فقرر قاعدة الصلح على أن يسلم عماد الدين حلب إلى صلاح الدين ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج.

وتم الصلح بينهما على ذلك.

وقد ذكر ابن كثير أن أهل حلب قاتلوا صلاح الدين قتالاً شديداً فى بداية الحصار حتى إن أخوه تاج الملوك قتل فى هذه المعارك وكان أصغر إخوته، ودفن بحلب ثم نقله إلى دمشق(١).

وسار عماد الدين إلى البلاد التى أعطيها عوضاً عن حلب فتسلمها وأخذ صلاح الدين حلب واستقر الحال بينهما: إن عماد الدين يحضر فى خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره إذا استدعاه، وقد وفى عماد الدين ذلك الشرط.

قال ابن الأثير: وكان فى جملة من قتل على حلب تاج الملوك بورى أخو صلاح الدين الأصغر وكان فارساً شجاعاً كريماً حليماً جامعاً لخصال الخير ومحاسن الأخلاق طعن فى ركبته فانفكت فمات منها بعد أن استقر الصلح بين عماد الدبن وصلاح الدين على تسليم حلب قبل أن يدخلها صلاح الدين.

فلما استقر أمر الصلح حضر صلاح الدين عند أخيه يعوده وقال له: هذه حلب قد أخذناها وهى لك فقال: ذلك لو كان وأنا حى. ووالله لقد أخذتها غالية حيث تفقد مثلى.

فبكى صلاح الدين وأبكى.

ولما خرج عماد الدين إلى صلاح الدين وقد عمل له دعوة احتفل فيها فبينما هم فى

(١) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

سرور إذ جاء إنسان فأسر إلى صلاح الدين بموت أخيه فلم يظهر هلعاً ولا جزعاً.

وأمر بتجهيزه سراً ولم يعلم عماد الدين ومن معه فى الدعوة واحتمل الحزن وحده لئلا يتكدر ما هم فيه وكان هذا من الصبر الجميل.

قال ابن كثير: ثم صعد إلى قلعتها يوم الاثنين ٢٧ من صفر وعمل له الأمير طمهان وليمة عظيمة، فتلا هذه الآية وهو داخل بابها قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ٢٦).

ولما دخل دار الملك تلا قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢٧).

وقال صلاح الدين ما سررت بفتح قلعة أعظم سروراً من فتح مدينة حلب. وأسقط عنها وعن سائر بلاد الجزيرة المكوس والضرائب[١].

استيلاء صلاح الدين على قلعة حارم سلماً:

كان بقلعة حارم وهى من أعمال حلب بعض المماليك النورية واسمه «سرحك» قد ولاه عليها الملك الصالح عماد الدين فامتنع من تسليمها إلى صلاح الدين.

وترددت الرسل بينهما فراسل الفرنج ليحتمى بهم فسمع من معه من الأجناد أنه يراسل الفرنج فخافوا أن يسلمها إليهم فوثبوا عليه وقبضوه وحبسوه وراسلوا صلاح الدين يطلبون منه الأمان والإنعام.

فأجابهم إلى ما طلبوا وسلموا إليه الحصن فرتب به دزداراً بعض خواصه.

وأما باقى قلاع حلب فإن صلاح الدين أقر عين تاب بيد صاحبها كما تقدم وأقطع تل خالد لأمير يقال له داروم الباروقى وهو صاحب تل باشر.

وأما قلعة إعزاز فإن عماد الدين إسماعيل كان قد خربها فأقطعها صلاح الدين لأمير يقال له دلدرم سلمان بن جندر فعمرها.

وأقام صلاح الدين بحلب إلى أن فرغ من تقرير قواعدها وأحوالها وديوانها وأقطع أعمالها وأرسل منها فجمع العساكر من جميع بلاده.

---

(١) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

ذكر غزو بيسان

لما فرغ صلاح الدين من أمر حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازى وهو صبى وجعل معه الأمير سيف الدين يازكج وكان أكبر الأمراء الأسدية وسار إلى دمشق وتجهز للغزو ومعه عساكر الشام والجزيرة وديار بكر وسار إلى بلد الفرنج فعبر نهر الأردن تاسع جمادى الآخرة من السنة.

وقصد بيسان فأحرقها وخربها وأغار على ما هناك فاجتمع الفرنج وجاءوا إلى قبالته فحين رأوا كثرة عساكره لم يقدموا عليه فأقام عليهم وقد استندوا إلى جبل هناك وخندقوا عليهم فأحاط بهم وعساكر الإسلام ترميهم بالسهام وتناوشهم القتال فلم يخرجوا.

وأقاموا كذلك خمسة أيام وعاد المسلمون عنهم سابع عشر الشهر لعل الفرنج يطمعون ويخرجون فيستدرجونهم ليبلغوا منهم غرضاً.

وأغار المسلمون على تلك الأعمال يميناً وشمالاً ووصلوا إلى ما لم يكونوا يطمعون فى الوصول إليه والإقدام عليه فلما كثرت الغنائم معهم رأوا العود إلى بلادهم بما غنموا مع الظفر أولى فعادوا إلى بلادهم على عزم الغزو.

ومن غزوة بيسان تجهزوا لغزو الكرك فسار إليه فى العساكر وكتب إلى أخيه العادل أبى بكر بن أيوب وهو نائبه بمصر يأمره بالخروج بجميع العساكر إلى الكرك.

وكان العادل قد أرسل إلى صلاح الدين يطلب منه مدينة حلب وقلعتها فأجابه إلى ذلك وأمره أن يخرج معه بأهله وماله فوصل صلاح الدين إلى الكرك فى رجب ووافاه أخوه العادل فى العسكر المصرى.

وكثر جمعه وتمكن من حصره وصعد المسلمون إلى ربضه وملكه وحصر الحصن من الربض وتحكم عليه فى القتال ونصب عليه سبعة مجانيق لاتزال ترمى بالحجارة ليلاً ونهاراً.

وفى ربيع الآخر سار صلاح الدين فى دمشق يريد الغزو وجمع عساكره فأتته من كل ناحية وممن أتاه نور الدين محمد قرا أرسلان صاحب الحصن.

وكتب إلى مصر ليحضر عسكرها عنده على الكرك فنازل الكرك وحصره وضيق على

من به وأمر بنصب المجانيق على ربضه واشتد القتال فملك المسلمون ويقى الحصن وهو الربض على سطح جبل واحد إلا أن بينهما خندقاً عظيماً عمقه نحو ستين ذراعاً.

فأمر صلاح الدين بإلقاء الأحجار والتراب فيه ليطمه فلم يقدر أحد على الدنو منه لكثرة الرمى عليهم بالسهام من الجرخ والقوس والأحجار من المجانيق فأمر أن يبنى بالأخشاب واللبن ما يمكن الرجال يمشون تحته إلى الخندق ولا يصل إليهم شىء من السهام والأحجار ففعل ذلك فصاروا يمشون تحت السقائف.

وأرسل من فيه من الفرنج إلى ملكهم وفرسانهم يستمدونهم ويعرفونهم عجزهم وضعفهم عن حفظ الحصن.

فاجتمعت الفرنج عن آخرها وساروا إلى نجدتهم عجلين فلما بلغ الخبر بمسيرهم إلى صلاح الدين رحل عن الكرك إلى طرقهم ليلقاهم ويصافقهم ويعود بعد أن يهزمهم إلى الكرك فقرب منهم وخيم ونزل ولم يمكنه الدنو منهم لخشونة الأرض وصعوبة المسلك إليهم وضيقه فأقام أياماً ينتظر خروجهم من ذلك المكان ليتمكن منهم فلم يبرحوا منه خوفاً على نفوسهم.

فلما رأى ذلك رحل عنهم عدة فراسخ وجعل بإزائهم من يعلمه بمسيرهم فساروا ليلاً إلى الكرك.

فلما علم صلاح الدين ذلك علم أنه لا يتمكن حينئذ ولا يبلغ غرضه فسار إلى مدينة نابلس ونهب كل ما على طريقه من البلاد.

فلما وصل إلى نابلس أحرقها وخربها ونهبها وقتل فيها وأنقذ من أسر من المسلمين فاستنقذهم ورحل إلى جينين فنهبها وخربها وعاد إلى دمشق ونهب ما على طريقه وخربه وبث السرايا فى طريقه يميناً وشمالاً يغنمون ويخربون ووصل إلى دمشق[1].

---

(١) الكامل فى التاريخ ـ مصدر سابق.

محاولة صلاح الدين الاستيلاء على الموصل عام ٥٨٠ هـ

سار صلاح الدين يوسف بن أيوب الموصل مرة ثانية وكان مسيره من دمشق فى ذى القعدة من السنة الماضية فوصل إلى حلب وأقام بها إلى أن خرجت السنة وسار منها فعبر إلى أرض الجزيرة.

فلما وصل حران قبض على مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين وهو أخو زين الدين صاحب مدينة أربل ثم عفا عنه.

وسبب قبضه عليه أن مظفر الدين كان يراسل صلاح الدين كل وقت ويشير عليه بقصد الموصل ويحسن له ذلك ويقوى طمعه حتى إنه بذل له إذا سار إليها خمسين ألف دينار.

فلما وصل صلاح الدين إلى حران لم يفِ له بما بذل من المال وأنكر ذلك فقبض عليه ونكل به ثم أطلقه.

وأعاد إليه مدينتى حران والرها وكان قد أخذهما منه وإنما أطلقه لأنه خاف انحراف الناس عنه بالبلاد الجزرية لأنهم كلهم علموا بما اعتمده مظفر الدين معه من تمليكه البلاد فأطلقه.

وسار صلاح الدين عن حران فى ربيع الأول فحضر عنده عساكر الحصن ودارا ومعز الدين سنجر شاه صاحب الجزيرة وهو ابن عز الدين صاحب الموصل وكان قد فارق طاعة عمه وسار مع صلاح الدين إلى الموصل.

فلما وصلوا إلى مدينة «بلد» أرسل عز الدين والدته إلى صلاح الدين ومعها ابنة عمه نور الدين محمود بن زنكى وغيرهما من النساء وجماعة من أعيان الدولة يطلبون منه المصالحة وبذلوا الموافقة والإنجاد بالعساكر ليعود عنهم.

وإنما أرسلهن لأنه وكل من عنده ظنوا أنهن إذا طلبن منه الشام أجابهن إلى ذلك لا سيما ومعهن ابنة مخدومه وولى نعمته نور الدين زنكى.

فلما وصل إليه أنزلهن وأحضر أصحابه واستشارهم فيما يفعله ويقوله فأشار أكثرهم بإجابتهن إلى ما طلبن منه وقال له الفقيه عيسى وعلى أحمد المشطوب وهما من بلد الهكارية

من أعمال الموصل: مثل الموصل لا يترك لامرأة فإن عز الدين ما أرسلهن إلا وقد عجز عن حفظ البلد.

قال ابن الأثير فى كتابه الكامل:

ووافق ذلك هواه فأعادهن خائبات واعتذر بأعذار غير مقبولة ولم يكن إرسالهن عن ضعف ووهن إنما أرسلهن طلباً لدفع الشر بالتى هى أحسن.

فلما عدن رحل صلاح الدين إلى الموصل وهو كالمتيقن أنه يملك البلد وكان الأمر بخلاف ذلك فلما قارب البلد نزل على فرسخ منه وامتد عسكره فى تلك الصحراء بنواحى الحلة المراقية وكان يجرى بين العسكرين مناوشات بظاهر الباب العمادى وبذل العامة نفوسهم غيظاً وحنقاً لرده النساء فرأى صلاح الدين ما لم يكن يحسبه فندم على إرجاعه النساء ندامة الكسعى حيث فاته حسن الذكر وملك البلد وعاد على الذين أشاروا بردهن باللوم والتوبيخ.

وجاءته كتب القاضى الفاضل وغيره ممن ليس له هوى فى الموصل يقبحون فعله وينكرونه وأتاه وهو على الموصل زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب إربل فأنزله ومعه أخوه مظفر الدين كوكبرى وغيرهما من الأمراء بالجانب الشرقى من الموصل.

وسير فى المنزلة على بن أحمد المشطوب الهكارى إلى قلعة الجديدة من بلد الهكارية فحصرها واجتمع عليه من الأكراد والهكارية كثير وبقى هناك إلى أن رحل صلاح الدين عن الموصل.

وكان عامة الموصل يعبرون دجلة فيقاتلون من الجانب الشرقى من العسكر ويعودون ولما كان صلاح الدين يحاصر الموصل بلغ عز الدين صاحبها أن نائبه بالقلعة زلفندار يكاتبه ويصدر عن رأيه وضبط الأمور وأصلح ما كان فسد من الأحوال حتى آل الأمر إلى الصلح.

وحضر عند صلاح الدين إنسان بغدادى أقام بالموصل ثم خرج إلى صلاح الدين فأشار عليه بقطع دجلة عن الموصل إلى ناحية نينوى وقال: إن دجلة إذا نقلت عن الموصل عطش أهلها فمكنها بغير قتال.

فظن صلاح الدين أن قوله صدق فعزم على ذلك حتى علم أنه لا يمكن قطعه بالكلية فإن المدة تطول والتعب يكثر ولا فائدة وراءه وقبحه عنده أصحابه فأعرض عنه.

وأقام بمكانه من أول ربيع الآخر إلى أن قارب آخره ثم رحل عنها إلى ميافارقين وسبب ذلك ذكره ابن الأثير.

وأضاف فقال:

إن شـاه أرمن صـاحب خـلاط توفى بهـا تاسع ربيع الآخـر فـوصل الخـبـر بوفـاته فى العشرين منه فعزم على الرحيل إليها وتملكها حيث إن شـاه أرمن لم يخلف ولداً ولا أحداً من أهل بيته يملك بلاده بعده وإنما قد استولى عليها مملوك له اسمه بكتمر ولقبه سيف الدين.

فاستشـار صلاح الدين أمـراءه ووزراءه فاختلفوا فأما من هواه بالموصل فيشير بالمقام وملازمـة الحصار لها وأما من يكره أذى البيت الأتابكى فإنه أشـار بالرحيل وقـال: إن ولاية خلاط أكبر وأعظم وهى سائبة لا حافظ لها وهذه لها سلطان يحفظها ويذب عنها وإذا ملكنا تلك سهل أمر هذه وغيرها.

فـتردد فى أمـره فاتفق أنه جاءه كتب جـمـاعـة من أعـيـان خـلاط من أهلها وأمـرائها يستدعونه ليسلموا إليه البلد فسار عن الموصل وكانت مكاتبة من كاتبه خديعة ومكراً فإن شمس الدين البهلوان بن إيلدكز صاحب أذربيجان وهمذان وتلك المملكة قد قصدهم ليأخذ البلاد منهم.

وكان قـبل ذلك قـد زوج شـاه أرمن على كـبـر سنه بنتاً له ليجـعل ذلك طريقـاً إلى ملك خلاط وأعمالها.

فلما بلغهم مسيره إليهم كاتبوا صلاح الدين يستدعونه إليهم ليسلموا البلد إليه ليدفعوا به البهلوان ويبقى البلد بأيديهم.

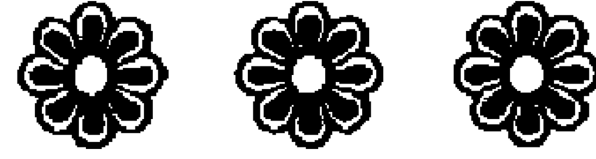
فسار صلاح الدين وسير فى مقدمته ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ومظفر الدين بن زين الدين وغيرهم.

فساروا إلى خلاط ونزلوا بطوانة بالقرب من خـلاط وسار صلاح الدين إلى ميافارقين وأما البهلوان فإنه سار إلى خلاط ونزل قريباً منه وترددت رسل أهل خلاط بينهم وبينه وبين صلاح الدين.

وتوفى نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن وآمد لما كان صلاح الدين على الموصل وخلف ابنين فملك الأكبر منهما واسمه سقمان ولقبه قطب الدين وتولى تدبير الأمور وزيره القوام بن سماقا الأشعرى وذلك عام ٥٨٠ هـ.

وكان عماد الدين بن قرا أرسلان قد سيره أخوه نور الدين فى عساكره إلى صلاح الدين وهو يحاصر الموصل وهو معه فلما بلغه خبر وفاة أخيه سار ليملك البلاد بعد لصغر أولاده فتعذر عليه ذلك فسار إلى خرت برت فملكها وهى بيد أولاده إلى سنة عشرين وستمائة.

ولما حصر صلاح الدين ميافارقين حضر عنده ولد نور الدين فأقره على ملك أبيه ومن جملته آمد وكانوا خافوا أن يأخذها منهم فلم يفعل وردهم إلى بلادهم وشرط عليهم أن يراجعوه فيما يفعلونه ويصدروا عن أمره ونهيه ورتب معه أميراً لقبه صلاح الدين من أصحابه أبيه.



استيلاء صلاح الدين على ميافارقين

سار صلاح الدين إلى خلاط وجعل طريقه على ميافارقين مطمع ملكها حيث كان صاحبه قطب الدين صاحب ماردين قد توفى كما ذكرنا وملك بعد ابنه وهو طفل وكان حكمها إلى شاه أرمن وعسكره فيها.

فلما توفى طمع فى أخذها فلما نازلها رآها مشحونة بالرجال وبها زوجة قطب الدين المتوفى ومعها بنات لها منه وهى أخت نور الدين محمد صاحب الحصن.

فأقام صلاح الدين عليها يحصرها من أول جمادى الأولى.

وكان المقدم على أجنادها أميراً اسمه يرنقش ولقبه أسد الدين وكان شجاعاً شهماً يحفظ البلد فأحسن إليه واشتد القتال عليه ونصبت المجانيق والعرادات فلم يصل صلاح الدين إلى ما يريد منها فلما رأى ذلك عدل عن القوة والحرب إلى أعمال الحيلة.

فراسل امرأة قطب الدين المقيمة بالبلد يقول منها: إن أسد الدين يرنقش قد مال إلينا فى تسليم البلد ونحن نرعى حق أخيك نور الدين فيك بعد وفاته ونريد أن يكون لك فى هذا الأمر نصيب وأنا أزوج بناتك بأولادى وتكون ميافارقين وغيرها لك وبحكمك ووضع من أرسل إلى أسد يعرفه أن الخاتون قد مالت للمقاربة والانقياد إلى السلطان وأن من بخلاط قد كاتبوه ليسلموا إليه فخذ لنفسك.

واتفق أن رسولاً وصله من خلاط يبذلون له الطاعة وقالوا له من الاستدعاء إليهم ما كانوا يقولونه فأمر صلاح الدين الرسول فدخل إلى ميافارقين وقال لأسد: أنت عمن تقاتل وأنا قد جئت فى تسليم خلاط إلى صلاح الدين!

فسقط فى يده وضعفت نفسه وأرسل يقترح أقطاعاً ومالاً فأجيب إلى ذلك وسلم البلد سلخ جمادى الأولى وعقد النكاح لبعض أولاده على بعض[1].

(١) الكامل فى التاريخ ـ مصدر سابق.

الصلح بين صلاح الدين وملك الموصل عز الدين

لما فرغ صلاح الدين من أمر ميافارقين وأحكم قواعدها وقرر أقطاعها وولاياتها أجمع على العود إلى الموصل فسار نحوها وجعل طريقه على نصيبين فوصل إلى كفر زمار والزمان شتاء فنزلها فى عسكره وعزم على المقام بها وإقطاع جميع بلاد الموصل وأخذ غلالها ودخلها وإضعاف الموصل بذلك.

إذ علم أنه لا يمكنه التغلب عليها وكان نزوله فى شعبان وأقام بها شعبان ورمضان وتردد الرسل بينه وبين عز الدين صاحب الموصل وصار مجاهد الدين يراسل ويتقرب وكان قوله مقبولاً عند سائر الملوك لما علموا من صحته.

فبينما الرسل تتردد فى الصلح إذ مرض صلاح الدين وسار من كفر زمار عائداً إلى حران فلحقه الرسل بالإجابة إلى ما طلب فتقرر الصلح وحلف على أن يسلم إليه عز الدين شهرزور وأعمالها وولاية القرابلى وجميع ما وراء الزاب من الأعمال.

وأن يخطب له على منابر بلاده ويضرب اسمه على السكة فلما حلف أرسل رسله فحلف عز الدين له وتسلموا البلاد التى استقرت القاعدة على تسليمها وتم الصلح بينهما وقد واعدوه على الانضمام إليه فى حربه ضد الصليبيين وهذا هو هدف صلاح الدين الأسمى.

قال ابن الأثير عن مرض صلاح الدين فى تلك السنة بعد الصلح مع ملك الموصل:

وأما صلاح الدين فإنه طال مرضه بحران وكان عنده من أهله أخوه الملك العادل وله حينئذ حلب وولده الملك العزيز عثمان واشتد مرضه حتى أيسوا من عافيته فحلف الناس لأولاده وجعل لكل منهم شيئاً من البلاد معلوماً وجعل أخاه العادل وصياً على الجميع.

ثم إنه عوفى وعاد إلى دمشق فى المحرم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة.

ولما كان مريضاً بحران كان عنده ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه وله من الأقطاع حمص والرحبة فسار من عنده إلى حمص فاجتاز بحلب وأحضر جماعة من أحداثها

وأعطاهم مالاً ولما وصل إلى حمص راسل جماعة من الدمشقيين وواعدهم على تسليمهم البلد إليه إذا مات صلاح الدين.

وأقام بحمص ينتظر موته ليسير إلى دمشق فيملكها فعوفى وبلغه الخبر على جهته.

فلم يمض غير قليل حتى مات ابن شيركوه ليلة عيد الأضحى فإنه شرب الخمر وأكثر منها فأصبح ميتاً.

قال ابن كثير:

توفى بحمص يوم عرفة فجأة وخلف من الأموال والذخائر شيئاً كثيراً يزيد عن ألف ألف دينار - أى أكثر من مليون دينار.

وحضر شيركوه بن ناصر الدين عند صلاح الدين بعد موت أبيه بسنة فقال له: إلى أين بلغت من القرآن فقال: إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء: ١٠).

فعجب صلاح الدين والحاضرون من ذكائه(١).

وتولى من بعده مدينة حمص ولده أسد الدين شيركوه بأمر صلاح الدين فقد كان ناصر الدين ابن عمه وزوج أخته ست الشام بنت أيوب ودفنته فى مدافن العائلة بالشامية البرانية وكانت وفاته عام ٥٨١ هـ.

وقد شفى صلاح الدين من مرضه وعفاه الله سبحانه تعالى، واستكمل مشواره فى توحيد البلاد كى تأتى اللحظة الحاسمة فى حطين عام ٥٨٣ هـ بالنصر المؤزر ثم تحرير المسجد الأقصى.

وعن مرض صلاح الدين عام ٥٨٢ هـ يقول ابن كثير فى البداية والنهاية:

ثم اتفق مرض السلطان بعد ذلك مرضاً شديداً فكان يتجلد ولا يظهر شيئاً من الألم حتى قوى عليه الأمر وتزايد الحال.

حتى وصل إلى حران فخيم هنالك من شدة ألمه وشاع ذلك فى البلاد وخاف الناس عليه وأرجف الكفرة والملحدون بموته.

وقصده أخوه العادل من حلب بالأطباء والأدوية فوجده فى غاية الضعف وأشار عليه

(١) الكامل فى التاريخ - مصدر سابق.

بأن يوصى فقال:

- ما أبالى وأنا أترك من بعدى أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً.

يقصد أخاه العادل وتقى الدين عمر صاحب حماه وهو إذا ذاك نائب مصر وهو بها مقيم وابناه العزيز عثمان والأفضل على.

ثم نذر لئن شفاه الله من مرضه هذا ليصرفن همته كلها إلى قتال الفرنج ولا يقاتل بعد ذلك مسلماً، وليجعل أكبر همه فتح بيت المقدس ولو صرف فى سبيل الله كل ما يملكه من الأموال والذخائر.

وليقتلن البرنس صاحب الكرك وأرناط بيده، لأنه نقض العهد وتنقص الرسول ﷺ - أى لسبه شخص الرسول ﷺ؛ وذلك أنه أخذ قافلة ذاهبة من مصر إلى الشام فأخذ أموالهم وضرب رقابهم وهو يقول: أين محمدكم؟ دعوه ينصركم.

كلب حقير أجرب عوى وتكلَّب فلم يكن له إلا قتله وكان هذا النذر من صلاح الدين بإشارة من القاضى الفاضل وهو أرشده إليه وحثه عليه.

وهكذا يكون دور العلماء الربانيين مع الحكام والملوك.

ولما كان صلاح الدين صادقاً فى الوفاء بنذره فقد شفاه الله تعالى من المرض واختفت العلة بفضله تعالى كما جاءت، وبذل صلاح الدين جهده حتى استطاع بفضل الله تحرير القدس وهزيمة الفرنج الصليبيين ولما تمكن من البرنس أرناط قتله بيده كما سيأتى ذكره ولله الفضل والمنة.

وكان البرنس أرناط الصليبى أميراً على الكرك إحدى المدن التى احتلها الصليبيون بالشام بعد الحملة الصليبية الأولى لهم وكان شديد الكره للمسلمين والإسلام وأعظمهم ضرراً عليهم وكان يقطع طريق قوافلهم القادمة من مصر إلى الشام وإلى الأرض الحجازية للحج.

وقد قام بقتل الحجاج كما ذكرنا فى عام ٥٨٧ واستهزأ بالرسول ﷺ كما ذكرنا فنذر صلاح الدين إن ظفر به ليقتلنه بيده.

وحدث فى العام التالى سنة ٥٨٢ هـ الخلاف بين الإفرنج الصليبيين بين القمص صاحب طرابلس وطبرية ريمند بن ريمند الصنجيلى وبين ملكة الفرنج بالشام الذى تزوجت رجلاً عادياً بعد وفاة زوجها وكان القمص ريمند يطمع فى مملكتها.

وراسل القمص صلاح الدين وانضم إليه وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من

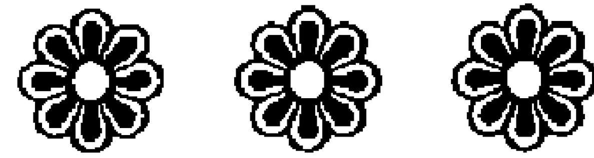
الفرنج فوعده صلاح الدين بنصرته وكان عنده أسرى للقمص فأطلق سراحهم.

ففرح القمص وبذلك تفرقت كلمة الإفرنج بالشام وتفرق شملهم وضعف أمرهم.

وسير صلاح الدين السرايا من ناحية طبرية فشنت الغارات على بلاد الإفرنج وخرجت سالمة وضعف أمر الإفرنج وتجرأ المسلمون عليهم.

وكل ذلك كان يصب فى صالح السلطان صلاح الدين ومقدمة لنصر الله فى معركة حطين سنة ٥٨٣ هـ.

وقد مات القمص ريمند بعد موقعة حطين بعد هزيمته فى المعركة وإصابته بجروح مات على إثرها.



وتحقق النصر المبين لصلاح الدين فأوفى بنذره لله

- مقدمات النصر المبين.
- هزيمة الماسون الصليبيين كان مقدمة النصر في حطين.
- موقعة حطين والنصر المبين عام ٥٨٣ هـ.
- صفة دخول صلاح الدين بيت المقدس.
- مجازر الصليبيين حيث دخلوا بيت المقدس عام ١٠٩١ م.

10

موقعة « حطين » عام ٥٨٣ هـ
والانتصار الكبير لصلاح الدين على الإفرنج الصليبيين
وتحرير القدس من أيديهم

مقدمات النصر المبين:

أطلق المسلمون على الغزاة الأوربيين الذين جاءوا لاحتلال بلاد الإسلام «الإفرنج» أما هم فأطلقوا على أنفسهم الصليبيين لأنهم جاءوا إلى هذه البلاد لاحتلالها باسم الصليب وتحرير قبر المسيح المقدس وكان الصليب شعارهم ورايتهم.

ولهذا فإننا نسميهم الإفرنج الصليبيين وكانت الضربة القاصمة لظهورهم عام ٥٨٣ هـ فى معركة حطين وتحرير القدس من بين أيديهم وعودتها لأصحابها المسلمين أصحاب الأرض.

فماذا حدث فى هذا العام المبارك؟

قال ابن الأثير: كان أول أيام السنة الهجرية يوم السبت وهو يوم النوروز السلطانى ورابع عشر آذار سنة ألف وأربع مائة وثمان وتسعين والموافق ليوم ١٤ مارس سنة ١٤٩٨ م.

وكان القمر والشمس فى الحمل واتفق أول سنة العرب وأول سنة الفرس التى جددوها أخيراً وأول سنة الروم والشمس والقمر فى أول البروج وهذا يبعد وقوع مثله.

فى هذه السنة كتب صلاح الدين إلى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وإربل وغيرها من بلاد الشرق وإلى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم إلى الجهاد ويحثهم عليه ويأمرهم بالتجهز له بغاية الإمكان.

ثم خرج من دمشق أواخر المحرم فى عسكرها الخاص فسار إلى رأس الماء وتلاحقت به العساكر الشامية فلما اجتمعوا جعل عليهم ولده الملك الأفضل علياً ليجتمع إليه من يرد إليه منها وسار هو إلى بصرى جريدة.

وكان سبب مسيره وقصده إليها أنه أتته الأخبار أن البرنس أرناط صاحب الكرك يريد أن يقصد الحجاج ليأخذهم من طريقهم وأظهر أنه إذا فرغ من أخذ الحجاج يرجع إلى طريق العسكر المصرى يصدهم عن الوصول إلى صلاح الدين.

فسار إلى بصرى ليمنع البرنس أرناط من طلب الحجاج ويلزم بلده خوفاً عليه.

وكان من الحجاج جماعة من أقاربه منهم محمد بن لاجين وهو ابن أخت صلاح الدين وغيره.

فلما سمع أرناط بقرب صلاح الدين من بلده لم يفارقه وانقطع عما طمع فيه فوصل الحجاج سالمين فلما وصلوا وفرغ سره من جهتهم سار إلى الكرك فحصره وضيق على الكرك والشوبك وغيرهما.

فنهبوا وخربوا وأحرقوا والبرنس محصور لا يقدر على المنع عن بلده وسائر الفرنج قد لزموا طرف بلادهم خوفاً من العسكر الذى مع ولده الأفضل فتمكن من الحصر والنهب.

أرسل صلاح الدين إلى ولده الأفضل يأمره أن يرسل قطعة صالحة من الجيش إلى بلد عكا ينهبونه ويخربونه فسير مظفر الدين كوكبرى بن زين وهو صاحب حران والرها وأضاف إليه قايماز النجمى ودلدرم اليارقى وهما من أكابر الأمراء وغيرهما.

فساروا ليلاً وصبحوا صفورية أواخر صفر فخرج إليهم الفرنج فى جمع من الدواية والاسبتارية وغيرهما فالتقوا هناك وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود.

هزيمة الاستبارية حراس الهيكل الماسونيين:

ثم أنزل الله تعالى نصره على المسلمين فانهزم الفرنج وقتل منهم جماعة وأسر الباقون وفيمن قتل مقدم الاسبتارية.

وكان من فرسان الفرنج المشهورين وله النكايات العظيمة فى المسلمين ونهب المسلمون ما جاورهم من البلاد وغنموا وسبوا وعادوا سالمين.

وكان عودهم على طبرية وبها القمص فلم يذكر ذلك.

فكان فتحاً كثيراً فإن الداوية والاسبتارية هم ماسون الفرنج وسيرت البشائر إلى البلاد بذلك.

فقد كان الاسبتارية وهم من الماسون ينتمون إلى اليهود أكثر من المسيحيين وجاءوا للقدس للبحث عن كنوز سليمان ومعبده، وكان يضعون الصليب على صدورهم وأطلق على أنفسهم حراس الهيكل(١).

فلما أتت صلاح الدين البشارة بهزيمة الاسبتارية والداوية وقتل من قتل منهم وأسر من أسر عاد عن الكرك إلى العسكر الذى مع ولده الملك الأفضل وقد تلاحقت سائر الأمداد

(١) اقرأ كتابنا «حروب ومؤامرات صنعتها الماسونية» وسلسلة حكومة العالم الخفية لتتعرف عن المزيد، الناشر دار الكتاب العربى.

والعساكر واجتمع بهم وساروا جميعاً وعرض العسكر.

فبلغت عدتهم اثنى عشر ألف فارس ممن له الأقطاع والجامكية وسوى المتطوعة فعبأ عسكره قلباً وجناحين وميمنة وميسرة وجالشية وساقة وعرف كل منهم موضعه وموقفه وأمره بملازمته وسار على تعبئته فنزل بالأقحوانة بقرب طبرية.

وكان القمص قد انتمى إلى صلاح الدين كما ذكرنا.

فلما رأى الفرنج اجتماع العساكر الإسلامية وتصميم العزم على قصد بلادهم أرسلوا إلى القمص البطرك والرهبان وكثيراً من الفرسان فأنكروا عليه انتماءه إلى صلاح الدين وقالوا له: لاشك أنك أسلمت وإلا لم تصبر على ما فعل المسلمون أمس بالفرنج يقتلون الداوية والاسبتارية ويأسرونهم ويجتازون بهم عليك وأنت لا تنكر ذلك ولا تمنع عنه.

وافقهم على ذلك من عنده من عسكر طبرية وطرابلس وتهدده البطرك أنه يحرمه ويفسخ نكاح زوجته إلى غير ذلك من التهديد.

فلما رأى القمص شدة الأمر عليه خاف فاعتذر وتنصل وتاب فقبلوا عذره وغفروا زلته وطلبوا منه الموافقة على المسلمين والمؤازرة على حفظ بلادهم فأجابهم إلى المصالحة والانضمام إليهم والاجتماع معهم وسار معهم إلى ملك الفرنج واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم ولم تغن عنهم من الله شيئاً وجمعوا فارسهم وراجلهم ثم ساروا من عكا إلى صفورية وهم يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى قد ملئت قلوبهم رعباً، وهكذا نقض البطرك عهده مع صلاح الدين وكذلك يكون أعداء الله دوماً.

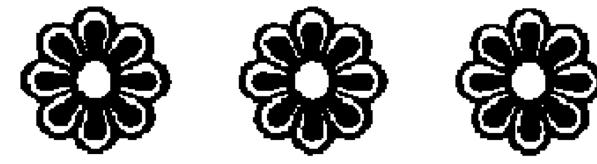
لما اجتمع الفرنج وساروا إلى صفورية جمع صلاح الدين أمراءه ووزراءه واستشارهم فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء وأن يضعف الفرنج بشن الغارات وإخراب الولايات.

ومرة بعد مرة قال له بعض أمرائه: الرأى عندى أننا نجوس بلادهم وننهب ونخرب ونحرق ونسبى فإن وقف أحد من عسكر الفرنج بن أيدينا لقيناه فإن الناس بالمشرق يلعنوننا ويقولون ترك قتال الكفار وأقبل يريد قتال المسلمين والرأى أن نفعل فعلاً نعذر فيه ونكف الألسنة عنا.

فقال صلاح الدين: الرأى عندى أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار فإن الأمور لا تجرى بحكم الإنسان ولا نعلم قدر الباقى من أعمارنا ولا ينبغى أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد بالجهاد.

ثم رحل من الأقحوانة اليوم الخامس من نزوله بها وهو يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر فسار حتى خلف طبرية وراء ظهره وصعد جبلها وتقدم حتى قارب الفرنج فلم ير الفرنج من يمنعهم من القتال.

ونزل جريدة إلى طبرية وقاتلهم ونقب بعض أبراجها وأخذ المدينة عنوة فى ليلة ولجأ من بها إلى القلعة التى لها فامتنعوا بها وفيها صاحبتها ومعها أولادها فنهب المدينة وأحرقها.



موقعة حطين ونصر الله المبين

فلما سمع الفرنج نزول صلاح الدين إلى طبرية وملكه المدينة وأخذ ما فيها وإحراقها وإحراق ما تخلف مما لا يحمل اجتمعوا للمشورة.

فأشار بعضهم بالتقدم إلى المسلمين وقتالهم ومنعهم عن طبرية فقال القمص: إن طبرية لى ولزوجتى وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل وبقى القلعة وفيها زوجتى وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتى وما لنا بها ويعود فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قديماً وحديثاً ما رأيت مثل هذا العسكر الذى مع صلاح الدين كثرة وقوة وإذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها وإن أقام بها لا يقدر على المقام بها بجميع عساكره ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم فيضطر إلى تركها ونفتكُّ من أسر منا.

فقال له البرنس أرناط صاحب الكرك: قد أطلت فى التخويف من المسلمين ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم وإلا ما كنت تقول هذا وأما قولك: إنهم كثيرون فإن النار لا يضرها كثرة الحطب.

فقوى عزمهم على التقدم إلى المسلمين وقتالهم فرحلوا من معسكرهم الذى لزموه وقربوا من عساكر الإسلام.

فلما سمع صلاح الدين بذلك عاد عن طبرية إلى عسكره وكان قريباً منه وإنما كان قصده بمحاصرة طبرية أن يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من قتالهم.

وكان المسلمون قد نزلوا على الماء والزمان قيظ شديد الحر فأهلك الفرنج العطش ولم يتمكنوا من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين وكانوا قد أفنوا ما هناك من ماء الصهاريج ولم يتمكنوا من الرجوع خوفاً من المسلمين فبقوا على حالهم إلى الغد وهو يوم السبت وقد أخذ العطش منهم.

وأما المسلمون فإنهم طمعوا فيهم وكانوا من قبل يخافونهم فباتوا يحرض بعضهم بعضاً وقد وجدوا ريح النصر والظفر.

وكلما رأوا حال الفرنج خلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان زاد طمعهم وجرأتهم

فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم.

وكان جملة من مع صلاح الدين اثنى عشر ألفاً غير المتطوعين، وأصبح يوم السبت يوماً عسيراً على الكافرين فقد اجتمع عليهم الحر والشمس وحر النار التى اضرمها صلاح الدين فى معسكرهم والعطش من عدم وجود الماء، فقد كانت خطة السلطان الناصر صلاح الدين محكمة يومها وكان المكان (حطِّين).

ثم أمر السلطان جنوده بالتكبير وحملوا على الإفرنج الصليبيين ذلك اليوم، فقتلوا منهم ثلاثين ألفاً، وأسروا مثلهم وكان فى جملة الأسرى جميع ملوكهم عدا القمص صاحب طرابلس.

فإنه لما انهزم أول المعركة فر هارباً، ومات بعد ذلك متأثراً بجراحه.

وأخذ السلطان الناصر صليبهم الأعظم الذى جاءوا به يستنصرون به من دون الله وهم يزعمون أنه الذى صلب عليه المسيح وقد غلفوه بالذهب واللآلئ والجواهر النفيسة.

فلما وضعت الحرب أوزارها وتحقق النصر للسلطان الناصر جلس على سرير مملكته وجيء بالأسارى فى قيودهم فأمر بضرب أعناق جماعة من مقدمى الداوية ثم جيء بملوكهم فأجلسهم عن يمينه ويساره على مراتبهم، واجلس البرنس أرناط على شماله.

ثم جيء إلى السلطان بشراب مثلج فشرب ثم ناول ملكهم الكبير فشرب، ثم ناول ملكهم البرنس أرناط ليشرب فغضب السلطان وقال له:

إنما ناولتك ولم آذن لك أن تسقيه، هذا لا عهد له عندى.

ثم تحول السلطان إلى خيمة داخل تلك الخيمة التى نصبت له واستدعى أرناط، فلما وقف بين يديه قام إليه السلطان بالسيف ودعاه للإسلام فامتنع أرناط، فقال له: نعم أنا أنوب عن رسول الله ﷺ فى الانتصار لأمته.

ثم قتل هذا الكلب وأرسل برأسه إلى الملوك وهم فى الخيمة وقال:

- إن هذا تعرض لسبِّ رسول الله ﷺ.

ثم قتل السلطان جميع من كان من الأسارى الدواية والاسبتارية صبراً وأراح المسلمين منهم فقد كانوا أخبث الصليبيين.

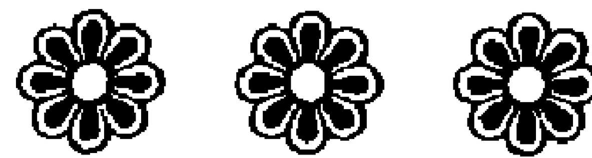
ثم توجه السلطان إلى قلعة طبرية فأخذها ثم ارتفع إلى إقليم الأردن فتسلم تلك البلاد كلها وهى قرى صغيرة كبار وصغار.

ثم سار إلى عكا يوم الأربعاء ربيع الآخر فافتتحها صلحاً يوم الجمعة وأخذ ما كان بها من أموال الملوك الصليبيين وذخائرهم وغيرها وأنقذ من كان محبوساً من أسارى المسلمين فوجد فيها أربعة آلاف أسير مسلم.

وأمر بإقامة صلاة الجمعة وكانت أول جمعة تقام بالساحل بعد أخذه الفرنج من سبعين سنة.

ثم سار إلى صيدا وبيروت ونواحيها من السواحل وأخذ بلداً بلداً سلماً فلم يجد فيها من المقاتلة الصليبيين أحداً.

وطارت الأخبار أن السلطان متوجه لفتح بيت المقدس فجاء إليه المسلمون من كل مكان ليشهدوا هذا الحدث التاريخى الكبير ويشاركوه فيه.



فتح بيت المقدس وتحريره
من أيدى الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ

أمر السلطان صلاح الدين العساكر فاجتمعت لديه وسار بهم نحو المسجد الأقصى، فنزل غربى بيت المقدس فى الخامس عشر من رجب سنة ٥٨٣ هـ فوجد البلد قد تحصن غاية التحصين وكان صاحب القدس الصليبى اسمه بالبان بن بازران ومعه من نجا من معركة حطين من الداوية والاسبتارية الماسون أتباع الشيطان وعبدة الصليب.

فكان جملة القوات الصليبية يومئذ فى بيت المقدس ٦٠ ألف مقاتل.

فحاصر السلطان المدينة خمسة أيام وسلم إلى كل طائفة من الجيش ناحية من السور وأبراجه وقاتل الفرنجة دون البلدة المقدسة قتالاً هائلاً واستشهد فى الحصار بعض أمراء الجيش المسلم.

واشتد القتال بين أهل الإسلام وأهل الكفر من الصليبيين وكانوا قد نصبوا فوق قبة الصخرة بالمسجد الأقصى صليباً يقاتلون من أجله وقد رفعوا الصلبان فوق الأسوار وكان يوماً عسيراً على أهل الصليب كما كان يوم حطين.

واتخذ صلاح الدين جبل الزيتون مركزاً لبيوته ورمى أسوار المدينة، وحمل السلطان ومن معه من الجيش على الزاوية الشرقية الشمالية من سور المدينة المقدسة فنقبها حتى سقط هذا الجانب وخر البرج كله.

فلما رأى ملك الإفرنج ذلك قصد السلطان صلاح الدين ومعه أكابر قومه يتشفعون عنده أن يعطيهم الأمان فرد عليهم:

لا أفتحها إلا عنوة كما أفتتحتموها أنتم عنوة ولا أترك بها أحداً من النصارى إلا قتلته كما قتلتم أنتم من كان بها من المسلمين.

فطلب كبيرهم وهو ملك القدس يومها الأمان ليحضره عنده، فأمنه السلطان.

فلما حضر أمام السلطان ترفق للسلطان وذل ذلاً عظيماً وتشفع إليه بكل ما أمكنه، فلم يجبه إلى الأمان لهم.

فقال له: إن لم تعطنا الأمان رجعنا فقتلنا كل أسير بأيدينا من المسلمين.

وكانوا قرابة الأربعة آلاف أسير مسلم وأضاف الملك الصليبى: وقتلنا أنفسنا وذرارينا وأولادنا ونساءنا، وخربنا الدور والأماكن الحسنة وأحرقنا المتاع وأتلفنا ما بأدينا من الأموال وهدمنا قبة الصخرة وكل شىء ثم نخرج نقاتلكم قتال الموت ولا خير فى حياتنا بعد ذلك[١].

فلما سمع السلطان ذلك أجابهم إلى الصلح على أن يفدى كل رجل عن نفسه منهم بعشرة دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير وكل صغير دينارين ومن عجز عن ذلك كان أسيراً للمسلمين وأن تكون الغلات والأسلحة والدور للمسلمين وأن يغادروا المدينة إلى مدينة صور.

وكتب الصلح بذلك، وأن من لم يبذل ما شرط عليه إلى أربعين يوماً صار أسيراً للمسلمين.

فكان جملة من أسر بهذا الشرط ستة عشر ألف أسير من رجال ونساء وولدان.

ودخل السلطان والمسلمون معهم بيت المقدس يوم الجمعة قبل وقت الصلاة بقليل يوم السابع والعشرين من شهر رجب.

ولم تقم صلاة الجمعة يومها لضيق الوقت وأقيمت صلاة الجمعة فى الجمعة المقبلة وكان الخطيب محيى الدين بن محمد بن على القرشى بن الزكى.

وقام المسلمون بعد دخول المسجد الأقصى بتنظيف ما كان فيه من الصلبان والرهبان والخنازير وأعيد إلى ما كان عليه فى أيام الإسلام الأولى وغسلت الصخرة بالماء الطاهر بماء الورد والمسك الفاخر وأبرزت للناظرين وكانت مخبوءة ووضع عنها الصليب الذى وضعه الإفرنج وعادت إلى حرمتها.

وعفا السلطان عن خلق من بنات الملوك الصليبيين وأيضاً من الصبيان والرجال.

وهكذا كان فتح صلاح الدين للمسجد الأقصى أما حين سقطت المدينة فى أيدى الصليبيين فى الحملة الأولى فكانت المجازر والدماء كما روت كتب التاريخ وما ذكروه هم أيضاً وسوف نذكر طرفاً مما كتبه مؤرخوهم عن مجازرهم يوم احتلال المدينة وما كتبه المؤرخون المسلمون.

ومن المواقف الدالة على وفاء صلاح الدين للعهود أنه بعد أن آمن ملك القدس الصليبى وأثناء رحيله حمله معه الكثير من المال، فقال له المسلمون: إن هذا يقوى البطريرك بهذا المال على حربنا.

فأجابهم صلاح الدين: الإسلام لا يعرف الغدر وقد أمنا وعلينا الوفاء.

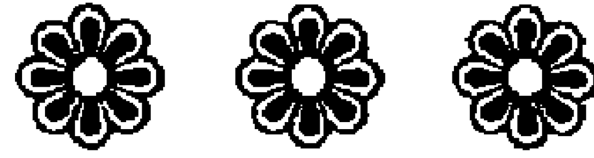
---

(١) انظر البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

وتركهم يخرجون ويغادرون بيت المقدس وقد عفا عن النبيلات والأميرات وفقراء الصليبيين.

فهذا هو موقف صلاح الدين من الأسرى ومن كان فى المدينة المقدسة يوم تحريرها.

أما الصليبيون فقد ذبحوا من كان فى المدينة حين استولوا عليها سنة ١٠٩٩ م وكذلك حين سقطت عكا فى أيديهم بعد تحرير القدس فى الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا حيث قتلوا أسرى المسلمين وعددهم ٢٧٠٠ أسير كما سيأتى ذكره فيما بعد إن شاء الله.



المجازر التى فعلها الصليبيون عند دخولهم بيت المقدس عام ١٠٩٩ م «قديماً»

روى ابن الأثير فى تاريخه عن دخول الصليبيين للقدس فى الحروب الصليبية فقال: (ملك الفرنج القدس نهار يوم الجمعة، لسبع بقين من شعبان، وركب الناس السيف، ولبث الفرنج فى البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود، فاعتصموا به.

وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف).

كما وصف ستيفن رنسيمان فى كتابه: «تاريخ الحروب الصليبية» ما حدث فى القدس يوم دخلها الصليبيون فقال (وفى الصباح الباكر من اليوم التالى اقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيين، فأجهزت على جميع اللاجئين إليه، وحينما توجه قائد القوة ريموند أجيل فى الضحى لزيارة ساحة المعبد أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التى بلغت ركبتيه، وتركت مذبحة بيت المقدس أثراً عميقاً فى جميع العالم، وليس معروفاً بالضبط عدد ضحاياها، غير أنها أدت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود؛ بل إن كثيراً من المسيحيين اشتد جزعهم لما حدث).

وقد وصف كثير من المؤرخين أحداث المذبحة التى حدثت فى القدس يوم دخول الصليبيين إليها، وكيف أنهم كانوا يزهون بأنفسهم؛ لأن ركب خيولهم كانت تخوض فى الدماء وكانوا يشووا أطفال المسلمين كما تشوى النعاج.

ويذكر الكثيرون ماذا فعل ريتشارد قلب الأسد فى الحملة الصليبية الثالثة ـ عند احتلاله لعكا ـ بأسرى المسلمين، فقد ذبح ٢٧٠٠ أسير من أسرى المسلمين.

ذكر «غوستاف لوبون» فى كتابه « الحضارة العربية» ـ نقلاً عن روايات رهبان ومؤرخين رافقوا الحملة الصليبية الحاقدة على القدس ـ ما حدث حين دخول الصليبيين للمدينة المقدسة من مجازر دموية لا تدل إلا على حقد أسود متأصل فى نفوس ووجدان الصليبيين.

قال الراهب «روبرت» أحد الصليبيين ـ المعتصمين وهو شاهد عيان لما حدث فى بيت المقدس ـ واصفاً سلوك قومه ص ٣٢٥: (كان قومنا يجبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل، وذلك كاللبؤات التى خطفت صغارها! كانوا يذبحون الأولاد والشباب، وكان قومنا يقبضون كل شىء يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعة ذهبية)!!!

فيا للشره وحب الذهب، وكانت الدماء تسيل كالأنهار فى طرق المدينة المغطاة بالجثث.

وقال كاهن أبوس (ريموند داجميل) شامتاً ص٣٢٦ ـ ٣٢٧: (حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومناعلى أسوار القدس وبروجها، فقد قطعت رؤوس بعضهم، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم، وبقرت بطون بعضهم؛ فكانوا ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يرى فى شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا).

وقال واصفاً مذبحة مسجد عمر

لقد أفرط قومنا فى سفك الدماء فى هيكل سليمان، وكانت جثث القتلى تعوم فى الساحة هنا وهناك، وكانت الأيدى المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها. ولم يكتف الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك فعقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى ـ الذين كان عددهم ستين ألفاً ـ فأفنوهم عن بكرة أبيهم فى ثمانية أيام، ولم يستبقوا منهم امرأة ولا ولدا ولا شيخاً).

وفى ص٣٩٦ يقول: (وعمل الصليبيون مثل ذلك فى مدن المسلمين التى اجتاحوها: ففى المعرة قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين فى الجوامع والمختبئين فى السراديب، فأهلكوا صبراً ما يزيد عن مائة ألف إنسان ـ فى أكثر الروايات ـ وكانت المعرة من أعظم مدن الشام بعدد السكان بعد أن فر إليها الناس بعد سقوط أنطاكية وغيرها بيد الصليبيين).

وصف المؤرخون ما حدث فى اليوم الذى دخل فيه صلاح الدين الأيوبى إلى القدس فاتحاً: لم ينتقم أو يقتل أو يذبح بل اشتهر المسلمون الظافرون فى الواقع بالاستقامة والإنسانية.

فبينما كان الصليبيون منذ ثمان وثمانين سنة يخوضون فى دماء ضحاياهم المسلمين، لم تتعرض أى دار من دور بيت المقدس للنهب، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه؛ إذ صار رجال الشرطة يطوفون بالشوارع والأبواب ـ تنفيذا لأمر صلاح الدين ـ لمنع كل اعتداء يحتمل وقوعه على المسيحيين:

وقد تأثر الملك العادل لمنظر بؤس الأسرى فطلب من أخيه صلاح الدين إطلاق سراح ألف أسير، فوهبهم له.

فأطلق العادل سراحهم على الفور، وأعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وكل امرأة عجوز.

وأقبل نساء الصليبيين وقد امتلأت عيونهن بالدموع فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن بعد أن لقى أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم، أو وقعوا فى الأسر، فأجاب صلاح الدين بأن وعد بإطلاق سراح كل من فى الأسر من أزواجهن، وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا - كل بحسب حالته.

فكانت رحمته وعطفه نقيض أفعال الصليبيين الغزاة.

أما بالنسبة لرجال الكنيسة أنفسهم - وعلى رأسهم بطريرك بيت المقدس - فإنهم لم يهتموا إلا بأنفسهم.

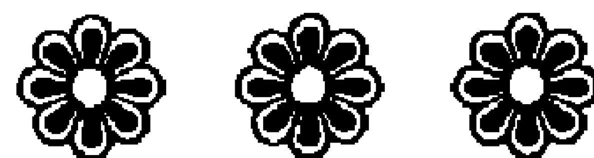
وقد ذهل المسلمون حينما رأوا البطريرك هرقل وهو يؤدى عشرة دنانير (مقدار الفدية المطلوبة منه) ويغادر المدينة.

وقد انحنت قامته لثقل ما يحمله من الذهب، وقد تبعته عربات تحمل ما بحوزته من الأموال والجواهر والأوانى النفيسة.

فهذا هو تاريخهم الأسود وهذا هو تاريخنا الأبيض.

وهكذا يكشف التاريخ ما فعلوه من مجازر يندى لها جبين البشرية حين احتلوا المدينة المقدسة قديماً مع أول حملة صليبية لهم، وتلك أخلاق الصليبيين إذا تمكنوا من المسلمين.

فهناك فرق واضح بين احتلالهم للمدينة وفتح صلاح الدين واستردادها وتحريرها منهم، إنها عظمة الإسلام.



أول صلاة جمعة فى المسجد الأقصى بعد تحريره

- الخطبة الأولى بعد ثمانية أيام من تحرير الأقصى.
- من هو الخطيب؟
- الدعوة للخليفة العباسى ولصلاح الدين فى خطبة الأقصى.

11

ذكر أول خطبة جمعة فى المسجد الأقصى بعد الفتح الأيوبى سنة ٥٨٣ هـ

ذكرنا أن صلاح الدين الأيوبى قد دخل بيت المقدس يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ قبل صلاة الظهر ولم يتيسر له إقامة صلاة الجمعة لضيق الوقت على أرجح الأقوال، وأن المسجد الأقصى لم يكن مهيئاً لإقامة الصلاة حيث شغله الصليبيون بالصلبان والقاذورات والخنازير والنواقيس.

فلما تم تطهيره بعد تحريره من تلك النجاسات الصليبية دخله أهل الإسلام والإيمان والتوحيد، ونودى بالأذان وقرئ فيه القرءان، وعمت الفرحة جميع الأقطار المسلمة وسجد المسلمون شكراً لله الذى نصر عبده صلاح الدين وأعز جنده ونصره على الصليبيين وحده.

وأتم الله نعمته على المسلمين وعلى قائدهم صلاح الدين بعد أن قام بتوحيد الكلمة والبلاد والعبادات تحت راية التوحيد والجهاد فى سبيله فتم لهم النصر المبين على أعدائهم.

فقد سقطت القدس فى أيدى الصليبيين عام ١٠٩٩ م فى الحملة الصليبية الأولى على الشرق الإسلامى حيث كانت ديار الإسلام فى تفرق وتشرزم وكانت القدس يومئذ تحت الحكم الشيعى الفاطمى الباطنى وتم تسليم المدينة المقدسة لأعداء الله والإنسانية فأخذوها وقتلوا من فيها من المسلمين ذبحاً وحتى جرت الدماء أنهاراً.

فلما حررها صلاح الدين كان العفو والتسامح والتصالح، وقد تعاقب على حكم القدس من الصليبيين تسعة ملوك صليبيين منذ احتلالها عام ١٠٩٩ م حتى تحريرها عام ١١٨٧ م الموافق ٥٨٣ هـ.

وعن ذكر أول جمعة أقيمت فى المسجد الأقصى بعد التحرير الموافق الرابع من شعبان فنصب المنبر فى المسجد إلى جانب المحراب.

وهى أول جمعة أقيمت فى المسجد بعد تنظيفه وتطهيره من دنس الصليبيين وبسطت البسط وعلقت القناديل وقرئ القرآن فى ثالث الحرمين وأول قبلة للمسلمين ومسرى الرسول الكريم ﷺ.

قال ابن كثير فى البداية والنهاية

وامتلأ الجامع وسالت لرقة القلوب المدامع، ولما أذن المؤذنون للصلاة قبل الزوال كادت القلوب تطير من الفرح فى ذلك الحال.

ولم يكن عين خطيب فبرز من السلطان المرسوم الصلاحى وهو فى قبةالصخرة أن يكون القاضى محيى الدين بن الزكى اليوم خطيباً.

فلبس الخلعة السوداء وخطب للناس خطبة سنية فصيحة بليغة، ذكر فيها شرف البيت المقدس وما فيه من الفضائل والترغيبات وما فيه من الدلائل والإمارات.

وكان أول الخطبة قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **(الأنعام: ٤٥)**. ثم أورد تحميدات القرآن كلها ثم قال: الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره.

ومصرف الأمور بأمره، ومزيد النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذى قدر الأيام دولاً بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاض على العباد من طله وهطله ـ المطر ـ أظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع.

الظاهر على خليقته فلا ينازع والأمر بما يشاء فلا يراجع، ومطهر بيت المقدس من أدناس الشرك وأوصابه، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر إجهاره.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رافع الشكر وداحض الشرك ـ أى مزيله ومهلكه ـ ورافض الإفك.

الذى أسرى به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى، وعرج به منه إلى السموات العلا، إلى سدرة المنتهى ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ⑮ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ⑯ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ **(النجم: ١٧)**.

صلى الله عليه وسلم وعلى خليفته الصديق السابق إلى الإيمان وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذى النورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب مزلزل الشرك ومكسر الأصنام، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

ثم ذكر الموعظة وهى مشتملة على تغبيط الحاضرين بما يسره الله على أيديهم من فتح بيت المقدس الذى من شأنه كذا وكذا.

فذكر فضائله ومآثره وأنه أول القبلتين وثانى المسجدين وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه.

وإليه أسرى برسول الله ﷺ من المسجد الحرام وصلى فيع بالأنبياء والرسل الكرام، ومنه كان المعراج إلى السموات ثم عاد إليه ثم سار منه إلى المسجد الحرام على البراق، وهو أرض المجشر والمنشر يوم التلاق، وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء وقد أسس على التقوى من أول يوم.

ثم ذكر تمام الخطبتين ثم دعا للخليفة العباسى ثم دعا للسلطان الناصر صلاح الدين.

وبعد الصلاة جلس الشيخ زين الدين أبو الحسن بن على نجا المصرى على كرسى الوعظ بإذن السلطان فوعظ الناس.

واستمر القاضى ابن الزكى بالناس فى أيام الجمع خطيباً أربع جمعات، ثم قرر السلطان للقدس خطيباً مستقراً.

وأرسل إلى حلب فاستحضر المنبر الذى كان الملك العادل نور الدين قد صنعه لبيت المقدس وكان يؤمل أن يكون فتحه على يديه فما كان إلا على يدى بعض أتباعه صلاح الدين بعد وفاته ولله الحمد.

تلك كانت ملخص خطبة أول صلاة جمعة بعد الفتح الإسلامى لها أيام صلاح الدين الأيوبى(١).

قال ابن كثير رحمه الله: وأما الصخرة المعظمة فإن السلطان أزال ما حولها من المنكرات والصور والصلبان وطهرها بعد ما كانت جيفة وأظهرها بعد ما كانت خفية مستورة غير مرئية، وأمر الفقيه عيسى الهكارى أن يعمل حولها شبابيك من حديد، ورتب لها إماماً

---

(١) ذكر أبو شامة المقدسى فى كتابه الروضتين أن شيخه أبا الحسن على بن محمد السخاوى فى تفسيره الأول فقال: وقع فى تفسير أبى الحكم الأندلسى - يعنى ابن برجان - فى أول سورة الروم أخبار عن فتح بيت المقدس وأنه ينزع من أيدى النصارى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

قال السخاوى: ولم يره أخذ ذلك من علم الحروف وإنما أخذه فيما زعم من قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ (الروم: ١ - ٤). فى الأمر على التاريخ كما يفعل المنجمون فذكر أنهم سيغلبون فى سنة كذا وكذا ويغلبون فى سنة كذا وكذا، ثم قال: وهذه نجابة وافقت إصابة إن صح.

قال ذلك قبل وقوعه وكان فى كتابه قبل حدوثه فى حدود سنة ٥٢٢ هـ ويقال إن نور الدين زنكى طمع أن يعيش إلى هذه السنة ٥٨٣ هـ فصنع لذلك المنبر والله أعلم - انظر البداية والنهاية.

راتباً وقف عليه رزقاً جيداً.

وكذلك إمام الأقصى وعمل للشافعية مدرسة يقال لها الصلاحية والناصرية أيضاً وكان موضعها كنيسة على قبر حنّة أم مريم.

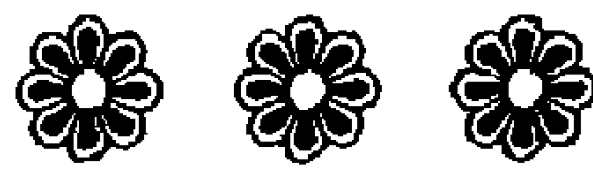
ووقف على الصوفية رباطاً كان للتبرك إلى جنبى القمامة وأجرى على الفقهاء والفقراء الرزق وأرصد الختم والربعات فى أرجاء المسجد الأقصى والصخرة، ليقرأ فيها المقيمون والزائرون وتنافس بنو أيوب فيما يفعلونه ببيت المقدس وغيره من الخيرات.

وعزم السلطان على هدم كنيسة القمامة وأن يجعلها دكاً لتنحسم مادة النصارى من بيت المقدس.

فقيل له إنهم لا يتركون الحج إلى هذه البقعة ولو كانت قاعاً صفصفاً وقد فتح هذا البلد قبلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وترك هذه البلد قبلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وترك هذه الكنيسة بأيديهم ولك فى ذلك أسوة.

فاعرض عنها وتركها على حالتها تأسيساً بعمر رضي الله عنه ولم يترك من النصارى فيها سوى أربعة يخدمونها وحال بين النصارى وبينها وهدم المقابر التى كانت لهم عند باب الرحمة وعفا آثارها وهدم ما كان هناك من القباب.

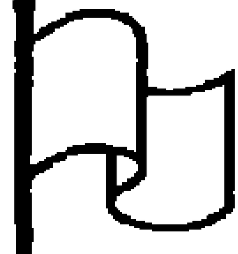
وأطلق أسارى المسلمين الذين كانوا بالقدس وأحسن إليهم[1].



(١) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

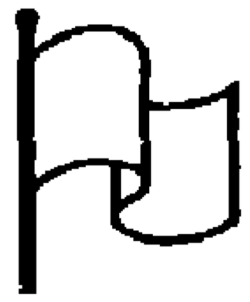


صورة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى
محرر القدس من أيدى الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ



معارك وفتوحات صلاح الدين بعد فتح القدس

- حصار صلاح الدين ميناء صور ومحاولة فتح المدينة بعد لجوء الصليبيين لها بعد هزيمتهم فى حطين.
- صلاح الدين يعزل وزير خزانة دمشق لقيامه ببناء قصر فى قلعة دمشق.
- فتح حصون صفد وكوكب والكرك وحصن برزية وسرمينية وقلعة بغراس ودربساك والصلح مع مدينة أنطاكية.



12

حصار صلاح الدين ميناء صور ومحاولة فتح المدينة بعد لجوء الصليبيين إليها

لما فتح صلاح الدين البيت المقدس أقام فيه إلى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحواله فلما فرغ من أمر البلد سار إلى مدينة صور.

وكانت قد اجتمع فيها من الفرنج عالم كثير وقد صار صاحبها والحاكم الصليبى قد ساسهم أحسن سياسة وبالغ فى تحصين البلد ووصل صلاح الدين إلى عكا وأقام بها أياماً.

فلما سمع بوصوله إليها جد فى عمل سور صور وخنادقها وتعميقها ووصلها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر فصارت المدينة كالجزيرة فى وسط الماء لا يمكن الوصول إليها ولا الدنو منها.

قال ابن الأثير: ثم رحل صلاح الدين من عكا فوصل إلى صور تاسع شهر رمضان فنزل على نهر قريب من البلد بحيث يراه حتى اجتمع الناس وتلاحقوا وسار فى الثانى والعشرين من رمضان فنزل على تل يقارب سور البلد بحيث يرى القتال.

وقسم القتال على العسكر كل جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون فيه بحيث يتصل القتال على أهل البلد وعليه الخنادق التى قد وصلت من البحر إلى البحر فلا يكاد الطير يطير عليها فإن المدينة كالكف فى البحر والساعد متصل بالبر والبحر من جانبى الساعد والقتال إنما هو فى الساعد فقذف المسلمون مرة بالمجانيق والعرادات والدبابات وكان أهل صلاح الدين يتناوبون القتال مثل: ولده الأفضل وولده الظاهر وكان للفرنج شوان وحراقات يركبون فيها فى البحر ويقفون من جانبى الموضع الذى يقاتل المسلمون منه أهل البلد فيرمون المسلمين من جانبهم بالجوخ ويقاتلونهم.

وكان ذلك يعظم عليهم لأن أهل البلد يقاتلونهم من بين أيديهم وأصحاب الشوانى يقاتلونهم من جانبيهم فكانت سهامهم تنفذ من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر لضيق الموضع فكثرت الجراحات فى المسلمين والقتل ولم يتمكنوا من الدنو إلى البلد.

فأرسل صلاح الدين إلى القوات البحرية التى جاءت من مصر وهى عشر قطع وكانت

بعكا فأحضرها برجالها ومقاتلتها وعدتها وكانت فى البحر تمنع قوات بحرية صور من الخروج إلى قتال المسلمين فتمكن المسلمون حينئذ من القرب من البلد ومن فقاتلوهم براً وبحراً وضايقوهم حتى كادوا يظفرون فجاءت الأقدار بما لم يكن فى الحساب.

وذلك أن خمس قطع من سفن المسلمين باتت فى بعض تلك الليالى مقابل ميناء صور ليمنعوا من الخروج منه والدخول إليه فباتوا ليلتهم يحرسون وكان مقدمهم عبد السلام المغربى الموصوف بالحذق فى صناعته وشجاعته فلما كان وقت السحر أمنوا فناموا فما شعروا إلا بسفن الفرنج قد نازلتهم وضايقتهم فأوقعت بهم فقتلوا من أرادوا قتله وأخذوا الباقين بمراكبهم وأدخلوهم ميناء صور والمسلمون فى البر ينظرون إليهم ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من السفن فى البحر فمنهم من سبح فنجا ومنهم من غرق شهيدا.

وتقدم صلاح الدين إلى السفن الباقية بالمسير إلى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها فسارت فتبعها سفن الفرنج فحين رأى من فى سفن المسلمين الفرنج مجدين فى طلبهم ألقوا نفوسهم فى سفنهم إلى البر فنجوا وتركوها فأخذها وعاد إلى قتال الصليبيين فى صور فى البر ولكن دون جدوى فرحل عنها لفتح باقى المدن الأخرى التى يحتلها الصليبيون فى الشام فتح له ذلك فى سهولة ويسير كما سيأتى ذكره بإذن الله.

وسأل الأمراء والجنود صلاح الدين أن ينصرف بهم إلى دمشق حتى يستريحوا ثم يعودوا إليها بعد هذا الحين فأجابهم إلى ذلك على مضض منه.

وتوجه بهم إلى دمشق واجتاز فى طريقه إلى عكا وتفرقت الجنود إلى بلادها.

وأما السلطان صلاح الدين فتوجه إلى عكا فنزل بقلعتها وأسكن ولده الأفضل برج الداوية وولى نيابتها عز الدين حرديبل.

وقد أشار البعض على السلطان تخريب مدينة عكا خوفاً من عودة الإفرنج إليها، فرفض وأمر بعمارتها وتجديدها ووكل أمر هذا للوزير بهاء الدين قراقوش.

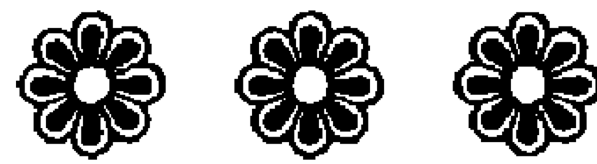
ولما انتهى من أمر عكا توجه إلى مدينة دمشق مؤيداً منصوراً وأرسل إليه الملوك بالتهانى والهدايا ومنهم الخليفة العباسى لما حقق من انتصارات فى حطين وفتح القدس سنة ٥٨٣ هـ.

كانت مدينة دمشق مركز انطلاق صلاح الدين إليها، يعود بعد كل الغزوات والفتوحات ثم ينطلق منها.

فقد انطلق منها السنة التالية لفتح القدس لاستكمال فتح الحصون والمدن التى استولى عليها الصليبيون بعد الحملة الصليبية الأولى.

ففى شهر المحرم من عام ٥٨٤ هـ حاصر صلاح الدين حصن كوكب ثم وكل به الأمير قايماز البجمى فى خمسمائة فارس وكذلك وكل حصار مدينة «صفد» وكانت تسيطر عليها الداوية الصليبية وترك حصارها لطغرلبك الحامدار ومعه خمسمائة فارس أيضاً.

وكذلك فعل فى حصار الكرك والشوبك.



صلاح الدين يعزل وزير الخزانة لديه لبنائه داراً له بالقلعة

ولما عاد صلاح الدين إلى دمشق فى هذه السنة وجد وكيل خزانته الصفى بن الفايض قد بنى له داراً بالقلعة - قلعة دمشق - مطلة على الشرق القبلى.

فغضب صلاح الدين منه وعزله عن منصبه وقال له:

إنَّا لم نخلق للمقام بدمشق ولا بغيرها من البلاد، وإنما خلقنا لعبادة الله عز وجل والجهاد فى سبيله، وهذا الذى عملته مما يثبط النفوس ويقعدها لما خلقت له.

وجلس صلاح الدين بدار العدل وحضر عنده أهل العلم والفضل، وحضر لديه القاضى الفاضل فى بستانه وحكى له ما جرى من الأمور واستشاره فيما يفعل فى المستقبل من المهمات والغزوات.

ثم خرج من دمشق إلى «بيوس» وقصد «البقاع» وسار إلى حمص وحماه وجاءته الجيوش من منطقة الجزائر وهو على نهر العاصى.

فسار إلى السواحل الشمالية وفتح «طرطوس» وغيرها من الحصون «وجبلة» واللاذقية وفتح «صهيون» «وبكاس» «والشغر» وهما قلعتان على جبل شاهق منيع تحتها أودية عميقة فحاصرها وشدد من حصارها وركب عليها المجانيق حتى فتح الله عليه فى أيام معدودات.

ثم فتح حصن «دربساك» وحصن «بغراس» وكان فتحه لها قتالاً فغنم الكثير.

ثم أراد فتح أنطاكية فراسله صاحبها على الهدنة فوافقه إليها على أن يطلق أسارى المسلمين لديه.

وسوف نذكر بعض تفاصيل تلك الفتوحات لعام ٥٨٤ هـ:

محاولة فتح حصن صفد وكوكب والكرك سنة ٥٨٤ هـ

لما سار صلاح الدين إلى عسقلان جعل على قلعة كوكب وهى مطلة على الأردن من يحصرها ويحفظ الطريق للمجتازين لئلا ينزل من به من الفرنج يقطعونه وسير طائفة أخرى من العسكر أيضاً إلى قلعة صفد فحصروها وهى مطلة على مدينة طبرية.

وكان حصن كوكب للاسبتار الماسون وحصن صفد للداوية وهما قريبان من حطين موضع المصاف فلجأ إليها جمع ممن سلم من الداوية والاسبتار فحموهما فلما حصرهما المسلمون استراح الناس من شر من فيهما واتصلت الطرق حتى كان يسير فيها المنفرد فلا يخاف.

وكان مقدم الجماعة الذين يحصرون قلعة كوكب أميراً يقال له سيف الدين وهو أخو جاولى الأسدى وكان شهماً شجاعاً يرجع إلى دين وعبادة فأقام عليه إلى آخر شوال وكان أصحابه يحرسون نوباً مرتبة فلما كان آخر ليلة من شوال غفل الذى كانت نوبته فى الحراسة وكان قد صلى ورده من الليل إلى السحر.

وكانت ليلة كثيرة الرعد والبرق والريح والمطر فلم يشعر المسلمون وهم نازلون إلا والفرنج قد خالطوهم بالسيوف ووضعوا السلاح فيهم فقتلوهم أجمعين وأخذوا ما كان عندهم من طعام وسلاح وغيره.

وعادوا إلى قلعتهم فقووا بذلك قوة عظيمة أمكنتهم أن يحفظوا قلعتهم إلى أن أخذت أواخر سنة ٥٨٤ هـ.

وجاء الخبر إلى صلاح الدين بذلك عند رحيله عن صور فعظم ذلك عليه مضافاً إلى ما ناله من أخذ سفنه الحربية ومن فيها ورحيله عن صور ثم رتب على حصن كوكب الأمير قايماز النجمى فى جماعة أخرى من الأجناد فحصروها كما ذكرنا واستكمال مسيرة فتوحاته ثم عاد إليها بعد ذلك وتم له الفتح بفضل الله.

فتح سرمينية:

لما كان صلاح الدين مشغولاً بهذه القلاع والحصون سير ولده الظاهر غازى صاحب

حلب فحصر سرمينية وضيق على أهلها واستنزلهم على قطيعة قررها عليهم فلما أنزلهم وأخذ منهم المقاطعة هدم الحصن وعفى أثره وعالى بنيانه.

وكان فيه وفى هذه الحصون من أسارى المسلمين الجم الغفير فأطلقوا وأعطوا كسوة ونفقة وكان فتحه فى يوم الجمعة الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٨٤ هـ.

واتفق أن فتح هذه المدن والحصون جميعها من جبلة إلى سرمينية مع كثرتها كان فى ست جمع مع أنها فى أيدى أشجع الناس وأشدهم عداوة للمسلمين فسبحان من إذا أراد أن يسهل الصعب فعل وهى جميعها من أعمال أنطاكية ولم يبق لها سوى القصير وبغراس ودرب ساك.

فتح حصن برزية:

لما رحل صلاح الدين من قلعة الشغر سار إلى قلعة برزية وكانت قد وصفت له وهى تقابل حصن أفامية وتناصفها فى أعمالها وبينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصى وعيون تتفجر من جبيل برزية وغيره وكان أهلها أضر شىء على المسلمين يقطعون الطريق ويبالغون فى الأذى.

فلما وصل إليها نزل شرقيها فى الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ثم ركب من الغد وطاف عليها لينظر موضعاً يقاتلها منه فلم يجد إلا من جهة الغرب فنصب له هناك خيمة صغيرة ونزل فيها ومعه بعض العسكر جريدة لضيق المكان.

قال ابن الأثير: وهذا القلعة لا يمكن أن تقاتل من جهة الشمال والجنوب البتة فإنها لا يقدر أحد أن يصعد جبلها من هاتين الجهتين وأما الجانب الشرقى فيمكن الصعود منه لكن لغير مقاتل لعلوه وصعوبته وأما جهة الغرب فإن الوادى المطيف بجبلها قد ارتفع هناك ارتفاعاً كثيراً حتى قارب القلعة بحيث يصل منه حجر المنجنيق والسهام فنزله المسلمون ونصبوا عليه المجانيق.

ورأيت أنا من رأس جبل عال يشرف على القلعة لكنه لا يصل منه شىء إليها امرأة ترمى من القلعة عن المنجنيق وهى التى بطلت منجنيق المسلمين.

فلما رأى صلاح الدين أن المنجنيق لا ينتفعون به عزم على الزحف ومكاثره أهلها بجموعه فقسم عسكره ثلاثة أقسام:

يزحف قسم فإذا تعبوا وكلوا عادوا وزحف القسم الثانى فإذا تعبوا وضجروا عادوا.

وزحف القسم الثالث ثم يدور الدور مرة بعد أخرى حتى يتعب الفرنج وينصبوا فإنهم لم يكن عندهم من الكثرة ما يتقسمون كذلك فإذا تعبوا وأعيوا سلموا القلعة.

فلما كان الغد وهو السابع والعشرون من جمادى الآخرة تقدم أحد الأقسام وكان المقدم عليهم عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى صاحب سنجار وزحفوا وخرج الفرنج من حصنهم فقاتلهم على فصليهم ورماهم المسلمون بالسهام من وراء الجفتيات والجنويات والطارقيات ومشوا إليهم حتى قربوا إلى الجبل فلما قاربوا الفرنج عجزوا عن الدنو منهم لخشونة المرتقى وتسلط الفرنج عليهم لعلو مكانهم بالنشاب والحجارة فإنهم كانوا يلقون الحجارة الكبار فتتدحرج إلى أسفل الجبل فلا يقوم لها شىء.

فلما تعب هذا القسم انحدروا وصعد القسم الثانى وكانوا جلوساً ينتظرونهم وهم حلقة صلاح الدين الخاص فقاتلوا قتالاً شديداً ركان الزمان حراً شديداً فاشتد الكرب على الناس وصلاح الدين فى سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم وكان تقى الدين ابن أخيه كذلك فقاتلوهم إلى قريب الظهر ثم تعبوا ورجعوا.

فلما رآهم صلاح الدين قد عادوا تقدم إليهم وبيده جماق يردهم وصاح فى القسم الثالث وهم جلوس ينتظرون نوبتهم فوثبوا ملبين وساعدوا إخوانهم وزحفوا معهم فجاء الفرنج ما لا قبل لهم به.

وكان أصحاب عماد الدين قد استراحوا فقاموا أيضاً معهم فحينئذ اشتد الأمر على الفرنج ما لا قبل لهم به.

وكان أصحاب عماد الدين قد استراحوا فقاموا أيضاً معهم فحينئذ اشتد الأمر على الفرنج وبلغت القلوب الحناجر وكانوا قد اشتد تعبهم ونصبهم فظهر عجزهم عن القتال وضعفهم عن حمل السلاح لشدة الحر والقتال.

فخالطهم المسلمون فعاد الفرنج يدخلون الحصن فدخل المسلمون معهم وكان طائفة قليلة فى الخيام شرقى الحصن فرأوا الفرنج قد أهملوا ذلك الجانب لأنهم لا يرون فيه مقاتلاً وليكثروا فى الجهة التى فيها صلاح الدين فصعدت تلك الطائفة من العسكر فلم يمنعهم مانع.

فصعدوا أيضاً الحصن من الجهة الأخرى فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج فملكوا الحصن عنوة وقهراً ودخل الفرنج القلة التى للحصن وأحاط بها المسلمون وأرادوا نقبها.

وكان الفرنج قد رفعوا من عندهم من أسرى المسلمين إلى سطح القلة وأرجلهم فى القيود والخشب المنقوب فلما سمعوا تكبير المسلمين فى نواحى القلعة كبروا فى سطح القلة وظن الفرنج أن المسلمين قد صعدوا على السطح فاستسلموا وألقوا بأيديهم إلى الأسر فملكها المسلمون عنوة ونهبوا ما فيها وأسروا وسبوا من فيها وأخذوا صاحبها وأهلها وأمست خالية لا ديار بها وأضرم المسلمون النار فى بعض بيوتهم فاحترقت.

ومن أعجب ما يحكى من السلامة أننى رأيت رجلاً من المسلمين على هذا الحصن قد جاء من طائفة من المؤمنين شمالى القلعة إلى طائفة أخرى من المسلمين جنوبى القلعة وهو يعدو فى الجبل عرضاً فألقيت عليه الحجارة وجاءه حجر كبير لو ناله لبعجه فنزل عليه فناداه الناس يحذرونه.

فالتفت ينظر ما الخبر فسقط على وجهه من عثرة فاسترجع الناس وجاء الحجر إليه فلا قاربه وهو منبطح على وجهه لقيه حجر آخر ثابت فى الأرض فوق الرجل فضبه المنحدر.

فارتفع عن الأرض وجاز الرجل ثم عاد إلى الأرض من جانبه الآخر لم ينله منه أذى ولا ضرر وقام يعدو حتى لحق بأصحابه فكان سقوطه سبب نجاته فتعست أم الجبان.

وأما صاحب برزية فإنه أسر هو وامرأته وأولاده ومنهم بنت له معها زوجها فتفرقهم العسكر فأرسل صلاح الدين فى الوقت وبحث عنهم واشتراهم وجمع شمل بعضهم ببعض فلما قارب أنطاكية أطلقهم وسيرهم إليها وكانت امرأة صاحب برزية أخت امرأة بيمند صاحب أنطاكية وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيراً من الأحوال الهامة.

فتح ضرب حصن دربساك:

لما فتح صلاح الدين حصن برزية رحل عنه من الغد فأتى جسر الحديد وهو على العاصى بالقرب من أنطاكية فأقام عليه حتى وافاه من تخلف عنه من عسكره ثم سار عنه إلى قلعة درب ساك فنزل عليها ثامن رجب وهى من معاقل الداوية الحصينة وقلاعهم التى يدخرونها لحمايتهم عند نزول الشدائد.

فلما نزل عليها نصب المجانيق وتابع الرمى بالحجارة فهدمت من سورها شيئاً يسيراً فلم يبال من فيه بذلك فأمر بالزحف عليها ومهاجمتها فبادرها العسكر بالزحف وقاتلوها وكشفوا الرجال عن سورها وتقدم النقابون فنقبوا منها برجاً وعلقوه فسقط.

واتسع المكان الذى يريد المقاتلة أن يدخلوا منه وعادوا يومهم ذلك ثم باكروا الزحف من الغد.

وكان من فيه قد أرسلوا إلى صاحب أنطاكية يستنجدونه فصبروا وأظهروا الجلد وهم ينظرون وصول جوابه إما بإنجادهم وإزاحة المسلمين عنهم وإما بالتخلى عنهم ليقوم عذرهم فى التسليم.

فلما علموا عجزه عن نصرتهم وخافوا هجوم المسلمين عليها وأخذهم السيف وقتلهم وأسرهم ونهب أموالهم طلبوا الأمان فأمنهم على شرط أن لا يخرج أحد إلا بثيابه التى عليه

بغير مال ولا سلاح ولا أثاث بيت ولا دابة ولا شيء مما بها ثم أخرجهم منه وسيرهم إلى أنطاكية وكان فتحه تاسع عشر رجب[1].

فتح قلعة بغراس:

ثم سار عن درب ساك إلى قلعة بغراس فحصرها بعد أن اختلف أصحابه فى حصرها فمنهم من أشار به ومنهم من نهى عنه وقال: هو حصن حصين وقلعة منيعة وهو بالقرب من أنطاكية ولا فرق بين حصره وحصرها ويحتاج أن يكون أكثر العسكر فى اليزك مقابل أنطاكية فإذا كان الأمر كذلك قل المقاتلون عليها ويتعذر حينئذ الوصول إليها.

فاستخار الله تعالى وسار إليها وجعل أكثر عسكره مقابل أنطاكية يغيرون على أعمالها وكانوا حذرين من الخوف من أهلها إن غفلوا لقربهم منها وصلاح الدين فى بعض أصحابه على القلعة يقاتلها ونصب المجانيق.

فلم يؤثر فيها شيئاً لعلوها وارتفاعها فغلب على الظنون تعذر فتحها وتأخر ملكها وشق على المسلمين قلة الماء عندهم إلا أن صلاح الدين نصب الحياض وأمر بحمل الماء إليها فخفف الأمر عليهم.

فبينما هو على هذه الحال إذ قد فتح باب القلعة وخرج منه إنسان يطلب الأمان ليحضر فأجيب إلى ذلك فأذن له فى الحضور.

فحضر وطلب الأمان لمن فى الحصن حتى يسلموه إليه بما فيه على قاعدة درب ساك فأجابهم إلى ما طلبوا.

فعاد الرسول ومعه الأعلام الإسلامية فرفعت على رأس القلعة ونزل من فيها وتسلم المسلمون القلعة بما فيها من ذخائر وأموال وسلاح وأمر صلاح الدين بتخريبه فخرب.

وكان ذلك مضرة عظيمة وجعل فيه جماعة من عسكره يغيرون منه على البلاد فتأذى بهم السواد الذى بحلب.

الهدنة بين صلاح الدين وصاحب أنطاكية:

بعد فتح صلاح الدين حصن بغراس عزم على التوجه إلى أنطاكية وحصرها فخاف «البيمند» صاحبها من ذلك فأرسل إلى صلاح الدين يطلب الهدنة وبذل إطلاق كل أسير عنده من المسلمين فاستشار من عنده من أصحابه فأشار أكثرهم بإجابته إلى ذلك ليعود الناس

(١) الكامل فى التاريخ ـ مصدر سابق.

ويستريحوا ويجددوا ما يحتاجون إليه.

فأجاب إلى ذلك واصطلحوا ثمانية أشهر أولها: أول تشرين الأول وآخرها: آخر أيار وسير رسوله إلى صاحب أنطاكية يستخلفه ويطلق من عنده من الأسرى.

وكان صاحب أنطاكية فى هذا الوقت أعظم الفرنج شأناً وأكثرهم ملكاً فإن الفرنج كانوا قد سلموا إليه طرابلس بعد موت القمص وجميع أعمالها مضافاً إلى ما كان له أن القمص لم يخلف ولداً فلما سلمت إليه طرابلس جعل ولده الأكبر فيها نائباً عنه.

وأما صلاح الدين فإنه عاد إلى حلب ثالث شعبان فدخلها وسار منها إلى دمشق وفرق العساكر الشرقية كعماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار والخابور وعسكر الموصل وغيرها.

ثم رحل من حلب إلى دمشق وجعل طريقه على قبر عمر بن عبد العزيز فزاره وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربى وكان مقيماً هناك وكان من عباد الله الصالحين وله كرامات ظاهرة.

وكان مع صلاح الدين الأمير عز الدين أبو الفليتة قاسم بن المهنا العلوى الحسينى وهو أمير مدينة النبى ﷺ كان قد حضر عنده وشهد معه مشاهده وفتوحه وكان صلاح الدين قد تبارك برؤيته وتيمن بصحبته.

وكان يكرمه كثيراً وينبسط معه ويرجع إلى قوله فى أعماله كلها ودخل دمشق أول شهر رمضان فأشير عليه بتفريق العساكر.

فقال: إن العمر قصير والأجل غير مأمون وقد بقى بيد الفرنج هذه الحصون: كوكب وصفد والكرك وغيرها ولابد من الفراغ منها فإنها فى وسط بلاد الإسلام ولا يؤمن شر أهلها وإن أغفلناهم ندمنا فيما بعد والله أعلم.

كان صلاح الدين قد جعل على الكرك عسكراً يحصره فلازموا الحصار هذه المدة الطويلة حتى فنيت أزواد الفرنج وذخائرهم وأكلوا دوابهم وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال فراسلوا الملك العادل أخا صلاح الدين والذى جعله صلاح الدين على قلعة الكرك فى جمع من العسكر يحصرها ويكون مطلعاً على هذه الناحية من البلاد لما أبعد هو إلى درب ساك ويغراس فوصلته رسل الفرنج من الكرك يبذلون تسليم القلعة إليه ويطلبون الأمان فأجابهم إلى ذلك وأرسل إلى مقدم العسكر الذى يحصرها فى المعنى فتسلم القلعة منهم وأمنهم.

وتسلم أيضاً ما يقاربه من الحصون كالشوبك وهرمز والوعيرة والسلع وفرغ القلب من تلك الناحية وألقى الإسلام هناك جرانه وأمنت قلوب من فى ذلك السقع من البلاد كالقدس وغيره فإنهم كانوا ممن بتلك الحصون وجلين ومن شرهم مشفقين.

فتح قلعة صفد:

لما وصل صلاح الدين إلى دمشق وأشير عليه بتفريق العساكر وقال: لابد من الفراغ من صفد وكوكب وغيرهما أقام بدمشق إلى منتصف رمضان وسار عن دمشق إلى قلعة صفد فحصرها وقاتلها ونصب عليها المجانيق وأدام الرمى إليها ليلاً ونهاراً بالحجارة والسهام.

وكان أهلها قد قاربت ذخائرهم وأزوادهم أن تفنى فى المدة التى كانوا فيها محاصرين فإن عسكر صلاح الدين كان يحاصرهم كما ذكرناه.

فلما رأى أهله جد صلاح الدين فى قتالهم خافوا أن يقيم إلى أن يفنى ما بقى معهم من أقواتهم وكانت قليلة ويأخذهم عنوة ويهلكهم أو أنهم يضعفون عن مقاومته قبل فناء ما عندهم من القوت فيأخذهم فأرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم وتسلمها منهم فخرجوا عنها وساروا إلى مدينة صور.

وكفى الله المؤمنين شرهم فإنهم كانوا وسط البلاد الإسلامية.

فتح كوكب:

لما كان صلاح الدين يحاصر صفد اجتمع من بصور من الفرنج وقالوا: إن فتح المسلمون قلعة صفد لم تبق كوكب ولو أنها معلقة بالكوكب وحينئذ ينقطع طمعنا من هذا الطرف من البلاد فاتفق رأيهم على إنفاذ نجدة لها سراً من رجال وسلاح وغير ذلك فأخرجوا مائتى رجل من شجعان الفرنج وأجلادهم فساروا الليل مستخفين وأقاموا النهار مكمنين.

فاتفق من قدر الله تعالى أن رجلاً من المسلمين الذين يحاصرون كوكب خرج متصيداً فلقى رجلاً من تلك النجدة فاستغربه بتلك الأرض فضربه ليعلمه بحاله وما الذى أقدمه إلى هناك فأقر بالحال ودله على أصحابه فعاد الجندى المسلم إلى قايماز النجمى وهو مقدم ذلك العسكر.

فأعلمه الخبر والفرنجى معه فركب فى طائفة من العسكر إلى الموضع الذى قد اختفى فيه الفرنج فكبسهم فأخذهم وتتبعهم فى الشعاب والكهوف فلم يفلت منهم أحد فكان معهم مقدمان من فرسان الاسبتار فحملا إلى صلاح الدين وهو على صفد فأحضرهما ليقتلهما.

وكانت عادته قتل الداوية والاسبتارية لشدة عداوتهم للمسلمين وشجاعتهم فلما أمر بقتلهما قال له أحدهما: ما أظن ينالنا سوء وقد نظرنا إلى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح.

وكان رحمه الله كثير العفو يفعل الاعتذار والاستعطاف فيه فيعفو ويصفح فلما سمع كلامهما لم يقتلهما وأمر بهما فسجنا.

قال ابن الأثير:

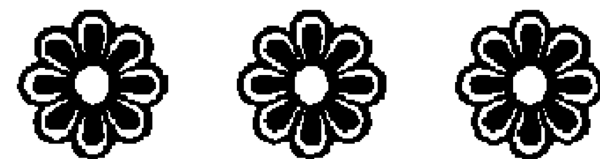
ولما فتح صفد سار عنها إلى كوكب ونازلها وحصرها وأرسل إلى من بها من الفرنج يبذل لهم الأمان إن سلموا ويتهددهم بالقتل والسبى والنهب إن امتنعوا فلم يسمعوا قوله وأصروا على الامتناع فجد فى قتالهم ونصب عليهم المجانيق وتابع رمى الأحجار إليهم وزحف مرة بعد مرة وكانت الأمطار كثيرة لا تنقطع ليلاً ولا نهاراً فلم يتمكن المسلمون من القتال على الوجه الذى يريدونه وطال مقامهم عليها.

وفى آخر الأمر زحفوا إليها دفعات متناوبة فى يوم واحد ووصلوا إلى باشورة القلعة ومعهم النقابون والرماة يحمونهم بالنشاب عن قوس اليد والجروح فلم يقدر أحد منهم أن يخرج رأسه من أعلى السور فنقبوا الباشورة فسقطت وتقدموا إلى السور الأعلى فلما رأى الفرنج ذلك أذعنوا بالتسليم وطلبوا الأمان فأمنهم وتسلم الحصن منهم منتصف ذى القعدة وسيرهم إلى صور فوصلوا إليها.

واجتمع بها من شياطين الفرنج وشجعانهم كل صنديد فاشتدت شوكتهم وحميت جمرتهم وتابعوا الرسل إلى من بالأندلس وصقلية وغيرهما من جزائر البحر يستغيثون ويستنجدون والأمداد كل قليل تأتيهم وكان ذلك كله بتفريط صلاح الدين فى إطلاق كل من حصره حتى عض بنانه ندماً وأسفاً حيث لم ينفعه ذلك.

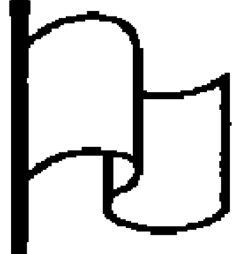
واجتمع للمسلمين بفتح كوكب وصفد من حد أيلة إلى أقصى أعمال بيروت لا يفصل بينه غير مدينة صور وجميع أعمال أنطاكية سوى القصير.

ولما ملك صلاح الدين صفد سار إلى بيت المقدس فعيد فيه عيد الأضحى ثم سار منه إلى عكا فأقام بها حتى انقضت تلك السنة وقد تحقق له العديد من الفتوحات بالقتال والسلم ولله الحمد والمنة[1].



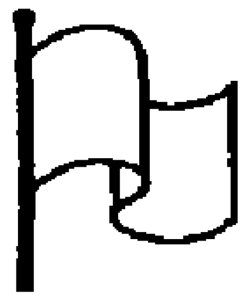
---

(١) انظر الكامل فى التاريخ ـ مصدر سابق.



الحملة الصليبية الثالثة ومحاولة استرداد القدس

- حصار عكا والحملة الصليبية الألمانية على بلاد الإسلام لاسترداد القدس.
- هلاك الحملة وغرق ملك ألمانيا قبل وصولها لعكا.
- قتال الجيش المصرى الإفرنج وانتصارهم عليهم.
- وصول إمدادات مادية ومعنوية من أوروبا للصليبيين فى حصارهم عكا.
- احتلال الصليبيين بعض المدن والحصون بعد سقوط عكا.



13

حصار عكا والحملة الألمانية على بلاد الإسلام

ثم استهلت سنة ٥٨٦ هـ والسلطان صلاح الدين محاصر لحصن عكا الساحلى الهام، وإمدادات الفرنج تأتيهم من البحر حتى إنهم أرسلوا لجنودهم مركباً فيه ثلاثمائة امرأة للترفيه عن الجنود وحتى يصمدوا أمام حصار صلاح الدين(١).

وجاءت الأخبار بأن ملك الألمان قد خرج من بلاده قاصداً الشام فى ثلاثمائة ألف مقاتل وهدفه الاستيلاء على الشام التى أصبحت معظم بلادها فى أيدى صلاح الدين وقد عزم على قتل أهلها من المسلمين.

وفى شهر ربيع الأول من تلك السنة تسلم السلطان صلاح الدين حصن شعيف أريون (سقيف أرتون) بالأمان لكون صاحب الحصن الصليبى كان فى الأسر لدى صلاح الدين وكان رجلاً داهية عليظ القلب كافر النفس، تلاعب بصلاح الدين وحاول خداعه إلا أن السلطان استطاع دحض مكره وأخذ الحصن منه.

وحدثت أيضاً فى تلك السنة معركة بين المسلمين وبعض جنود الفرنج فى اليزاك.

وأرسل الخليفة العباسى إلى السلطان صلاح الدين أحمالاً من النفط والرماح وصناع ناقبين ماهرين فى صناعته ومرسوماً بعشرين ألف دينار.

وكان المتولى لأمر عكا من قبل صلاح الدين وزيره «قراقوش» فأرسل إلى السلطان يخبره بنفاد الأقوات هى على وشك النفاد.

فكتب السلطان لأمير الأسطول المصرى أن يقدم بالميرة إلى عكا.

فلما قدمت السفن من مصر بالميرة تصدى لها أسطول الإفرنج وحدثت معركة شرسة بينهما، واستطاع المسلمون بالجبلة أن ينقذوا إلى عكا رغم الحصار الذى فرضه الإفرنج من ناحية البحر عليهم وهزمهم الله فى البحر.

حتى أن الإفرنج اتخذوا سفينة حربية لها خرطوم وفيه محركات إذا أرادوا أن يضعوه

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير.

على شيء من الأسوار والأبرجة قلبوه إلى ما أرادوا، فعظم أمر هذه السفينة على المسلمين ولم يزالوا محاولين القضاء عليها حتى أرسل الله عليها شواظاً من نار فأحرقها وأغرقها[(١)].

لقد شهدت تلك السنة سنة ٥٨٥ هـ أحداثاً عظاماً وجهاداً من المسلمين ضد الإفرنج الصليبيين، وكذلك العام التالى لها.

فقد كان صلاح الدين محاصراً لحصن عكا والإفرنج محاصرين للمدينة، وقامت الإفرنج بصناعة آلات للحرب لم تعرفها المعارك الحربية فى ذلك الزمان.

فكان مما فعله الإفرنج فى حصار عكا أنهم صنعوا ثلاثة أبراج حربية من خشب وحديد متحركة عليها جلود مسقاة بالخل لئلا يؤثر فيها النفط والبترول ـ بالحريق، سعة كل برج منها خمسمائة من المقاتلين وهى أعلا من أبرجة المدينة ومركبة على عجل يديرونها كيف أرادوا.

وعلى ظهر برج منها منجنيق كبير فهى بمثابة الدبابات الحديثة فى عصرنا الحالى، فلما رأى المسلمون ذلك أهمهم أمرها وخافوا على المدينة.

فأشار السلطان بإحراق الأبراج بالنفط وجاء بالنفاطين لهذا الغرض وأجزل لهم العطاء، وانتدب شاب من النحاسين من دمشق اسمه على بن عريف، فأخذ النفط الأبيض وخلطه بمادة مركبة اخترعها هو وقام يغلى هذا التركيب الكيميائى فى ثلاث قدور من النحاس حتى صار ناراً تأجج ورمى كل منها بقدر من تلك القدور بالمنجنيق من داخل مدينة عكا فاحترقت الأبراج الثلاثة حتى صارت ناراً مشتعلة بإذن الله، واحترق كل من كان فيها.

وكبر المسلمون وصاحوا بالتهليل.. «الله أكبر».. «الله أكبر».

وكان ذلك يوم الإثنين الموافق الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٨٦.

ثم أمر السلطان لذلك الشاب المسلم المخترع بعطية وأموال كثيرة فامتنع عن أخذها وقال له:

ـ إنما فعلت ذلك ابتغاء وجه الله، ورجاء ما عنده سبحانه وتعالى فلا أريد منكم جزاء ولا شكورا.

وهكذا كان الشباب المسلم فى زمن النصر والجهاد، أما فى زمن الهزيمة والخذلان فتجده فى المراقص يغنى ويتمايل كالنساء قدوته أهل الغناء والتمثيل وغيرهم من المترفين.

أما ملك الألمان فقد خرج كما ذكرنا يريد غزو بلاد الإسلام قد أزعجه ملك الإسلام

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير.

لبيت المقدس فجمع عساكره وأزاح علتهم وسار عن بلاده وطريقه على القسطنطينية فأرسل ملك الروم بها إلى صلاح الدين يعرفه الخبر فلما وصل ملك الألمان إلى القسطنطينية عجز ملكها عن منعه من العبور لكثرة جموعه.

لكنه منع عنهم الميرة ولم يمكن أحداً من رعيته من حمل ما يريدونه إليهم فضاقت بهم الأزواد والأقوات وساروا حتى عبروا خليج القسطنطينية وصاروا على أرض بلاد الإسلام وهى مملكة الملك قلج أرسلان بن مسعود بن سليمان بن قتلمش ابن سلجق وكان خروجه عام سنة ٥٨٦ هـ.

فلما وصلوا إلى أوائلها ثار بهم التركمان الأوج فما زالوا يسايرونهم ويقتلون من انفرد ويسرقون ما قدروا عليه.

وكان الزمان شتاء والبرد يكون فى تلك البلاد شديداً والثلج متراكماً فأهلكهم البرد والجوع والتركمان فقل عددهم.

فلما قاربوا مدينة قونية خرج إليهم الملك قطب الدين ملكشاه بن قلج أرسلان ليمنعهم فلم يكن له بهم قوة فعاد إلى قونية وبها أبوه قد حجر ولده المذكور عليه وتفرق أولاده فى بلاده وغلب كل واحد منهم على ناحية منها.

فلما عاد عنهم قطب الدين أسرعوا السير فى أثره فنازلوا قونية وأرسلوا إلى قلج أرسلان هدية وقالوا له: ما قصدنا بلادك ولا أردناها وإنما قصدنا البيت المقدس.

وطلبوا منه أن يأذن لرعيته فى إخراج ما يحتاجون إليه من قوت وغيره فأذن فى ذلك فأتاهم ما يريدون فشبعوا وتزودوا وساروا ثم طلبوا من قطب الدين أن يأمر رعيته بالكف عنهم وأن يسلم إليهم جماعة من أمرائه رهائن وكان يخافهم فسلم إليهم نيفاً وعشرين أميراً كان يكرههم فساروا بهم معهم ولم يمتنع اللصوص وغيرهم من قصدهم والتعرض إليهم فقبض ملك الألمان على من منعه من الأمراء وقيدهم فمنهم من هلك فى أسره ومنهم من فدى نفسه.

وسار ملك الألمان حتى أتى بلاد الأرمن وصاحبها لافون بن اصطفانة بن ليون فأمدهم بالأقوات والعلوفات وحكمهم فى بلاده وأظهر الطاعة لهم.

ثم ساروا نحو أنطاكية وكان فى طريقهم نهر فنزلوا عنده ودخل ملكهم إليه ليغتسل فغرق فى مكان منه لا يبلغ الماء وسط الرجل وكفى الله شره، فأقيم ولده الأصغر فى الملك وقد تمزق شملهم فاختلف أصحابه عليه فأحب بعضهم العود إلى بلاده فتخلف عنه وبعضهم مال إلى تمليك أخ له فعاد أيضاً وسار فيمن صحت نيته له فعرضهم وكانوا نيفاً وأربعين ألفاً ووقع

فيهم الوباء والموت.

فوصلوا إلى أنطاكية وكأنهم قد نبشوا من القبور فتبرم بهم صاحبها وحسن لهم المسير إلى الفرنج الذين على عكا فساروا على جبلة ولاذقية وغيرهما من البلاد التى ملكها المسلمون وخرج أهل حلب وغيرها إليهم وأخذوا منهم خلقاً كثيراً.

ومات أكثر ممن أخذ فبلغوا طرابلس وأقاموا بها أياماً فكثر فيهم الموت فلم يبق منهم إلا نحو ألف رجل.

فركبوا فى البحر إلى الفرنج الذين على عكا ولما وصلوا ورأوا ما نالهم فى طريقهم وما هم فيه من الاختلاف عادوا إلى بلادهم فغرقت بهم المراكب ولم ينج منهم أحد.

وكانت قصتهم من أعجب قصص الحملات الصليبية على المشرق(١).

وكان الملك قلج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم ويعده أنه يمنعهم من العبور فى بلاده فلما عبروا وخلفوا أرسل يعتذر بالعجز عنهم لأن أولاده حكموا عليه وحجروا عليه وتفرقوا عنه وخرجوا عن طاعته.

وأما صلاح الدين عند وصول الخبر بعبور ملك الألمان فإنه استشار أصحابه فأشار كثير منهم عليه بالمسير إلى طريقهم ومحاربتهم قبل أن يتصلوا بمن على عكا فقال: بل نقيم إلى أن يقربوا منا وحينئذ نفعل ذلك لئلا يستسلم من بعكا من عساكرنا لكنه سير بعض من عنده من العساكر منها عسكر حلب وجبلة ولاذقية وشيزر وغير ذلك إلى أعمال حلب ليكونوا فى أطراف البلاد يحفظونها من عاديتهم.

وكان حال المسلمين كما قال الله عز وجل: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ **(الأحزاب: ١٠، ١١)**.

فكفى الله شرهم ورد كيدهم فى نحرهم.

قتال الجيش المصرى الإفرنج وانتصارهم عليه:

وفى العشرين من جمادى الآخرة خرجت الفرنج من خنادقهم وتقدموا إلى المسلمين وهم كثير لا يحصى عددهم وقصدوا نحو عسكر مصر ومقدمهم الملك العادل أبو بكر بن أيوب.

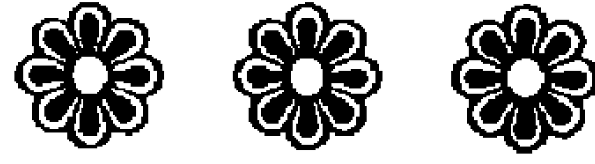
(١) انظر البداية والنهاية والكامل فى التاريخ.

وكان المصريون قد ركبوا واصطفوا للقاء الفرنج واقتتلوا قتالاً شديداً فانحاز المصريون عنهم ودخل الفرنج خيامهم ونهبوا أموالهم فعطف المصريون عليهم فقاتلوهم من وسط خيامهم فأخرجوهم عنها وتوجهت طائفة من المصريين نحو خنادق الفرنج فقطعوا المدد عن أصحابهم الذين خرجوا وكانوا متصلين كالنمل فلما انقطعت أمدادهم ألقوا بأيديهم وأخذتهم السيوف من كل ناحية.

فلم ينج منهم إلا الشريد وقتل منهم مقتلة عظيمة يزيد عدد القتلى على عشرة آلاف قتيل.

وكانت عساكر الموصل قريبة من عسكر مصر وكان مقدمهم علاء الدين خرمشاه بن عز الدين مسعود صاحب الموصل فحملوا أيضاً على الفرنج وبالغوا فى قتالهم ونالوا منهم نيلاً كثيراً.

هذا جميعه ولم يباشر القتال أحد من الجيش الذى مع صلاح الدين ولا أحد من الميسرة وكان بها عماد الدين زنكى صاحب سنجار وعسكر إربل وغيرهم.



وصول إمدادات للإفرنج

وبعد هذه الحادثة خمدت جمرتهم ولانت عريكتهم وأشار المسلمون على صلاح الدين بمباكرتهم القتال ومناجزتهم وهم على هذه الحال من الهلع والجزع فاتفق أنه وصله من الغد كتاب من حلب يخبر فيه بموت ملك الألمان وما أصاب أصحابه من الموت والقتل والأسر وما صار أمرهم إليه من القلة والذلة واشتغل المسلمون بهذه البشرى والفرح بها عن قتال من بإزائهم.

وظنوا أن الفرنج إذا بلغهم هذا الخبر ازدادوا وهناً على وهنهم وخوفاً على خوفهم.

فلما كان بعد يومين اتت الفرنج أمداد فى البحر مع كند كبير من الكنود البحرية يقال له الكند هرى ابن أخى ملك إفرنسيس لأبيه وابن أخى ملك انكلتار لأمه ووصل معه من الأموال شيء كثير يفوق الإحصاء فوصل إلى الفرنج فجند الأجناد وبذل الأموال فعادت نفوسهم فقويت واطمأنت وأخبرهم أن الأمداد واصلة إليهم يتلو بعضها بعضاً فتماسكوا وحفظوا مكانهم.

ثم أظهروا أنهم يريدون الخروج إلى لقاء المسلمين وقتالهم فانتقل صلاح الدين من مكانه إلى الخروبة فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة ليتسع المجال وكانت المنزلة قد أنتنت بريح القتلى من المعارك فى الأيام السابقة.

ثم إن الكند هرى نصب منجنيقاً ودبابات وعرادات فخرج من بعكا من المسلمين فأخذوها وقتلوا عندها كثيراً من الفرنج.

ثم إن الكند هرى بعد أخذ مجانيقه أراد أن ينصب منجنيقاً فلم يتمكن من ذلك لأن المسلمين بعكا كانوا يمنعون من عمل ستائر يستتر بها من يرمى من المنجنيق فعمل تلاً من تراب بالبعد من البلد.

ثم إن الفرنج كانوا ينقلون التل إلى البلد بالتدريج ويستترون به ويقربونه إلى البلد فلما صار من البلد بحيث يصل من عنده حجر منجنيق نصبوا وراءه منجنيقا وصار التل سترة لهما.

وكانت الميرة قد قلت بعكا فأرسل صلاح الدين إلى الإسكندرية يأمرهم بإنفاذ الأقوات واللحوم وغير ذلك فى المراكب إلى عكا.

فتأخر إنفاذها فسير إلى نائبه بمدينة بيروت فى ذلك فسير سفينة عظيمة مملوءة من

كل ما يريدونه وأمر من بها فلبسوا ملبس الفرنج وتشبهوا بهم ورفعوا عليها الصلبان.

فلما وصلوا إلى عكا لم يشك الفرنج أنها لهم فلم يتعرضوا لها فلما حاذت ميناء عكا أدخلها من بها ففرح بها المسلمون وانتعشوا وقيت نفوسهم وتبلغوا بما فيها إلى أن أتتهم الميرة من الإسكندرية.

وصول الدعم المعنوى من بابا الفاتيكان:

وخرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر فى نحو ألف مقاتل فأخذت بنواحى الإسكندرية وأخذ من معها ثم إن الفرنج وصلهم كتاب من بابا وهو كبيرهم الذى يصدرون عن أمره وقوله عندهم كقول النبيين لا يُخالَف والمحروم عندهم من حرمه والمقرب من قربه وهو صاحب روما يأمرهم بملازمة ما هم بصدده ويعلمهم أنه قد أرسل إلى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير إلى نجدتهم براً وبحراً ويعلمهم بوصول الأمداد إليهم فازدادوا قوة وطمعاً.

لما تتابعت الأمداد إلى الفرنج وجند لهم الكند هرى جمعاً كثيراً بالأموال التى وصلت معه عزموا على الخروج من خنادقهم ومناجزة المسلمين فتركوا على عكا من يحصرها ويقاتل أهلها.

وخرجوا حادى عشر شوال فى عدد كالرمل كثرة وكالنار جمرة.

فلما رأى صلاح الدين ذلك نقل أثقال المسلمين إلى قيمون وهو على ثلاثة فراسخ عن عكا وكان قد عاد إليه من فرق من عساكره لما هلك ملك الألمان ولقى الفرنج على تعبئة حسنة.

استمرار القتال بين الطرفين:

وكان أولاده الأفضل على والظاهر غازى والظافر مما يلى القلب وأخوه العادل أبو بكر فى الميمنة ومعه عساكر مصر ومن انضم إليهم وكان فى الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقى الدين صاحب حماة ومعز الدين سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمرائه.

واتفق أن صلاح الدين أخذه مغص كان يعتاده فنصب له خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر ونزل فيها ينظر إليهم فسار الفرنج شرقى نهر هناك حتى وصلوا إلى رأس النهر فشاهدوا عساكر الإسلام وكثرتها.

فارتاعوا لذلك ولقيهم الجالشية يقاتلونهم والفرنة قد تجمعوا ولزم بعضهم بعضاً وكان غرض الجالشية أن تحمل الفرنج عليهم فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال فيكون الفصل ويستريح الناس وكان الفرنج قد ندموا على مفارقة خنادقهم فلزموا مكانهم وباتوا ليلتهم تلك.

فلما كان الغد عادوا نحو عكا ليعتصموا بخندقهم يقاتلونهم تارة بالسيوف وتارة بالرماح وتارة بالسهام.

وكلما قتل من الفرنج قتيل أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ما أصابهم فلو علموا ذلك الألم الذى حدث بصلاح الدين لكانت هى الفصيل وإنما لله أمرا هو بالغة.

فلما بلغ الفرنج خندقهم ولم يكن لهم بعدها ظهور منه عاد المسلمون إلى خيامهم.

وفى الثالث والعشرين من شوال أيضاً كمن جماعة من المسلمين وتعرض للفرنج جماعة أخرى فخرج إليهم أربع مائة فارس فقاتلهم المسلمون شيئاً من قتال وتطاردوا لهم وتبعهم الفرنج حتى جازوا الكمين فخرجوا عليهم فلم يفلت منهم أحد.

واشتد الغلاء على الفرنج حتى بلغت جوال الحنطة أكثر من مائة دينار صورى فصبروا على هذا.

وكان المسلمون يحملون إليهم الطعام من البلدان منهم الأمير أسامة مستحفظ بيروت كان يحمل الطعام وغيره ومنهم سيف الدين على بن أحمد المعروف بالمشطوب كان يحمل من صيدا أيضاً إليهم.

وكذلك من عسقلان وغيرها ولولا ذلك لهلكوا جوعاً خصوصاً فى الشتاء عند انقطاع مراكبهم عنهم لهياج البحر، وتلك هى خيانة الخونة من بنى جلدتنا وهم فى كل زمان ومكان.

خطة صلاح الدين فى إراحة قواده وجنوده فى عكا:

لما هجم الشتاء وعصفت الرياح خاف الفرنج على مراكبهم التى عندهم لأنها لم تكن فى الميناء فسيروها إلى بلاد صور والجزائر فانفتح الطريق إلى عكا فى البحر فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون الضجر والملل والسآمة وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين مقدماً على جندها.

فأمر صلاح الدين بإقامة البدل وإنفاذه إليها وإخراج من فيها وأمر أخا الملك العادل بمباشرة ذلك فانتقل إلى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشوانى.

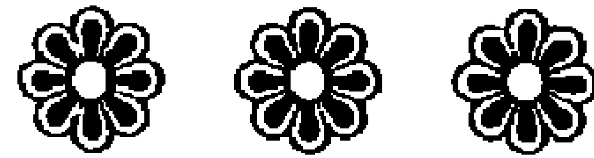
وكلما جاءه جماعة من العسكر سيرهم إليها وأخرج عوضهم فدخل إليها عشرون أميراً وكان بها ستون أميراً فكان الذين دخلوا قليلاً بالنسبة إلى الذين خرجوا وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وإنفاذهم.

وكان على خزانة ماله قوم من النصارى وكانوا إذا جاءهم جماعة قد جندوا تعنتوهم بأنواع شتى تارة بإقامة معرفة وتارة بغير ذلك فتفرق بهذا السبب خلق كثير وانضاف إلى ذلك توانى صلاح الدين ووثوقه بنوابه وإهمال النواب.

فانحسر الشتاء والأمر كذلك وعادت مراكب الفرنج إلى عكا وانقطع الطريق إلا من سابح يأتى بكتاب.

وكان من جملة الأمراء الذين دخلوا إلى عكا سيف الدين على بن أحمد المشطوب وعز الدين أرسل مقدم الأسدية بعد جاولى وابن جاولى وغيرهم من دخولهم عكا أول سنة سبع وثمانين.

وكان قد أشار جماعة على صلاح الدين بأن يرسل إلى من بعكا النفقات الواسعة والذخائر والأقوات الكثيرة ويأمرهم بالمقام فإنهم قد جربوا وتدبروا واطمأنت نفوسهم على ما هم فيه فلم يفعل وظن فيهم الضجر والملل وأن ذلك يحملهم على العجز والفشل فكان الأمر بالضد[1].



(١) المصدر السابق.

وصول الحملة الصليبية الثالثة
وسقوط عكا

وصلت أمداد الفرنج فى البحر إلى الفرنج الذين على عكا وكان أول من وصل منهم الملك فليب ملك فرنسا وهو من أشرف ملوكهم نسباً وإن كان ملكه ليس بالكثير وكان وصوله إليها ثانى عشر ربيع الأول سنة ٥٨٧ هـ.

ولم يكن فى الكثرة التى ظنوها وإنما كان معه ست سفن.

كان صلاح الدين على شفرعم فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد وأرسل إلى الأمير أسامة مستحفظ بيروت يأمره بتجهيز ما عنده من الشوانى والمراكب وتشحينها بالمقاتلة وتسييرها فى البحر ليمنع الفرنج من الخروج إلى عكا.

ففعل ذلك وسير السفن فى البحر فصادفت خمسة مراكب مملوءة رجالاً من أصحاب ملك انكلتار الفرنج كان قد سيرهم بين يديه وتأخر هو بجزيرة قبرص ليملكها فأقبلت سفن المسلمين مع مراكب الفرنج فاستظهر المسلمون عليهم وأخذوهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال وأسروا الرجال.

وكتب أيضاً صلاح الدين إلى من بالقرب من النواب له يأمرهم بمثل ذلك ففعلوا.

وأما الفرنج الذين على عكا فإنهم لازموا قتال من بها ونصبوا عليها سبعة مجانيق رابع جمادى الأولى فلما رأى صلاح الدين ذلك تحول من شفرعم ونزل عليهم لئلا يتعب العسكر كل يوم فى المجيء إليهم والعود عنهم فقرب منهم.

وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خندقهم فكانوا يشتغلون بقتالهم فيخف القتال عمن بالبلد.

ثم وصل ملك انكلتار ثالث عشر جمادى الأولى.

وكان قد استولى فى طريقه على جزيرة قبرص وأخذها من الروم فإنه لما وصل إليها غدر بصاحبها وملكها جميعاً فكان ذلك زيادة فى ملكه وقوة للفرنج.

فلما فرغ منها سار عنها إلى من على عكا من الفرنج فوصل إليهم فى خمس وعشرين

قطعة كباراً مملوءة رجالاً وأموالاً فعظم به شر الفرنج واشتدت نكايتهم في المسلمين.

وكان رجل زمانه شجاعة ومكراً وجلداً وصبراً وبلى المسلمون منه بالداهية التى لا مثل لها.

ولما وردت الأخبار بوصوله أمر صلاح الدين بتجهيز سفينة كبيرة مملوءة من الرجال والعدة والقوت فجهزت وسيرت من بيروت وفيها سبع مائة مقاتل.

فلقيها ملك إنكلتار مصادفة فقاتلها وصبر من فيها على قتالها فلما أيسوا من الخلاص نزل مقدم من بها إلى أسفلها وهو يعقوب الحلبى مقدم الجندارية يعرف بغلام ابن شقين فخرقها خرقاً واسعاً لئلا يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر فغرق جميع ما فيها.

وكانت عكا محتاجة إلى رجال بسبب نقصهم ثم إن الفرنج عملوا دبابات زحفوا بها فأحرق المسلمون بعضها وأخذوا بعضها.

ثم عملوا كباشاً وزحفوا بها فخرج المسلمون وقاتلوهم بظاهر البلد وأخذوا تلك الكباش فلما رأى الفرنج أن ذلك جميعه لا ينفعهم عملوا تلاً كبيراً من التراب مستطيلاً ومازالوا يقربونه إلى البلدة يقاتلون من ورائه فلا يصابهم أذى ولم يستطع المسلمون التصدى له.

فلما كان وقت الظهر يوم السابع من جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ ما شعر الناس إلا وأعلام الكفر قد علت، واستولى الفرنج لعنهم الله على مدينة عكا.

وكان أول الأمر أن الأمير سيف الدين على بن أحمد الهكارى المعروف بالمشطوب كان فيها ومعه عدة من الأمراء قد خرج إلى ملك فرنسا وبذل له تسليم البلد بما فيه على أن يطلق المسلمين الذين فيه ويمكنهم من اللحاق بسلطانهم فلم يجبه إلى ذلك.

فعاد على بن أحمد إلى البلد فوهن من فيه وضعفت نفوسهم وتخاذلوا وأهمتهم أنفسهم.

ثم إن الفرنج أرسلوا إلى صلاح الدين فى معنى تسليم البلد فأجابهم إلى ذلك والشرط بينهم أن يطلق من أسراهم بعدد من فى البلد ليطلقوا هم من بعكا وأن يسلم إليهم صليب الصلبوت فلم يقنعوا بما بذل فأرسل إلى من بعكا من المسلمين يأمرهم أن يخرجوا من عكا يداً واحدة ويسيروا مع البحر.

ويحملوا على العدو حملة واحدة ويتركوا البلد بما فيه ووعدهم أنه يتقدم إلى تلك الجهة التى يخرجون منها بعساكره يقاتل الفرنج فيها ليلحقوا به فشرعوا فى ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه فما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الصبح فبطل ما عزموا عليه لظهوره، وهكذا أبطل حب الدنيا الأمل الأخير فى انقاذ البلدة.

فلما أصبحوا عجز الناس عن حفظ البلد وزحف إليهم الفرنج بحدهم وحديدهم فظهر من بالبلد على سوره يحركون أعلامهم ليراها المسلمون وكانت هى العلامة إذا حزبهم أمر.

فلما رأى المسلمون ذلك ضجوا بالبكاء والعويل وحملوا على الفرنج من جميع جهاتهم ظناً منهم أن الفرنج يشتغلون عن الذين بعكا وصلاح الدين يحرضهم وهو فى أولهم.

وكان الفرنج قد زحفوا من خنادقهم ومالوا إلى جهة البلد فقرب المسلمون من خنادقهم حتى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم فوقع الصوت فعاد الفرنج ومنعوا المسلمين وتركوا فى مقابلة من بالبلد من يقاتلهم.

فلما رأى المشطوب أن صلاح الدين لا يقدر على نفع ولا يدفع عنهم ضراً خرج إلى الفرنج وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه بأموالهم وأنفسهم وبذل لهم عن ذلك مائتى ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين وإعادة صليب الصلبوت وأربعة عشر ألف دينار للمركيز صاحب صور فأجابوه إلى ذلك وحلفوا له عليه وأن تكون مدة تحصيل المال والأسرى إلى شهرين(١).

وصمدت مدينة عكا أمام حصار الصليبيين نحو ثلاثة وسبعين شهراً.

فلما حلفوا له سلم البلد إليهم ودخلوه سلماً.

فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى أموالهم وحبسوهم وأظهروا أنهم يفعلون ذلك ليصل إليهم ما بذل لهم.

وراسلوا صلاح الدين فى إرسال المال والأسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم.

فشرع فى جمع المال وكان هو لا مال له إنما يخرج ما يصل من دخل البلاد أولاً بأول.

قال ابن الأثير: فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار جمع الأمراء واستشارهم فأشاروا بأن لا يرسل شيئاً حتى يعود فيستحلفهم على إطلاق أصحابه وأن يضمن الداوية ذلك لأنهم أهل تدين يرون الوفاء.

فراسلهم صلاح الدين فى ذلك فقال الداوية: لا نحلف ولا نضمن لأننا نخاف غدر من عندنا.

---

(١) تم أسر الأمير أحمد المشطوب من الصليبيين وافتدى نفسه بخمسين ألف، ثم عاد إلى السلطان فأعطاه أكثر مما دفع وأنابه على نابلس ثم توفى فى عام ٥٨٨ هـ بعد عودته من الأسر بأشهر التالى بالقدس.

وقال ملوكهم: إذا سلمتم إلينا المال والأسرى والصليب فلنا الخيار فيمن عندنا.

فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر فلم يرسل إليهم شيئاً وأعاد الرسالة إليهم.

وقال: نحن نسلم إليكم هذا المال والأسرى والصليب ونعطيكم رهناً على الباقى وتطلقون أصحابنا وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء لهم.

فقالوا: لا نحاف إنما ترسل إلينا المائة ألف دينار التى حصلت والأسرى والصليب ونحن نطلق من أصحابكم من نريد ونترك من نريد حتى يجىء باقى المال.

فعلم الناس حينئذ غدرهم وإنما يطلقون غلمان العسكر والفقراء والأكراد ومن لا يؤبه له ويمسكون عندهم الأمراء وأرباب الأموال يطلبون منهم الفداء فلم يجبهم السلطان إلى ذلك.

فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ركب الفرنج وخرجوا إلى ظاهر البلد بالفارس والراجل وركب المسلمون إليهم وقصدوهم وحملوا عليهم فانكشفوا عن موقفهم.

وإذا أكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف وقتلوهم واستبقوا الأمراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من سواهم من سوادهم وأصحابهم ومن لا مال له.

فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف فى المال الذى كان جمعه ورد الأسرى والصليب إلى دمشق.

وهكذا كانت المجازر التى هى إحدى سمات الصليبيين قديماً وحديثاً.

الحملة الصليبية تستمر فى احتلال المدن:

لما فرغ الفرنج لعنهم الله من إصلاح أمر عكا برزوا منها فى الثامن والعشرين من رجب وساروا مستهل شعبان نحو حيفا مع شاطئ البحر لا يفارقونه.

فلما سمع صلاح الدين برحيلهم نادى فى عسكره بالرحيل فساروا.

وكان على «اليزك» ذلك اليوم الملك الأفضل ولد صلاح الدين ومعه سيف الدين إيازكوش وعز الدين جورديك وعدة من شجعان الأمراء فضايقوا الفرنج فى مسيرهم وأرسلوا عليهم من السهام ما كاد يحجب الشمس ووقعوا على ساقة الفرنج فقتلوا منها جماعة وأسروا جماعة.

وأرسل الأفضل إلى والده يستمده ويعرفه الحال فأمر العساكر بالمسير إليه فاعتذروا بأنهم ما ركبوا بأهبة الحرب وإنما كانوا على عزم المسير لا غير فبطل المدد وعاد ملك الإنكلتار إلى ساقة الفرنج فحماها وجمعهم وساروا حتى أتوا حيفا فنزلوا بها.

ونزل المسلمون بقيمونه قرية بالقرب منهم وأحضر الفرنج من عكا عوض من قتل منهم وأسر ذلك اليوم وعوض ما هلك من الخيل ثم ساروا إلى قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويتخطفون منهم من قدروا عليه فيقتلونه لأن صلاح الدين كان قد أقسم أنه لا يظفر بأحد منهم إلا قتله بمن قتلوا ممن بعكا.

فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقاتلوهم أشد قتال فنالوا منهم نيلاً كثيراً ونزل الفرنج بها وبات المسلمون قريباً منهم فلما نزلوا خرج من الفرنج جماعة فأبعدوا عن جماعتهم فأوقع بهم المسلمون الذين كانوا فى اليزك فقتلوا منهم وأسروا.

ثم ساروا من قيسارية إلى «أرسوف» وكان المسلمون قد سبقوهم إليها ولم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق.

فلما وصل الفرنج إليهم حمل المسلمون عليهم حملة منكرة وألحقوهم بالبحر ودخله بعضهم فقتل منهم كثير.

قال ابن الأثير: فلما رأى الفرنجة ذلك اجتمعوا وحملت الخيالة على المسلمين حملة رجل واحد فولوا منهزمين لا يلوى أحد على أحد.

وكان كثير من الخيالة والسوقة قد ألفوا القيام وقت الحرب قريباً من المعركة فلما كان ذلك اليوم كانوا على حالهم فلما انهزم المسلمون عنهم قتل خلق كثير.

والتجأ المنهزمون إلى القلب وفيه صلاح الدين فلو علم الفرنج أنها هزيمة لتبعوهم.

واستمرت الهزيمة وهلك المسلمون لكن كان بالقرب من المسلمين شعرة كثيرة الشجر فدخلوها وظنها الفرنج مكيدة فعادوا وزال عنهم ما كانوا فيه من الضيق.

وقتل من الفرنج كند كبير من طواغيتهم وقتل من المسلمين مملوك لصلاح الدين اسمه أياز الطويل وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة لم يكن فى زمانه مثله.

فلما نزل الفرنج نزل المسلمون وأعنة خيلهم بأيديهم ثم سار الفرنج إلى يافا فنزلوها ولم يكن بها أحد من المسلمين فملكوها.

ولما كان من المسلمين «بارسوف» من الهزيمة سار صلاح الدين عنهم إلى الرملة واجتمع بأثقاله بها وجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بتخريب عسقلان.

وقالوا له: قد رأيت ما كان منا بالأمس وإذا جاء الفرنج إلى عسقلان ووقفنا فى وجوههم تصدهم عنها فهم لاشك يقاتلوننا لننزاح عنها فينزلوا عليها فإذا كان ذلك عدنا إلى

مثل ما كنا عليه على عكا ويعظم الأمر علينا لأن العدو قد قوى بأخذ عكا وما فيها من الأسلحة وغيرها وضعفنا نحن بما خرج عن أيدينا ولم تطل المدة حتى نستجد غيرها.

فلم تسمح نفسه بتخريبها وندب الناس إلى دخولها وحفظها فلم يجبه أحد إلى ذلك وقالوا: إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا.

فلما رأى الأمر كذلك سار إلى عسقلان وأمر بتخريبها فخربت تاسع عشر شعبان وألقيت حجارتها فى البحر وهلك فيها من الأموال والذخائر التى للسلطان والرعية ما لا يمكن حصره حتى لا يبقى للفرنج فى قصدها مطمع(١).

ولما سمع الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم ولم يسيروا إليها وكان المركز لعنه الله لما أخذ الفرنج عكا قد أحس من ملك إنجلترا (ريتشارد قلب الأسد) بالغدر به فهرب من عنده إلى مدينة صور وهى له وبيده وكان رجل الفرنج رأياً وشجاعة وكل هذه الحروب هو أثارها.

فلما خربت عسقلان أرسل إلى ملك انجلترا يقول له: مثلك لا ينبغى أن يكون ملكاً ويتقدم على الجيوش، تسمع أن صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك يا جاهل لما بلغك أنه قد شرع فى تخريبها كنت سرت إليه مجداً فرحلته وملكتها صفواً بغير قتال ولا حصار فإنه ما خربها إلا وهو عاجز عن حفظها.

وحق المسيح لو أننى معك كانت عسقلان اليوم بأيدينا لم يخرب منها غير برج فلما خربت عسقلان رحل صلاح الدين عنها ثانى شهر رمضان ومضى إلى الرملة فخربت وفى مدة مقامه لتخريب عسقلان كانت العساكر مع الملك العادل أبى بكر بن أيوب تجاه الفرنج.

ثم سار صلاح الدين إلى القدس بعد تخريب الرملة فاعتبره وما فيه من سلاح وذخائر وقرر قواعده وأسبابه وما يحتاج إليه وعاد إلى المخيم ثامن رمضان.

وفى هذه الأيام خرج ملك إنجلترا من يافا ومعه نفر من الفرنج من معسكرهم فوقع به نفر من المسلمين فقاتلوهم قتالاً شديداً.

وكاد ملك إنجلترا يؤسر ففداه بعض أصحابه بنفسه فتخلص الملك وأسر ذلك الرجل.

وفيها أيضاً كانت وقعة بين طائفة من المسلمين وطائفة من الفرنج انتصر فيها المسلمون.

استمرار الحملة الصليبية فى مسيرتها:

لما رأى صلاح الدين أن الفرنج قد لزموا يافا ولم يفارقوها وشرعوا فى عمارتها.

رحل من منزلته إلى النطرون ثالث عشر رمضان وخيم به فراسله ملك إنجلترا يطلب المهادنة فكانت الرسل تتردد إلى الملك العادل أبى بكر بن أيوب أخى صلاح الدين.

فاستقرت القاعدة أن ملك إنجلترا يزوج أخته من العادل ويكون القدس وما بأيدى المسلمين من بلاد الساحل للعادل وتكون عكا وما بيد الفرنج من البلاد لأخت ملك إنجلترا مضافاً إلى مملكة كانت لها داخل البحر قد ورثتها من زوجها.

وأن يرضى الداوية بما يقع الاتفاق عليه فعرض العادل ذلك على صلاح الدين فأجاب إليه فلما ظهر الخبر اجتمع القسيسون والأساقفة والرهبان إلى أخت ملك إنجلترا وأنكروا عليها فامتنعت من الإجابة وقيل كان المانع منه غير ذلك والله أعلم(١).

وكان العادل وملك إنجلترا يجتمعان بعد ذلك ويتجاريان حديث الصلح وطلب من العادل أن يسمعه غناء المسلمين فأحضر له مغنية تضرب بالجنك فغنت له فاستحسن ذلك.

ولم يتم بينهما صلح وكان ملك إنجلترا يفعل ذلك خديعة ومكراً.

ثم إن الفرنج أظهروا العزم على قصد البيت المقدس فسار صلاح الدين إلى الرملة جريدة وترك الأثقال بالنطرون وقرب من الفرنج وبقى عشرين يوماً ينتظرهم فلم يبرحوا فكان بين الطائفتين مدة المقام عدة وقعات فيها كلها ينتصر المسلمون على الفرنج وعاد صلاح الدين إلى النطرون.

ورحل الفرنج من يافا إلى الرملة ثالث ذى القعدة على عزم قصد البيت المقدس فقرب بعضهم من بعض فعظم الخطب واشتد الحذر.

فكان كل ساعة يقع الصوت فى العسكرين بالنفير فلقوا من ذلك شدة شديدة وأقبل الشتاء والأوحال والأمطار بينهما.

لما رأى صلاح الدين أن الشتاء قد هجم والأمطار متوالية متتابعة والناس منها فى ضنك وحرج ومن شدة البرد ولبس السلاح والسهر فى تعب دائم وكان كثير من العساكر قد طال بعادها فأذن لهم فى العود إلى بلادهم للاستراحة والإراحة.

وسار هو إلى البيت المقدس فيمن بقى معه فنزلوا جميعاً داخل البلد فاستراحوا مما

---

(١) الكامل فى التاريخ ـ مصدر سابق.

كانوا فيه ونزل هو بدار الأقسا مجاور بيعة قمامة وقدم إليه عسكر من مصر مقدمهم الأمير أبو الهيجاء السمين فقويت نفوس المسلمين بالقدس.

وسار الفرنج من الرملة إلى النطرون ثالث ذى الحجة على عزم قصد القدس فكانت بينهم وبين المسلمين وقعات أسر المسلمون فى وقعة منها نيفاً وخمسين فارساً من مشهورى الفرنج وشجعانهم.

وكان صلاح الدين لما دخل القدس أمر بعمارة سوره وتجديد ما رث منه فأحكم الموضع الذى ملك البلد منه وأتقنه وأمر بحفر خندق خارج الفصيل وسلم كل برج إلى أمير يتولى عمله فعمل ولده الأفضل من ناحية باب عمود إلى باب الرحمة.

وأرسل أتابك عز الدين مسعود صاحب الموصل جماعة من الحصاصين ممن له فى قطع الصخر اليد الطولى فعملوا له هناك برجاً وبدنة وكذلك جميع الأمراء.

ثم إن الحجارة قلت عند العمالين فكان صلاح الدين رحمه الله يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة فيقتدى به العسكر فكان يجمع عنده من العمالين فى اليوم الواحد ما يعملونه فى عدة أيام.

وفى العشرين من ذى الحجة عاد الفرنج إلى الرملة وكان سبب عودهم أنهم كانوا ينقلون ما يريدونه من الساحل فلما أبعدوا عنه كان المسلمون يخرجون على من يجلب لهم الميرة فيقطعون الطريق ويغنمون ما معهم.

ثم إن ملك إنجلترا قال لمن معه من الفرنج الشاميين: صوروا لى مدينة القدس فإنى ما رأيتها فصوروها له فرأى الوادى يحيط بها ما عدا موضع يسير من جهة الشمال فسأل عن الوادى وعن عمقه فأخبر أنه عميق وعر المسلك.

فقال: هذه مدينة لا يمكن حصرها ما دام صلاح الدين حياً وكلمة المسلمين مجتمعة لأننا إن نزلنا فى الجانب الذى يلى المدينة سائر الجوانب غير محصورة فيدخل إليهم منها الرجال والذخائر وما يحتاجون إليه وإن نحن افترقنا فنزل بعضنا من جانب الوادى وبعضنا من الجانب الآخر جمع صلاح الدين عسكره وواقع إحدى الطائفتين ولم يمكن الطائفة الأخرى إنجاد أصحابهم لأنهم إن فارقوا مكانهم خرج من بالبلد من المسلمين فغنموا ما فيه[1].

---

(١) الكامل فى التاريخ ـ لابن الأثير.

فشل الحملة الصليبية الثالثة

- انتهاء سنوات الحرب بين الصليبيين وصلاح الدين وفشل ملوك أوربا استرداد القدس.
- إبرام الصلح بين المسلمين والصليبيين على شروط السلطان صلاح الدين ورحيلهم عن بلاد الإسلام عام ٥٨٨ هـ.
- افتراءات البعض عن صلاح الدين وصلح «الرملة».

14

فشل الحملة الصليبية الثالثة وعودتها إلى بلادها بعد عقد صلح طويل الأمد مع صلاح الدين عام ٥٨٨ هـ

فى بداية العام الهجرى ٥٨٨ هـ قام صلاح الدين بإعادة بناء سور القدس وقسم السور بين أولاده وأمرائه وعمل فيه بنفسه وكان يحمل الحجر والناس يقتدون به وكذلك الفقهاء والقراء.

أما الفرنج فكانوا فى غيهم يعدون ناحية عسقلان وما والاها لا يتجاسرون أن يقتربوا من القدس لكثرة الحرس عليها إلا أنهم يقيمون فى حصارها واستردادها واحتلالها.

وفى هذا العام عاد من الأسر الأمير سيف الدين المشطوب نائب السلطان على عكا حين أخذها الصليبيون وقد أفتدى نفسه بخمسين ألف دينار فأعطاه السلطان أكثر مما دفع فى فداء نفسه واستنابه على مدينه نابلس فى شهر شوال من تلك السنة؛ وتوفى يوم الأحد ثالث وعشرين من شوال بالقدس من نفس العام.

وفى شهر ربيع قتل المركيز صاب صاحب صور لعنه الله حيث أرسل ملك الإنجليز ريتشارد قلب الأسد أثنين من الفدائيين التابعين للطائفة الإسماعيلية المتعاونة مع الصليبيين فقتلوه(١).. وهذا ما رجحه ابن كثير فى البداية والنهاية ونفى أن يكون صلاح الدين هو الذى أرسل الفداوية الإسماعيلية لقتله.

وظفر ملك الانجليز ببعض فلول المسلمين فقتلهم وأسر منهم خمسمائة، وثلاثة آلاف بعير والأموال الكثيرة التى تقوى بها جيش الفرنجة مما جعله يصمم على محاصرة مدينة القدس وتعبأ لذلك.

وأرسل السلطان صلاح الدين إلى أمرائه وعقد مجلس شورى الحرب فاستشارهم فأشار بعضهم إلى عقد تحالف عند قبة الصخرة على الموت دفاعاً عن المسجد الأقصى كما فعل الصحابة يوم بيعة الرضوان مع الرسول ﷺ.

---

(١) ذهب ابن الأثير فى الكامل فى التاريخ أن الذى أرسل الفدوية الاسماعيلية لقتل المركيز هو صلاح الدين وهذا خطأ منه ولم يثبت تاريخاً أن يكون ذلك أسلوب صلاح الدين.

فقال لهم السلطان: اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم ،وذراريهم فى ذممكم معلقة، والله عز وجل سائلكم يوم القيامة عنهم، وإن هذا العدو ليس من المسلمين من يلقاه عن العباد والبلاد غيركم.

فإن وليتم والعياذ بالله طوى البلاد وأهلك العباد وأخذ الأموال والأطفال والنساء، وعُبد الصليب فى المساجد، وعزل القرءان منها والصلاة، وكان ذلك كله فى ذممكم.

فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله وأكلتم بيت مال المسلمين لتدفعوا عنهم عدوهم، وتنصروا ضعيفهم فالمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم والسلام.

فقال له الأمير سيف الدين المشطوب: يا مولانا نحن مماليكك وعبيدك وأنت الذى أعطيتنا وكبرتنا وعظمتنا وليس لنا إلا رقابنا ونحن بين يديك والله ما يرجع أحد منا عن نصرك حتى يموت.

وقال جماعة من الأمراء مثل قوله، ففرح السلطان بذلك وطاب قلبه وانصرفوا من بين يديه على ذلك.

ثم بلغه أن بعض الأمراء قالوا: إنا نخاف أن يجرى علينا فى هذا البلد مثل ما جرى على أهل عكا، ثم يأخذون بلاد الإسلام بلداً بلداً والمصلحة أن نلتقيهم بظاهر البلد، فإن هزمناهم أخذنا بقية بلادهم وإن تكن الأخرى سلم العسكر ومضى بحاله ويأخذون القدس وتحفظ بقية بلاد الإسلام مدة طويلة(١).

وأرسلوا إلى السلطان يقولون له: إن كنت تريدنا نقيم بالقدس تحت حصار الفرنج، فكن أنت معنا أو بعض أهلك حتى يكون الجيش تحت أمرك فإن الأكراد لا تطيع الترك، والترك لا تطيع الأكراد.

فاتفق السلطان أن يكون الملك الأمجد صاحب بعلبك مقيماً عندهم نائباً عنه بالقدس.

وصلى السلطان الجمعة فى المسجد الأقصى وابتهل إلى الله تعالى ابتهالاً عظيماً وتفرغ إلى ربه وسأله أن يكشف تلك الغمة الضائقة الشديدة التى أصابت الأمة من الفرنج.

وجاء الفرج من الله تعالى بأن دب الخلاف بين ملك فرنسا وملك الإنجليز فقال ملك فرنسا للملك الإنجليزى: إنا إنما جئنا من البلاد البعيدة وأنفقنا الأموال العديدة فى تخليص بيت المقدس ورده إلينا وقد بقى بيننا وبينه مرحلة.

---

(١) البادية والنهاية ـ مصدر سابق.

فقال ملك الإنجليز: إن هذا البلد شق علينا حصاره، لأن المياه حوله قد عدمت وإلى أن يأتينا الماء من الشُقة البعيدة يحل الحصار ويتلف الجيش.

واتفقنا على أن يحكموا بينهما ثلاثمائة منهم جردوا أمرهم إلى ثلاثة منهم، فباتوا ليلتهم ينظرون ثم أصبحوا وقد حكموا عليهم بالرحيل.

فلم يمكنهم مخالفتهم فتم الانسحاب وعادوا إلى ديارهم خائبين مهزومين ولم يحققوا ما جاءوا من أجله.

وساروا نحو الرملة وطالت عليهم الغربة وبرز لهم السلطان بجيشه خارج القدس وسار نحوهم خوفاً أن يسيروا إلى مصر لكثرة ما معهم من الأموال والجنود والبعير.

وترددت الرسل بين الملك الإنجليزى والسلطان فى طلب الأمان ووضع الحرب بينه وبينهم ثلاث سنين، وعلى أن يعيد لهم عسقلان ويهب لهم كنيسة بيت المقدس وهى القيامة، ويمكن النصارى من زيارتها بلا شىء.

فامتنع السلطان من إعادة عسقلان وأطلق لهم كنيسة القيامة.

فرفض الإنجليز إلا أن تعاد لهم عسقلان ويعمر سورها كما كانت.

ولكن السلطان رفض طلبهم ثم ركب حتى وافى مدينة يافا وحاصرها ثم افتتحها مع الأمان لأهلها.

لكن الملك الإنجليزى هجم عليها من البر فاستعاد البلدة وقتل من بها من المسلمين صبراً[(1)].

وانسحب السلطان بجيشه من الحصار خوفاً على الجيش.

ثم ألح ملك الإنجليز فى الصلح وأن تكون له عسقلان، فرفض السلطان مرة أخرى طلبه.

ثم حدث أن مرض ملك الإنجليز مرضاً شديداً فبعث إلى السلطان يطلب فاكهة وثلجاً فأمده بذلك من باب الكرم.

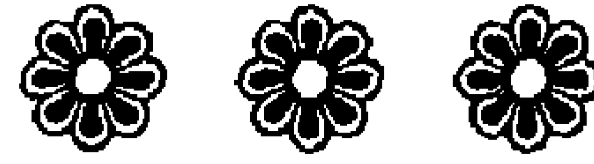
ثم عوفى ملك الإنجليز وبعث إلى السلطان صلاح الدين يطلب الصلح لرغبته فى العودة إلى بلاده وترك المطالبة بعسقلان ورضى بما رسم به السلطان.

وبالفعل تم الصلح بينهما فى سابع عشر من شعبان ٥٨٨ هـ ووقعت الهدنة والحرب ثلاث سنوات وسته أشهر،وعلى أن يقرهن السلطان على ما بأيديهم من البلاد الساحلية

وللمسلمين ما يقابلها من البلاد الجبلية.

وأرسل السلطان مائة نقاب لنقب سور عسقلان وإخراج من بها من الفرنج.

وعاد السلطان إلى القدس وأشرف على عمرانها ثم رحل عنها فى شهر شوال من نفس العام قاصداً دمشق فمر فى طريقه على نابلس فنظر فى أحوالها وجعل يمر على الحصون والبلدان ينظر أحوالها حتى وصل إلى دمشق(٢).



(١) أى فى غير ميدان القتال.

(٢)البداية والنهاية ـ لابن كثير بتصرف.

افتراءات البعض على صلاح الدين وصلح الرملة

ويرى بعض منتقدى صلاح الدين من الشيعة وغيرهم أن الصلح الذى انتهى عليه صلاح الدين مع الصليبيين وعرف بصلح «الرملة» والذى نص على أن يترك صلاح الدين للصليبيين شريطاً من الساحل يمتد من صور إلى يافا وبذلك عادت مملكة بيت المقدس التى انتقلت إلى طرابلس وأصبحت من القوة حتى تمكن ملوكها من إستعادة الساحل حتى بيروت.

ويرون أن معظم المكاسب التى حققها صلاح الدين فيما عدا استعادته لبيت المقدس قد ضاعت[1].

ويقول السيدحسن الأمين فى كتابه «صلاح الدين الأيوبى بين العباسيين والفاطميين والصليبيين»: لم يكد يطمئن إلى النصر الرائع فى تلك المعركة حتى أسرع إلى القيام بعمل لا يكاد الإنسان يصدقه، لولا أنه يقرأ بعينية تفاصيله الواضحة، فيما سجله مؤرخو تلك الحقبة، المؤرخون الذين خدرت عقولهم روائع استرداد القدس، فذهلوا عما بعده.

لم تتخدر أقلامهم فسجلوا الحقائق كما هى وظل تخدير العقول متواصلاً من جيل إلى جيل، تتعامى حتى عما هو كالشمس الطالعة.

حصل بعد حطين أن صلاح الدين آثر الراحة بعد العناء والتسليم بعد النصر فأسرع يطلب إلى الإفرنج إنهاء حالة الحرب وإحلال السلام».

ويرون إنه رضخ لمطالب الصليبيين فتنازل عن المدن التى استردها منهم بالحرب مثل عكا ويافا وحيفا وقيسارية.

والقارئ للتاريخ بعين الإنصاف وبفهم وعمق سياسى ودينى يرى أن ما ذكره المنتقدون لصلاح الدين غير منصفين وقد غلب عليهم التعصب لمذاهبهم العقائدية والسياسية أيضاً.

فالنصر الرائع الذى حققه صلاح الدين من تحرير القدس والمسجد الأقصى من براثن الصليبيين لم يسبق أحد قبله سوى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذى حرره أيضاً من

---

(١) انظر كتاب أطلس تاريخ العالم ـ د. حسين مؤنس.

براثن عباد الصليب الغزاة.

ومن أجل هذا أراد البعض عمداً هدم الصورة التى رسمها المسلمون من أهل السنة للبطل التاريخى الناصر صلاح الدين.

وأما قولهم إن صلاح الدين ركن إلى الراحة بعد العناء وسارع بمهادنة الصليبيين، فهذا قول غير صحيح تماماً.

فالقارئ المنصف لسيرة ومسيرة هذا البطل يرى أنه لم يركن إلى الراحة قط طوال حياته الجهادية منذ أن ملك مصر ثم الشام وأنه أنذر نفسه لتحرير القدس والمسجد الأقصى فكانت سنوات حياته حروبا وفتوحات وانتصارات وهزائم متتالية.

حتى إنه توفى فى العام الذى أعقب صلح الرملة مع الصليبيين حتى إنه لم يستطع أن يحج إلى بيت الله.

ولم يكن لصلاح الدين قصر أو دار يسكنه حتى إنه عزل وكيل الخزانة فى دمشق حين بنى له داراً فى قلعة دمشق كما ذكرنا.

وإذا درسنا وقرأنا السنوات الأخيرة. بل السنة الأخيرة التى أبرم فيها الصلح ٥٨٨ هـ لم نر أنه يتوان عن قتال الصليبيين حتى إن الحرب أجهدت جيشه وجيش الصليبيين وتكرر عرض الصلح من الملك الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد ثلاث مرات.

وقد رفض صلاح الدين شروط الصلح التى عرضها الملك الإنجليزى عليها فرفض إعطاء الصليبيين مدينة عسقلان وقد تم الصلح على شروط صلاح الدين وليس على شروط الملك ريتشارد.

وبالتالى فإن صلاح الدين لم يسع إلى الصلح ولم يهرول له والدين يأمرنا أن نسالم من يسالمنا ومن جنح إلى السلم: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ **(الأنفال: ٦١)**.

وكل ما تركه صلاح الدين للصليبيين تلك المدن الساحلية التى كانوا قد استولوا عليها قديماً ولم يتمكن هو من تحريرها.

إضافة إلى أن الظروف الصعبة التى عاشها صلاح الدين فى العالم الإسلامى المنقسم على نفسه حتى إن أمراءه قالوا له إن الكردى لن يطيع التركى وإن التركى لن يطيع الكردى، وبالتالى فإن الشيعى لن يطيع السنى وهكذا فاستطاع قدر الإمكان توحيد الصفوف تحت قيادته لتحرير المسجد الأقصى ومعظم بلاد الشام المحتلة.

لقد ادعوا كذباً أن صلاح الدين هو الذى سعى إلى الصلح وقد عرضنا ما ذكره المؤرخون مثل ابن كثير فى البداية والنهاية وغيره من أن الملك الإنجليزى بعد انسحاب الملك الفرنسى من التحالف الصليبى هو الذى سعى إلى الصلح مع السلطان صلاح الدين أكثر من مرة وأنه نزل على شروط صلاح الدين.

وقد أورد ابن كثير رحمه الله موقفاً يوضح ما آل إليه الجيش المسلم الذى يقوده صلاح الدين وكذلك الجيش الذى يقوده الملك ريتشارد قلب الأسد فيقول عن أحداث عام ٥٨٨ هـ وهو العام التى تم فيه الصلح:

هذا وملك الإنجليز قد ركب فى أصحابه وأخذ عدة قتاله، وأهبة نزاله، واستعرض الميمنة إلى آخر الميسرة، يعنى ميمنة المسلمين وميسرتهم، فلم يتقدم إليه أحد من الفرسان، ولا نهره بطل من الشجعان فعند ذلك كرَّ السلطان راجعاً وقد أحزنه أنه لم ير من الجيش مطيعاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وأن له بهم قوة لما ترك أحداً منهم يتناول من بين المال خلساً. انتهى كلامه

هكذا وصل الحال بجيش الإسلام فى آخر لقاء بين جيش الملك الإنجليزى الصليبى، فقد خذلوا قائدهم صلاح الدين وأخطروه للانسحاب من المعركة.

وقد تم الصلح بعد هذا الموقف مباشرة بعد أن أصيب الملك بمرض عضال ثم عوفى منه ثم كرر طلب الصلح على شروط صلاح الدين فوافق السلطان.

لقد كان صلح الرملة نصراً للإسلام والمسلمين استقر على أثره بقاء القدس والمسجد الأقصى فى أيدى أصحابه من المسلمين.

ثم جاء من بعد صلاح الدين من أكمل المسيرة التى بدأها مثل السلطان قلاوون والظاهر بيبرس وتحررت بلاد الشام من الاحتلال الصليبى حتى العصر الحديث حيث عاد أهل الصليب واليهود إلى بلاد الإسلام وبالذات فلسطين وبلاد الشام والعراق ووقع المسجد الأقصى أسيراً فى أيدى أخبث خلق الله من اليهود الصهاينة.

رحم الله صلاح الدين رحمة واسعة بما قدم للإسلام والمسلمين فى زمان كان فيه من البعد عن منهج الله وشريعته والتشرذم والتفرق والصراعات الدائمة والاختلاف بين البلدان الإسلامية.

من هو صلاح الدين الأيوبى

- نسبه ونشأته.

- صلاح الدين الأيوبى ينتمى لعائلة عربية أموية سكنت تكريت وتزوجت من الأكراد.

- وفاته فى مستهل عام ٥٨٩ هـ.

15

بطاقة تعريف بسلطان المجاهدين

إنه السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذى.

لقبه الناصر صلاح الدين واسمه يوسف.

سكنت أسرته مدينة تكريت العراقية وبغداد والموصل وهى عدة فروع.

ولد صلاح الدين عام ٥٣٢ هـ فى تكريت.

أقام أبوه وعمه تكر فى تكريت مدة يسيرة بعد ولادته ثم خرجوا منها عام ولادته وقيل فى العام التالى لأنهما أقاما عند عماد الدين زنكى بالموصل ثم انتقلا إلى دمشق لما أخذها عماد الدين زنكى فى أوائل سنة ٥٣٤ هـ وعملا لديه.

وقال أحمد بن خلكان أنهم خرجوا من تكريت فى الليلة التى ولد فيها صلاح الدين فتشاءموا به وتطيروا منه فقال بعضهم لعل فيه الخيرة وما تعلمون.. فكان كما قال والله أعلم.

واستمرت أسرة صلاح الدين، أبوه وعمه فى خدمة عماد الدين زنكى ثم ابنه نور الدين زنكى.

هل كان صلاح الدين عربياً أم كردياً؟

اتفق أهل التاريخ على أن أباه من «دوين» وهى بلدة فى آخر مدينة أذربيجان وأنهم من الأكراد الروادية التى من بطن الهذيانية وهى قبيلة كبيرة من الأكراد.

ويقول أحمد بن خلكان: قال لى رجل فقيه عارف بما يقول وهو من أهل دوين أن على باب دوين قرية يقال لها: «أجدانقان» وجميع أهلها أكراد روادية.

وكان شاذى جد صلاح الدين قد أخذ ولديه أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب وخرج بهما إلى بغداد ومن هناك نزلوا تكريت ومات شاذى بها وعلى قبره قبة داخل البلد.

ويذكر ابن خلكان أن نسب الأيوبيين يرتقى إلى فهد بن نزار بن معد بن عدنان الجد الأعلى للرسول ﷺ.

قال بذلك ابن الجوزى وواصل بن المازنى التميمى وابن خلدون.

وذكر سبط ابن الجوزى[١]: هو شاذى بن مروان بن أيوب بن شاذى بن مروان بن

(١) انظر مرآة الزمان ـ سبط ابن الجوزى حوادث عام ٥٨٩ هـ.

أبى على بن عنترة بن الحسن.. وهكذا إلى معد بن عدنان.

وبالتالى فإن نسبه عربى يرجع إلى الأمويين.

وذكر ابن واصل المازنى التميمى مؤرخ الأيوبيين فى كتابه مفرج الكروب فى دولة بنى أيوب: يوسف بن أيوب بن شاذى بن مروان من أولاد خلفاء بنى أمية أيوب، وأبين نسبه ينتهى إلى العرب وقال: أنكر جماعة من ملوك بنى أيوب النسبة إلى الأكراد فقالوا:

إنما نحن عرب من البيوت الأيوبية فى تكريت نزلنا تكريت وتزوجنا منهم وذكر ابن خلدون نسبه إلى العرب نقلاً عن ابن خلكان بأنهم عرب نزلوا تكريت.

وهناك عائلات منهم فى الموصل.

نشأ صلاح الدين فى الموصل وبعلبك فى كنف والده وبعلم على يد أحد العلماء وهو قطب الدين النيسابورى. ودرس الحديث من الحافظ ابن طاهر السلفى وأبى الطاهر بن عوف فكان فقيهاً شافعى المذهب وكان يحفظ القرآن الكريم.

عمل مع أبيه وعمه فى خدمة نور الدين زنكى صاحب دمشق وحلب والموصل وكلفه بالعمل قائد شرطة دمشق فضبط الأمن بها.

وأرسله نور الدين زنكى مع عمه شيركوه إلى مصر فى الحملات التى أرسلها للاستيلاء عليها، واختاره الخليفة الفاطمى العاضد ليكون الوزير الأول فى مصر بعد وفاة عمه شيركوه بن أيوب ولقبه بالناصر.

عمل صلاح الدين على توحيد مصر وبلاد الشام فى مواجهة الغزو الصليبى وتحرير المسجد الأقصى فنجح فى ذلك.

توفى صلاح الدين عام ٥٨٩ هـ فى العام التالى لإبرامه صلح الرملة مع الملك الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد.

ومن البيوت الأيوبية فى تكريت: عائلة صالح الداود الأيوبى ومنهم بنوش الأيوبى وابنه الدكتور خير الدين الأيوبى وعائلة مهدى صالح الأيوبى وحمدى صالح الأيوبى وعائلة ذبيان معروف الأيوبى وغيرهم.

ونلخص من أقوال المؤرخين أن صلاح الدين الأيوبى عربى النسب سكنت عائلته تكريت وتزوجت من الأكراد ولذلك غلب عليهم أنهم من الأكراد، وأن نسبهم يرجع إلى خلفاء بنى أمية.. والله أعلم.

وفاة سلطان المجاهدين
صلاح الدين الأيوبى

كانت وفاته عام ٥٨٩ هـ أى فى العالم التالى لصلحه مع الصليبيين، وذكرنا أن مولده فى عام سنة ٥٣٢، أى عاش نحو ٥٧ عاماً.

قال ابن كثير رحمه الله فى أحداث عام سنة ٥٨٩ هـ: استهلت هذه السنة وهو فى غاية الصحة والسلامة وخرج هو وأخوه العادل إلى الصيد شرق دمشق.

وقد اتفق الحال بينه وبين أخيه أنه بعدما يفرغ من أمر الفرنج يسير هو إلى بلاد الروم ويبعث أخاه إلى بغداد.

فإذا فرغا من شأنهما سارا جميعاً إلى بلاد أذربيجان بلاد العجم، فإنه ليس دونها أحد يدافع عنها.

فلما قدم الحجيج يوم الاثنين حادى عشر من شهر صفر خرج السلطان لتلقيهم وكان معه ابن أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن فأكرمه والتزمه وعاد إلى القلعة بدمشق فدخلها من باب الحديد فكان ذلك أحر ما ركب فى هذه الدنيا.

ثم إنه اعتراه حمى صفراوية ليلة السبت السادس عشر من صفر، فلما أصبح دخل عليه القاضى الفاضل وابن شداد وابنه الأفضل وطاب له الحديث، وطال مجلسهم عنده.

ثم تزايد به المرض واستمر وقصده الأطباء فى اليوم الرابع ثم اعتراه يبس وحصل له عرق شديد بحيث نفد إلى الأرض.

ثم قوى اليبس فأحضر الأمراء الأكابر فبويع لولده الأفضل نور الدين على وكان نائباً على دمشق وذلك عندما ظهرت مخايل الضعف الشديد وغيبوبة فى الذهن بعض الوقت - أى أصابته الغيبوبة المتقطعة - ثم اشتد به الحال ليلة الأربعاء السابع والعشرين من شهر صفر.

واستأذن الشيخ أبا جعفر إمام الكلاسة ليبيت عنده يقرأ القرآن ويلقنه الشهادة إذا جد الأمر.

فذكر أنه كان يقرأ عنده وهو فى غمرات الموت: قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ

عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ (الحشر: ٢٢).

فقال: وهو كذلك صحيح.

فلما أذن الصبح جاء القاضى الفاضل فدخل عليه وهو فى آخر رمق، فلما قرأ القارئ: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ (التوبة: ١٢٩).

تبسم وتهلل وجهه وأسلم روحه إلى ربه سبحانه وتعالى.

وحزن عليه المسلمون عامة وأهل دمشق خاصة وكأن أهل دمشق لم يصابوا بمثل مصابه وود كل منهم لو فداه بأولاده وأحبابه وأصحابه وأغلقت الأسواق وأعلن الحداد العام فى البلاد.

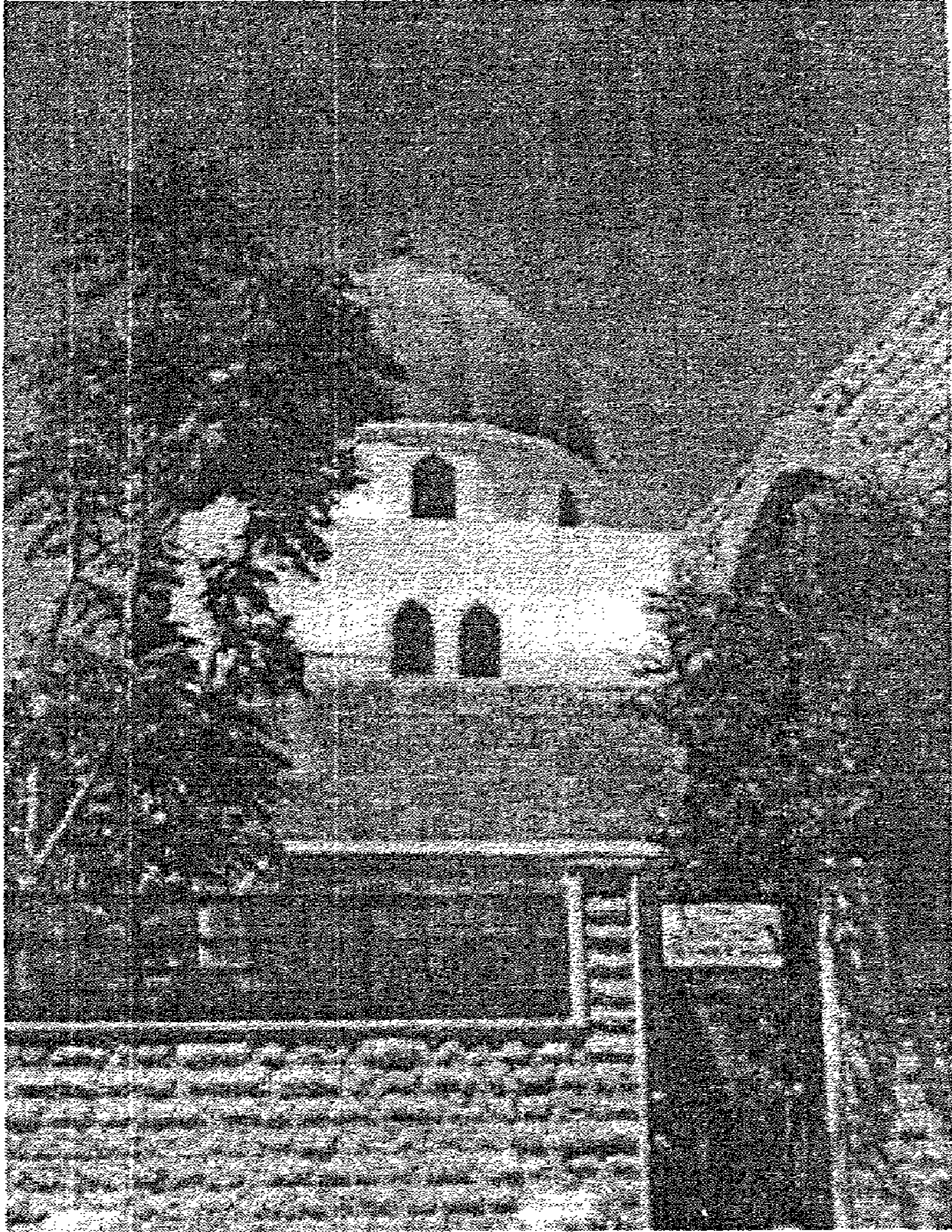
وتولى غسله خطيب دمشق الفقيه الدولعى، ثم أبرز جسمه فى نعشه فى تابوت بعد صلاة الظهر وصلى عليه صلاة الجنازة القاضى ابن الزنكى ثم دفن فى داره بالقلعة المنصورة.

ثم شرع ابنه فى بناء تربة له ومدرسة للشافعية بالقرب من مسجد القدم لوصيته بذلك قديماً فلم يكمل بناؤها.

ثم اشترى ولده الأفضل داراً شمالى الكلاسة فى وزان ما زاده القاضى الفاضل فى الكلاسة فجعلها تربة ونقلت رفاته إليها فى يوم عاشوراء سنة ٥٩٢ رحمه الله تعالى.



صورة قلعة المرقب



ضريح السلطان صلاح الدين بدمشق

مناقب صلاح الدين ممن عاصروه

- تقواه وورعه وتدينه والتزامه بتعاليم الإسلام.
- عدله وكرمه وجوده.
- جهاده فى سبيل الله وشجاعته فى القتال.
- حلمه وعفوه ومروءته.

16

ذكر مناقب السلطان الناصر صلاح الدين في عيون معاصريه وأقرب الناس إليه

وبعد ذكر المسيرة الحافلة لسلطان المجاهدين السلطان صلاح الدين الأيوبى، نذكر ما قاله أقرب المقربين منه مثل عماد الدين الأصفهانى[1] الذى عمل لدى السلطان نور الدين زنكى ثم لازم صلاح الدين فى رحلته وجهاده واكتسب حظوة لديه ولما توفى صلاح الدين لازم عماد الدين الأصفهانى بيته وتفرغ لتصنيف الكتب حتى توفى عام ٥٩٧ هـ.

ومنهم القاضى بهاء الدين المعروف بابن شداد الذى لعب دوراً كبيراً فى الدولة الأيوبية منذ نشأتها وقد عينه صلاح الدين قاضياً لعسكره وللقدس الشريف وظل ملازماً له لا يفارق السلطان صلاح الدين حتى وفاته، وقد ألف فى سيرة صلاح الدين كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، وغيرهما الكثيرون.

وتقتبس مما كتبوه بعض مناقب هذا الرجل الذى صار حلماً يراود الكثير من المسلمين يرجون ظهور مثله مرة أخرى لتحرير الأقصى.

١ ـ ذكر تقواه وورعه وتدينه والتزامه بتعاليم الإسلام:

كان رحمه الله كما جاء فى ذكر مناقبه أنه كان كثير الذكر لله تعالى وكان رحمه الله قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدين النيسابورى رحمه الله عقيدة تجميع جمع إليه فى هذا الباب وكان من شدة حرصه عليها بعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ فى أذهانهم قال القاضى ابن شداد: ورأيته وهو يأخذها عليهم وهم يقرؤونها من حفظهم بين يديه.

وكان محافظاً على الصلوات الخمس المفروضة فى جماعة حتى فى وقت مرضه كان يستدعى الإمام قطب الدين ليصلى به جماعة.

وكان له ركعات يصليها فى الليل وما ترك الصلاة إلا فى الأيام الثلاثة التى غاب فيها عن الوعى فى مرض موته رحمه الله.

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن صفى الدين ولقبه عماد الدين الأصفهانى ولد بأصفهان عام ٥١٩ هـ ـ عام ١١٢٥ م وقد صنف كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى ذكر فيه حروب وسيرة صلاح الدين.

وأما عن فريضة الزكاة فقد استنفدت صدقة النفل ماله وما يملكه ولم يخلف فى خزانته عند موته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً وجراماً واحداً من الذهب ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة.

وكان صوام رمضان محافظاً عليه. أما عن الحج فلم يقدر له حج الفريضة ورغم أنه كان عازماً عليه ناوياً له ولاسيما فى العام الذى توفى فيه بعد أن استقرت الأمور فى البلاد وتم الصلح بينه وبين الصليبيين ولم يستطع الحج قبل ذلك لانشغاله بالجهاد فى سبيل الله.

وكان يحب سماع القرآن من غيره وكان يستقرئ من يحضر من الحفاظ فى الليل وهو فى برجه الجزءين والثلاثة والأربعة.

وكان يقرأ الحديث النبوى بنفسه حتى إن الحافظ الأصفهانى، عماد الدين وهو من المحدثين كان يتردد على الإسكندرية وروى عنه أحاديث كثيرة.

٢ـ ذكر شيئاً عن عدله وكرمه:

قد جاء فى الحديث أن الإمام العادل فى ظل الرحمن يوم القيامة، فقد كان العدل ولا يزال أحد سمات الإمام والحاكم الربانى.

وكان صلاح الدين برحمته يجلس مجلس الحكم بين الناس يستمع إلى شكواهم وقضاياهم وهو ما يسمى مجلس العدل كل يوم اثنين وخميس يحضر هذا المجلس الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح بابه للمتحاكمين فيحكم بينهم بالعدل ويرضى الجميع.

وكان يقرأ على العرائض يرسلها الناس إليه فيقرأها ويرد عليها ولم يرد قاصداً أبداً ولا منتحلاً ولا طالب حاجة.

قال ابن شداد: ولقد كان رؤوفاً بالرعية ناصراً للدين مواظباً على تلاوة القرآن العزيز عالماً بما فيه، لا يعدوه أبداً رحمه الله.

وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته وأخذ قصته.

قال ابن شداد: وقد استغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له: ابن زهير على تقى الدين ابن أخيه فأنفذ إليه ليحضره إلى مجلس الحكم، فما خلصه إلى أن أشهد عليه شاهدين معروفين مقبولى القول أنه وكل القاضى أبا القاسم أمين الدين قاضى حماه فى المخاصمة والمنازعة فحضر الشاهدان، وأقاما الشاهدان عنده فى مجلسه بعد دعوى الوكيل الوكالة الصحيحة وإنكار الخصم.

فلما ثبتت الوكالة أمر أبا القاسم بمساواة الخصم فساواه وكان من خواص السلطان ثم جرت المحاكمة بينهما واتجهت اليمين على تقى الدين، وانقضى المجلس على ذلك.

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل على عدله قضية جرت له مع إنسان تاجر يدعى عمر الخلاطى، وذلك أنى كنت يوماً فى مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل على شيخ تاجر معروف يسمى عمر الخلاطى معه كتاب حكمى سأل فتحه فسألته:

ـ من خصمك؟

فقال: خصمى السلطان وهذا بساط الشرع، وقد سمعنا أنك لا تحابى.

فقلت ـ أى ابن شداد ـ: وفى أى قضية هو خصمك.

فقال: إن سنقر الخلاطى كان مملوكى ولم يزل على ملكى إلى أن مات وكان فى يده أموال عظيمة كلها لى، ومات عنها واستولى عليها السلطان وأنا مطالب بها.

فقلت له: يا شيخ وما أقعدك إلى هذه الغاية؟

فقال: الحقوق لا تبطل بالتأخير وهذا الكتاب الحكمى ينطق بأنه لم يزل فى ملكى إلى أن مات.

فأخذت الكتاب منه وتصفحته فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطى، وتأكدت من صدقه فى دعواه.

فقال ابن شداد له: لا يسعنى سماع الدعوى مع وجود الخصم وأنا أعرفه وأعرفك ما عنده فى ذلك.

فرضى الرجل بذلك واندفع فلما اتفق المثول بين يديه فى بقية ذلك اليوم عرفته القضية فاستبعد ذلك استبعاداً عظيماً وقال:

ـ كنت نظرت فى الكتاب.

والخلاصة أن القاضى ابن شداد نظر القضية حتى تبين له عدم ظلم السلطان للرجل وأن لدى السلطان ما يؤكد أن المملوك كان فى نهاية أمره ملكاً له وأحضر الشهود لذلك، ورغم عدم أحقية الرجل فيما ادعاه إلا أن السلطان الكامل تقدم له بخلعة ونفقة بالغة.

وكان رحمه الله شديد الكرم والجود مع رعيته وأعوانه وكذلك مع أعدائه أيضاً.

وكان يعطى فى وقت الضائقة كما يعطى فى حال السعة وكان يقول:

ـ يمكن أن يكون فى الناس من ينظر إلى المال كمن ينظر إلى التراب.

وكان يقصد نفسه رحمه الله.

٢ ـ جهاده فى سبيل الله وشجاعته فى القتال:

كان من عظماء الشجعان شديد البأس عظيم الثبات فى قتال الأعداء حتى إنه وصل فى ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركباً على مدينة عكا، وهو لايزداد إلا قوة نفس.

وكان إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبى واحد وعلى يده جواد احتياطى يستبقيه ويخرق الصفوف من الميمنة والميسرة ويشجعهم على التقدم والقتال.

وكان يسمع الحديث الشريف بين الصفوف، ولم يزل مصابراً فى قتاله للعدو إلى أن ظهر له ضعف المسلمين.

ولقد كان الجهاد وحبه له قد استولى عليه بحيث ما كان له حديث إلا فيه.

وكان شديد الاهتمام والإنفاق على جنوده وجيشه وقد هجر من محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وكان مسكنه الخيام فى أرض القتال.

ولما فتح الله عليه القدس وصلى فيها العيد وقع له أنه يمضى مع جنوده إلى عسقلان ويودعهم فيها ويمضى على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية إلى عكا ويرتب الأحوال وكان الزمان شتاءً والأمواج عالية فلم يخف ركوب البحر وقتها.

وقال لابن شداد: فى نفسى أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت البحر إلى جزائرهم ـ يقصد الصليبيين ـ أتتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أن أموت(١).

وكان يسعى إلى نيل الشهادة فى سبيل الله فقال للقاضى ابن شداد: أنا أستفتيك:

ما أشرف الميتات؟

فقال ابن شداد: الموت فى سبيل الله.

فقال السلطان: غاية ما فى الباب أن أموت أشرف الميتات.

وكان صبوراً فى أرض المعركة على المرض إذا اعتراه وأصابه، ويقول ابن شداد فى ذلك:

ولقد رأيته بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه، بحيث لا يستطيع الجلوس إلا متكئاً على جانبه إذا كان فى الخيمة

وامتنع عن مدَّ الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس.

وكان يأمر أن يفرق على الناس، وكان مع ذلك إذا نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلباً تعبية القتال.

وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر يطوف على فرق الجيش من العصر إلى صلاة المغرب وهو صابر على شدة الألم من المرض.

ولقد مرض أيضاً والجيش معه فى تل الخروبة جنوب غرب سفرعم شرقى حيفا فبلغ ذلك الصليبيين فخرجوا جمعاً من أن ينالوا من المسلمين شيئاً بسبب مرضه.

فلما خرجوا إليه أمر هو بالتجهز للرحيل إلى جهة الناصرة ثم رحل العدو فى اليوم الثانى فركب على مضض ورتب العسكر للقاء العدو ونزل هو وراء القوم ببعض الجنود وفاجأهم وأسر أحدهم فعرض عليه الإسلام فرفض فأمر بقتله.

وكان كلما ساء العدو يطلب رأس النهر سار هو يستدير وراءهم حتى يقطع بينهم وبين خيامهم وكان يسير ساعة ويستريح ساعة من شدة المرض.

وكان يقدم أولاده بين يديه احتساباً لله كى ينالوا الشهادة فى أرض المعركة فقدم ابنه الظاهر والأفضل والظافر.

قال ابن شداد: ولقد رأيته وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ أو مراهق يسمى إسماعيل، فوقف على الكتاب ولم يعرف أحداً، ولم نعرف حتى سمعناه من غيره ولم يظهر عليه شىء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه.

وقال: ولقد رأيته وقد وصل إليه خبر وفاة تقى الدين عمر - ابن أخيه - ونحن فى مقابلة الفرنج جريدة على الرملة، وفى كل ليلة تقع الصيحة فتقلع الخيام والناس تقف على ظهر الصباح ونحن بالرملة والعدو بيازور بيننا وبينها شوط فرس لا غير.

فأحضر الملك العادل وعلم الدين سليمان بن جندر وسابق الدين بن الداية وعز الدين بن المقدم وأمر الناس فطردوا من قريب الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد زيادة عن غلوة سهم ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكى بكاءً شديداً حتى أبكانا من غير أن نعلم السبب.

ثم قال والعبرة تخنقه: توفى تقى الدين.

فاشتد بكاؤه وبكاء الجماعة.

فلما قال له ابن شداد: استغفروا الله تعالى من هذه الحالة وانظروا أين أنتم وفيم أنتم، وأعرضوا عما سواه.

فقال السلطان: نعم أستغفر الله.

وأخذ يكررها.

٤ ـ ذكر بعض من حلمه وعفوه ومروءته:

قال ابن شداد: ولقد كنت فى خدمته بمرج عيون قبل خروج الإفرنج إلى عكا يسر الله فتحها وكان من عادته أنه يركب فى وقت الركوب، ثم ينزل فيمد الطعام ويأكل مع الناس ثم ينهض إلى خيمة خاصة له ينام فيها.

ثم يستيقظ من منامه ويصلى ويجلس خلوة وأنا فى خدمته نقرأ شيئاً من الحديث أو شيئاً من الفقه.

ولقد قرأ علىَّ كتاباً مختصراً لسليم الرازى يشتمل على الأرباع الأربعة فى الفقه.

ونزل يوماً على عادته ومُدَّ الطعام بين يديه، ثم عزم على النهوض فقيل له: إن وقت الصلاة قد قرب.

فعاد إلى وقال: نصلى ثم ننام.

ثم جلس يتحدث حديث متفجر وقد أخلى المكان إلا ممن لزم، فتقدم إليه مملوك كبير محترم عنده وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين، فقال له: أنا الآن ضجران أخرها ساعة.

فلم يفعل، وقدم القصة إلى قريب من وجهه الكريم بيده، وفتحها بحيث يقرأها فوقف على الاسم المكتوب فى رأسها فعرفه.

فقال: رجل مستحق.

فقال: يوقع له المولى، ها هى.

فقال: ليست الدواة حاضرة الآن.

وكان جالساً فى باب الخيمة الكبيرة بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليها، والدواة فى صدر الخيمة وليس لهذا معنى إلا أمره إياه بإحضار الدواة لا غير.

فالتفت فرأى الدواة فقال: والله لقد صدق. ثم امتد على يده اليسرى ومدَّ يده اليمنى فأحضرها ووقع له.

قال ابن شداد: فقلت: قال الله تعالى فى نبيه ﷺ: «وإنك لعلى خلق عظيم»، وما أرى المولى إلا قد شاركه فى هذا الخلق.

فقال: ما ضرَّنا شيء، قضينا حاجتة وحصل الثواب[1].

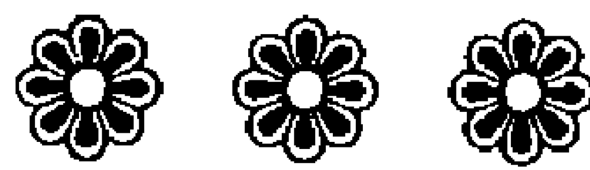
وكان السلطان كثير المروءة ندى الوجه كثير الحياء مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده وما يخاطبه فى شىء إلا وينجزه.

وكان يكرم الوافد عليه وإن كان كافراً حتى إنه ذكر أن البرنس صاحب أنطاكية الصليبى فما أحس إلا وهو واقف على باب خيمته بعد إبرام الصلح فى شهر شوال سنة ٥٨٨ هـ عند منصرفه من القدس إلى دمشق عرض له فى الطريق وطلب منه شيئاً فأعطاه العمق وهى بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل سنة ٥٨٤ هـ.

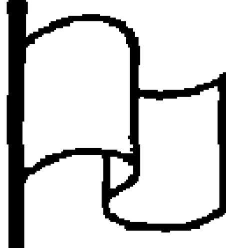
وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل.

وذكر أنه بعد واقعة حطين وأسر ملوك وأمراء الفرنجة وكانوا عطشى أمر لهم بالماء إلا البرنس أرناط لغدره بالمسلمين فى الهدنة وكان قد نذر إن ظفر به ليقتلنه بيده فأوفى بنذره وقتله بيده.

وأخرج الأسرى كلهم من الأسر وعفا عنهم وكانوا أكثر من أربعة آلاف وأعطى كل منهم نفقة مسيره وسفره لبلده.

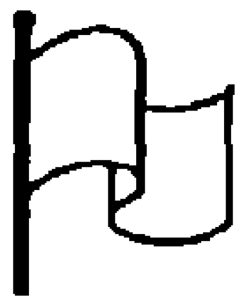


(١) المصدر السابق.



القلعة أهم أعمال صلاح الدين المعمارية

- بناء القلعة فى مصر.
- وصف أسوار القلعة فى مصر.
- قلعة دمشق المسماة قلعة صلاح الدين وتطورها عبر العصور.



17

قلعة صلاح الدين فى مصر
(قلعة الجبل)

القلاع هى الحصون التى كان القدماء يقومون ببنائها حول المدن الهامة كحائط دفاعى، وكانت مقر الحكم أيضاً.

وكان صلاح الدين الأيوبى أول من وضع تصميم جامع لعاصمة يحفظها سور عظيم ثم توج هذا السور العظيم بقلعة عظيمة فى مصر هكذا فعل بالقاهرة، فقام ببناء قلعة تقع على ربوة منفصلة عن جبل المقطم على مشارف القاهرة.

واستخدم فى بنائها أسرى نورمان فى الفترة من سنة ١١٦٧ م حتى سنة ١١٨٣ م وأكمل بناءها أخوه الملك العادل سنة ١٢٠٨ م.

وكان الهدف من بناء تلك القلعة الدفاع عن القاهرة العاصمة والفسطاط ضد الغزو الصليبى المتكرر على مصر.

وقد وفق صلاح الدين فى اختيار مكان القلعة إذ أن بوضعها المرتفع حقق الإشراف على القاهرة إشرافاً تاماً حتى إن حاميتها كانت تستطيع القيام بعمليتين حربيتين فى وقت واحد.

وساعدت فى أحكام قبضة الأمن على القاهرة والتصدى لمحاولات الخروج عن السلطان أو الغزو الخارجى.

ويعتبر السور الذى بناه صلاح الدين حول القاهرة للدفاع عنها من أى غزو أو اعتداء خارجى وهو من المنشآت الحربية المهمة التى أكملت دور القلعة فى العصور الوسطى.

وقد تم اكتشاف السور مؤخراً.

وتم بناء السور بعد تولى صلاح الدين حكم مصر واهتم بعمران المنطقة الواقعة خارج القاهرة الفاطمية بين باب زويلة وجامع أحمد بن طولون وقسمها إلى خطوط عدة بينها خط الدرب الأحمر الذى لايزال يعرف بهذا الاسم حتى الآن «حى الدرب الأحمر»، ويتصدر هذه المنطقة جامع الصالح طلائع بن زريك الذى يعتبر آخر أثر من عصر الفاطميين فى مصر.

وتعتبر تلك القلعة من أفخم القلاع الحربية التى شيدت فى العصور الوسطى لموقعها

الاستراتيجى وقد مرت القلعة بأحداث تاريخية حيث شهدت أسوارها أحداثاً هامة مختلفة خلال العصور الأيوبية والمملوكية وأيام الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م.

وفى عصر محمد على حاكم مصر حيث أعاد لها ازدهارها وعظمتها وبنى جامعه الشهير بها.

وسميت القلعة بقلعة الجبل وعرفت باسم قلعة صلاح الدين.

ومن الأخطاء الشائعة نسبة القلعة إلى محمد على باشا لوجود الجامع الذى بناه وسمى باسمه داخل القلعة وهو من أفخم وأشهر الجوامع وصوره تعبر عن القلعة نفسها.

وظلت القلعة مقراً للحكام المصريين على مر العصور من عهد صلاح الدين حتى عهد الخديوى إسماعيل الذى نقل مقر الحكم إلى داخل القاهرة فى قصر عابدين.

ومن المعالم التاريخية الموجودة فى القلعة حالياً:

- جامع الناصر محمد قلاوون.
- جامع محمد على باشا.
- جامع سليمان باشا الخادم ـ سارية الجبل.
- جامع أحمد كتخدا عزيان ـ جامع العزب.
- قصر الجوهرة.
- دار العزب.
- سراى العدل.
- بئر يوسف.
- قصر الحرم ـ المتحف الحربى.
- ثكنات الجيش المصرى.
- باب العزب.
- دار صناعة القلعة ـ ورش باب العزب.
- مدرسة القلعة الحربية.

كيف اختار صلاح الدين مكان القلعة؟

يقال إن السبب الذى جعل صلاح الدين يختار مكان القلعة على تلك الربوة من جبل المقطم أنه علق قطعة من اللحم بالقاهرة فتغير لونه بعد يوم وليلة.

فعلق لحم حيوان آخر فى موضع بالقلعة فلم يتغير إلا بعد يومين وليلتين.

فأمر حينئذ بإنشاء قلعة من هذا المكان وقام ببناء القلعة وعمارتها وزير صلاح الدين الأمير بهاء الدين قراقوش فقام بهدم المبانى المقامة والمقابر لإقامتها وقام أيضاً ببناء سور القاهرة.

ومن المعالم التاريخية فى القلعة كما ذكرنا مسجد يسمى باسم سليمان باشا الخادم بسارية الجبل وينسب هذا المسجد إلى سارية بن زنيم بن عمرو بن عبد الله الصحابى الشهير المشهور فى عصر عمر بن الخطاب بسارية الجبل وقيل إنه مدفون هناك بسفح جبل المقطم كما أشار إلى ذلك ابن جبير والله أعلم.

وهناك بئر يوسف ﷺ إلا أن المؤرخين قد نسبوها إلى الأمير قراقوش الذى حفرها بأمر صلاح الدين لتوفير المياه اللازمة لمن يسكن القلعة.

ونستعرض أوصاف أسوار القلعة وأبوابها.

أولاً: وصف أسوار القلعة

١ ـ وصف السور الشمالى للقلعة (الساحة الشمالية):

يرجع تاريخ الأسوار الشمالية بداية من عصر صلاح الدين الأيوبى واكتمل بناؤها فى عصر كل من العادل والكامل ولقد شهد عدة إضافات وإصلاحات على مر العصور حتى عصر محمد على باشا.

وتتكون الساحة الشمالية من سور يدعمه عدة أبراج اختلفت أحجامها وأشكالها ما بين نصف دائرية ومربعة إلى جانب أبواب صغيرة وأبواب ذات مداخل منكسرة وأسوارها ضخمة يبلغ سمكها ثلاثة أمتار ويزيد ارتفاعها من الداخل فى المتوسط على عشرة أمتار كما يزيد ارتفاع بعض الأبراج أحياناً على عشرين متراً.

ويتخلل الأسوار ممر يبلغ عرضه ٩٠ سنتيمترا ويؤدى هذا الممر إلى غرف ضيقة مربعة طول كل ضلع منها ٢,٥٠ متراً وارتفاعها ٢,٢٥ متراً.

وقد فتح فى هذا الممر فيما بين الغرف عدة فتحات تطل على الداخل كالنوافذ لإضاءته

أما من الخارج فليس بها فتحات فيما عدا فتحات الغرف وهى التى أعدت على شكل مخروطى لتستخدم كفتحات للسهام أو مزاغل ويبلغ عدد هذه المزاغل فى معظم الغرف إلى ثلاثة.

كما يوجد بالأبراج غرف لكنها مستطيلة وأكبر حجماً حيث يزيد طولها على خمسة أمتار وتفتح فى كل منها غرفتان جانبيتان على هيئة ذراعين وبكل منها منافذ أو مزاغل للسهام.

ويمكن تحديد تاريخ الأسوار والأبراج التى تقع بالساحة الشمالية على النحو التالى:

ينسب إلى صلاح الدين الأيوبى الجزء الطويل من السور الموجود به الأبراج نصف المستديرة والذى يبدأ من الجانب الشرقى لبرج المقطم ويستمر بالجانب الجنوبى والشرقى للسور.

كما يرجع إلى عصر صلاح الدين الأيوبى أيضاً الجزء الداخلى من برج القرافة.

وباب المدرج وكذلك السور الذى يبدأ منه فى اتجاه الجنوب مشتملاً على الجزء الخلفى للبرج نصف المستدير بين الباب المدرج والباب الأوسط، «أى السور الذى بناه صلاح الدين الأيوبى كان متكاملاً وقوياً مما جعله باقياً حتى الآن».

كما ينسب إلى العادل أخى صلاح الدين الأيوبى الذى أتم أعماله بالقلعة سنة ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٨ ـ ١٦ م الأبراج الثلاثة الكبيرة بالضلع الجنوبى وهى برج الصفة وبرج كركيلان وبرج الطرفة، وكذلك الزيادات الموجودة بباب القرافة وهو الجزء الخارجى لبرج الرملة والحداد بالركن الشمالى الغربى للسور.

كما ينسب إلى جانبلاط وطومان باى فى سنة ٩٠٦ هـ/ ١٥٠١ م الكوة الخارجية المضافة إلى الواجهة الجنوبية ابتداء من برج الصحراء إلى الغرب وكذلك سد باب القرافة.

أما برج المقطم فيرجع تاريخه ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادى وينسب إلى تركى مجهول، كما ينسب إليه أيضاً البرجان المتعددان الأضلاع اللذان يحيطان ببوابة القلعة والبرج الذى يقع فى الركن الشمالى الغربى المستدير وجدار من السور الذى يربطه بباب المدرج وكوة ذلك الباب وإعادة كوة جزء من الحائط المتجه منه إلى الجنوب.

٢ ـ وصف السور الجنوبى

مرت أسوار القسم الجنوبى أو الساحة الجنوبية بعدة مراحل تمثل عصوراً تاريخية مختلفة غير معروفة حيث لم تتحدث عنها المصادر سواء العربية أو الأجنبية إلا أننا من الممكن

تتبع التخطيط المعمارى لأسوار القسم الجنوبى حيث نلاحظ أولاً من خلال عمل مقارنة بين كل من أسوار القسم الشمالى والقسم الجنوبى أنه بينما تستند أسوار القسم الشمالى أو الساحة الشمالية على عدة أبراج نجد أن أسوار القسم الجنوبى أو الساحة الجنوبية تكاد تمتد على هيئة ستارة لا تعترضها أبراج كما نلاحظ أن الأسوار الجنوبية مرت بعدة مراحل تاريخية جعلت من الصعب تحديدها.

حيث إن محمد على باشا عندما قام بتجديد أسوار القلعة وبخاصة السور الجنوبى لم يقم فقط بتجديد أجزاء من السور الجنوبى وإنما بناء السور كله ماعدا ثلاثة أبراج تقع بجوار باب الجبل أو بوابة صلاح سالم حالياً من جديد على نفس المستوى الذى كانت تسير به الأسوار مع تعليته وإضافة فتحات مدافع وفتحات مزاغل للبنادق لتتناسب مع تطور أساليب الدفاع فى القرن التاسع عشر الميلادى.

أما من ناحية التخطيط المعمارى لأسوار القسم الجنوبى فإننا نجد أنها تنقسم إلى قسمين رئيسيين على النحو التالى:

القسم الأول من السور الجنوبى:

وهو علوى يبدأ من خلف جامع محمد على باشا بمحاذاة بقايا قصر الأبلق وبرج الرفرف ليحيط بالدرب السلطانى هبوطاً ثم يرتفع مرة أخرى ليحيط بباقى الدرب السلطانى وترسانة القلعة أو ورش باب العزب لينتهى عند الباب الوسطانى.

وهذا السور لم يكن موجوداً من قبل وإنما من الواضح أن محمد على باشا قد أضافه حيث يستدل على عدم وجوده من خلال لوحة يرجع تاريخها إلى سنة ١٧٩٨م حيث يظهر باللوحة الثلاثة الأبراج التى بناها الناصر محمد بن قلاوون.

كما يتضح أيضاً باللوحة أن هذا الجزء من السور لم تكن به سوى أربع فتحات دفاعية فقط كما أن ارتفاعه لم يكن كبيراً.

ثم بدا السور بعد ذلك فى الهبوط من عند منطقة عرب اليسار خلف قبة فارس الدين أقطاى أثر رقم ٣٧٠ ليسير ممتداً إلى ميدان القلعة ومصطبة المحمل وكوشك الخديوى قديماً وجامع محمد باشا أثر رقم ٢٧٧ وهو ما يعرف باسم القسم السفلى للقلعة.

وقد جدد هذا الجزء من السور الخديوى إسماعيل الذى قام بتجديد باب العزب والمنطقة المحيطة به عام ١٨٦٨ م.

وكذلك تجديد أسوار القلعة المطلة على ميدان القلعة حالياً.

ثم يبدأ السور الجنوبي فى الصعود مرة أخرى بعد باب العزب لطريق سكة المحجر ومنطقة الحطابة مروراً بزاوية حسن الرومى أثر رقم ٢٥٨ ودار المحفوظات الجديدة ويستمر فى الصعود إلى أن يصل إلى دار المحفوظات القديمة أو دفتر خانة القلعة التى أنشأها محمد على باشا أثر رقم ٦٠٥.

وهذا الجزء من السور يؤدى إلى ترسانة القلعة أو ورش باب العزب.

وقد قام معمار محمد على باشا ببناء هذا السور وليس تجديده فقط وإضافة عدة فتحات لإطلاق نيران البنادق وكذلك إضافة كرانيش حجرية مائلة تسير مع السور كما قام المعمار أيضاً بإضافة مدخلين كانا يوصلان إلى ترسانة القلعة المدخل الأول.

ويقع بجوار زاوية حسن الرومى حيث نجد حائطين يبدآن بدعامتين حجرتين يوصلان إلى سلالم حجرية تؤدى إلى بوابة يتوصل منها إلى ترسانة القلعة.

أما المدخل الثانى فإنه يقع خلف دار المحفوظات التى أنشأها محمد على باشا.

وكان هذا الباب يوصل قديماً إلى باب كان يعرف باسم باب الانكشارية سد وبطل استخدامه فى عصر محمد على باشا الذى بنى بدلاً منه الباب الجديد.

ثم يستمر السور فى الصعود حتى يصل إلى الباب الجديد الذى يستر الباب المدرج الذى بناه الناصر صلاح الدين الأيوبى أمام الزاوية الشمالية الغربية للسور الشمالى ومنه إلى البوابة الوسطانية لنجد أنفسنا مرة أخرى داخل القلعة أو الساحة الجنوبية للقلعة.

ثانياً - وصف أبواب القلعة

١ - باب الجبل:

عرف هذا الباب باسم باب المقطم لمجاورته لبرج المقطم الذى يرجع تاريخه إلى العصر العثمانى.

كما عرف هذا الباب باسم باب الجبل لإشرافه على باب جبل المقطم أما حالياً فإنه يعرف باسم بوابة صلاح سالم.

وقد سد هذا الباب فى فترة من الفترات وكان عبارة عن فتحة مستطيلة عملت فى حائط سميك جداً فى اتجاه الجنوب من برج المقطم.

وقد أضيف لهذا الباب سنة ١٢٠٠ هـ ـ ١٧٨٥ م سور ذو شرافات ترجع إلى عصر محمد يكن باشا الذى بنى فى هذا المكان الذى كان خالياً فى ذلك الوقت قصراً مع ما يتبعه من مرافق.

وكان يوجد على هذا الباب لوحة تذكارية تحمل نصاً تأسيسياً باللغة التركية باسم يكن باشا وتاريخ بناء الباب والقصر سنة ١٢٠٠ هـ/ ١٧٨٥ م ضاعت حالياً.

وعندما تولى محمد على باشا الحكم وقام بعمل تجديدات بالقلعة قام بتمهيد طريق من باب الجبل إلى قلعته بالمقطم وإضافة الزلاقة الصاعدة إلى أعلى جبل المقطم.

وكان طول هذا الطريق حوالى ٦٥٠ متراً أما حالياً فقد تم شق هذا الطريق وقطعه بطريق صلاح سالم وطريق سكة حديد مصر حلوان وطريق الأوتوستراد.

ولقد ضاعت معالم هذا الباب كما تم هدم جزء كبير من السور والشرافات التى كانت تعلوه.

كما تم هدم جزء كبير من السلالم التى كانت توصل إلى أعلى السور الشمالى وبرج المقطم عند شق طريق صلاح سالم سنة ١٩٥٥ م.

وفتح الباب الحالى الذى يدخل منه للقلعة من جهة صلاح سالم والمجاور للباب الذى قام ببنائه محمد يكن باشا.

هذا وقد قام المجلس الأعلى للآثار بإعادة فتح هذا الباب ليتناسب مع مكانته التاريخية والحضارية.

٢ ـ الباب الجديد:

بدأ محمد على باشا فى بناء الباب الجديد سنة ١٢٤٢ هـ/ ١٨٢٧ م ليستخدم بدلاً من الباب المدرج والذى كان الباب العمومى للقلعة الذى أنشأه الناصر صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٧٩ هـ/ ١١٨٣ م.

فلقد رأى محمد على باشا أن كلا من الباب المدرج وباب الانكشارية لا يصلحان لمرور العربات والمدافع ذات العجل فبنى بدلاً منها الباب الجديد ومهد له طريقاً منحدرة لتسهيل الصعود إلى القلعة والنزول منها.

وهذا الطريق يعرف اليوم باسم شارع الباب الجديد أو سكة المحجر.

ويتكون التخطيط المعمارى للباب الجديد من بناء مستطيل الشكل ويتكون من طابقين

يقع بهما عدة حجرات وله بابان رئيسيان ويستر هذا البناء الباب المدرج كما عرف الباب الجديد باسم الباب العمومى.

كما عرف أيضاً باسم الباب البحرى للقلعة.

وللباب الجديد واجهتان رئيسيتان الأولى وهى الشمالية وتطل على شارع الباب الجديد وسكة المحجر.

ويقع فى الناحية الغربية منها دار المحفوظات القديمة دفتر خانة القلعة وباب الانكشارية وطول هذه الواجهة ١٥,٥٠ متر وارتفاعها متغير.

حيث يتراوح ما بين ١٦ متراً إلى ٢٠ متراً وتحتوى هذه الواجهة على عدة تفاصيل معمارية مميزة ويتوسطها كتلة المدخل التى يعلوها لوحة تذكارية كتب بداخلها بالخط الرقعة البارز على أرضية من فروع نباتية «يا مفتح الأبواب» وأسفل هذه الكتابة إطار زخرفى كتب بداخله «راقمه عبد الغفار».

ويقع فى كوشتى كتلة المدخل جامة دائرية قطرها ١٢٣ سنتيمتراً زخرف داخلها برموز الجيش المصرى ووحداته وأسلحته المختلفة فى عهد محمد على باشا.

أما الواجهة الرئيسية الثانية للباب الجديد فهى الواجهة الجنوبية وطولها ١٩,٩٠ متراً وارتفاعها متغير أيضاً.

حيث يتراوح ما بين ٨,٨٠ متراً إلى ١٤ متراً.

وتطل هذه الواجهة من الناحية الجنوبية الغربية على ترسانة القلعة أو ورش باب العزب.

ومن الناحية الجنوبية الشرقية على الباب المدرج وجزء من الأسوار الشمالية وتتوسط هذه الواجهة أيضاً كتلة المدخل التى يعلوها لوحة تذكارية كتب بداخلها بالخط الرقعة «افتح لنا خير الباب».

وتمثل هذه اللوحة باقى الكتابة الموجودة بالواجهة الشمالية.

٣ ـ الباب الوسطانى:

اختلف فى تسمية هذا الباب بالوسطانى ففى حين ذكر كازانوفا فى كتابه الذى ألفه ١٨٩٤ م عن قلعة القاهرة أو قلعة الجبل أنه سمى بالوسطانى نظراً لأنه يتوسط الديوانين بالحوش السلطانى وهما ديوان قايتباى وديوان الغورى.

ذكر بعض الباحثين أنه عرف بالوسطانى لأنه كان يفصل ما بين دهليز القلعة العمومى البحرى وبين الحوش الذى يقع فيه جامع الناصر محمد بن قلاوون وجامع محمد على باشا وقد عرف هذا البرج باسم برج الطبالين نظراً لوقوعه بجوار دار العدل التى أنشأها الظاهر بيبرس والتى أهمل أمرها فى عهد المنصور قلاوون إلى أن جدد عمارتها ابنه الناصر محمد بن قلاوون لا لتكون داراً للعدل وإنما لتكون لقارعى الطبول.

وسميت طبلخانة ولذا سمى هذا البرج باسم برج الطبالين لوجوده على مقربة من الطبلخانة.

ولقد قام محمد على باشا بتجديد هذا الباب والسور الذى يحيط به وإن كان غير معروف تاريخ تجديد الباب الوسطانى نظراً لعدم وجود نص تأسيسى أو لوحة تذكارية به إلا أنه من المرجح أنه قد قام بتجديده سنة ١٢٤٢ هـ/ ١٨٢٦ م عند تجديده لباب القلعة المجاور للباب الوسطانى فى الناحية الشرقية.

ويتكون التخطيط المعمارى العام للباب الوسطانى من سور يبدأ من الناحية الغربية من ناحية ترسانة القلعة وينتهى ببرج الطبالين فى الناحية الشرقية.

ولهذا الباب واجهتان رئيسيتان الأولى وهى الواجهة الشمالية وتطل على الساحة التى تلى الباب الجديد.

ويجاورها من الناحية الشمالية الغربية ترسانة القلعة ومن الناحية الجنوبية الشرقية للحائط الشمالى الغربى للساحة الشمالية ومدرسة المهندسخانة الملكية التى يرجع تاريخها إلى عصر محمد على باشا.

أما الواجة الجنوبية فإنها تطل على ما كان يعرف باسم ساحة العلم وطولها أكثر من ٤٥ متراً أما ارتفاعها فمتغير حيث يتراوح ما بين ٩,٤٠ متراً إلى ١٤,٣٥ متراً.

٤ ـ الباب الداخلى (باب برج القلة):

كان يعرف الباب الداخلى للقلعة بباب برج القلة.

وكان هذا الباب يفصل بين قلعة الجبل أو المدينة العسكرية المحصنة فى الشمال وبين القلعة والمدينة السلطانية فى الجنوب أما حالياً فإنه يعرف باسم بوابة المتحف الحربى.

يواجه باب القلعة جامع الناصر محمد بن قلاوون ٧٣٥ هـ/ ١٣٣٥ م كما يقع فى الجنوب الشرقى منه بئر يوسف أو البئر الحلزونية.

كما يجاور القلة فى الناحية الشرقية برج المقطم ومن الناحية الغربية برج الطبالين والباب الوسطانى.

وقد ورد اسم هذا الباب فى خريطة الحملة الفرنسية باسم «برج خزنة القلة» والقلة فى اللغة معناها البرج القائم بمفرده.

وكان هذا البرج قد بناه الظاهر بيبرس وهدمه المنصور قلاوون وبنى مكانه قبة فى الرحبة التى تقع بين باب سارية أو الباب المدرج وباب القرافة خلف المتحف الحربى حالياً.

حيث كان يتوصل من هذه الساحة إلى دركاة كان يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول.

وكان فى وسط هذه الدركاة باب القلة الذى كان يدخل منه فى دهليز فسيح إلى المدينة السلطانية وجامع الناصر محمد بن قلاوون.

كما كان يوجد بباب القلة مصاطب يجتمع بها المماليك لينتظموا تحت قيادة الأمراء فى أيام المواكب والاحتفالات والأعياد.

ولقد كان باب القلة فى يوم من الأيام من الأهمية بحيث أصبح الباب الثانى بعد باب المدرج لأن باب السر كان لا يستخدم إلا نادراً.

وكان باب القرافة المواجه لباب المدرج والذى يطل على جبل المقطم من الناحية الشرقية قد أهمل أمره منذ القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادى.

هذا وكان باب القلة والذى يعرف باسم «والى باب القلة» وكان مسئولاً عن فتحه وغلقه ومراقبة حراسه.

وقد أمكن التعرف على شكل باب القلة من خلال لوحة قديمة مؤرخة بسنة ١٧٩٨ م يظهر بها الواجهة الشمالية لباب القلة والساحة التى تتقدمها حيث يلاحظ بهذه اللوحة أن أرضية الساحة التى تلى باب القلة منخفضة إلى حد كبير عن الآن.

وكان يتوصل من هذه الساحة إلى ربوة أعلى تطل بسور حجرى على باب القلة كما يلاحظ باللوحة.

أيضاً أنه يوجد ناحية برج المقطم الذى يجاور باب القلة سور آخر حجرى بشرافات قسمت القسم الشمالى من القلعة أو الحصن إلى قسمين.

القسم الأول وهو المساحة التى تلى باب القلة وكان يقع بها برج المقطم والذى كان يعرف

أيضاً باسم برج الانكشارية وبرج خزنة قلة الذى يواجه مبان إدارية.

أما القسم الثانى فهو طباق الانكشارية وجامع سارية الجبل أو سليمان باشا الخادم.

وقد اندثر برج القلة والباب الذى عرف باسمه ولقد قام محمد على باشا ببناء باب جديد فى نفس موقع باب القلة القديم سنة ١٢٤٢ هـ/ ١٨٢٦ م على نفس طراز أبواب القلعة التى بناها مع عمل بعض التعديلات والتغييرات فى الساحة الشمالية للقلعة.

ويرتبط باب القلة بالباب الوسطانى من خلال واجهة واحدة هى الواجهة الجنوبية وطولها ١٤٤,٥٠ متر.

ويتكون التخطيط المعمارى العام لباب القلة من بناء مستطيل الشكل له واجهتان رئيسيتان يتوسطهما فتحتان تؤدى الجنوبية منهما إلى ما يعرف باسم الساحة الجنوبية التى كانت تعرف قديماً باسم المدينة الملكية ويكتنف المدخل الجنوبى برجان مثمنان الأضلاع عرضهما ١٥,١٥ متر كانا موجودين قبل تجديد محمد على باشا لباب القلة.

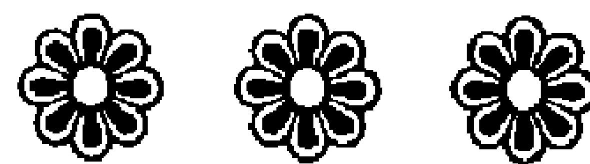
ويعلو المدخل لوحة تذكارية باللغة التركية ترجمتها:

فلتغلق عين العدو السيئ النية كلما فتح باب الزغرة وليبارك الله بانياه بحق سورة طه وياسين ١٢٤٢ هـ.

أما الواجهة الشمالية فإنه يحدها من الناحية الغربية ما كان يعرف باسم مدرسة الدرسخانة الملكية أو ديوان عام المدارس فى عصر محمد على باشا.

ومن الناحية الشرقية برج المقطم ومدرسة القلعة الحزبية فى عصر محمد على باشا أيضاً.

وتطل هذه الواجهة على الحديقة المتحفية الخاصة بالمتحف الحربى القومى، هذا ويتكون باب القلة من طابقين.



قلعة صلاح الدين فى دمشق

كانت تسمى لزمن غير قصير بقلعة السون، وأصبحت اليوم تحمل اسم قلعة صلاح الدين الأيوبى تيمناً بذكرى القائد العربى صلاح الدين.

تقع قلعة صلاح الدين على بعد كيلو متر فى سورية شرقى مدينة اللاذقية قرب قرية الحفة منتصبة على ارتفاع ٤١٠ م، عن سطح البحر فوق قمة صخرية ممتدة طولاً ومؤطرة بواديين عميقين الغور يجرى فيهما سيلان يجتمعان سوية تحت قسمها الغربى.

وهى فى منظرها العام أشبه ما تكون بمثلث متساوى الساقين متطاول الشكل ترتكز قاعدته فى الجهة الشرقية ويبلغ طولها ٧٤٠ م أما مساحته فتزيد عن ٥ هكتار.

تنقسم القلعة إلى قسمين متميزين عن بعضهما البعض.

قسم شرقى مرتفع فيه أغلب التحصينات الهامة وقسم غربى ينخفض انخفاضاً ظاهراً عن القسم السابق وإلى الشرق من القسم المرتفع عند هضبة مسطحة كانت متصلة بادئ الأمر بالرأس الصخرى الذى نهضت القلعة من فوقه ثم فصلت عنه بخندق نحت فى الصخرة.

وقد حظيت بإعجاب العلماء فقيل فيها بأنها ربما كانت أجمل نموذج لفن العمارة العسكرية فى سوريا وأن أطلالها ربما تكون من أكثر ما خلفته «سوريا القرون الوسطى» إثارة للدهشة.

إنها أكبر القلاع التى بناها الصليبيون مساحة زد على أنها أجمل شاهد لدينا على الفن العسكرى الفرنسى فى القرن الثانى عشر.

فلا تجد فى أى مكان آخر عمارة من ذلك العصر تضاهيها قوة، وإنشاء يضاهيها كمالاً فى حسن التنفيذ مرت القلعة فى القرون الوسطى بأحداث مهمة كانت مسرحاً لها.

وصدرت دراستان هامتان عنها باعتبارها من فن العمارة الصليبية، فرفع أحد المهندسين الفرنسيين وضعها الراهن عام ١٩٢٩ م.

تم ترميم بوابة الحمام العربى (الغربى) ورممت بذلك بعض الأبنية كما استخرجت بعض الإنشاءات العمرانية الأخرى التى كانت مطمورة، ومنذ عام ١٩٦٦م. والمديرية العامة للآثار والمتاحف تقوم بأعمال الترميم والصيانة[١].

(١) موسوعة ويكيبيديا ـ الموسوعة الحرة ـ شبكة الإنترنت.

تاريخ القلعة عبر العصور:

كانت تابعة لسلطة جزيرة أرواد فى عهد اليونان.

وفى القرن الرابع ق. م، سلم ابن ملك أرواد للمنتصر المكدونى المسمى سيفون وهو أول من اقترح اعتبار اسم سيفون مصدر الاسم الذى حملته قلعتنا خلال القرون الوسطى.

حيث أن الإغريق لم يكونوا يلفظون جرف الجيم عند وصول العرب.

والوحيد من المؤرخين العرب الذى ذكرها معرباً هو «أبو الفداء» وقد كتبه صهيون بفتح الصاد وسكون الهاء وضم الياء وسكون الواو وما يتوفر لدينا الآن من معلومات لا يسمح بأى ربط مع الأرض المقدسة (القدس) التى ذكرها ياقوت الحموى.

إلا أن التاريخ يشير إلى أن سيف الدولة الحمدانى استولى على قلعة صهيون واتخذ منها حصناً من حصونه.

فى عهد الاحتلال البيزنطى من ٩٧٥ حتى ١١٠٨: يروى التاريخ أن الإمبراطور ابن الشمشقيق اجتاح سوريا عام ٩٧٥ م، ودانت له مدينة صهيون وبقيت القلعة بيد البيزنطيين حتى قدوم الفرنجة إلى اللاذقية حيث مكثوا فيها حوالى مائة وعشرين عاماً وتركزت تحصيناتهم فى القسم الشرقى من القلعة.

فكانت البيزنطية والأسوار المحيطة تشمل مجمل رأس الصخرى ومنازل السكن فى القسم الغربى المنخفض حيث كانت القلعة على اتصال مع الهضبة.

وفى عهد الاحتلال الفرنجى: احتل الفرنجة اللاذقية عام ١١٠٨ م، وربما تم الاستيلاء على القلعة حينها.

وفى العام الواقع فى ١١١٩ م، كان الاحتلال قد وقع وهو تاريخ وفاة الحاكم الذى لقب بصاحب صهيون واسمه «روبير بن فولك».

وتعود قلعة صهيون فى حقيقة الأمر إلى القلاع الإقطاعية التى يرجع تاريخها إلى بداية الاحتلال الغربى(١).

ويقول فيها أحد المؤرخين (يبدو أن صهيون كانت من أهم القلاع العسكرية التى بناها الفرنجة مع بداية احتلالهم للبلاد حيث قلعة الحصن لم تكن سوى برج بسيط بالمقارنة مع قلعة صهيون المنيعة).

وفى عودة للخريطة يتبين لنا أن حصننا هذا كان من أبرز معالمه موقعه الجبلى الشديد الوعورة فقد

---

(١) المصدر السابق.

كان فى منأى عن طريق المواصلات حيث يوفر له ذلك الحماية إلا أنه لا يساعده على أن يلعب دوراً هاماً إذا ما هدد المنطقة خطر ما.

وبقى الفرنج فى صهيون نحو ثمانين عاماً حافظت القلعة على مناعتها وقوتها حتى نهاية عهدهم.

وقد وصفها ابن شداد الذى كان يصحب السلطان صلاح الدين عند تحريرها فقال «وهى قلعة حصينة منيعة فى طرف جبل خنادقها أودية هائلة واسعة عظيمة، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد مقدار طوله ـ ٦٠ ـ ذراعاً أو أكثر وهو نقر فى الحجر ولها ثلاثة أسوار سوران دون القلعة وسور القلعة».

أما عماد الدين الأصفهانى فيقول «إنها قلعة على ذروة جبل فى مجتمع واديين محيطين بها من جانبين والجانب الجبلى قد قطع بخندق عميق وسور وثيق والقلعة ذات أسوار خمسة وكأنها خمسة هضاب».

وفى عهد صلاح الدين تم تحرير القلعة فى ٢٦ ـ ٢٩ تموز عام ١١٨٨ م حيث بدأ صلاح الدين حملته الكبرى ضد الصليبيين عام ١١٨٧ م.

فغادر مصر واحتل فلسطين وتغلغل فى سوريا ووصل طرطوس فى تموز.

ثم اتجه السلطان صلاح الدين على رأس جيشه باتجاه القلعة يرافقه فى تلك الحملة ابنه ـ الظاهر غازى ـ وجيشه.

كتب عنها المؤرخون الذين صحبوه فقالوا: «وأخذنا على سمت صهيون وهو حصن يفوق الحصون وطلبناه كما يطلب الدائن المديون، وكان الطريق إليه فى أودية وشعاب ومنافذ صعاب ومضائق غير رحاب وأوعاث وأوغار وأنجار وأغوار، وقطعنا تلك الطريق فى يومين ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين وخيمنا على صهيون ليلة الثلاثاء».

وعلى الأغلب وصل الجيشان إلى الهضبة الشرقية المعروفة بجبل التون.

وقامت عناصر استطلاعية باطلاعها على الواجهة الجنوبية فاستحسن القائد وابنه دخول القلعة من الواجهة الشمالية للقسم الغربى.

فالوادى هناك قليل الإنحدار والصعود منه أسهل من أى مكان آخر والسور لم يكن من الضخامة بحيث لا يمكن اختراقه.

وهو بالإضافة لذلك خالى من الأبراج الدفاعية فى جزئه الأكبر.

فكان أن قاد الملك الظاهر الهجوم من هذه الجهة ولإشغال أكبر عدد من رجال الحامية

الصليبية نصب السلطان منجنيقاته على الهضبة الشرقية.

فى حين نصب الملك الظاهر منجنيقانين فقط على الواجهة الشمالية للقسم الغربى حيث نزل إلى المكان الضيق من الوادى ونصب عليه المنجنيقات فرمى الحصن منه.

والمنجنيق آلة حربية سادت فى القرون الوسطى.

واستعملت لرمى الحجارة عن بعد إلى مسافة تزيد عن الألف متر، ويصل وزن بعض الحجارة إلى ٣٠٠ كجم. مما سبب أضراراً كبيرة بالسور فى ذلك الموضع.

ودامت المعركة يومى الأربعاء والخميس.

وكان الهجوم العام للمسلمين يوم الجمعة حيث حررت القلعة وسلم حصن صهيون بجميع أعماله وسائر ما حواه من ذخائر وأموال إلى الأمير «ناصر الدين منكورس» ـ أسد العرين ـ وأمير المجاهدين كما وصفه عماد الدين الذى حصن صهيون وجعله من أحسن الحصون.

وبعد وفاة صلاح الدين أعلن ولاءه لابن صلاح الدين على أن تبقى صهيون له، وكان له علاقاته مع الدول الخارجية.

وتتالت خلافة أولاد منكورس بعد موته على الحكم فى القلعة إلى أن سلمت للمماليك بعد تصديهم للمغول فى معركة عين جالوت[1].

فى عهد المماليك:

تسلم الظاهر بيبرس المملوكى القلعة فى عام ١٢٧٢ م.

وعندما أصبح الملك قلاوون سلطاناً على القاهرة تمرد عليه نائب السلطان بدمشق سنقر الأشقر ودعا الأمراء فى دمشق لطاعته فأجابوه وتلقب بالملك الكامل وحصل على تأييد باقى البلاد ومنها صهيون.

وعندما احتدمت الأمور بينه وبين «قلاوون» لجأ إلى صهيون وحاول كسب تأييد المغول ضد قلاوون إلا أنه لم يتحالف رسمياً معهم واكتفى برسالة تشجعهم على القدوم.

فكان الهجوم المغولى من قبلهم عام ١٢٨٠ م.

ولكنه عاد ووقف إلى جانب قلاوون لرد المغول باعتبارهم العدو المشترك، وكان الصلح

---

(١) المصدر السابق.

بينهما عام ١٢٨١ م.

حيث تنازل سنقر مقابل بعض الإمارات الشمالية عن قلعة شيزر وبقيت السلطة الشرعية بيد قلاوون.

وعند الهجوم الجديد للتتر، اجتمع السلطان «قلاوون» و «سنقر» بحمص لرد الخطر المشترك فى ذلك الوقت علم قلاوون بمحاولة شنقر لفت انتباه التتر برسالته القديمة فتكدر ما كان بينهما من صفاء، وحاول قلاوون احتلال صهيون إلى أن أشرف على أخذ الحصن عنوة.

وكان أن سلمها سنقر دون قتال واستقبله السلطان وأولاده فى مصر وتصافيا وأغدق عليه من عطاياه وأضحى أحد أكابر أمراء الدولة.

وبعد ذلك تبعت ولاية طرابلس عند إحداثها.

وسكن العرب القلعة منذ عهد منكورس ورممت فى عهد سنقر.

ثم فى عهد نواب قلاوون ومن جاء بعدهم ووصفها أبو الفدا فى القرن الرابع عشر فى النصف الأول منه قائلاً (ومدينة صهيون بلدة ذات قلعة حصينة لاترام من مشاهير معاقل الشام وبقلعتها المياه كثيرة متيسرة من الأمطار وهى على صخر أصم وبالقرب منها وادٍ به من المحمضات ما لا يوجد مثله فى البلاد وهى من ذيل الجبل من غربيه تظهر من عند اللاذقية).

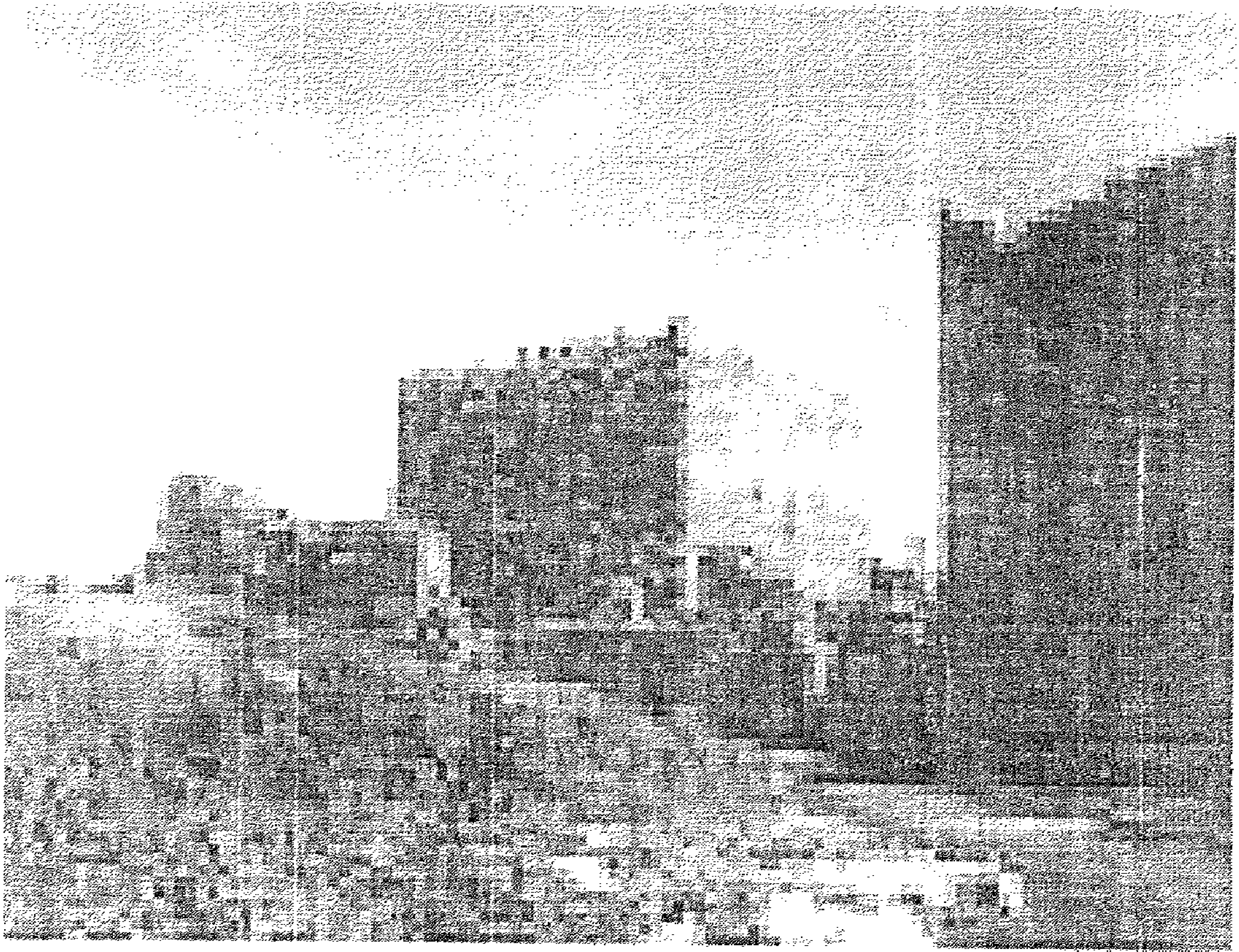
وكان «سيباى» آخر من حكم القلعة بالنيابة عام ١٥٠٠ م. حيث احتل العثمانيون سوريا عام ١٥١٦ م.

فهجرت قلاع كثيرة منها قلعة صلاح الدين بعد سقوط المماليك.

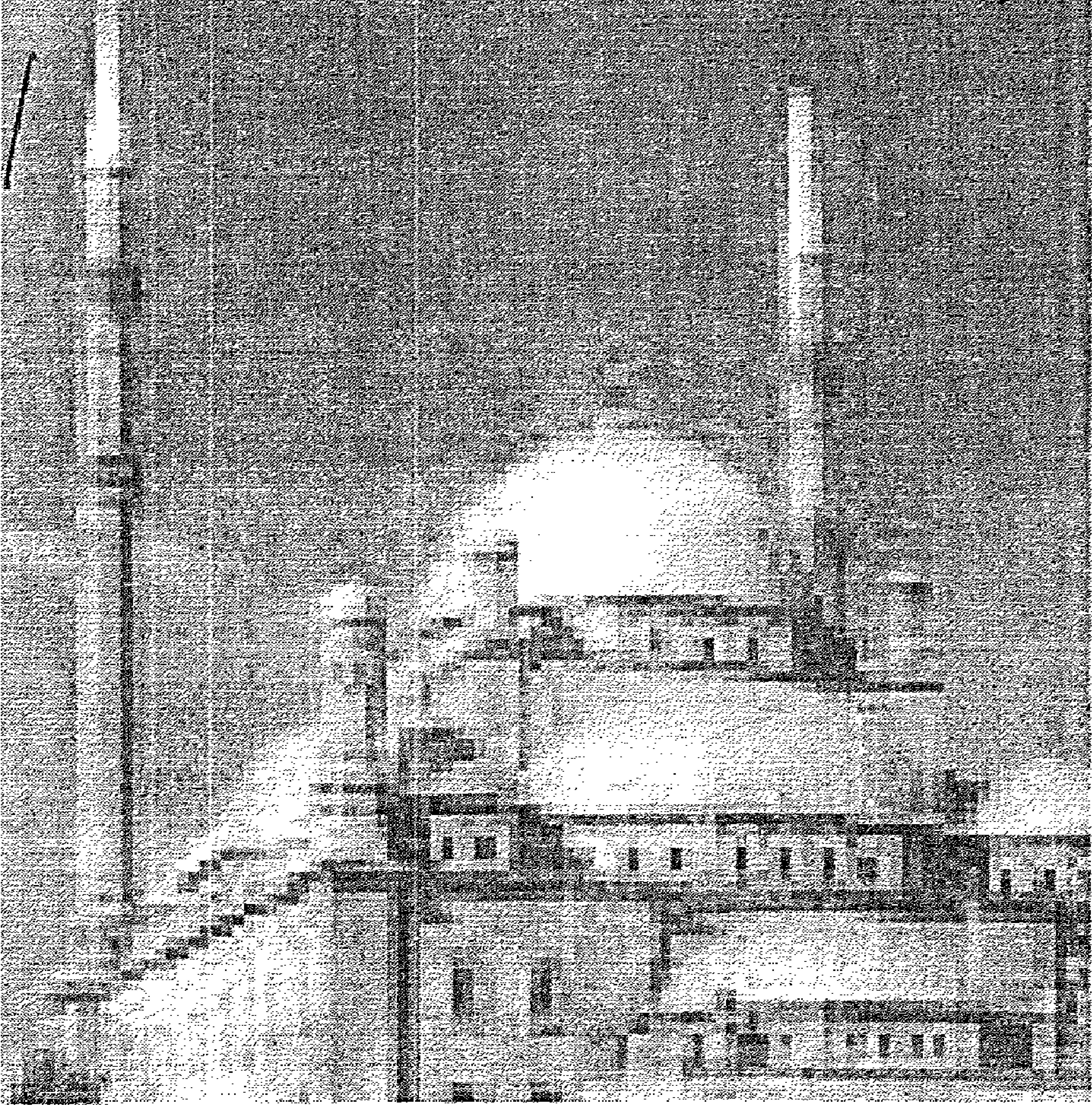
وبقيت القلعة طيلة قرون عديدة مهجورة موحشة كئيبة وخاصة أن موقعها النائى الصعب قد صرف الأنظار عنها.

فترعرعت من فوق أطلالها الباقية الأشواك والأعشاب البرية ونبتت الأشجار فوق أسوارها وحتى فى أعلى أبراجها فأضحت الضباع وأبناء آوى تبحث عن مخابئ لها فى تلك الخرائب التى كانت فى يوم من الأيام سكنا وقصورا للبيزنطيين والصليبيين وأسلافنا العرب.

وبقيت كذلك حتى لفت الانتباه إليها بعض الرحالة الأجانب فنبهوا العالم لها فارتفعت شيئاً فشيئاً من ظلمات الوادى السحيق وهى اليوم تشمخ بكل جلالة وروعة الماضى متأهبة لاستقبال زوارها.



قلعة صلاح الدين بسوريا
من بناء الصليبيين



مسجد محمد على باشا داخل
قلعة صلاح الدين الأيوبى عصر

الحملات الصليبية الثمانية قديماً والحملة الصليبية التاسعة حديثاً

- الحملات الصليبية على الشرق لتكوين المملكة اللاتينية الصليبية فى الماضى.. كيف بدأت وكيف انتهت.
- الحملة الصليبية التاسعة فى القرن الحالى لإعادة مملكة صليبية صهيونية حديثة لحكم العالم..
- كيف بدأت وكيف تنتهى.

19

الحملات الصليبية الثمانية
على الشرق الإسلامى
وتأسيس مملكة صليبية لاتينية

خلال المجمع الدينى المسيحى بـ «كليرمنت» المنعقد فى شهر نوفمبر ستة ١٠٩٥ م دعا البابا «أوربان الثانى» إلى تنظيم حملة فى اتجاه الأراضى المقدسة فى الشرق وأعلن عن وجوب مشاركة الأغنياء والفقراء فيها وعن ضرورة التوقف عن التقاتل فيما بينهم وأكد أن الفقر والبؤس قد تفشيا فى أوروبا وأنهم سينعمون بالرخاء والسعادة فى المشرق وأمرهم بأن يكون المسير عند حلول الصيف.

وجدت هذه الدعوة تجاوباً كبيراً عند المسيحيين ونشط المبشرون فى تعبئة المشاركين وكان أبرزهم المبشر «بطرس» الذى قاد الحملة الشعبية.

١ ـ الحملة الشعبية (الأولى الفاشلة) عام ١٠٩٦ م:

قادها الناسك بطرس الذى جمع حوله الفلاحين العزل والمشاة والعديد من سكان المدن وبعض صغار النبلاء كما ضم إلى جانبهم قطاع الطرق والمجرمين. كانت الحملة تخترق أوروبا الوسطى تصحبها عمليات نهب للمناطق التى تخترقها وهو ما تسبب فى اشتباك مع سكان هذه المناطق وخاصة مع سكان المجر.

عبر المشاركون فى الحملة إلى آسيا الصغرى عبر البوسفور يوم ٦ أغسطس ١٠٩٦ م.

ثم واصلوا طريقهم لكن السلطان السلجوقى بآسيا الصغرى (قلج أرسلان) تصدى لهم فى شهر أكتوبر وألحق بهم هزيمة قتل فيها الآلاف من الصليبيين وأسر آخرين منهم وتمكن بعضهم من الرجوع فمنيت هذه الحملة الشعبية بالفشل.

وتعد هذه أولى الحملات الصليبة على الشرق الإسلامى فى حين لا يعتبرها البعض الأولى لعدم وصولهم إلى الشرق. وأنها مقدمة للحملة التالية عليها التى استولت على القدس.

٢ ـ حملة الأمراء

(الحملة الصليبية الثانية واحتلال القدس):

قادها أمراء من الغرب التزموا بالموعد الذى حدده البابا «أوربان الثانى» وقد أعدوا الجيوش وتجهزوا وجمعوا الأموال وقد اشتركت فى هذه الجملة عدة مجموعات:

ـ مجموعة من جنوب فرنسا سلكت طريقها من شمال إيطاليا ثم ألمانيا وبلغاريا إلى القسطنطينية.

ـ مجموعة من شمال فرنسا: اخترقت ألمانيا ثم المجر إلى القسطنطينية.

ـ مجموعة من جنوب إيطاليا متكونة من النورمان الذين استقروا هناك.

كانت هذه المجموعات المنظمة كلما مرت بمنطقة انضم إليها المتطوعون مما جعل جيوش هذه المجموعات يصل إلى مئات الآلاف.

دخلت حملة الأمراء إلى آسيا الصغرى بعد تعهد الإمبراطور البيزنطى بتزويدهم بما يحتاجون إليه من عدة تمكنوا من الاستيلاء على عاصمة السلاجقة هناك «نيقية» فى عام ١٠٩٧ م (٤٩١ م).

ثم واصلت الحملة تقدمها فاستولت على مدينة أنطاكية فى عام ١٠٩٨ م (٤٩٢ هـ) رغم محاولات من المسلمين نجدتها وفك الحصار الذى ضرب حولها.

وقد سقطت قبل ذلك بقليل «الرها» بيد الصليبيين فى مارس ١٠٩٨ م (٤٩٢ هـ).

ثم تقدم الصليبيون نحو المناطق الساحلية بالشام كطرابلس وبيروت وال «رملة» فاحتلوها دون مقاومة من أمراء هذه المدن.

ثم واصلوا تقدمهم نحو القدس التى كان الفاطميون قد سيطروا عليها فى ١٠٩٨ م إثر انتزاعها من السلاجقة الذى كانوا منشغلين بتقدم الصليبيين.

وقد وصل الصليبيون للقدس فى ١٠٩٩ م (٤٩٢ هـ) وحاصروها مدة أربعين يوماً انتهت بسقوطها فى ١٠٩٩ م بعد مقاومة هزيلة من حاكمها الفاطمى.

وخلال دخولهم لبيت المقدس قتلوا الكثير من المسلمين وأحرقوا اليهود فى بيعتهم التى التجأوا إليها.

أفضت هذه الحملة إلى تأسيس عدة إمارات هى: إمارات الرها وإنطاكية وطرابلس

والمملكة اللاتينية بالقدس وهى جميعها إمارات منحصرة فى المنطقة الساحلية حيث لم يتمكن الصليبيون من التقدم إلى المناطق الداخلية.

وكانت أهم الإمارات المملكة اللاتينية بالقدس التى تمتد بين نهر الأردن والبحر المتوسط ومن شمال بيروت إلى جنوب غزة وقد اعتبر الصليبيون بقية الممالك (طرابلس والرها وإنطاكية) تابعة اسمياً لملك بيت المقدس.

٢ ـ استرجاع المسلمين للرها والحملة الصليبية الثالثة:

كما ذكرنا عين السلطان السلجوقى محمود «عماد الدين زنكى» والياً على الموصل سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م)، فقام هذا الأخير إثر توطيد أركان حكمه فى الموصل بالقضاء على التشتت السياسى فى الشام تمهيداً لمواجهة الصليبيين.

وقد تمكن فعلاً من استرجاع الرها التى كانت تمثل قداسة عندهم.

ونظراً للتحرك الإسلامى الذى أصبح يهدد بقية الإمارات الصليبية.

فقد دعا البابا «أوجين الثالث» لحملة صليبية ثالثة.

وقد وصلت هذه الحملة إلى القسطنطينية سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) ومنها توجهت للقدس فى السنة التالية وقررت الهجوم على دمشق.

لكن الحملة فشلت فى ذلك بحكم المقاومة الإسلامية وهو ما اضطر قادتها للعودة إلى أوروبا (لويس السابع ملك فرنسا/ كنراد الثالث ملك ألمانيا) سنتى ٥٤٣ و ٥٤٤ هـ (١١٤٨ م و ١١٤٩ م).

استرجاع صلاح الدين الأيوبى لبيت المقدس ورد فعل المسيحيين:

استرجاع بيت المقدس على يد الأيوبيين:

بحلول الدولة الأيوبية محل الفاطميين بمصر ظهرت قوة جديدة بالمشرق الإسلامى أنشأها صلاح الدين الأيوبى وبالمقابل كانت مملكة القدس تعيش أزمة بسبب عدم استقرار فى مستوى القيادة.

فى هذه الأثناء تصاعدت المواجهة فى الشريط الساحلى لبلاد الشام بين الأيوبيين والمراكز الصليبية. وتمكن الأيوبيون من الانتصار على الصليبيين فى موقعة «حطين» سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) وأسر ملك القدس وعادت هذه المدينة إلى المسلمين الذين فقدوها منذ ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) عادت إليهم بعد حوالى ٩٠ سنة. وسقطت بعد ذلك مواقع المسيحيين بأسرها ولم

تصمد إلا صور وطرابلس وإنطاكية.

وهكذا استكمل صلاح الدين ما بدأه السلطان نور الدين زنكى.

الحملة الصليبية الرابعة:

كانت كرد فعل على تفوق المسلمين دعا البابا إلى حملة صليبية رابعة يقودها الملوك والأمراء وتعتبر حملة صليبية رابعة فى إجمالى الحملات لكنها باعتبار أول حملاتهم هى الحملة الشعبية. وذلك بعد أن استنجد ملك القدس بملك انجلترا «ريتشارد قلب الأسد». انطلقت الجيوش من أوروبا سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) وتمكنت من استرجاع «عكا» سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م).

ثم جنح «ريتشارد قلب الأسد» إلى عقد صلح مع صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م).

قضى هذا الصلح باستقرار الصليبيين فى الشريط الساحلى الممتد بين صور وحيفا وبالسماح للنصارى بزيارة بيت المقدس وبأن تقع هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر.

ويبدو أن جنوح الطرفين للهدنة يعود إلى اضطرار «ريتشارد قلب الأسد» للعودة إلى إنجلترا لمواجهة بعض المشاكل الداخلية.

وكذلك إلى رغبة صلاح الدين الأيوبى إلى وضع حد لسلسلة من المعارك تكبد فيها المسلمون عدة خسائر أمام «ريتشارد» وعدم تمكن الملك الانجليزى من تحقيق أهداف مرجوة رغم طول هذه الحملة.

٥ ـ الحملة الصليبية الخامسة:

وفشلها قبل وصولها (٥٩٩ ـ ٦٠٠ هـ ـ ١٢٠٢ ـ ١٢٠٤ م):

كان هدفها استرجاع القدس من المسلمين وقد دعا إليه البابا «إينوسون الثالث» لكن هذه الحملة تغيرت وجهتها تحت تأثير «دوق» البندقية «هنرى داندولو» فقد توجهت إلى بيزنطة قصد تكوين سلطة لاتينية بالقسطنطينية والقضاء على الحكم البيزنطى، ويعود تغير وجهة هذه الحملة إلى:

ـ الخلافات القديمة بين الكنيسة الكاثوليكية بالغرب (عاصمتها روما مركز البابا) والكنيسة الأرثوزكسية بالشرق (عاصمتها القسطنطينية).

فقد كان موقف الكنيسة الكاثوليكية يتمثل فى أن البيزنطيين غير قادرين على مجابهة المسلمين ولذلك يجب السيطرة على القسطنطينية.

ـ إن الفرنج عزموا على اكتراء سفن من البنادقة تقلهم إلى مصر لكنهم عجزوا بعد ذلك على دفع معلوم اكتراء السفن فاستغل «دوق» البندقية حيرة الفرنج وعرض عليهم التحول إلى القسطنطينية.

وذلك خدمة لمصالحه التجارية وفعلاً تم تحويل وجهة الحملة من مصر إلى العاصمة البيزنطية التى تعرضت لنهب فظيع سنة ١٢٠٤ م (٦٠٠ هـ) واستولى عليها الفرنج وتم تعيين إمبراطور عليها شملت سلطته منطقة «تراقيا» وعرفت بالامبراطورية اللاتينية الشرقية التى عمرت إلى حدود ١٢٦١ م (٦٦٠ هـ)، واستفاد البنادقة تجارياً من هذه الإمبراطورية اللاتينية الشرقية.

الحملة الصليبية السادسة:

وصل الصليبيون فى حملتهم السادسة إلى «عكا» سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) بقيادة «فريديريك الثانى» الذى كان إمبراطوراً على ألمانيا وإيطاليا الشمالية وصقلية وكانت هذه الأخيرة مأهولة بالمسلمين الذين تربطهم بالامبراطورية علاقات ودية. جنح الإمبراطور إلى الحوار مع المسلمين الذين يمثلهم الملك الأيوبى الكامل وكان يهدف إلى إنهاء العلاقة العدائية بين المسلمين والمسيحيين.

أما الملك الأيوبى الكامل فقبل الصلح لوجود خلافات فى العائلة الأيوبية ذلك أنه لما توفى الملك العادل سنة ٦١٥ هـ خلال فترة حصار «دمياط» برز نزاع بين أبنائه الثلاثة (الكامل صاحب مصر ـ الملك المعظم صاحب دمشق وبيت المقدس الملك الأشرف صاحب الجزيرة) أبرم الملك الكامل معاهدة «يافا» مع الصليبيين فى ربيع الثانى ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) وكان من بنودها:

ـ تسليم بيت المقدس إلى الصليبيين على شرط أن يبقى سور بيت المقدس مخرباً ولا يعاد تجديده وأن يحتفظ المسلمون بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة (مسجد عمر) ويكون الحكم فى القرى إلى والى المسلمين).

ـ يسيطر الصليبيون على القرى الممتدة على الطريق من بيت المقدس إلى مملكة عكا الصليبية.

ـ يتعهد «فريديريك الثانى» بمساعدة الملك الأيوبى الكامل ضد خصومه سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين كما يتعهد الإمبراطور بالحيلولة دون الإمدادات الصليبية إلى الأمراء الصليبيين بالشام مدة عشر سنوات ونصف.

نتبين من هذا الصلح أن القدس أصبحت مدينة مشتركة بين المسيحيين والمسلمين واحتفظ كل منهم بأماكنه المقدسة وذلك إلى حدود عام ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م)، إثر ذلك عاد الصراع من جديد بين الأيوبيين والصليبيين.

٧ـ الحملة الصليبية السابعة: (٦٤٦ـ ٦٥٤ هـ ـ ١٢٤٨ ـ ١٢٥٤ م):

تمكن الملك الصالح أيوب بن الملك الكامل سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) من تحقيق انتصارات على الصليبيين الذين وصلتهم إمدادات من فرنسا ونجح فى استرجاع بيت المقدس. فكان رد فعل أوروبا المسيحية تنظيم حملة صليبية سابعة قادها ملك فرنسا «لويس التاسع» وتوقفت الحملة فى سبتمبر بجزيرة قبرص استعداداً للهجوم على مصر فهى القوة التى تمكنت جيوشها من استرداد بيت المقدس.

وصلت الحملة إلى «دمياط» سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) التى احتلها الصليبيون بيسر لكن هؤلاء فشلوا فى الزحف على القاهرة وتمكن الملك الأيوبى «تورانشاه» من محاصرة القوات الصليبية ومنع عنها الإمدادات.

وهو ما تسبب فى دخول الاضطرابات فى صفوف قواتها وسقط «لويس التاسع» فى الأسر واعتقل بمدينة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) وقد أفرج عنه مقابل تنازله عن مدينة «دمياط» ودفعه غرامة مالية ثقيلة وفى نفس السنة غادر «لويس التاسع» دمياط إلى مملكة «عكا» الصليبية وقضى هناك أربع سنوات ولم يعد إلى فرنسا إلا سنة ٦٥٣ هـ (١٢٥٤ م).

وقد زامن هذه الأحداث تغير فى السلطة بمصر وذلك بانتهاء الدولة الأيوبية بمقتل الملك المعظم تورانشاه» سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) على يد المماليك البحرية وانتهاء عصر الدولة الأيوبية إثر ذلك وبداية العصر المملوكى.

نهاية الصليبيين بالمشرق الإسلامى على أيدى المماليك:

بعد فشل حملة لويس التاسع على مصر واصل المماليك محاصرة الفرنج إلا أن أهم الانتصارات سجلت فى عهد «الظاهر بيبرس» حتى وفاته سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧ م) كانت الإمارات الصليبية فى حدود المنطقة الساحلية لعكا وطرابلس.

وفى عهد السلطان «قلاوون» الذى ارتقى إلى السلطة سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) تم استرجاع مدينة طرابلس.

وعندما توفى خلفه السلطان الأشرف خليل كانت الاستعدادات قد تمت للهجوم على عكا فحاصر المدينة التى استسلمت فى جمادى الأول ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) وسقطت على التوالى مدن صور وصيدا وبيروت وطرطوس بيد المسلمين وبذلك كانت نهاية الصليبيين بالمشرق الإسلامى.

٨ـ الحملة الصليبية الثامنة:

كانت ضد تونس (٦٦٩ ـ ١٢٧٠ م):

غادر القديس «لويس» عاصمته فى مارس ١٢٧٠ م (٦٦٨ هـ) بهدف افتكاك القدس وإنقاذ ما تبقى من الممتلكات المسيحية بالمشرق من هجمات المماليك وقائدهم «بيبرس» ولكن ملك فرنسا غير وجهته نحو تونس للدوافع التالية:

ـ سجلت هذه الحملة سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧٠ م) فى عهد الخليفة الحفصى المستنصر الذى برزت فى عهد الدولة الحفصية كقوة إسلامية صاعدة لقيت اعترافاً من قبل العديد من القوى الإسلامية وجاءتها السفارات من العالم المسيحى (إيطاليا/ النرويج..).

ـ مطالبة تجار «بروفانس» بمال أقرضوه إلى وزير سابق للمالية فى الدولة الحفصية ولم يلتزم الحاكم الحفصى بأداء الديون.

ـ أمل وهمى لدى «لويس التاسع» فى إمكانية تنصر الخليفة الحفصى وذلك حسب ما أفاده به «ريمون مارتان» وهو من المبشرين العاملين بإفريقية وكان صديقاً للخليفة.

تجمع الصليبيون فى جزيرة سردانيا جنوب فرنسا ومنها انطلقوا فى اتجاه تونس حيث نزلوا بقرطاج فى يوليو سنة ١٢٧٠ م ـ ٦٦٨ هـ.

وقبل الهجوم انتشر وباء فى صفوف الصليبيين أهلك الكثير من الجنود وأهلك أيضاً الملك لويس التاسع.

ثم قدم ملك صقلية شارل ليقود الحملة التى فشلت وحاول مواجهة المسلمين الذين استعدوا للمواجهة ثم جنح للصلح مع الخليفة المستنصر فى أواخر سنة ١٢٧٠م تخدم بنودها الصليبيين من الناحية الاقتصادية.

وكانت تلك آخر الحملات الصليبية قديماً التى لم تكن كلها من أجل استعادة القدس وإنما كان هدفها الأسمى اقتصاديا وسياسيا استعماريا.

ويتضح لنا أن ثلاثة حملات منها قصدت الاستيلاء على القدس.

وكما سنرى أن الحملة الصليبية التاسعة بقيادة بوش لم يكن هدفها القدس وانما هدفها مثل باقى الحملات الصليبية الأخرى استعمارية فقط إضافة إلى هدف أسمى هو فناء العالم من أجل عيون إسرائيل العنصرية.

ملحوظة:

وهناك حملة صليبية جاءت فى الفترة من ٦١٤ هـ - ٦١٨ هـ الموافق ١٢١٧ م - ١٢٢١ م قادها الامبراطور هونوريوس الثالث وملك المجر ودوق النمسا.

ولكن الحملة فشلت فى السيطرة على القلعة الأيوبية قلعة صور ١٢١٧ م وانسحبت الحملة بعد فشلها.

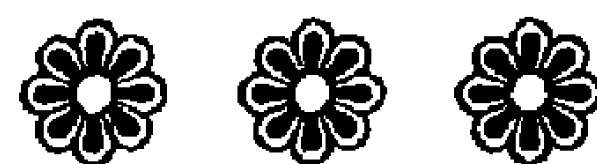
رغم محاولة حاكم عكا الصليبى من مهاجمة دمياط بمصر وفشله أيضاً فى الفترة من ١٢١٨ - ١٢٢١ م حيث قضى عليه الجيش المصرى بزعامة الأيوبيين.

ويعتبر المؤرخون هذه الحملة من الحملات الصليبية والتى لا أهمية لها حيث لم يدع إليها بابا الفاتيكان وإن كانت تحمل الصليب رمزاً وهدفاً لها.

وبذلك تكون الحملات الصليبية على الشرق الإسلامى ثمانى حملات إذا أضفنا إليها تلك الحملة وحذفنا الحملة على تونس حيث استهدفت دولة لا تنتمى إلى الشرق الإسلامى الذى اعتاد الحملات الصليبية مهاجمته.

وكذلك إذا حذفنا من التعداد الحملة الصليبية الشعبية الفاشلة الأولى وأضفنا الحملة على تونس أصبحت أيضاً الحملات ثمانية، أما إذا جمعنا الكل فتكون تسع حملات بالإجمال وهو الأصح وتكون الحملة التى قادها بوش فى القرن الواحد والعشرين الميلادى هى الحملة العاشرة الصليبية لأنها حملت أيضاً الصليب شعاراً لها.

وفى النهاية فالعدو لا يهم ويبقى المضمون وهو استمرار الحملات الصليبية من جهة الغرب على العالم الإسلامى.



هل تعود عقارب الزمن إلى الوراء؟
الحملة الصليبية التاسعة فى القرن الحالى

يخطئ من يظن ان عقارب الزمن لن تعود إلى الوراء..

ويقصدون بذلك أن العالم العربى والإسلامى لن يعود إلى سابق عهده فى عصر الخلافة الراشدة أو الأموية أو العباسية.

ويقصدون أيضاً أن الإسلام لن يعود أيضاً..

هذا ما يقوله من ينتسب إلى أمتنا.. من بنى جلدتنا.. الذين يسعون إلى هدم الإسلام برفع شعار العلمانية الحديثة والقديمة.

أما أهل الغرب الصليبى فإنهم يرون أن عقارب الساعة دوماً يمكن أن تعود إلى الوراء.

فقد عادت الملكية فى فرنسا بعد قيام الثورة الفرنسية حين أعلن نابليون بونابرت نفسه إمبراطورا.. ثم عادت الجمهورية إليها مرة أخرى.

وعادت الملكية إلى إسبانيا بعد إعلان الجمهورية وأعادها «فرانكو» الرئيس الوحيد للجمهورية التى أعلنها.

وفى بلدان العالم الثالث عادت الملكية فى شكل الجمهورية الوراثية فى بلدان كثيرة.

وعادت الحملات الصليبية على الشرق الإسلامى مجدداً بعد أن جاءت قديماً فى بداية نهاية القرن الحادى عشر حيث أول حملة أسست مملكة صليبية عاصمتها القدس الشريف وسميت بالحملة الصليبية للأمراء.

بعد فشل الحملة الصليبية الشعبية الأولى عام ١٠٩٦.

واستمرت تلك الحملات حتى الحملة الثامنة عام ١٢٧٠م.

فهل انتهت الحملات الصليبية وأن عقارب الزمان لن تعود إلى الوراء؟

بالطبع لا.

فقد عادت الحملات الصليبية تحمل الصليب شعاراً لها فى بداية هذا القرن الواحد

والعشرين الميلادى بقيادة الإمبراطورية الأمريكية ومن ورائها أوربا القديمة التى توحدت من أجل حرب الإسلام كما فعلت قديماً.

قد يقول قائل من بنى جلدتنا من الإخوة العلمانيين إن هذا الكلام لا أساس له من الصحة وإنه من بنات أفكارنا نحن أصحاب فكرة المؤامرة.

ولكننا نذكرهم أن الرئيس الأمريكى بوش الابن حين أعلن حربه على الإرهاب فى سطوع هذا القرن بعد هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ م استخدم تعبير «الحرب الصليبية» وفى خطابه السياسى الدينى وهو يدرك خطورة تلك الكلمة.

ولم تكن تلك الكلمة التى استخدمها الرئيس الأمريكى زلة لسان منه وإنما هى كلمة أرادها ويعلم معناها.

فهو يدرك أنه يقود حربا مقدسة ولكن ليست مثل سابقاتها فى القرن الحادى عشر والثانى عشر الميلادى، وإنما هى حرب مقدسة ليست من أجل الصليب وحده أو القدس كما كانت تزعم الحملات السابقة وإنما من أجل نهاية هذا العالم كله الإسلامى وغيره متحالفاً مع اليهود الصهاينة وتحقيق نظرية الهرمجدون الشهيرة عندهم[١].

وظهرت الكتب التى تؤيد حرب بوش الصليبية وتصفه بأنه ريتشارد قلب الأسد الملك الإنجليزى الذى قاد الحملة الصليبية الثالثة لاسترداد القدس من صلاح الدين[٢].

ومن هذه الكتب كتاب «جند الله» للكاتب الأمريكى «جيمس رستون» الذى صدر فى لندن عام ٢٠٠١ م.

ويركز الكاتب على الحملة الصليبية الثالثة بوصفها شبيهة بالحملة الصليبية التى يقودها «بوش» فهو زعيم أكبر دولة عسكرية واقتصادية فى العالم كما كان الملك الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد زعيم أكبر دولة فى عصره وكلاهما مسيحى الديانة وهدفهما واحد هو إقامة مملكة مسيحية على أرض الإسلام.

وإن كان بوش زاد أمراً هاماً هو التحالف مع اليهود الجدد من أجل إيجاد مملكة للرب يسوع على الأرض بعد اشعال حرب نووية فى تلك المنطقة وهو ما يسعى إليه حثيثاً بإيجاد

(١) اقرأ كتابنا «هرمجدون ونهاية امريكا وإسرائيل» والسيناريو القادم لأحداث آخر الزمان.. الناشر دار الكتاب العربى.

(٢) وتعتبر الحملة التى قادها الملك ريتشارد رقم أربعة أيضاً إذا اعتبرنا الحملة الشعبية عام ١٠٩٦ هى الأولى كما ذكرنا ذلك من قبل.

مشكلة مع إيران لمحاولتها امتلاك قنبلة نووية ويسعى إلى ضربها بواسطة الدولة الإسرائيلية الصهيونية وهو سيناريو محتمل.

ويقارن المؤلف الأمريكى فى كتابه بين الحربين المقدستين فى نظره ويقول إنه كما كانت لتلك الحربين أهداف مقدسة ويرى أن التطرف الدينى سواء كان إسلامياً أو مسيحياً هو نوع من الاضطراب والهيستريا فى العقل ويتساءل إن كان الدين حقاً هو السبب الرئيسى فى قتل الإنسان أخاه الانسان أم انه حجة لضرب الجار وسلبه أراضيه وماله وحياته.

لقد تحطمت آمال الحملة الثالثة بقيادة ريتشارد أمام ذكاء وصلابة وقوة صلاح الدين الذى استطاع توحيد دول الشرق الإسلامى تحت قيادته كرهاً وسلاماً بعد أن مزقت الخلافات العنصرية والشخصية تلك الدول حتى صارت ولايات أو بمعنى حديث محافظات كل محافظة تعنى أنها دولة مستقلة.

أعلن صلاح الدين حركته الإصلاحية والجهادية وتحقق له ما أراد من الوحدة تحت قيادته ثم أعلن الجهاد العام ضد المحتل الصليبى عام ١١٨٧ م.

واستطاع تخليص طرق التجارة والحج بين الممالك الصغيرة الإسلامية ثم إلى تحرير القدس من أيدى الصليبيين وتحقق له ما أراد بعد موقعة حطين كما ذكرنا.

وفى الجهة المقابلة كان ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا يستجيب لنداء الحرب المقدسة على الشرق لاستعادة ما فقد منها من ولايات استردها صلاح الدين ومن قبله نور الدين زنكى القائد الثانى لحركة الجهاد الإسلامى بعد أبيه عماد الدين زنكى.

استجاب ريتشارد لنداء الإمبراطور الرومانى للحرب ثم تبعه ملك فرنسا فيليب أوغسطين أو فيليب الجميل كما فعل «أنتونى بلير» زعيم إنجلترا حديثاً حيث تبع «بوش الابن» فى حربه المقدسة المزعومة على الإسلام.

ولكن هذه الحرب التاسعة الصليبية الجديدة لم يتصد لها صلاح الدين.

لأنه ببساطة لم يتواجد صلاح الدين حتى الآن رغم أن الظروف مهيأه لظهوره.

فهل يظهر نور الدين زنكى وصلاح الدين مرة أخرى؟!

بالتأكيد سوف يظهر صلاح الدين وببساطة شديدة لأن عقارب الزمن تعود دوماً إلى الوراء.

فكما ظهر ريتشارد قلب الأسد فى صورة «بوش الابن» قلب الأسد، سيكون ظهور صلاح الدين أمرا متوقعا ومنطقياً أيضاً بإذن الله تعالى.

أسباب النصر والهزيمة في سيرة ومسيرة صلاح الدين

- قضاء صلاح الدين على أسباب الهزيمة التى جعلت الصليبيين يحتلون بلاد المسلمين والقدس الشريف.

20

أسباب الغزو الصليبى للشرق الإسلامى العربى قديماً هى نفسها أسباب الغزو الصليبى اليهودى فى العصر الحالى

كان الداعى للحرب الصليبية الأولى هى دعوة البابا «أوربان» عام ١٠٩٥ م هى دعوة للحرب الدينية التى احترفها اليهود وأشباههم ومارسوها خلال سيرتهم الدموية فى أرض الشام.

ولكن لماذا تأخر الغزو الصليبى لبلاد الشام واحتلالهم للقدس حتى هذا العام ١٠٩٥ م.

لقد كان من الصعب غزو ديار المسلمين قبل ذلك حيث كانت الخلافة العباسية قوية، فلما ضعفت ونازعتها الثورة التى قادها الشيعة الإسماعيلية الباطنية عليها وطمع فيها الصليبيون وجاءوا إلى بلاد الشرق لتحقيق أهدافهم التى فى ظاهرها دينية وفى باطنها الاستيلاء على ثروة الشرق ونهب أراضيها حيث كانت تلك الدول الأوربية تعانى أزمات اقتصادية حادة.

ومما شجع هؤلاء على غزوهم بلاد الشرق بحجة تحرير القبر المقدس حيث الصراع كان دائراً فى بلاد الشام بين السلاجقة الجدد الذين دافعوا عن الخلافة العباسية وأصبحوا الحكام الفعليين فيها وبين الروافض الذى احتلوا الشمال الأفريقى حتى مصر وكذلك بلاد الشام والحجاز.

فقد شهد القرن الرابع الهجرى مداً رافضياً كبيراً حتى فى بلاد الجزيرة العربية فى شرقها بالبحرين والإحساء حيث قامت دولة القرامطة الباطنية الذين قتلوا الحجيج فى موسم الحج واقتلعوا الحجر الأسود من مكانه واحتفظوا به عندهم قرابة اثنين وعشرين عاماً.

ووصل المد الباطنى الرافضى لبلاد فارس والعراق فى دولة بنى بويه، وفى بلاد الشام دولة الحمدانية والفاطميين كما ذكرنا.

مع قيام تلك الدول التى سيطرت على معظم البلاد العربية جاءت الحملات الصليبية إلى الشرق وأخذوا منهم بيت المقدس.

وقبل وصول الصليبيين وفى ظل حكم الروافض بلاد الإسلام فى عام ٣٥٩ هـ قام ملك

الروم بغزو أنطاكية وقتلوا الكثير من أهلها نحو عشرين ألفاً من الشيوخ والأطفال والروافض لا يفعلون لهم شيئاً.

ومكث ملك الروم شهرين كما ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية يأخذ ما أراد من البلاد ويأسر من قدر عليه ثم عاد لبلاده سالماً ومعه مائة ألف مسلم بين صبى وصبية بعد أن انتشر الوباء فى جيشه.

وذكر ابن كثير أن فى عام ٣٥١ هـ أغارت الروم على الشام وقتلت ما لا يحصى من المسلمين، وكل ما فعله الروافض كما ذكر أنهم كتبوا على أبواب المساجد لعنة الله على معاوية ولعن الله من أغضب فاطمة ﷺ يقصدون أبا بكر ﷺ وغير ذلك مما ينادون به من سب الصحابة.

يقول ابن كثير: لا جرم أن الله لا ينصر هؤلاء وكذلك سيف الدولة بن حمدان بحلب فيه تشيع ومال إلى الروافض ، لا جرم إن الله لا ينصر أمثال هؤلاء بل يديل عليهم أعداءهم لمتابعتهم أهواءهم وتقليد ساداتهم وتركهم أنبياءهم وعلماءهم.

ولهذا لما ملك الفاطميون بلاد مصر والشام وكان فيهم الرفض وغيره استحوذ الإفرنج على سواحل الشام وبلاد الشام كلها حتى بيت المقدس ولم يبق مع المسلمين سوى حلب وحمص وحماة ودمشق، وجميع السواحل وغيرها مع الإفرنج والنواقيس النصرانية والطقوس الإنجيلية تضرب فى شواهق الحصون والقلاع، وتكفر فى أماكن الإيمان من المساجد وغيرها من شريف البقاع(١).

هكذا فعل التعصب المذهبى بالأمة وكذلك يفعل دوماً.

ولهذا فقد كان هذا هو هدف نور الدين زنكى من أجل توحيد البلاد تحت راية الجهاد بإزالة الدولة الفاطمية وإنهاء سيطرتها على مصر.

فقام نور الدين ومن بعده صلاح الدين بإنشاء المدارس الفقهية ومجالس العلم لنشر المذهب السنى، وكان أهل شورة هؤلاء الحكام هم هؤلاء العلماء.

فقد ظهر صلاح الدين فى عصر كانت الأمة فى حالة من التمزق والضعف يتهددها الخطر الصليبى، واستطاع بما تمتع به من عبقرية فذة وقيادة رائعة وتوفيق أكبر من الله عز وجل، فجمع شتات هذه الأمة وكون قوة كبيرة استطاع نبضها أن يحقق الانتصارات على الصليبيين.

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير.

ـ فقد كان صلاح الدين باعثاً على نهضة فكرية وعلمية أيضاً شجع شباب الأمة على البحث العلمى الذى توصل أحدهم إلى اختراع دمر أبراج الصليبيين.

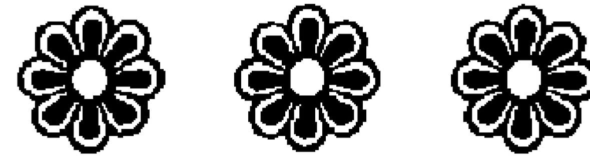
ـ وقامت المدارس الفقهية لكل مذاهب المسلمين على تثقيف المسلمين واجتماعهم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإذكاء روح الجهاد فى نفوسهم.

ـ وحارب صلاح الدين أصحاب البدع وأصحاب المذاهب الفلسفية الفاسدة.

لقد وضع صلاح الدين منذ توليه الحكم فى مصر وزيراً ثم حاكماً فعلياً أهدافه التى سعى لتحقيقها، وترك الدنيا وملذاتها ولبس لباس المجاهد لإعلاء كلمة الحق عالية فى سماء الدنيا كلها.

فكان أول أعماله تغيير القضاة الشيعة بقضاة من أهل السنة، فقام بإسناد القضاء فى مصر إلى الفقيه الشافعى صدر الدين عبد الملك بن درياس الكردى.

ثم نشر العدل والمساواة بين المسلمين وأنفق موارد الدولة على أهلها فشاع العدل وانتشر الخير فى دولته وأعاد زمن الخلفاء الراشدين.



ماذا حدث بعد وفاة صلاح الدين؟

- لم يترك صلاح الدين مالاً ولا عقاراً.
- توزيع البلاد التى حكمها صلاح الدين بين أولاده وأخيه الملك العادل.
- تفكك الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين.
- استلام الصليبيين القدس صلحاً لمدة عشر سنوات ثم عودته للمسلمين حتى سنة ١٩٦٧م.

21

ماذا ترك صلاح الدين وكيف قسمت تركته

لم يترك صلاح الدين الأيوبى فى خزانته من الذهب سوى جرام واحد - صورياً وستة وثلاثين درهماً وقيل: سبعة وأربعين درهماً ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعة ولا بستاناً ولا شيئاً من أنواع الأملاك(١).

أما أولاده الذكور غير الذين توفوا فى حياته فأكبرهم الملك الأفضل نور الدين على.

ثم العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان.

ثم الظاهر مظفر الدين أبو العباس الخضر.

ثم الظافر غياث الدين أبو منصور غازى.

ثم العزيز فتح الدين أبو يعقوب إسحاق.

ثم نجم الدين أبو الفتح مسعود.

ثم الأعز شرف الدين أبو يوسف يعقوب.

ثم الزاهر مجير الدين أبو سليمان داود.

ثم أبو الفضل قطب الدين موسى ولقب بالمظفر أيضاً.

ثم الأشرف معز الدين أبو عبد الله محمد.

ثم المحسن ظهير الدين أبو العباس أحمد.

ثم المعظم فخر الدين أبو منصور توران شاه، ثم الجوال ركن الدين أبو سعيد أيوب، ثم الغالب نصير الدين أبو الفتح ملك شاه.

ثم المنصور أبو بكر(٢).

---

(١) انظر الفتح القسى فى الفتح القدسى - عماد الدين الكاتب الأصفهانى - وكان مصاحبا لصلاح الدين وكاتبه.

(٢) ولد بحران بعد وفاة صلاح الدين بأشهر حيث كانت أمه حاملاً فيه وهو أخو المعظم لأبيه.

ثم عماد الدين شادى.

ثم نصير الدين مروان.

أما البنت فهى مؤنسة خاتون وقد تزوجها ابن عمها الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب[1].

قال ابن كثير رحمه الله: وإنما لم يخلف أموالاً ولا أملاكاً لجوده وكرمه وإحسانه إلى أمرائه وغيرهم حتى إلى أعدائه.

وكان زاهداً فى ملبسه وطعامه ومركبه فكان لا يلبس إلا القطن والكتان والصوف.

وأما عن عبادته فكان يحافظ على الصلوات فى جماعة فى الصحة والمرض، ويواظب على سماع الحديث النبوى الشريف ويحب سماع القرآن الكريم، وكان آخر عهده فى مرضه موته كما ذكرنا القرآن الكريم.

أما الدولة المملكة التى حكمها صلاح الدين وكانت كبيرة شملت بلاد المغرب ومصر والشام وبلاد الحجاز فقد قسمها بين أولاده وأخيه.

فالديار المصرية لولده العزيز عماد الدين أبى الفتح.

ودمشق وما حولها لولده الأفضل نور الدين على.

وحلب وما حولها لولده الظاهر غازى غياث الدين.

والكرك والشوبك وبلدان كثيرة قاطع الفرات لأخيه العادل.

وحماة وما حولها للملك المنصور محمد بن تقى الدين عمر ابن أخيه.

وحمص والرحبة وغيرها لأسد الدين بن شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شركوه الكبير أخى أبيه نجم الدين (عمه).

وبعلبك وأعمالها للأمجد بهرام شاه بن فروخ شاه.

وبصرى وأعمالها للظافر بن الناصر صلاح الدين.

وهذا التقسيم أضعف المملكة التى كونها صلاح الدين وحافظ على وحدتها طوال حياته وتفككت واضطربت الأحوال بها حتى سيطر عليها أخوه الملك العادل وصارت المملكة الأيوبية فى أولاده حتى انتهت على أيدى المماليك والغزو التتارى للشام.

---

(١) البداية ـ النهاية ـ مصدر سابق.

واستغل الصليبيون تفكك المملكة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين وصراع الإخوة فيما بينهم وعادوا إلى محاولات استرداد واحتلال بلاد الشام والقدس مرة أخرى.

واستطاع الملك العادل أخو صلاح الدين من التغلب على أولاد صلاح الدين وضم البلاد التى كانت تحت أيديهم إليه فضم دمشق ومصر لحكمه حتى إنه عرض على الصليبيين القدس حين قاموا بغزو مصر عن طريق دمياط دون قتال فى الحملة الصليبية الخامسة.

الحملة الصليبية الخامسة

فقد عاود البابا إنوسنت الثالث الدعوة إلى حملة صليبية جديدة لتدارك ما فات، وفى الوقت نفسه طلب «حنا (جون) دى بريان» ملك مملكة بيت المقدس فى عكا من البابا إرسال حملة على مصر.

وفى مجمع اللاتران الكنسى الذى عقد فى روما سنة (٦١٢ هـ = ١٢١٥ م) حرص البابا على ضرورة إيفاد الحملة لتوفير الحماية الصليبية فى الشام.

وقبل أن تبدأ عجلة الحملة الصليبية فى التحرك توفى البابا إنوسنت الثالث سنة (٦١٢ هـ = ١٢١٦ م)، وخلفه هونر يوس الثالث الذى باشر إعداد الحملة.

بدأت قوات الحملة فى التوافد على عكا، واستمر ذلك أربع سنوات إلا شهراً، حتى إذا اكتملت صفوفها وعتادها اتجهت صوب مصر.

وكانت خطة حنا (جون) دى بريان تستهدف دخول مصر عن طريق الإسكندرية أو دمياط، ولقيت الخطة قبولاً من جمهرة الصليبيين فى الشام.

خرجت حملة الصليبية من عكا تحت قيادة حنا (حون) دى بريان فى (ربيع الأول ٦١٥ هـ = مايو ١٢١٨ م)، واتجهت إلى دمياط، ونزلت على الضفة الغربية للنيل المواجهة لدمياط، وأقامت معسكرها على الشاطئ؛ انتظاراً للهجوم ومواصلة السير عبر فرع دمياط إلى داخل البلاد.

كانت مدينة دمياط محصنة تحصيناً قوياً، تحميها سلسلة عظيمة تمتد عبر النيل وتحول دون دخول السفن المعادية من البحر إلى داخل مجرى النهر، بالإضافة إلى برج السلسلة الموجود وسط مجرى النهر عند مصبه؛ لحماية دمياط، ودفع أى عدوان يقع عليها.

خرج الملك الكامل أكبر أبناء السلطان العادل وخليفته للدفاع عن دمياط، ونصب معسكره جنوبى دمياط، وقد عرف هذا المكان منذ ذلك الوقت بمنزلة العادلية.

وحتى يكون على اتصال بالمدينة، ويمنع الصليبيين من العبور إلى الضفة الأخرى.

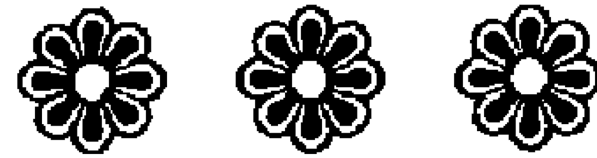
قضى الصليبيون ثلاثة أشهر كاملة يهاجمون برج السلسلة حتى تمكنوا فى نهاية الأمر من الاستيلاء عليه فى (جمادى الآخرة ٦١٥ هـ = أغسطس ١٢١٨ م)، وقطع السلسلة التى تعترض مجرى النهر.

وكان ذلك نذير خطر للقوات المصرية.

وفى أثناء هذه الأحداث توفى السلطان العادل.

ويقال إنه لم يحتمل سماع تلك الأخبار السيئة فمرض مرض الموت، ثم لم يلبث أن توفى فى (جمادى الآخرة ٦١٥ هـ = أغسطس ١٢١٨ م).

واستفحل الأمر حين دب الصراع على السلطة فى مصر بين أبناء الملك العادل، وهذا ما سوف نوضحه فى الصفحات القادمة.



الصراع على السلطة بين أبناء الملك العادل

لما مات الملك العادل رحمه الله اضطربت الأمور جداً فى بلاد المسلمين، وكان من المفترض أن يتولى ابنه الأكبر الملك الكامل محمد الذى كان يتولى قتال الصليبيين فى دمياط، وهنا ظهر أمير يقال له «أحمد بن المشطوب» اتفق هذا الأمير على خلع الكامل وتولية أخيه الفائز مكانه ليصير الحكم إليهم عليه وعلى البلاد.

فبلغت هذه الأخبار للكامل فى دمياط، ففارق موقعه ليلاً وتوجه سريعاً إلى القاهرة ليضبط الأمور قبل استفحال الفتنة.

وأصبح العسكر فلم يجدوا قائدهم معهم، فركب كل إنسان هواه، ولم يقف الأخ على أخيه، وفروا جميعاً وتركوا معسكرهم بما فيه من سلاح ومؤن.

ولما أصبح الصليبيون لم يجدوا أحداً من جنود المسلمين أمامهم فى المعسكر، فاسترابوا فى الأمر، فلما علموا الخبر عبروا النيل ودخلوا دمياط آمنين بلا منازع ولا ممانع، وغنموا ما فى معسكر المسلمين، وكل ذلك بسبب فعلة ابن المشطوب.

فلما استولى الصليبيون على معسكر المسلمين أحاطوا بمدينة دمياط وقاتلوا أهلها براً وبحراً، وعملوا عليهم خندقاً يمنعهم من إمدادات المسلمين، واستمات أهل دمياط فى الدفاع عنها.

ولكن المصيبة جاءت من طرف الأعراب، عليهم غضب الله حيث اجتمعت قبائل الأعراب عندما سمعوا بحصار الصليبيين على أهل دمياط ووقع أهل دمياط بين نارين: نار الصليبيين ونار الأعراب فاضطروا فى النهاية للاستسلام.

فغدر بهم الصليبيون وأمعنوا فيهم القتل والأسر، وفر الباقى ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهكذا فعل الصراع على الحكم والخيانة من الأعراب الذين هم أشد كفراً ونفاقاً.

أما الملك الكامل فلما دخل القاهرة ضبط الأمور، وهرب ابن المشطوب وفشلت خطته، ولم يلبث إلا يسيراً حتى أهلكه الله عز وجل جزاءً وفاقاً لما تسبب فيه للمسلمين، ثم أرسل الملك الكامل رسالة عاجلة لإخوانه ملوك الإسلام، قائلاً فيها: «الوحا الوحا! العجل العجل!

أدركوا المسلمين قبل أن يملك الصليبيون جميع أرض مصر.

فأقبلت الجيوش الإسلامية من كل بلاد الشام لنصرة المسلمين.

أما الصليبيون فلما تملكوا دمياط أقاموا بها وبثوا سراياهم فى كل ما جاورهم من البلاد ينهبون ويقتلون، وشرعوا فى عمارتها وتحصينها، وبالغوا فى ذلك، ولما سمع الصليبيون فى أوروبا ذلك أقبلوا يهرعون من كل فج عميق.

وأصبحت دمياط دار هجرتهم، وقد حولوا جامع المدينة الكبير إلى كنيسة، ولم يكن هذا هو البلاء الوحيد الواقع على المسلمين وقتها، بل إن بلاد الإسلام كلها كانت تحت هجمة شرسة.

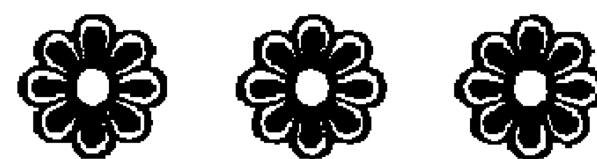
فالتتار من ناحية المشرق قد وصلوا إلى نواحى العراق وأذربيجان، ومن ناحية المغرب استولى الصليبيون فى الأندلس على معظم بلاد المسلمين.

ولم يبق للمسلمين سوى غرناطة فقط، وأشرف المسلمون وبلادهم على خطة خسف وهلاك فى شرق الأرض ومغربها ووسطها.

ظل أمر المسلمين فى اضطراب واختلاف أكثر من ثلاث سنوات، والعدو مستحكم فى دمياط، وكثرت أعداؤهم بشدة، وأصبحت دار هجرة للصليبيين حتى أذن الله عز وجل بلطف على المسلمين.

واتحدت كلمة الإخوة الثلاثة الكامل والأشرف والمعظم أبناء الملك العادل رحمه الله، وفى الوقت المناسب لأن الصليبيين قد عزموا على محاربة الكامل وأخذ باقى الديار المصرية، وقد خرجوا بجميع جيوشهم من دمياط.

ووصل الملك الأشرف واتحدت جيوشه مع جيوش أخيه الكامل فى مقابلة الصليبيين عند نقطة من النيل اسمها «بحر أشمون»، وحدث قتال بين الفريقين، واستطاع المسلمون كسب الجولة الأولى من القتال، فقويت نفوسهم وحميت عزائمهم على عدوهم الذى بدأ يغير وجهة نظره.



عرض القدس للصليبيين صلحاً

وفى أثناء حصار الصليبيين لدمياط قبل سقوطها كان السلطان الكامل قد يئس من إمكانية صمود المدينة بعد علمه بوصول نجدات قوية للصليبيين من قبرص وغرب أوروبا.

فأرسل إلى الصليبيين بعرض سخى يقترح فيه أن يجلوا عن مصر مقابل أن يمتلكوا مدينة بيت المقدس ووسط فلسطين والجليل، أى يعيد لهم مملكة بيت المقدس، على ما كانت عليه قبل معركة حطين التى خاضها جده صلاح الدين سنة (٥٨٣ هـ ـ ١١٨٧ م).

كان العرض الذى تقدم به السلطان الكامل غاية فى الكرم والسخاء والتخاذل المهين. فقبله الملك حنا (جون) دى بريان وأمراء مملكته فى حين رفضه كاردينال بلاجيوس الذى أرسله البابا لتزعم الحملة الصليبية كلها، وتابعة فرسان المنظمات الرهبانية العسكرية من الداوية والإسبتارية.

ولكن الصليبيين طلبوا مبلغ ٣٠٠ الف دينار إضافة لما عرضه الملك الكامل.

كانت الظروف قد تهيأت لصالح الصليبيين عقب سقوط دمياط، لكن الأهواء والنزاع حول الزعامة عصفا بوحدة الحملة وتماسكها، فعاد الملك حنا (جون) دى بريان بقواته إلى عكا فى (المحرم ٦١٧ هـ ـ مارس ١٢٢٠ م)، تاركا الأمر لبلاجيوس الذى ركن إلى الراحة والهدوء فى دمياط، وظل نحو عام ونصف العام دون تحرك أو عمل جاد.

فلما قرر الزحف بعث إلى حنا (جون) دى بريان يسأله العودة لمساعدة الصليبيين؛ فلبَّى على الفور حتى لا يُتهم بالتخاذل والتفريط فى مصر، وهو صاحب الاقتراح بغزوها.

ولما اكتملت القوات الصليبية شرعت فى الزحف جنوبا بمحاذاة نهر النيل فى (جمادى الآخرة ٦١٨ هـ ـ يوليو ١٢٢١ م).

لم يضع أبناء السلطان العادل وقتهم وبذلوا ما فى وسعهم من طاقة لإنقاذ البلاد.

فأقام الكامل قبالة طلخا منزلة على الضفة الشرقية أطلق عليها اسم «المنصورة»، واستعدوا للمعركة الحاسمة.

وكان السلطان الكامل لا يفتأ يكرر عرضه السخى على الصليبيين فى مقابل جلائهم، لكنهم فى كل مرة كانوا يكررون رفضهم.

واصل الصليبيون زحفهم وسط مثلث من الأرض تحيط به المياه من ثلاث جهات، بحيرة المنزلة شرقا، وفرع دمياط غربا، وبحر أشموم طناح جنوبا.

فلما وصل الصليبيون إلى نقطة تفرع بحر أشموم طناح البحر الصغير من فرع دمياط قطع المسلمون السدود.

وكان النيل مليئا بماء الفيضان فأغرق الأرض من تحت أقدامهم، وعاق الوحل حركة سيرهم.

وفى الوقت نفسه أبحر عدد من السفن الأيوبية فى بحر المحلة ـ كان يخرج وقت ذاك من النيل قرب بنها الحالية ويلتقى به جنوبى فارسكور.

فحالت هذه السفن بين الصليبيين والنجدات التى تصل إليهم من دمياط، وقطعت خطوط تموينهم وقامت مجموعة فدائية من أبطال المسلمين إلى معسكر الصليبيين وفجروا سدود النيل، ففاض الماء على المعسكر الصليبى ولم يبق للفرنجة جهة يسلكونها إلا من جهة واحدة كان يسدها عليهم الكامل والأشرف بجيوش المسلمين، ولم يبق لهم خلاص.

وحاول الصليبيون فى أوروبا إرسال معونات لإخوانهم الصليبيين المحاصرين فى دمياط، وذلك من خلال سفينة ضخمة محملة بالسلاح والمؤن.

ولكن أسطول المسلمين استطاع أسر هذه السفينة وغنم ما عليها، وعندها أيقن الصليبيون بالهلاك والعطب.

وكشرت سيوف المسلمين عن أنياب المنايا، وذلت نفوس الصليبيين، وتنكس صليبهم وخذلها شيطانهم، فأرسلوا للصلح مع الملك الكامل على أن يخرجوا من دمياط بلا عوض، ولكن يأمنهم على حياتهم.

وبالفعل تم الصلح، دخل المسلمون دمياط فى ١٩ رجب سنة ٦١٨ هـ.

وعاد الصليبيون إلى بلادهم خائبين خاسرين لم ينالوا شيئاً.

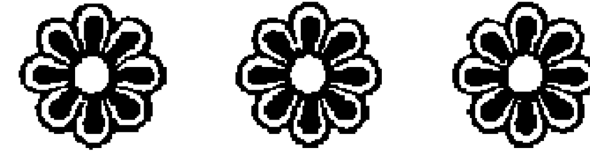
ومن المواقف المخزية من الصليبين حقاً فى هذه الحملة الصليبية الخامسة أنه أثناء حصار المسلمين للصليبيين كان يخرج كل يوم من معسكر الصليبيين كلب صليبى مسعور أجرب حاقد يشتم ويسب رسول الله ﷺ بأقذع السباب، وجعل هذا ديدنه كل يوم.

وبعد أن تم الصلح وخرج الصليبيون من دمياط دارت الأيام وتم أسر هذا الكلب الصليبى الحاقد فى الشام، وعرفه الملك الكامل عندما رآه.

فأمر به فحمل إلى المدينة النبوية ليذبح أمام الحجرة النبوية الشريفة، وفى يوم الجمعة على مشهد ومسمع من الجميع؛ جزاءً وفاقاً لهذا الصليبى الحاقد.

وكان هذا الموقف من السلطان الكامل ابن الملك العادل الأيوبى من تسليم القدس وما حققه صلاح الدين من انتصارات على طبق من فضة نتيجة ضغط الصليبيين عليه واحتلالهم دمياط وانفتاح الطريق امامهم لدخول القاهرة واحتلال مصر وضياع ملك الملك الكامل فى مصر إلا أن الصليبيين طلبوا مبلغاً كبيراً من المال إضافة إلى حصولهم على القدس وهذا دليل كافٍ على الدلالة بأن الصليبيين لم يكن هدفهم من حروبهم هو الحصول على القدس والقبر المقدس وإنما هو الاستيلاء على خيرات بلاد الشرق.

وتكررت محاولة إعطاء الصليبيين القدس صلحاً دون قتال فيما بعد على يد الملك الكامل نفسه أيضاً فى الحملة الصليبية السادسة ١٢٢٨ م من أجل الصراع على السلطة بينه وبين أخيه الملك المعظم.



تسليم القدس للصليبيين صلحاً من الملك الكامل الأيوبى

بدأت الحملة الصليبية السادسة عام ١٢٢٨ م كمحاولة لإعادة السيطرة على القدس. بدأت بعد سبع سنوات فقط من فشل الحملة الصليبية الخامسة.

بعد مرور أقل من عشر سنوات من نهاية الحملة الصليبية الخامسة بدأت الحملة الصليبية السادسة التى ترأسها الامبراطور فريدريك الثانى هوهنشتاوفن الألمانى الذى نذر النذر الصليبى للحملة السابقة ولم يفِ به حينها.

وأراد الامبراطور ان يحقق مقاصده دون ان يسحب سيفه من غمده، فتزوج فى صيف ١٢٢٥ من ابنة ملك القدس يوحنا دى بريان (يولاندى والمعروفة أيضا باسم إيزابيلا) وتزوج كذلك من ماريا من مونتفيرات، وأخذ يطالب بعرش مملكة زالت من الوجود من زمان فى فلسطين.

واستغل الحرب بين مصر ودمشق ودخل فى مفاوضات مع السلطان الكامل، الأمر الذى أثار غضب روما، وقيّم البابا مسلك فريدريك الثانى بكل قساوة واتهمه بإهمال «قضية الرب» بل إنه هدده بحرمانه من الكنيسة وفرض غرامة مقدارها ١٠٠ ألف اوقية من الذهب إذا لم تقم الحملة الصليبية فى آخر المطاف، وقد أرجئ البدء بها إلى شهر أغسطس ١٢٢٧ ـ وبدأ فريدريك الثانى ببناء السفن.

واستأنفت روما فى الدعوة إلى الحرب المقدسة ولكن الدعوات قوبلت باللامبالاة ولو أراد فريدريك لما استطاع أن يجمع فى الوقت المعين ما يكفى من الناس لأجل بعثة ما وراء البحار، وفى هذه الأثناء، وقبل خمسة أشهر من الموعد المعين توفى البابا اونوريوس الثالث.

فى صيف ١٢٢٧ تجمع بضع عشرات من الآلاف من المجندين، معظمهم من ألمانيا والبقية من فرنسا وإنجلترا وإيطاليا فى معسكر قرب برنديزى والبعض الآخر أبحر إلى صقلية.

ولكن الامراض وقلة المؤن ومرض فريدريك الثانى ادى إلى إرجاء الحملة، ولكن البابا الجديد غريغوريس التاسع حرم فريدريك الثانى من الكنيسة.

وتشفياً بالبابا ابحر الإمبراطور إلى سوريا فى صيف ١٢٢٨، فكان من البابا ان منع

الحملة الصليبية ووصف فريدريك بأنه قرصان وبأنه يريد سرقة مملكة القدس.

فكانت أول حملة صليبية لا يباركها البابا، ولكن فريدريك الثانى لم يأبه فاستولى على قبرص ووصل إلى عكا، حيث بدأ المفاوضات مع السلطان الكامل أسفرت فى فبراير ١٢٢٩ عن: -

صلح لمدة ١٠ سنوات تنازل بمقابله السلطان عن القدس باستثناء منطقة الحرم القدسى، وبيت لحم والناصرة وجميع القرى المؤدية إلى القدس، وقسم من دائرة صيدا وطورون (تبنين حاليا).

وعزز الإمبراطور الالمانى بعض الحصون والقلاع وأعاد تنظيمها، ووقع مع مصر عدّة اتفاقيات تجارية، وتعهد فريدريك الثانى بمساعدة السلطان ضد أعدائه أيا كانوا، مسلمين أو مسيحيين وضمن عدم تلقى القلاع الباقية خارج سيطرته أية مساعدة من أى مكان.

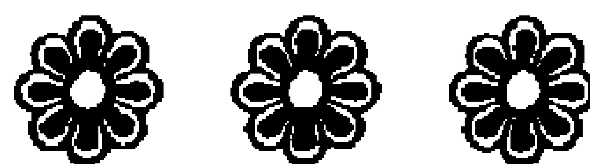
فى ١٨ مارس ١٢٢٨ توّج فريدريك الثانى نفسه بنفسه فى كنيسة القيامة، فقد رفض رجال الدين تتويج الإمبراطور المحروم من الكنيسة.

وفرضت البابوية منعا لممارسة الطقوس الدينية فى القدس.

ودفع البابا مواليه إلى ممتلكات فريدريك فى إيطاليا، فاسرع فريدريك إلى المغادرة ونشب صراع مسلح ضد الحبر الأعظم، وألحق الهزيمة بالبابا.

وفى سنة ١٢٣٠ ألغى البابا الحظر عن فريدريك وصادق فى السنة التالية على تعاهداته مع المسلمين.

وظلت القدس تحت أيدى الصليبيين حتى جاء ابن الملك الكامل سلمها لهم فى مشهد حزين مخزٍ اضاع فيها جهاد عمه صلاح الدين والمسلمين وباع دماء الشهداء من أجل ملك مصر، جاء ابنه الملك الصالح أيوب فاسترد البلدة المقدسة حرباً من أيدى الصليبيين عام ١٢٤٤ م - ٦٤٢ هـ.



الحملة الصليبية السابعة
عقب تحرير الملك الصالح أيوب للقدس

تمكن الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) من تحقيق انتصارات على الصليبيين الذين وصلتهم إمدادات من فرنسا ونجح فى استرجاع بيت المقدس.

فكان رد فعل أوروبا المسيحية تنظيم حملة صليبية سابعة قادها ملك فرنسا «لويس التاسع» وتوقفت الحملة فى سبتمبر بجزيرة قبرص استعداداً للهجوم على مصر فهى القوة التى تمكنت جيوشها من استرداد بيت المقدس ووصلت الحملة إلى «دمياط» سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) التى احتلها الصليبيون بيسر.

لكن هؤلاء فشلوا فى الزحف على القاهرة وتمكن الملك الأيوبى «تورانشاه» من محاصرة القوات الصليبية ومنع عنها الإمدادات وهو ما تسبب فى دخول الاضطرابات فى صفوف قواتها وسقط «لويس التاسع» فى الأسر بمدينة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م).

وقد أفرج عنه مقابل تنازله على مدينة «دمياط» ودفعه غرامة مالية ثقيلة وفى نفس السنة غادر «لويس التاسع» دمياط إلى مملكة «عكا» الصليبية وقضى هناك أربعة سنوات ولم يعد إلى فرنسا إلا سنة ٦٥٢ هـ (١٢٥٤ م).

وقد زامن هذه الأحداث تغير فى السلطة بمصر وذلك بانتهاء الدولة الأيوبية بمقتل الملك المعظم «تورانشاه» سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) على يد المماليك البحرية[١].

بعد انتهاء حكم الأيوبيين:

بعد فشل حملة لويس التاسع على مصر، واصل المماليك محاصرة الفرنج إلا أن أهم الانتصارات سجلت فى عهد «الظاهر بيبرس» وفاته سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧ م) كانت الإمارات الصليبية فى حدود المنطقة الساحلية لعكا وطرابلس.

وفى عهد السلطان «قلاوون» الذى ارتقى إلى السلطة سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) تم

(١) بعد اغتيال توران شاه ابن الملك المصالح أيوب بإيعاز من شجرة الدر زوجة أبيه على يد المماليك البحرية ثم اعتلاؤها عرش الحكم فى مصر لمدة أيام انتهى حكم الدولة الأيوبية فى مصر وبدأ عصر المماليك بزواج شجرة الدر من عز الدين أيبك أول حكام للمماليك.

استرجاع مدينة طرابلس.

وعندما توفى خلفه السلطان الأشرف خليل كانت الاستعدادات قد تمت للهجوم على عكا فحاصر المدينة التى استسلمت فى جمادى الأول ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م).

وسقطت على التوالى مدن صور وصيدا وبيروت وطرطوس بيد المسلمين.

وبذلك كانت نهاية الصليبيين بالمشرق الإسلامى.

إلا أنه عادوا مع بداية القرن الحالى بعد احتلال حلفائهم اليهود للقدس وأرض فلسطين.

آخر الحملات الصليبية كانت ضد تونس

غادر القديس «لويس» عاصمته فى مارس ١٢٧٠ م (٦٦٨ هـ) بهدف احتلال القدس وإنقاذ ما تبقى من الممتلكات المسيحية بالمشرق من هجوم المماليك وقائدهم «بيبرس» ولكن ملك فرنسا غير وجهته نحو تونس للدوافع التالية:

- سجلت هذه الحملة سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧٠ م) فى عهد الخليفة المستنصر الذى برزت فى عهده الدولة الحفصية كقوة إسلامية صاعدة لقيت اعترافاً من قبل العديد من القوى الإسلامية وجاءتها السفارات من العالم المسيحى (إيطاليا/ النرويج).

- مطالبة تجار «بروفانس» بمال أقرضوه إلى وزير سابق للمالية فى الدولة الحفصية ولم يلتزم الحاكم الحفصى بأداء الديون.

كان هناك أمل وهمى لدى «لويس التاسع» فى إمكانية تنصر الخليفة الحفصى وذلك حسب ما أفاده به «ريمون مارتان» وهو من المبشرين العاملين بإفريقية وكان صديقاً للمستنصر.

تجمع الصليبيون فى جزيرة سردانيا جنوب فرنسا ومنها انطلقوا فى اتجاه تونس حيث نزلوا بقرطاج فى ٨ جويلية ١٢٧٠ م (٦٦٨ هـ) وقبل الهجوم وفى انتظار قدوم «شارل» ملك صقلية انتشر وباء فى صفوف الجنود أودى بحياة العديد منهم من بينهم الملك لويس التاسع.

ثم قدوم شارل ملك صقلية وأصبح القائد الفعلى للحملة. وفى أثناء ذلك تمكن الخليفة الحفصى المستنصر الإعداد للدفاع عن العاصمة تونس مستغلاً انتشار روح الجهاد لدى الجنود والقبائل.

لكن قبل اندلاع المواجهة جنحت كل الأطراف للمفاوضات والصلح فأبرمت فى أواخر

١٢٧٠ م معاهدة كانت بنودها تخدم مصالح الصليبيين فقد قبل المستنصر دفع إتاوة سنوية وضمان الامتيازات التجارية لرعايا ملوك الفرنج وصقلية كما ذكرنا سابقاً.

ورغم انتهاء الحروب الصليبية التقليدية سنة ٦٦٩ هـ (١٢٦٠ م) بانتصار المسلمين فإن الصراع بين المسلمين والمسيحيين استمر خلال القرون التالية ويظهر ذلك فى حروب الاسترداد التى شنها المسيحيون بالأندلس والتى مكنتهم من إتمام استرجاعها سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) وكذلك فى تعرض سواحل المغرب الإسلامى عديد المرات إلى النهب والسلب من قبل المسيحيين.

هذا إلى جانب حركة الاستعمار التى تعرضت لها البلاد الإسلامية فى آخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين من قبل القوى الأوروبية المسيحية.

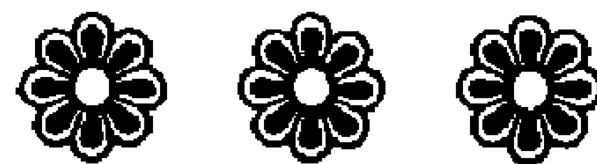
واليوم نلاحظ موجة جديدة من المواجهة تتعدد أسبابها لكنها تخفى فى طياتها رغبة فى استرجاع مناطق كانت فى زمن قديم تابعة للقوى المسيحية.

ولا يزال الصراع بين العالم الإسلامى فى الشرق والعالم الغربى المسيحى مستمراً، وقد شهد القرن العشرون والحادى والعشرون صراعاً جديداً من أجل السيطرة الصليبية على الشرق الأوسط الإسلامى.

فكان احتلال بريطانيا العظمى وفرنسا للدول العربية المسلمة والقضاء على الخلافة العثمانية ووضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى ثم صدور وعد بلفور لليهود، ثم الهجرة اليهودية لفلسطين واحتلالها تحت موافقة ومباركة الصليبيين الإنجليز.

ثم احتلال اليهود الصهاينة احتلال القدس وكامل الأراضى الفلسطينية ثم مجىء الجيش الصليبى الأمريكى البريطانى لاحتلال العراق وتهديد باقى البلاد العربية الأخرى بالاحتلال والدمار كما حدث فى العراق.

ولا تزال الحملة الصليبية التاسعة التى قادها بوش الابن مستمرة ولن يوقفها إلا التوحد العربى الإسلامى فى مواجهتها كما فعل صلاح الدين من قبل.



صلاح الدين المنتظر

- هذا أوان صلاح الدين الأيوبى قاهر الصليبيين.
- منهج صلاح الدين فى إعداد الأمة لتحقيق النصر على الصليبيين:
- عدم الاستعانة بأعداء الأمة.
- الاهتمام بالتعلم والتعليم وإنشاء المدارس.
- توحيد الفرق المذهبية على الجوانب المشتركة.

(قراءة فى ظاهرة المشايخ أو الدعاة الجدد عبر الفضائيات).

- النهوض بالأمة من التخلف إلى التقدم (قراءة فى الحديث النبوى (لا يأتى زمان على الناس إلا والذى بعده أشر منه).

22

هذا أوان صلاح الدين الأيوبى قاهر الصليبيين

حين دخل القائد الانجليزى اللنبى دمشق غازياً فى القرن العشرين ذهب لزيارة قبر السلطان صلاح الدين الأيوبى ليس للترحم عليه ولكن للشماتة والتشفى فقد وضع قدمه النجسة على قبره وهو يردد: ها قد عدنا يا صلاح الدين.

نعم لقد عادوا يا صلاح الدين..

فهل من صلاح الدين آخر يظهر فى هذا الزمان لطرد الصليبيين الجدد من بلاد المسلمين وطرد اليهود من القدس الشريف وأرض فلسطين؟

فالكل ينتظر ظهور صلاح الدين الجديد.

فيجب أن نأخذ العبر والعظة من التاريخ فالأمة التى لا تقرأ تاريخها وتستوعب ما فيه من الدروس أمة لا مستقبل لها وهى فى ذيل الأمم.

ونحن أمة اقرأ.

فعلينا العودة للقراءة ومعرفة تاريخنا كى نتعرف عن كيفية علو الأقدمين وتفوقهم، ولن نذهب إلى الماضى البعيد بل ننظر إلى الماضى القريب وبالتحديد عصر صلاح الدين الذى شهد قبل ظهوره انقسامات حادة وسيطرة مذاهب هدامة متطرفة على الفكر الإسلامى حتى أطمعت الصليبيين من غزو بلادنا.

فكان ظهور صلاح الدين أحد تلاميذ السلطان نور الدين زنكى الذى كان بدوره تلميذا فى مدرسة أبيه المجاهد آق سنقر إنها ذرية بعضها من بعض.

لقد سار صلاح الدين على نهج أستاذه نور الدين زنكى، فكان عادلاً فى حكمه أنشأ المدارس واهتم بالتعليم ونشر العلم وقرب العلماء إلى مجالسه واستشارهم فى أمور الدولة وصرف موارد الدولة على النفع العام وعلى الجيش الذى أعده لجهاد الصليبيين.

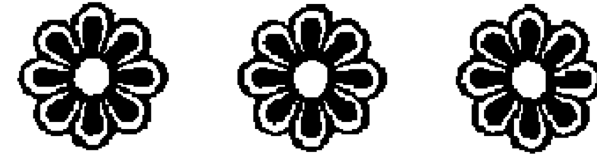
وقام بالقضاء على الدويلات الصغيرة التى تكاثرت كالسرطان فى جسم الأمة فضمها إلى دولته من أجل توحيد الصف أمام الأعداء وشجع العلماء المبتكرين فظهر ذلك العالم

الشاب الكيميائى الدمشقى الذى اخترع السلاح الكيميائى الذى قضى على أبراج الصليبيين التى جاءوا بها فى الحملة الصليبية الثالثة.

إنها كلها أمور منتظمة متكاملة تستحق الدراسة كى يظهر صلاح الدين من جديد يرفع راية الجهاد الحق ضد الصليبيين الجدد ويعيد لتلك الأمة أمجادها السابقة من جديد.

فماذا فعل صلاح الدين ومن قبله أستاذه نور الدين لإعادة أمجاد هذه الأمة ومواجهة أعدائها حتى كتب الله النصر لهم.

هذا ما سوف نتحدث عنه فى الصفحات القادمة.



منهج صلاح الدين الأيوبى
فى إعداد الأمة لتحقيق النصر على الصليبيين

١ ـ عدم الاستعانة بأعداء الأمة:

فالحكمة التاريخية تقضى أن الذى يستعين بعدوه التاريخى كمن يطفئ النار بالنفط أو من يريد أن يموت منتحراً.

فهذا أول درس استوعبه صلاح الدين من الدولة الفاطمية التى كانت شراً ووبالاً على الأمة بسياستها العنصرية ومذهبها الفاسد وتعاونها مع أعداء الإسلام ضد المسلمين.

فقد قامت تلك الدولة العبيدية الإسماعيلية صاحبة المذهب فى المغرب العربى عام ٢٨٩ هـ ثم توسعت فانتقلت إلى مصر سنة ٣٦٢هـ وكانت تعتمد على اليهود والنصارى فى حكم الشعوب التى احتلت أراضيها.

فكان من هؤلاء الأعداء وزراء وجباة للضرائب والمستشارون السياسيون للحكام والأطباء لدى الحكام.

حتى إن المصريين حين ضجوا بمظالم أحد حكامهم وهو العزيز الفاطمى ثانى حكامهم فى مصر أرسلوا له خطابا وألقوه إليه وهو يسير فى موكبه بالقاهرة مكتوب فيه:

«بالذى أعز اليهود بمنشا، وأعز النصارى بعيسى، وأذل المسلمين بك إلا ما قضيت ظلامتى».

ومن هؤلاء الذين استعان بهم الحكام الفاطميون من اليهود والنصارى: يعقوب ابن كلسى، ومنصور بن مقشر الطبيب النصرانى وعيسى بن نسطورس الكاتب والمنجم ابن على عيسى، ويحيى بن وشم الكواصى، ومنشا اليهودى.

وقد بلغ من سفه الحكام الفاطميين أن الخليفة العزيز بالله الفاطمى أوكل أمر نشر المذهب الفاطمى إلى اليهودى يعقوب بن كلسى أحد مستشاريه حتى إن هذا اليهودى كان يعلم الناس المذهب الشيعى الإسماعيلى الباطنى وألف كتاب للدعوة إلى هذا المذهب.

وظل التدهور فى أحوال البلاد السياسية أن الخليفة القاطمى المستنصر بن على حين

وصل إلى كرسى الحكم عام ٤٢٧ وجد أن اليهود يسيطرون على كل أمور القصر والبلاد ووصلت البلاد إلى حالة من التدهور الاقتصادى لم يشهدها تاريخ مصر والشام.

قال المقريزى فى وصف ذلك: لم تجد البلاد صلاحاً واستقام لها أمر وتناقضت عليها أمورها ولم يستقر عليها وزير تحمد طريقه».

حتى إن الوزراء وهم الحكام الفعليون فى البلاد فى أواخر عهد الخلافة الفاطمية لمصر قد تنازعوا وتقاتلوا فيما بينهم واتصل أحدهم وهو شاور بالسلطان نور الدين ينصره على الوزير ضرغام الذى اتصل بالصليبيين وهكذا ضاعت البلاد.

وحين أراد صلاح الدين أن ينهى أمر الخلافة الفاطمية بمصر بناء على أوامر نور الدين زنكى حتى يتفرغا لقتال الصليبيين لم يجد أى مقاومة أو معارضة من الشعب إلا مقاومة أصحاب المصالح وشلة المنتفعين الذين يستفيدون من الفساد.

وليس الدعوة بعدم الاستعانة باليهود والنصارى هو الدعوة إلى العنصرية الدينية وعدم تولية أى منهم فى مناصب الدولة وإنما هو إبعاد اليهود الأعداء التقليديين للإسلام والمسلمين وعدم التعاون معهم أما أصحاب البلد أو من غير المسلمين فلا بأس بهم إذ لم يقاتلوا المسلمين أو يسعوا فى الأرض فساداً أو يقوموا بالتبشير لعقيدتهم.

ولبيان الخطر اليهودى الصهيونى على الأمة الإسلامية نذكر ما حدث عن تنامى تلك الحركة التى اتخذت شكلاً تنظيمياً لها أيديولوجية وأهداف تسعى إلى تحقيقها فى أواخر القرن التاسع عشر من السعى لإقامة وطن لهم باغتصاب أرض فلسطين وطرد الشعب الفلسطينى من أرضه فعقد المؤتمر الصهيونى بزعامة هرتزل الصهيونى فى مدينة «بال» السويسرية عام ١٨٩٧ م وتم وضع خطة لإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين باعتبارها أرضا بلا شعب، لشعب بلا وطن.

وكان بداية التغلغل الصهيونى فى العالم الإسلامى فى الدولة التركية التى تمثل الخلافة العثمانية الإسلامية وكانت على وشك الانهيار بعد أن أصبحت خلافة رمزية لدول تقع تحت الاحتلال الصليبى.

فحاول اليهود الصهاينة الحصول على أرض فلسطين وإقامة وطن عليها من الممثلة الشرعية لهذه الأرض.

وقد حاول الصهاينة بقيادة هرتزل إقناع (السلطان عبد الحميد) العثمانى - بالسماح

لهم بالهجرة إلى فلسطين.. فرفض السلطان رفضاً قاطعاً ولم يكتف بهذا، بل وأصدر قانوناً بمنع الهجرة اليهودية وبمنع إقامة مستعمرات لليهود فى فلسطين.

وكان هذا هو (قشة البعير) كما يقولون التى قصمت ظهر الرجل المظلوم، فقد حرك الصهاينة. حركات التحرر والحركات القومية، والاستعمار الانجليزى، ووجدت الإمبراطورية العثمانية نفسها أمام طوفان من المشاكل لا ينتهى، كان أشدها وأبعدها أثراً حركات التمرد الداخلى، ومن الغريب جداً أن يكون مشعلو الثورات ضد الخلافة الإسلامية فى داخل البلدان العربية من الطوائف الإسلامية أو الإسلامية المتطرفة التى تحركها أيديولوجياً وحركياً ـ أيد أجنبية.

لكن مع ذلك، وبتأثير شعارات براقة صنعها اليهود، بتأثير هذا وغيره من الوسائل اندمج فى هذه التجمعات المضادة للخلافة بعض العناصر الإسلامية.

ولم تأت سنة ١٩١٨ م إلا وكان السلطان عبد الحميد المظلوم قد سقط، ووقعت جميع الأقطار العربية كمناطق نفوذ لبريطانيا وفرنسا.

وأيضاً صدر (وعد بلفور) المشئوم فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ م، وبدأت فلسطين تقع تحت الظروف الممهدة للزوال، وكانت أولى الخطوات فى ذلك وقوعها تحت الانتداب البريطانى فى عام ١٩٢٠ م.

وبين الحربين العالميين «١٩١٤ م ـ ١٩٣٩ م» كان التطبيق العملى للمؤامرة العالمية، وأيضاً فى الجانب الآخر الحركات الداخلية الممتصة للطاقة والمبددة لها والصارفة عن الخط الحقيقى لاستهلاكها.

كان ذلك كله يعمل على سقوط الخلافة العثمانية، وسقوط العرب بدءاً من فلسطين!!

كان رفض السلطان «عبد الحميد» تهويد فلسطين لطمة لم ينس اليهود أن يردوها للخلافة رداً سخياً لم يكن بوسع السلطان عبد الحميد أن يتخيله!!

فإلى جانب ما ذكرناه من تحريك للقوى المناوئة للدولة، ومن غرس لبذور الفكرة العنصرية المحاربة للراية الإسلاميسة الموحدة لربع البشر!!

إلى جانب هذا.. هجم اليهود من الداخل على الدولة العثمانية بواسطة الأسلحة نفسها التى استعملوها فى كل بلدان العالم الإسلامى، وهى أسلحة العنصرية والتحضرية، والحرية، والإخاء، والمساواة.. وهلم جرا من الشعارات التى اصطنعها الماسون، وروجوا لها، واستعملوا بعض المخدوعين لإذاعتها وتفتيت راية الأمة وقبلتها وأهدافها!!

وقد أقحم هؤلاء تركيا فى الحرب العالمية الأولى دون مبرر معقول أو سبب يتعلق بها.

فلما هزم الألمان، أذعنت تركيا للهزيمة بنفسها، وسجل رسمياً سقوط الكرامة العثمانية الإسلامية بهدنة رودس فى ١٩١٨ م.

وقد غادر زعماء تركيا الفتاة البلاد، فقصد أحدهم «أنور باشا» روسيا، وقصد «طلعت باشا» ألمانيا، ولقد شاء الله أن يقتص منهما قصاصاً دنيوياً عاجلاً.

فلم يلبث «أنور باشا» أن قتل اغتيالاً فى تركستان، وأن يصرع طلعت فى برلين، ويغتال جمال فى تفليس «أما الكاتبة خالدة أديب.. التى طال بها العمر فترة.. فلم تلبث أن طردت شر طردة، من تركيا بعد خلاف حاد بينها وبين الزعيم اليهودى الكبير مصطفى كمال أتاتورك!!

ولم تكد الحرب العالمية الأولى توشك على الانتهاء حتى كانت الدول الأوروبية قد أتمت المسرحية الهزلية، لاقتسام أملاك الخلافة الإسلامية الأخيرة، ولإبراز رجل ينفذ مخططاتهم وأطماعهم بحذافيرها.

وعلى الرغم من أن الكتابات الاستشراقية والكتابات الصليبية واليهودية والشيوعية تجمع على إخفاء هذه الحقيقة، فإن الأحداث بطبيعة تطورها تثبت هذه الحقيقة.

ويكاد يصرح بهذه الحقيقة المستشرق «كارل بروكلمان» على الرغم من ذكائه الحاد فى تطويع الحقائق، وبترها وإضفاء جو إنشائى حماسى عليها ففى كتابه الشهير «تاريخ الشعوب الإسلامية ـ الدولة الإسلامية بعد الحرب العالمية الأولى» يقول: «عند ذلك.. هيأت الدول الحليفة لتركيا ـ الفرصة السانحة للرجل الذى قدر له أن ينشئ تركيا الحديثة.

أى دول حليفة لتركيا تلك التى حولتها من زعيمة روحية ـ على الأقل ـ لربع البشرية إلى دولة هزيلة تعيش بلا ماض وبلا حاضر وبلا مستقبل؟

وأى دول هذه التى ساعدت هذا اليهودى على إلغاء الحروف العربية، وإزالة الأوقاف، وإغلاق المساجد، وقصر علماء الدين على ثلاثمائة واعظ فى طول البلاد وعرضها، وتحويل مسجد «أياصوفيا» الشهير إلى متحف.

ومسجد محمد الفاتح إلى مستودع، وإلغاء الشريعة الإسلامية.

واستبدال القبعة بلباس الرأس الوطنى السابق «الطربوش» وفرض اللباس الأوربى بالقوة، وحذف اللغة العربية واللغة الفارسية من مناهج التعليم بالمرة، وباع الكتب والمخطوطات العربية بأبخس الأثمان.

فضلاً عن التعليم العلمانى الأوروبى، ليس فى المجال التقنى كما يجب أن يكون، بل ـ فقط ـ فى المجال الإنسانى والأدبى والدينى.

ولم يكن الخليفة العثمانى محمد السادس الذى عاصر هذا الانقلاب، كما لم يكن الخليفة الذى وضعه الانقلابيون مكانه «عبد المجيد بن عبد العزيز» لم يكن هذا وذاك أكثر من تحفتين تاريخيتين.. تحملان معالم صورة هزيلة مهتزة، لحقيقة كانت ـ يوماً ما ـ عظيمة قوية ترعب أوربا كلها.

ومع ذلك فلقد أدرك مصطفى كمال الدونمى اليهودى أن البقاء الرمزى الصورى لهذه الحقيقة القوية العظيمة يشكل فى حد ذاته خطراً على مخططاته الصهيونية.. ولذا فلم يكد يملك السلطة فى يده ويتربع بتؤدة على عرش السيطرة لمدة خمسة أشهر.

حتى أعلن إلغاء الخلافة الإسلامية، ثم طرد آخر خليفة للمسلمين من البلاد فى اليوم الثالث من مارس سنة ١٩٢٤ م.

ولعل العقلاء وحدهم هم الذين يسألون: ماذا استفادت تركيا من هذه الخطوة؟ وماذا كان يمكن أن تكسب لو أنها مضت فى طريق الإصلاح مبقية على مركزها كزعيمة روحية إذا كانت هناك نية إصلاح حقيقية؟

ولعل هذا وذاك يفسران للعقلاء وحدهم أن هناك أمراً كان مبيتاً، وأن العالم الإسلامى والعالم العربى كانا من الأهداف الرئيسية لضرب الخلافة الإسلامية، ولم تكن أبداً تركيا هى المقصودة وحدها.

وفعلاً تداعت تركيا وسقطت، فلم تقم لها قائمة حتى اليوم وتداعى بعدها ومعها العالم الإسلامى بلداً بلداً، وفكت أواصر الحب والوحدة.

ونال العرب حظهم من كل ما أصاب العالم الإسلامى، ولعل الأقدار قد لقنتهم أقسى الدروس، حين زرع الاستعمار الصليبى فى قلبهم شوكة الصهيونية على أرض فلسطين واحتلالهم القدس الشريف.

ثم كانت معاهدة السلام مع الكيان الصهيونية مدخلاً ومنعطفاً تاريخياً هاماً نحو الهزيمة والضعف ونسيان القضية الفلسطينية والاحتلال الصهيونى لأراضٍ عربية، وتم عقد معاهدات سلام أخرى وتعاون فى مجالات مع معظم الدول العربية.

ولهذا لم يستعن صلاح الدين بأعداء الأمة التقليديين فى أمور السياسة والاقتصاد وإنما استعان بالعلماء الربانيين المخلصين وأخذ بكل أسباب النجاح واهتم بمؤسسات الدولة.

٢ـ الاهتمام بالتعليم والعلماء وإنشاء المدارس

اهتم صلاح الدين وقبله نور الدين زنكى فى تكوين الدولة الإسلامية الجديدة فلقد اعتمدت تلك الدولة الفتية على الفرد المسلم.

فكان الاهتمام بالتعليم والعلماء والمدارس الفقهية فى العصر الأيوبى والعصر الزنكى حتى شارك فى هذه النهضة العلمية الأمراء ونساء الحكام كما ذكرنا من قبل.

فقد عمدت الدولة إلى بناء المدارس ودور القرآن ودور الحديث. واستقدمت مشاهير العلماء وخاصة أولئك الذين تخرجوا من مدارس الإصلاح كالغزاليةوالقادرية والعدوية والحرانية.

ولم يكن التعليم لدى الدولة الجديدة مجرد نشاط أكاديمى يستهدف توفير الموظفين والمهنيين، وإنما كان بالدرجة الأولى نشاطاً عقائدياً استهدف إعادة صياغة الجماهير المسلمة بما يتفق وأهداف الإسلام والحاجات القائمة.

وكانت مؤسسات هذا التعليم تنقسم إلى قسمين:

الأول: المدارس ودور القرءان والحديث؛ ووظيفتها الرئيسية إخراج جيل جديد من الناشئة الذين تصفو عقيدتهم وتعلو مقدرتهم العقلية والنفسية إلى المرتبة التى يجب أن يحتلها المسلم.

والثانى: هو المساجد حيث أقيم فى مدينة دمشق وحدها ما يزيد على مائة مسجد جامع كبير.

فكانت أماكن للعبادة وللتعليم كما كانت على زمن الرسول ﷺ فى صدر الإسلام.

ركزت على بث الروح الإسلامية من جديد، وركزت على تجفيف التعاليم والمذاهب الإسماعيلية والفلسفية التى تركت آثارها عميقة فى عقائد السكان وعاداتهم ومواقفهم السياسية والإجتماعية.

ولقد بلغ هذا الاهتمام بالتعليم أوجه زمن نور الدين زنكى. وتشير المصادر أنه بدأ هذه السياسة منذ سنوات حكمه الأولى.

من ذلك ما يذكره ابن قاضى شهبة بقوله:

«فى عام ٥٤٣، أبطل نور الدين بحلب الأذان بحى على خير العمل والتظاهر بسب الصحابة، وأنكر ذلك إنكاراً شديداً، وساعده فى ذلك جماعة من أهل السنة والجماعة.

وعظم ذلك على الطائفة الإسماعيلية وأهل التشيع، وضاقت له صدورهم وهاجوا وماجوا ثم سكتوا وأحجموا للخوف من السيطرة النورية المشهورة والهيبة المحذورة»[١].

وجرياً على عادة المؤرخين القدامى، يصف أبو شامة هذا النشاط التعليمى وكأنه جهد فردى قام به نور الدين وحده، فيذكر أنه استقدم الفقيه الشافعى قطب الذين النيسابورى من خراسان وبالغ فى إكرامه.

وأنه استقدم من بغداد ابن الشيخ أبى النجيب الأكبر، ووفد إليه من أصبهان الفقيه شرف الدين عبد المؤمن بن شوردة.

ويضيف أبو شامة أن نور الدين أوجز هذه السياسة التعليمية بقوله:

«ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين»[٢].

غير أن الصفة الجماعية للنشاط التعليمى الذى رافق الدولة الزنكية، تبدو واضحة من تبارى الوزراء والقادة والأغنياء والرجال والنساء فى إنفاق أموالهم فى بناء المدارس والمؤسسات التعليمية وتوفير الفرصة لجميع أفراد الأمة لدخولها والاستفادة منها.

ولقد استهدف هذا التوجيه جماهير المسلمين من العمال والمزارعين والتجار، وهو يقابل ما يسمى فى عصرنا الحاضر «تعليم الكبار» ولكنه يختلف عنه فى مناهجه، فهو لا يقتصر على محاربة الأمية وإنما يستهدف الأخلاق والقيم والعقيدة كذلك.

ولقد تخصص فى هذا الميدان من التربية شيوخ التصوف بعد أن جرى إصلاح التصوف على يد الشيخ عبد القادر وأصحابه من الشيوخ المعاصرين.

ويلاحظ أن حركة إصلاح التصوف وتنقيته مما علق به وإخراجه عن غربته للمشاركة فى مواجهات المشكلات والأخطار تزامنت مع ما قام به نور الدين من العناية بإقامة الأربطة وبناء الزوايا واحترام شيوخ التصوف واستقدامهم.

ولقد قامت هذه المؤسسات بدورها إلى جانب المدارس التعليمية، وأدت واجبها فى تهذيب الجماهير المسلمة فيما يتفق وخطة الدولة النورية.

---

(١) بدر الدين بن قاضى شهبة، وأنظر الكواكب الدرية فى السيرة النورية. ـ بدر الدين بن شهبة.
(٢) انظر كتاب الروضتين ـ لأبى شامة المقدسى.

وتكاملت هذه الميادين التربوية برجالها ومؤسساتها وبرامجها.

ولقد أورد أبو شامة وسبط ابن الجوزى صورة واضحة لهذا التكامل والتعاون.

فكان هناك مجلس عام للقيادات التعليمية والتربوية، يحضره كبار الفقهاء وشيوخ التصوف والقادة العسكريون.

وفى هذا المجلس كانت تناقش كافة الموضوعات بروح علمية متساوية دون أن تلوثها الحساسيات المذهبية أو التعصب للمذهب أو الجماعة.

وكان نور الدين نفسه يحضر هذه المجالس ويجلس أمام العلماء والشيوخ كما يجلس الأفراد العاديون(١).

وبسبب هذا التكامل والوفاق تداعى العلماء والشيوخ والمريدون إلى الهجرة إلى الدولة الجديدة حتى تجاوز عددهم الآلاف، وأخذ كل منهم مكانه فى ميادين التربية والتوجيه.

وقد ذكرنا بعضاً من هذه المدارس الفقيهة فى عصر نور الدين وصلاح الدين.

وكان نور الدين زنكى نفسه يداوم على حضور هذه اللقاءات ويجلس كأحد الأفراد العاديين(٢).

ولقد أرسل والد موفق الدين هذا ولده الموفق وبعض أقاربه للدراسة فى المدرسة القادرية.

وتلك الصورة التى قدمها المؤرخون للموفق وقريبه تقدم مثلاً للنمط الذى كان يتخرج من المدرسة المذكورة.

يقول سبط ابن الجوزى فى تاريخه: «شاهدت من الشيخ أبى عمر وأخيه الموفق ونسيبه العمال ما نرويه عن الصحابة والأولياء والأفراد.

فأنسانى حالهم أهلى وأوطانى، ثم عدت إليهم على نية الإقامة عسى أن أكون معهم فى دار المقامة»(٣).

ومما ذكره عن ابن قدامة:

«كان عزوفاً عن الدنيا وأهلها، هيناً ليناً، متواضعاً محباً للمساكين، جواداً سخياً، من رآه كأنما رأى بعض الصحابة ـ كثير العبادة يقرأ كل يوم وليلة سبعاً من القرآن»(٤).

---

(١) انظر المصدر السابق. (٢) انظر مرآة الزمان ـ سبط ابن الجوزى.
(٣) انظر مرآة الزمان ـ سبط ابن الجوزى. (٤) انظر المغنى لابن قدامة جـ ١.

وتداعى العلماء وخريجو المدارس الإصلاحية من كل قطر للعمل فى المدارس التى أنشأها نور الدين وصلاح الدين.

من ذلك ما قام به خريجو المدرسة القادرية حيث كان على رأس هؤلاء موسى ابن الشيخ عبد القادر الذى قدم إلى دمشق، واشتغل بالتدريس حتى وفاته عام ٦١٨ هـ/ ١٢٢١م(١).

كذلك بنى نور الدين مدرسة فى حران وأسلمها إلى أسعد بن المنجا بن بركات (المتوفى ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م) والذى درس على الشيخ عبد القادر ثم عاد إلى الشام.

كذلك أسند نور الدين إليه التدريس فى المدرسة المسارية.

وأسند إليه القضاء أيضاً. ولقد استمرت ذريته تتناوب التدريس فى مدرسته فيما بعد(٢).

كذلك بنى نور الدين مدرسة أخرى فى حران، أسلمها إلى حامد بن محمود (المتوفى عام ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م) الذى لازم الشيخ عبد القادر ودرس عليه «وكان نور الدين محمود يقبل عليه وله فيه حسن ظن»(٣).

وفى زمن صلاح الدين عمل فى التدريس موفق الدين عبد الله بن قدامة ـ الذى مر ذكر ورعه وأخلاقه ـ وكان قد رحل إلى بغداد ـ كما مر مع ابن عمه الحافظ عبد الغنى، وتخرجا من المدرسة القادرية.

ويبدو أن السنوات التى قضاها الموفق فى بغداد تركت أثراً كبيراً فى حياته فظل متعلقاً بها، وزارها مرات عديدة بعد تخرجه واشتهار أمره. كما ظل متأثراً بالشيخ عبد القادر ينوه بفضائله ويروى كراماته.

ولقد أصبح الموفق هذا مستشاراً من مستشارى السلطان صلاح الدين، وصار علماً من أعلام الفقه الحنبلى، يحرص الكل على التفقه على يديه وعلى دراسة كتبه.

كذلك قدم الشيخ عبد الرحمن بن عثمان الصلاح، والد المحدث المشهور تقى الدين بن الصلاح الكردى الشهرزورى، وكان من مشايخ الأكراد المشار إليهم، تولى بحلب التدريس فى المدرسة الأسدية المنسوبة إلى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين.

---

(١) شذرات الذهب ـ ابن العماد الحنبلى. (٢) انظر العبر للذهبى.

(٣) طبقات الحنابلة ـ لابن رجب، والعبر للذهبى.

وكان قد دخل بغداد ودرس فيها وظل فى عمله حتى وفاته فى مدينة حلب عام ٦١٨هـ.

وكذلك الفقيه قطب الدين النيسابورى الذى درس فى نيسابور ثم انتقل إلى بغداد ثم دمشق كى يتولى التدريس فى المدرستين التى أنشأهما السلطان نور الدين إلى جانب عمله سفيراً وقد توفى فى دمشق عام ٥٧٨ هـ. والفقيه القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزورى الذى درس فى بغداد ثم انتقل إلى دمشق واتصل بالسلطان صلاح الدين الذى أرسله سفيراً خاصاً به إلى الخليفة العباسى وولى القضاء فى الشام ثم الموصل وظل فيها حتى وفاة السلطان صلاح فانتقل إلى حماه وأقام فيها حتى توفى عام ٥٩٩ هـ.

وشارك العلماء والفقهاء فى الجهاد مع نور الدين وصلاح الدين فقد شكلت المدارس الفقيهة التى أنشأها صلاح الدين فى تخريج عسكريين فقهاء ساعدوا السلطان فى جهاده ضد الإفرنج.

وأبرز تلك المدارس القادرية والمدرسة العدوية وفروعها التى خرج منها الأكراد الهكارية والروادية وقد شكلوا أمراء جيش صلاح الدين وقادته وكان من أشهرهم الأمير سيف الدين المشطوب الذى تولى حكم عكا ووقع فى الأسر الصليبى ثم خرج من الأسر بالفداء وذهب إلى صلاح الدين عام ٥٨٢ فأكرمه كما ذكرنا من قبل.

ومن العلماء القادة عيسى بن محمد الهكارى الذى أصبح من كبار الأمراء عند صلاح الدين وفى دولته وكان من المعينين لصلاح الدين فى الحكم واستمر فى الجهاد حتى وفاته عام ٥٨٥ هـ فى حصار عكا.

واستعان صلاح الدين بطلاب العلم من المدرسة القادرية ومنهم أسعد بن المنجا بن بركات الذى لعب دوراً هاماً مع صلاح الدين وهناك الفقيه زين الدين على ابن إبراهيم بن نجا الواعظ الأنصارى الدمشقى فقد كان من رجال صلاح الدين ومستشاريه.

وقد عمل على تهيئة الأجواء لنور الدين قبل غزوه لمصر، فقدم مصر وخالط الفاطميين فعرف مواطن الضعف والقوة عندهم وقام بواجب إعلامى هام وتعبئة الناس لصالح نور الدين زنكى والمذهب السنى. وهكذا كان ابن نجا الواعظ أداة إعلامية ناجحة مثل المحطات الفضائية فى عصرنا الحالى.

وعندما تولى صلاح الدين حكم مصر خص نفسه بن نجا وجعله من مستشاريه. ويصور أبو شامة طبيعة العلاقات بين الاثنين فيقول: «وكان السلطان يستشيره ويروقه تدبيره ويميل

إليه لقديم معرفته وكريم سجيته»[١].

ويضيف ابن رجب أن صلاح الدين كان يسمى ابن نجا عمرو بن العاص، ويعمل برأيه لسداد رأيه وسعة حيلته، وأن كثيراً من أرباب الدولة وأهل السنة فى مصر كانوا لا يخرجون عما يراه لهم زين الدين بن نجا، وأن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين قال له:

«إذا رأيت مصلحة فى شىء فاكتب إلى بها، فأنا ما أعمل إلا برأيك»[٢]. ويذكر سبط ابن الجوزى أن ابن نجا نشط فى الوعظ والتحدث، وأن صلاح الدين وأولاده كانوا يحضرون مجلسه ويسمعون مواعظه، وكان له الجاه العظيم والحرمة الزائدة[٣].

وتبدو أهمية الدور الذى لعبه زين الدين بن نجا فى كشفه لمؤامرة الفاطميين برئاسة عمارة اليمنى على الإطاحة بصلاح الدين.

واعتماداً على صداقة الفاطميين السابقة فقد وثق المتآمرون بابن نجا وأوقفوه على نواياهم وأشركوه فى أمرهم.

وكانت خطتهم تقضى باستدعاء الصليبيين ليهاجموا مصر من الشمال فينشغل صلاح الدين بمدافعتهم وبذلك يتيسر لعمارة وصحبه تنفيذ ما يريدون.

غير أن ابن نجا أخبر صلاح الدين بنواياهم وصار ينقل إليه تحركاتهم أولاً بأول إلى أن كشف أمرهم واعتقلهم صلاح الدين وأمر بصلبهم[٤].

وفى روايته لقصة المؤامرة قدم الفتح بن على البندارى تفاصيل مثيرة[٥].

فقد أضاف أن المتآمرين استهدفوا إرجاع الحكم الفاطمى وعيَّنوا خليفة من الفاطميين وزيراً، وكتبوا إلى الصليبيين يستدعونهم لغزو مصر وذلك أثناء غياب صلاح الدين فى الكرك.

واتفقوا على إرسال خيرة جيش صلاح الدين إلى اليمن لتضعف مقاومته للصليبيين.

وأدخلوا فى الشورى معهم الواعظ زين الدين بن نجا الذى أظهر لهم أنه معهم ثم نقل أخبارهم إلى صلاح الدين، فأمره بالاستمرار معهم ثم نقل أخبارهم أولاً بأول.

فجاء رسول الصليبيين إلى صلاح الدين بهدية ورسالة، ولكنه فى الحقيقة جاء للاتصال بالمتآمرين والتنسيق معهم.

---

(١) كتاب الروضتين ـ مصدر سابق. (٢)طبقات ابن رجب.

(٣) مرآة الزمان ـ سبط بن الجوزى. (٤) كتاب الروضتين.

(٥) الفتح بن على البندارى، سنا البرق الشامى، ١٩٧١، ص ١٤٨.

ولما وصل جيش الصليبيين إلى الإسكندرية وجد أن المؤامرة قد انكشفت وأن الاستعدادات قد اتخذت لمواجهته، وجرت بينهم وبين حامية الإسكندرية حربٌ انتهت بهزيمة الصليبيين[1].

وعندما خرج صلاح الدين لمحاربة الصليبيين فى بلاد الشام كان يكتب زين الدين بن نجا بوقائعه[2].

من ذلك أنه عندما فتح قلعة حمص عام ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م كتب إليه يصف القلعة برسالة مطوّلة.

وعندما قر رأى صلاح الدين على الاستقرار فى بلاد الشام كتب له ابن نجا عام ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م كتاباً يشوّقه إلى مصر ونيلها وخيراتها ومساجدها ومشاهدها. ثم ذكر فضيلة مصر واستدل عليها بالآيات والأخبار والآداب والآثار.

فرد عليه صلاح الدين فى رسالة ـ أوردها كل من سبط ابن الجوزى وأبو شامة ـ يخبره بأن سكنى الشام أفضل ومناخها أجود وأن الله أقسم بها فى القرآن، ويعاتبه على عدم حنينه إلى وطنه دمشق، ويدعوه للانتقال إليها إلى أن ختمها بقوله: «وفقه الله قد تعرض للشام فلم يرض أن يكون المساوى حتى شرع فى ذكر المساوى. ولعله يرجع إلى الحق ويعيد سعد أسعاده ورفاقه إلى الأوفق إن شاء الله»[3].

واستمر ابن نجا يعمل مع صلاح الدين حتى دخل معه بيت المقدس فاتحاً وألقى فى المسجد الأقصى أول مجلس للوعظ وكان له هذا الشرف العظيم.

وهكذا يتضح الدور الذى قاده العلماء والفقهاء فى الدولة الزنكية والدولة الأيوبية وكيف قادت صلاح الدين إلى تحقيق النصر، والتمكين فى الأرض وتحرير المقدسات والبلاد من الصليبيين المغتصبين عباد الصليب.

ولن يتكرر هذا النصر إلا إذا أخذنا بالأسباب التى بها تحقق النصر فى عهد صلاح الدين الأيوبى رحمه الله.

---

(١) عماد الدين الأصفهانى، تاريخ دولة السلجوقية.

(٢) أبو شامة، كتاب الروضتين، ج٢، ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٣) المصدر السابق.

توحيد الفرق المذهبية على الجوانب المشتركة ونبذ المسائل الخلافية (قراءة فى ظاهرة المشايخ الجدد على الفضائيات)

من علامات ضعف الأمم وخذلانها وهزيمتها واختلافها على كتابها ودينها سبب سعيهم وراء الأهواء والتعصب المذهبى.

والاختلاف فى سنن الله فى خلقه، قال تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. **(هود: ١١٨ ـ ١١٩).**

والاختلاف بين المؤمنين فى الدين الواحد أمر وارد وقد جعل الله لذلك مخرجاً.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ **(النساء: ٥٩).**

وأما الخلاف فهو فى اللغة بمعنى المضادة، وتخالف الأمران إذا اختلفا ولم يتفقا وهذا يعنى عدم الموافقة على الإطلاق.

قال تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ **(هود: ٨٨).**

وأمة الإسلام تعيش على الكتاب الذى هو القرآن الكريم والسنة النبوية.

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ **(البقرة: ٢١٣).**

فكانت الفترة الأولى من حياة البشرية منذ آدم إلى نوح على التوحيد والاتفاق وعدم الاختلاف حتى حدث الشرك والكفر وعبادة الأصنام فبعث الله تعالى الرسل لهداية البشر الضالين وختم بخير البشر رسولنا ونبينا محمد ﷺ وكانت هداية الله للذين أمنوا أمر طبيعياً لأن الله الهدى من يشاء إلى صراط مستقيم وهؤلاء المؤمنون سعوا إلى الوصول إلى

الحق فهداهم الله إليه.

ومن الأسباب المؤدية إلى الاختلاف بين الناس على وجه العموم:

- عدم وضوح الرؤية لموضوع ما فى كل جوانبه.

- التعصب لرأى ما والانغلاق عليه وعدم سماع الرأى الآخر.

- اختلاف البيئة والثقافات بين الناس.

وأهم هذه الأسباب هو التعصب الذى أساسه الجهل ورفض الإنصات للرأى الآخر المخالف مع الاعتقاد أن رأيه هو الأصح ورأى مخالفه هو الخطأ.

والمجتمع الذى أقامه صلاح الدين أسسه على التوحد والوحدة ونبذ الاختلاف المذهبى بنشر المدارس الفقيهة للمذاهب الفقيهة المعروفة مع عدم التعصب واختيار معاونين له من شتى المذاهب وجعل همته وهدفه هو جهاد العدو الصليبى وتحرير القدس.

أما حال الأمة الإسلامية اليوم فهو الاختلاف بين كل المذاهب الفقهية والسايسية.

وأسوأ ما حدث لهذه الأمة تقاتل أصحاب القضية بين حماس وفتح قطبى المقاومة على أرض فلسطين وسبب ذلك هو التعصب واعتقاد كل طرف أنه الأحق بالدفاع عن القضية الفلسطينية وأنه على الحق المبين.

وكذلك نجد الاختلاف بين أهل السنة والجماعة على شاشات التلفاز أو الفضائيات حتى وصل الأمر إلى تكفير كل فئة للأخرى.

والسبب فى ذلك عدم وجود شخصية تاريخية مثل صلاح الدين كى يجتمع الكل حوله.

وأيضاً ظهور فئة ممن يسمونهم الدعاة الجدد قد جعل بعضهم الدين مصدر رزقهم فامتلأت جيوبهم بالأموال لصاحب من يدفع لهم.

ولعلى أزعم أننى أعرف بعضاً من هؤلاء المشايخ الجدد يظهر على معظم القنوات الفضائية الإسلامية أصبح ملياردير بسبب اشتغاله بالدعوة على الفضائيات لصالح مذهب معين يدر عليه الملايين من الدولارات حتى إنه يسكن القصور ويركب أحداث أنواع السيارات.

وغيره الكثير من هؤلاء المشايخ الجدد الذى استفادوا من الدين ولم يستفد منهم الدين والمسلمون شيئاً.

وهناك أيضاً من الدعاة المخلصين ولكنهم لا يملكون من الأمر شيئاً إلا أنهم يؤدون

دورهم فى جمع الشتات من الأمة.

ومع هذا الاختلاف والضعف فى الأمة نجد أن الأمل مازال متواجدا وأن ظهور القائد المصلح على شاكلة صلاح الدين على وشك الظهور.

إضافة إلى أن أهم سمات صلاح الدين أنه لم يعش فى قصر أو دار وإنما عاش حياته كلها منذ أن رفع راية الجهاد فى الخيام مع المجاهدين ولم يترك من الأموال فى خزانته إلا ديناراً واحداً كما قال بذلك المؤرخون الذين عاصروه.

أما بعض الدعاة والمشايخ الجدد الذين يسكنون القصور والفلل والدور الفاخرة ويعيشون عيشة الملوك فلا يصلحون أن يكونوا مقدمة لظهور القائد المصلح الذى تجتمع عليه الأمة.

بل هم دعاة الخلاف والاختلاف الساعون لجعل الأمة فى أتون التخلف والضعف والهزيمة ولا يهمهم إلا مصالحهم ودنياهم والله أعلم بهم ونسأله أن ينجى الأمة منهم.

فالعالم الربانى هو الذى يبتغى الأجر من الله عز وجل فى الآخرة ولا يشترى بعلمه الدنيا الفانية.

فالعلماء هم ملح هذه الأمة فإذا فسد الملح فمن يصلح الأمة، لأن الملح هو الذى يصلح الطعام ويجعله مستساغاً طيب المذاق. وهذا ما يفعله العلماء المصلحون.

وعلينا أن نقرأ سيرة علماء هذه الأمة الربانيين أمثال أحمد بن حنبل والشافعى وغيرهما الكثير لنتعرف عن هؤلاء الرجال الذين صدقوا الله.

ومما عمت به البلوى فى أمتنا المسلمة ظهور علماء يدعون العلم ويعلون من شأن أنفسهم ويحقرون من شأن غيرهم من العلماء والناس.

حتى إذا ظهر داعية إلى الله حاربوه وانتقصوا من أمره وهذا مما يضعف الأمة.

ومن هؤلاء من يتصفون أو يوصفون بأنهم علماء من يطلقون عليهم أسماء مثل أهل الفن فيقال هذا أسد السنة وهذا محدث العصر وكأنه لا يوجد محدث غيره، وغر العقيدة، ومثل هؤلاء مثل أهل الشهرة والرياء.

وقد جاء فى الحديث الصحيح أن أول من يدخلون النار وتسعر بهم ثلاثة ذكر منهم العالم الذى كان يدعو الناس إلى الهداية والدين تظاهرا وسبب دخوله النار أنه كان يرائى بعمله الدعوى، فيقال له إنما فعلت ذلك ليقال إنك عالم أو فقيه فقد قيل قد أخذت حظك فى الدنيا نسأل الله الإخلاص فى القول والعمل ونعوذ به من الرياء والنفاق وسوء العمل إنه

ولى ذلك والقادر عليه.

فالعالِم الذى يبتغى من علمه الله والناس والشهرة لاحظ له من عمله إلا فى الدنيا فقط والله أعلم.

٤ ـ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة

إعداد جيش قوى لمواجهة أعداء الأمة مما أجاد فى صناعة صلاح الدين ومن قبله نور الدين زنكى وإعداد الجيش المسلم يأتى بعد إعداد العلماء والناس وتوحيد الصفوف فيكون القتال والجهاد لإعلاء كلمة الله على الأرض وتحريرها من أيدى أعداء الأمة.

ومما أضاع الأمة فى عصورها المتخلفة أنها قدمت الجهاد على العلم فظهر المجاهدون الجهلاء الذين ضاعوا وأضاعوا.

ولقد كان الأمر الإلهى بالإعداد والاستعداد فى أية سورة الأنفال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ **(الأنفال: ٦٠)**.

وإعداد الجيش المسلم القوى يحتاج إلى مال كثير والأمة الإسلامية من أغنى الأمم على الإطلاق، وفيها الأراضى الخصبة والمعادن فى باطن أرضها والنفط الذى يدر الأموال الطائلة وغير ذلك من الثروات.

وبُعد الأمة عن تعاليم الإسلام الحنيف بعدم اكتمال أركان الإسلام الخمسة وخاصة الزكاة هو الذى أفقرها، فقد أضاعت الأمة الكثير من أركان الإسلام الخمسة وخاصة الصلاة والزكاة فأصبحت من أفقر الأمم.

والأمر الإلهى بالإعداد للعدو هو الإعداد قدر الاستطاعة، أما النصر فهو من عند الله عز وجل «وما النصر إلا من عند الله».

فالإعداد من قبيل الأخذ بالأسباب فى كل أمور الحياة.

ومن خلال قراءاتنا لتاريخ صلاح الدين نجد أن من أسباب الإعداد الجيد للجيش المسلم هو إخلاص العمل لله عز وجل، وأن يعلم الجندى والقائد أن قتاله لأعداء الله ليس من أجل القومية البغيضة أو العنصرية المقيتة وإنما لنصرة دين الله وإعلاء كلمة التوحيد وأن مبتغاه نيل ما عند الله من أجر الشهيد والمجاهد فى سبيل الله وليس الحصول على الغنائم والمال أو الراتب من عمله كجندى فى الجيش.

فإصلاح النية أمر هام فى قبول العمل ولا عبرة بما يقوله الناس من أن فلانا مات شهيداً، لأن الشهيد يعلمه الله وحده وهو الذى يختاره وليس أهل الدنيا من الناس.

وبتعريف الناس بتلك الأمور من واجبات العلماء فى هذه الأمة ولذلك استعان صلاح الدين بالعلماء الربانيين وجعلهم مستشارين خاصين له فكان صلاح الدين الأيوبى من أعظم القواد والزعماء والحكام والسلاطين فى التاريخ على وجه العموم.

٥ ـ النهوض بالأمة من التخلف إلى التقدم

قراءة فى حديث «لا يأتى زمان على الناس إلا والذى بعده أشد منه»(١)

هذه الأمة هى أمة اقرأ والقراءة هى السبيل إلى المعرفة والتقدم والحضارة عبر سنوات البشرية منذ خلق آدم إلى قيام الساعة.

وما فيه الأمة الإسلامية الآن وخاصة العربية منها من تخلف وأنها فى ذيل الأمم ليس إلا عارضاً سيزول بإذن الله.

فإذا كانت الأمة الإسلامية متخلفة الآن، فإن التخلف لا يستمر، والضعف لا يدوم، وقد قضت سنة الله عز وجل أن يضعف القوى، ويقوى الضعيف، ويمرض الصحيح، ويشفى المريض، ويغتنى الفقير،

أما أحاديث آخر الزمان فللعلماء العدول فهم آخر لها، وهى على أية حال لا تأمرنا بالسكوت على الضعف والاستكانة والمذلة، بل تحثنا السنة كلها، وكتاب الله قبلها على القوة والنهوض بأنفسنا وأمتنا هذا هو السؤال.

جواب فضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوى:

الأمة صحيح متخلفة؛ إنما هل هذا التخلف أبدى أم هو مرحلة من المراحل؟ هل نحن متخلفون لأننا يجب أن نكون متخلفين؟

لا .. بدليل أننا كنا متقدمين؛ كنا سادة العالم؛ كنا قادة الأمم كنا نحن الذين نملك أزمة الحضارة الإسلامية ظلت هى الحضارة الأولى والسائدة فى العالم حوالى ثمانية أو عشرة قرون، والكتب الإسلامية والمراجع العلمية الإسلامية كانت مراجع العالم فى أوروبا وغيرها، علماء المسلمين كانت أسماؤهم أشهر الأسماء فى العالم، اللغة العربية كانت لغة العلم، كتب فيها الطب وكتب فيها التشريح، وكتب فيها الفلك وكتب فيها الكيمياء وكتب فيها الفيزياء،

(١) الحديث رواه مالك بن أنس عن رسول الله ﷺ وأخرجه البخارى فى صحيحه.

وكتب فيها كل علوم الأرض باللغة العربية والآن للأسف نجد الجامعات تتجه إلى اللغات الأخرى، كنا نحن هكذا..

إذن هذا التخلف الذى نعاينه ليس ذاتياً فينا، وليس أبدياً؛ فيجب أن نضع خطة للخروج من سجن التخلف، ويجب أن نفترض أن أول أسباب تخلفنا انتشار الأمية فى بلادنا العربية والإسلامية وهذا أمر لا يليق.

نحن أمة الكتاب وأول آية نزلت فى كتابنا (اقرأ باسم ربك الذى خلق) وكررت مرتين (اقرأ وربك الأكرم) والقراءة مفتاح العلم، (الذى علم بالقلم) والقلم هو أداة نقل العلم من فرد إلى فرد ومن أمة إلى أمة ومن جيل إلى جيل، والقرآن أقسم بالقلم، قال (ن. والقلم وما يسطرون).

فالمفروض أن نضع خطة لكى نتعلم الأمة بالقلم ونقرأ ونكتب، الرسول الأمى محمد ﷺ الذى ما كان يقرأ من كتاب ولا يخطه بيمينه ليكون معجزة هو أول من حارب الأمية، فالمعروف فى غزوة بدر أن النبى ﷺ قال للذين يقرأون من الأسرى: إننا لا نريد منكم مالاً، يكفى أن يعلم أحدكم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة.

وفعلاً، حتى قال سيدنا زيد بن ثابت: كنت ممن حذق الكتابة على يد هؤلاء الأمة لابد أن نضع خطة فنقول: عندى ٥٠٪ لا يقرأون ولا يكتبون فلابد من وضع خطة مثلاً فى خلال ١٠ سنوات أتخلص من هذا، أجند مثلاً طلاب الثانويات وطلاب الجامعات وأعمل لهم مكافئات بحيث القارئ يعلم الأمى. وهكذا.

أما الحديث المذكور فرواه الإمام البخارى فى جامعة الصحيح، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ وهو حديث صحيح من ناحية سنده، ولكن الآفة تأتى هنا من فهمه فهما يخالف سنن الله، أو حقائق العلم، أو ثوابت الواقع، ولا يمكن أن يأتى الدين بما يخالف ذلك؛ لأن الدين حق، وهذه الأشياء المذكورة حق، والحق لا يتناقض، فإما أن يكون لهذه الأشياء تفسير غير ما يبدو لنا، أو يكون للنص الدينى تأويل غير الظاهر المتبادر منه.

وأحاديث (الفتن) وما يتعلق بما يسمى (آخر الزمان) أو (أشراط الساعة) يكثر فيها سوء الفهم، ولذا ينبغى التأمل الطويل فى معانيها، حتى لا يتخذها الناس وسيلة لقتل كل بذرة للأمل، ووأد كل محاولة للإصلاح والتغيير.

والحديث المذكور نموذج لهذا النوع من الأحاديث. فقد روى البخارى بسنده إلى الزبير بن عدى، قال: أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج، فقال: (اصبروا، فإنه لا

يأتى عليكم زمان إلا الذى بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم) سمعته من نبيكم، ﷺ.

يتخذ بعض الناس من هذا الحديث تكأة للقعود عن العمل، ومحاولة الإصلاح والإنقاذ، مدعياً أن الحديث يدل على أن الأمور فى تدهور دائم، وسقوط مستمر وهوى متتابع، من درك إلى أسفل منه، فهى لا تنتقل من سيئ إلا إلى أسوأ، ولا من أسوأ إلا إلى الأسوأ منه. حتى تقوم الساعة على شرار الناس ويلقى الناس ربهم.

وآخرون توقفوا فى قبول الحديث، وربما تعجل بعضهم فرده؛ لأنه فى ظنه يدعو:

أولاً: إلى اليأس والقنوط.

وثانياً: إلى السلبية فى مواجهة الطغاة.

وثالثاً: يعارض فكرة (التطور) التى قام عليها نظام الكون والحياة.

ورابعاً: ينافى الواقع التاريخى للمسلمين.

وخامساً: يعارض الأحاديث التى جاءت فى ظهور خليفة يملأ الأرض عدلاً (وهو الذى عرف باسم المهدى) وفى نزول عيسى ابن مريم، وإقامته لدولة الإسلام، وإعلاء كلمته فى الأرض كلها.

فهم السلف لهذا الحديث.

ومن الحق علينا أن نقول: إن السابقين من علمائنا قد وقفوا عند هذا الحديث مستشكلين (الإطلاق) فيه. يعنون بالإطلاق ما فهم من الحديث: أن كل زمن شر من الذى قبله، مع أن بعض الأزمنة تكون فى الشر دون التى قبلها، وقد اشتهر الخير الذى كان فى زمن عمر بن عبد العزيز، بل لو قيل: إن الشر اضمحل فى زمانه، لما كان بعيداً، فضلاً عن أن يكون شراً من الذى قبله.

وقد أجابوا عن هذا بعدة أجوبة.

فالإمام الحسن البصرى حمل الحديث على الأكثر الأغلب، فقد سئل عن عمر ابن عبد العزيز بعد الحجاج، فقال: لابد للناس من تنفيس!

وجاء عن ابن مسعود - رضي الله عنه - فى قوله: (لا يأتى عليكم زمان إلا وهو أشر مما كان قبله: أما إنى لا أعنى أميراً خيراً من أمير، ولا عاماً خيراً من عام، ولكن علماؤكم وفقهاؤكم يذهبون، ثم لا تجدون منهم خلفاً، ويجىء قوم يفتون برأيهم) وفى لفظ عنه: (فيثلمون الإسلام

ويهدمونه) ورجح الحافظ فى (الفتح) تفسير ابن مسعود لمعنى الخيرية والشرية هنا، قائلاً: وهو أولى بالاتباع.

ولكنه فى الواقع لا ينفى الاستشكال من أساسه، فالنصوص تدل على أن فى الغيب أدواراً للإسلام ترتفع فيها رايته وتعلو كلمته، ولو لم يكن إلا زمن المهدى والمسيح فى آخر الزمان لكفى.

والتاريخ يثبت أنه جاءت فترات ركود وجمود فى العالم أعقبتها أزمنة حركة وتجديد، ويكفى أن نذكر مثلاً من ظهر فى القرن الثامن من العلماء والمجددين ـ بعد سقوط الخلافة الإسلامية فى بغداد، وتدهور الأوضاع فى القرن السابع، مثل شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وسائر تلاميذه فى الشام، والشاطبى فى الأندلس، وابن خلدون فى المغرب، وغيرهم ممن ترجم لهم ابن حجر فى كتابه (الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة).

وفى العصور التى تلت ذلك نجد مثل ابن حجر، والسيوطى فى مصر، وابن الوزير فى اليمن، والدهلوى فى الهند، والشوكانى والصنعانى فى اليمن، وابن عبد الوهاب فى نجد، وغيرهم من العلماء الأجلاء المجتهدين والأئمة المجددين.

ليس الحديث على عمومه.

وهذا ما جعل الإمام ابن حبان فى صحيحه يرى أن حديث أنس ليس على عمومه، مستدلاً بالأحاديث الواردة فى المهدى، وأنه يملأ الأرض عدلاً، بعد أن ملئت جوراً (فتح البارى: ج ١٦، ص ٢٢٨ ـ ط الحلبى).

ولهذا أرى أن أرجح التفسيرات لهذا الحديث ما ذكره الحافظ فى (الفتح) بقوله: (ويحتمل أن يكون المراد بالأزمنة المذكورة أزمنة الصحابة، بناء على أنهم هم المخاطبون بذلك، فيختص بهم، فأما من بعدهم فلم يقصد فى الخبر المذكور، لكن الصحابى فهم التعميم ـ فلذلك أجاب من شكا إليه من الحجاج بذلك وأمرهم بالصبر، وهم ـ أو جلهم ـ من التابعين) ا.هـ.

وعلى هذا التفسير يحمل كلام ابن مسعود أيضاً: فهو خاص بأزمنة من كان يخاطبهم من الصحابة والتابعين، وقد توفى فى زمن عثمان ـ ٪ ـ.

الحديث لا يأمرنا بالسكوت على الظلم.

وأما زعم من زعم أن الحديث يتضمن دعوة إلى السكوت على الظلم والصبر على التسلط والجبروت، والرضا بالمنكر والفساد، ويؤيد السلبية فى مواجهة الطغاة المتجبرين فى الأرض.

فالرد على ذلك من عدة أوجه:

أولاً: أن القائل (اصبروا) هو أنس - رضي الله عنه - فليس هو من الحديث المرفوع، وإنما استنبطه منه، وكل واحد يؤخذ من كلامه ويترك ما عدا المعصوم - ﷺ -.

ثانياً: أن أنسا لم يأمرهم بـ (الرضا) بالظلم والفساد، وإنما أمرهم بـ (الصبر)، وفرق كبير بين الأمرين، فإن الرضا بالكفر كفر، وبالمنكر منكر، أما الصبر فقلما يستغنى عنه أحد، وقد يصبر المرء على الشيء، وهو كاره له، ساع فى تغييره.

ثالثاً: إن من لم يملك القدرة على مقاومة الظلم والجبروت، ليس له إلا أن يعتصم بالصبر والأناة، مجتهداً أن يعد العدة، ويتخذ الأسباب، معتضداً بكل من يحمل فكرته، منتهزاً الفرصة المواتية، ليواجه قوة الباطل بقوة الحق، وأنصار الظلم بأنصار العدل، وجند الطاغوت بجند الله.

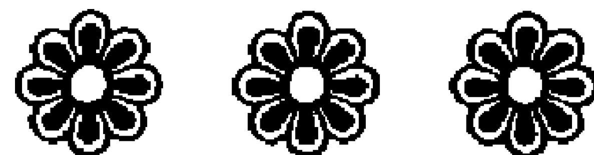
وقد صبر النبى - ﷺ - ثلاثة عشر عاماً فى مكة على الأصنام وعبادها، فيصلى بالمسجد الحرام، ويطوف بالكعبة وفيها وحولها ثلاثمائة وستون صنماً، بل طاف فى السنة السابعة من الهجرة مع أصحابه فى عمرة القضاء، وهو يراها ولا يمسها، حتى أتى الوقت المناسب يوم الفتح فحطمها.

ولهذا قرر علماؤنا: أن إزالة المنكر إذا ترتب عليه منكر أكبر منه وجب السكوت عنه حتى تتغير الأحوال.

وعلى هذا لا ينبغى أن يفهم من الوصية بالصبر الاستسلام للظلم والطغيان بل الانتظار والترقب حتى يحكم الله، وهو خير الحاكمين.

رابعاً: أن الصبر لا يمنع من قول كلمة الحق، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإن لم تكن واجبة على من يخاف على نفسه أو أهله ومن حوله.

فقد جاء فى الحديث: (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)، (سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله)[1].

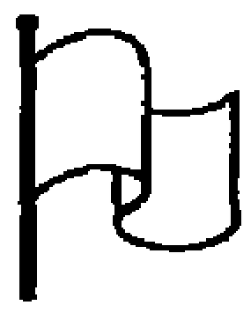


(١) نقلاً عن موقع إسلام أون لاين.



صلاح الدين القحطاني المنتظر

- من هو القحطاني المنتظر القادم قبل المهدى المنتظر؟
- أحاديث صحيحة تصف القحطاني وعمله عند خروجه ولا تحدد اسمه.
- أحاديث وآثار ضعيفة تشير إلى القحطاني وعمله وبقائه وزمان خروجه.
- هل ظهر القحطاني فى أواخر القرن الثالث بعد الألف من الهجرة؟ ومن هو؟.



23

القحطانى المنتظر قبل المهدى المنتظر
هل يكون صلاح الدين المنتظر

القارئ لأحداث آخر الزمان يجد أن هناك شخصيات تظهر آخر الزمان تحاول القيام بما قام به صلاح الدين الأيوبى من توحيد الأمة وإعادة أمجادها الغابرة وقتال أعدائها من الصليبيين واليهود وتحرير المسجد الأقصى.

ومن أبرز هذه الشخصيات هى شخصية المهدى المنتظر والقحطانى.

أما المهدى فإنه يقود الأمة إلى النصر والعلو فى الأرض بعد مرحلة أولى يقوم بها القحطانى من تحرير الأقصى وقيادة الناس بعصاه كما جاء فى أحاديث صحيحة.

قال النبى ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه)[1].

قال الحافظ ابن حجر: قوله (يسوق الناس بعصاه) هو كناية عن الملك؛ شبهه بالراعى وشبه الناس بالغنم ونكتة التشبيه التصرف الذى يملكه الراعى فى الغنم، وهذا الحديث يدخل فى علامات النبوة من جملة ما أخبر به ﷺ قبل وقوعه ولم يقع بعد.

وقد روى نعيم بن حماد فى الفتن من طريق أرطأة بن المنذر أحد التابعين من أهل الشام أن القحطانى يخرج بعد المهدى ويسير على سيرة المهدى.

وأخرج أيضاً من طريق عبد الرحمن بن قيس بن جابر الصدفى عن أبيه عن جده مرفوعاً: (يكون بعد المهدى القحطانى، والذى بعثنى بالحق ما هو دونه) وهذا الثانى مع كونه مرفوعاً ضعيف الإسناد والأول مع كونه موقوفاً أصلح إسناداً منه فإن ثبت ذلك فهو فى زمن عيسى ابن مريم لما تقدم أن عيسى عليه السلام إذا نزل يجد المهدى إمام المسلمين[2].

وفى رواية أرطأة بن المنذر أن القحطانى يعيش فى الملك عشرين سنة واستشكل ذلك كيف يكون فى زمن عيسى يسوق الناس بعصاه والأمر إنما هو لعيسى!

ويجاب بجواز أن يقيمه عيسى نائباً عنه فى أمور مهمة عامة.

---

(١) متفق عليه ورواه أحمد فى المسند.

(٢) الفتن لنعيم بن حماد.

وقال: عن النبى ﷺ قال: كان هذا الأمر فى حِمْيَر فنزعه الله منهم وصيره فى قريش وسيعود إليهم. وسنده جيد وهو شاهد قوى لحديث القحطانى فإن حمير يرجع نسبها إلى قحطان...

وهذا يؤيد الأثر السابق بأن القحطانى يكون بعد المهدى، ولكن لا يلزم أن يكون فى زمن عيسى.

قال ابن حجر: وجدت فى كتاب التيجان لابن هشام ما يعرف منه إن ثبت اسم القحطانى وسيرته وزمانه فذكر أن عمران بن عامر كان ملكاً متوجاً وكان كاهناً معمراً وأنه قال لأخيه عمرو بن عامر المعروف بمزيقيا لما حضرته الوفاة: إن بلادكم ستخرب وإن لله فى أهل اليمن سخطتين ورحمتين؛ فالسخطة الأولى هدم سد مأرب وتخرب البلاد بسببه.

والثانية غلبة الحبشة على أرض اليمن.

والرحمة الأولى بعثة نبى من تهامة اسمه محمد يُرسل بالرحمة ويغلب أهل الشرك.

والثانية إذا خرب بيت الله يبعث الله رجلاً يقال له شعيب بن صالح فيهلك من خربه ويخرجهم حتى لا يكون بالدنيا إيمان إلا بأرض اليمن.

ثم ذكر أنه ذكر فى (باب الحج) أن البيت يحج بعد خروج يأجوج ومأجوج وأشار إلى الجمع بينه وبين حديث (لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت) وأن الكعبة يخربها ذو السويقتين من الحبشة.

ثم قال: فينتظم من ذلك أن الحبشة إذا خربت البيت خرج عليهم القحطانى فأهلكهم وأن المؤمنين قبل ذلك يحجون فى زمن عيسى بعد خروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم وأن الريح التى تقبض أرواح المؤمنين تبدأ بمن بقى بعد عيسى ويتأخر أهل اليمن بعدها ويمكن أن يكون هذا مما يفسر به قوله (الإيمان يمان) أى يتأخر الإيمان بها بعد فقده من جميع الأرض.

وقد أخرج مسلم حديث القحطانى عقب حديث تخريب الكعبة ذو السويقتين فلعله رمز إلى هذا.

ثم ذكر ابن حجر أن البخارى أورد الحديث فى باب تغيير الزمان حتى تعبد الأوثان.

قال: وفى ذلك إشارة إلى أن ملك القحطانى يقع فى آخر الزمان عند قبض أهل الإيمان ورجوع كثير ممن يبقى بعدهم إلى عبادة الأوثان وهم المعبر عنهم بشرار الناس الذين تقوم عليهم الساعة.

لعل القحطانى يملك بعد موت عيسى ﷺ، ولعله هو الذى يوصى بالخلافة له من بعده،

فيمكث عشرين عاماً يكون فيها طلوع الشمس من مغربها والدابة والدخان، ثم انبعاث الريح لطيبة الناعمة من اليمن.

وربما ينطلق ذو السويقتين قبل انطلاق الريح، فيدرك المؤمنون قصده فيريدون صده أو يرسل القحطانى له جيشاً ولكن تدركهم الريح فتقبض أرواحهم، فيصل ذو السويقتين إلى الكعبة وينقضها حجراً حجراً، فيصل الخبر إلى القحطانى فيرسل إليهم جيشاً أو ينطلق هو على رأس جيش فيدمرهم تدميراً ويتم انتقام الله تعالى على من خرب بيته.

ثم تدركهم الريح بعد ذلك فتقبض أرواحهم، ويبقى شرار الناس وعليهم تقوم الساعة.

وأورد المناوى فى فيض القدير أن البسطامى قال: قبل نزول عيسى يخرج من بلاد الجزيرة رجل يقال له الأصهب ويخرج عليه من الشام رجل يقال له جرهم ثم يخرج القحطانى رجل بأرض اليمن فبينما هؤلاء الثلاثة إذا هم بالسفيانى وقد خرج من غوطة دمشق...

ولكن لا يصح أن يكون القحطانى المقصود فى الحديث هو منصور اليمانى الذى ذكر أنه (له فورة شديدة يستقتل الناس قتل الجاهلية)، لأن القحطانى رجل صالح.

قال ابن حجر: أخرج (أى نعيم بن حماد فى كتاب الفتن) بإسناد جيد من حديث ابن عباس قال فيه: ورجل من قحطان كلهم صالح.

وهكذا إما أن يكون ظهور القحطانى قبل السفيانى وبالتالى لا أثر لمنصور اليمانى، أو يكون ظهور القحطانى فى آخر الزمان.

وبالتالى يكون القحطانى الذى ذكره المناوى عن البسطامى ليس هو القحطانى المقصود فى الحديث، وبذلك يجمع بين هذه الآثار بافتراض صحتها، ولعل القارئ والمنفقة لتلك الأحاديث قد يرى أن شخصية القحطانى وهى شخصية من بلاد اليمن السعيد أصل العرب القحطانيين قد يظهر منها أكثر من رجل صالح يملك العرب، وبالتالى يمكن أن يكون أكثر من قحطانى يقود الناس بالملك والقوة والشدة.

ولذلك فعلت قراءة الأحاديث النبوية التى أشارت إلى شخصية القحطانى وهل هو واحد أو أكثر؟

١ ـ روى البخارى بسنده عن الزهرى

قال كان محمد بن جبير بن مطعم يحدث أنه بلغ معاوية وهو عنده فى وفد من قريش أن عبد الله بن عمرو بن العاص يحدث أنه سيكون ملك من قحطان فغضب معاوية فقام

فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال أما بعد فإنه بلغنى أن رجالاً منكم يتحدثون أحاديث ليست فى كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله فأولئك جهالكم فإياكم والأمانى التى تضل أهلها فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول إن هذا الأمر فى قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين(١).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله فى فتح البارى عند شرحه للحديث:

وفى إنكار معاوية ذلك نظر لأن الحديث الذى استدل به مقيد بإقامة الدين فيحتمل أن يكون خروج القحطانى إذا لم تقم قريش أمر الدين وقد وجد ذلك، فإن الخلافة لم تزل فى قريش والناس فى طاعتهم إلى أن استخفوا بأمر الدين فضعف أمرهم وتلاشى إلى أن لم يبق لهم من الخلافة سوى اسمها المجرد فى بعض الأقطار دون أكثرها.

وقال: إن مفهوم حديث معاوية (ما أقاموا الدين) أنهم إذا لم يقيموا الدين خرج الأمر عنهم، ويؤخذ من بقية الأحاديث أن خروجه عنهم إنما يقع بعد إيقاع ما هددوا به من اللعن أولاً وهو الموجب للخذلان وفساد التدبير، وقد وقع ذلك فى صدر الدولة العباسية.

ثم التهديد بتسليط من يؤذيهم عليهم، ووجد ذلك فى غلبة مواليهم بحيث صاروا معهم كالصبى المحجور عليه يقتنع بلذاته ويباشر الأمور غيره.

ثم اشتد الخطب فغلب عليهم الديلم فضايقوهم فى كل شىء حتى لم يبق للخليفة إلا الخطبة، واقتسم المتغلبون الممالك فى جميع الأقاليم، ثم طرأ عليهم طائفة بعد طائفة حتى انتزع الأمر منهم فى جميع الأقطار ولم يبق للخليفة إلا مجرد الاسم فى بعض الأمصار. انتهى كلامه يرحمه الله.

ولم يرد فى الأحاديث السابقة اسم القحطانى المعنى بالحديث وقد استشكل ذكره وهو من الغيب الذى أخبرنا به عن النبى ﷺ ولم يتضح حال إسلامه وإيمانه أيضاً وذكر العلماء أنه لم يخرج وغاية ما ورد فيه أنه يخرج قبل قيام الساعة ويملك ويحكم بدلالة انسياق الناس له حيث يسوقهم بعصاه وهو حديث من أعلام النبوة.

وذكر الحافظ ابن حجر فى الفتح عند شرحه للحديث قوله نقلاً عن القرطبى وقال

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه فى موضعين الأول فى كتاب المناقب عند ذكر باب مناقب قريش برقم (٣٢٣٩) والثانى أورده تحت باب الأمراء من قريش برقم (٦٦٠٦) ورواه أحمد فى مسنده برقم (١٦٢٤٩) من مسند معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنهما.
وأخرجه الطبرانى فى الأوسط برقم (٣٢٤٦) وفى الكبير برقم (١٦١٣٥) ورواه الطبرانى أيضاً فى كتابه مسند الشاميين روايته عن المدنيين برقم (٣١٣٠).

القرطبى فى التذكرة: قوله: «يسوق الناس بعصاه» كناية عن غلبته عليهم وانقيادهم له، ولم يرد نفس العصا، لكن فى ذكرها إشارة إلى خشونته عليهم وعسفه بهم، قال: وقد قيل إنه يسوقهم بعصاه حقيقة كما تساق الإبل والماشية لشدة عنفه وعدوانه.

ويوضح الحافظ ابن حجر أن كون الإمام البخارى أورد الحديث فى باب تغير الزمان حتى تُعبد الأوثان إشارة إلى أن ملك القحطانى يقع فى آخر الزمان عند قبض أهل الإيمان ورجوع كثير ممن يبقى بعدهم إلى عبادة الأوثان وهم المعبر عنهم بشرار الناس الذين تقوم عليهم الساعة.

ومال القرطبى إلى أن القحطانى ربما يكون هو الجهجاه الذى ورد ذكره فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: لا تذهب الأيام والليالى حتى يملك رجل يقال له الجهجاه(١).

قال القرطبى: وأصل الجهجاه الصياح وهى صفة تناسب ذكر العصا ورد عليه ابن حجر بأن الجهجاه من الموالى وقحطان من الأحرار.

وذكر الإمام ابن كثير فى كتابه النهاية فى الفتن والملاحم: أن جهجاه هو اسم لذى السويقتين.

وقال: إشارة إلى ظهور ظالم من قحطان قبل قيام الساعة وساق الحديث يسوق الناس بعصاه وقال: وقد يكون هذا الرجل هو ذا السويقتين، ويحتمل أن يكون غيره فإن هذا من قحطان، وذاك من الحبشة فالله أعلم. انتهى كلام ابن كثير يرحمه الله.

وذكر المقدسى فى كتابه البدء والتاريخ: قيل رجل من قحطان واختلفوا فيه من هو؟ فروى عن ابن سيرين أنه قال القحطانى رجل صالح وهو الذى يصلى خلفه عيسى وهو المهدى وروى عن كعب أنه قال يموت المهدى ويبايَع بعده القحطانى.

وأورد ابن بطال فى شرحه للبخارى:

قال المهلب: وأما حديث عبد الله بن عمرو أنه سيكون ملك من قحطان، فيحتمل أن يكون ملكاً غير خليفة على الناس من غير رضا به، وإنما أنكر ذلك معاوية لئلا يظن أحد أن الخلافة تجوز فى غير قريش، ولو كان عند أحد فى ذلك علم من النبى - ﷺ - لأخبر به معاوية حين خطب بإنكار ذلك عليهم.

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه.

وقد روى فى الحديث أن ذلك إنما يكون عند ظهور أشراط الساعة وتغيير الدين، روى أبو هريرة عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه» فقوله: «لا تقوم الساعة» يدل أن ذلك من أشراط القيامة ومما لا يجوز، ولذلك ترجم البخارى بهذا الحديث فى كتاب الفتن فى باب تغير الزمان حتى تُعبد الأوثان، وفهم منه هذا المعنى والله أعلم.

٢ ـ أثار ذكرها نعيم بن حماد[١] فى كتابه الفتن وفيه ضعف عن القحطانى لكن أحاديث البخارى ومسلم تعضدها وتقويها ويمكن الأخذ بها على سبيل الاستئناس بها، ونذكر لإتمام الفائدة وقد علق ابن حجر العسقلانى كما ذكرنا على تلك الآثار التى أوردها نعيم بن حماد رحمه الله.

قال نعيم بن حماد رحمه الله:

ـ حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبى ذئب عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال لا تذهب الأيام والليالى حتى يسوق الناس رجل من قحطان.

ـ حدثنا الوليد عن ابن لهيعة عن عبد الرحمن بن قيس بن جابر الصدفى قال: قال رسول الله ﷺ.

يكون بعد الجبابرة رجل من أهل بيتى يملأ الأرض عدلاً ثم القحطانى بعده والذى بعثنى بالحق ما هو دونه.

ـ حدثنا الوليد عن ابن لهيعة عن عبد الرحمن بن قيس بن جابر الصدفى قال قال رسول الله ﷺ (ما القحطانى بدون المهدى).

ـ حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبى دئب عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال:

لا تذهب الأيام والليالى حتى يسوق الناس رجل من قحطان.

ـ حدثنا عبد العزيز بن محمد الدراوردى عن ثور بن زيد الدئلى عن أبى الغيث عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه).

---

(١) نعيم بن حماد من التابعين من أهل الشام وهو أحد شيوخ البخارى، وقد جمع أحاديث الفتن الصحيحة والضعيفة والموضوعة فى كتاب الفتن.

ـ حدثنا ابن لهيعة عن عبد الرحمن بن قيس بن جابر الصدفى أن رسول الله ﷺ قال: (سيكون من أهل بيتى رجل يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ثم من بعده القحطانى والذى بعثنى بالحق ما هو دونه). وهناك أحاديث ضعيفة فى سندها أوردها أصحاب السنن فى كتبهم نذكرها أيضاً مع بيان ضعفها:

٣ ـ أخرج الطبرانى فى الأوسط عن عبد الله بن أبى بكر، عن سالم، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليسوقن الناس القحطانى بعصاه» «لم يرو هذا الحديث عن عبد الله بن أبى بكر إلا محمد بن إسحاق، تفرد به: سلمة بن الفضل»[(١)].

٤ ـ عن محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبى بكر، عن سالم، عن ابن عمر ٪ قال: قال رسول الله ﷺ «ليسوقن رجل من قحطان الناس بعصا»[(٢)].

٥ ـ وأخرج الطبرانى فى الكبير بسنده عن قيس بن جابر الصوفى عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «سيكون من بعدى خلفاء ومن بعد الخلفاء أمراء ومن بعد الأمراء ملوك ومن بعد الملوك جبابرة ثم يخرج رجل من أهل بيتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، ثم يؤمَّر القحطانى، فوالذى بعثنى بالحق ما هو دونه»[(٣)].

وبعد استعراض الأحاديث والآثار التى تحدثت عن القحطانى ضعيفها وصحيحها نلخص منها أنه شخصية تقارب شخصية صلاح الدين الأيوبى رحمه الله ولكنه شخص آخر سوف يظهر من بلاد اليمن آخر الزمان قد يكون قبل المهدى وهو الأرجح وقد يكون قحطانى آخر سوف يظهر أيضاً من نفس المكان بعد المهدى وعيسى ابن مريم كما دلت الآثار والأحاديث الضعيفة.

وهذه الأحاديث وتلك النبوءات ليست دعوة للاستكانة والتواكل وعدم العمل وإنما هى بشارات كى نعمل ونعمل ونجتهد ونستعد لتلك الأيام لعلها تكون قريبا فالغيب فى علم الله وحده.

---

(١) الحديث ضعيف لعنعنة ابن إسحاق وهو مدلس ولانفراده بالحديث وتلميذه سلمة بن الفضل ضعفه النسائى وقال عنه البخارى يروى مناكير وقال أبو حاتم: محله الصدق فى حديثه إنكار يكتب حديثه ولا يحتج به.

(٢) رواه الطبرانى فى معجمه الكبير والأوسط بلفظ القحطانى والحديث فيه ضعف لعنعنة محمد ابن اسحاق وهو مدلس.

(٣) أخرجه الطبرانى فى الكبير بسنده وفيه ضعف وأورده الألبانى فى السلسلة الضعيفة والموضوعة. وابن عساكر فى تاريخه والهيثمى فى مجمع الزوائد والسيوطى فى الجامع الصغير وهو ضعيف فى سنده وإن كان المتن قد تحقق منه الكثير. والله أعلم.

هل ظهر القحطانى كما قيل فى القرن الثالث بعد الألف من الهجرة

قالوا إن القحطانى هو محمد بن رشيد الذى ظهر وخرج فى أواخر المائة الثالثة بعد الألف من الهجرة، وعظم أمره وقوته واتسعت دولته واستولى على كثير من البلاد النجدية وساس أهل البادية هناك حتى استسلم لأمره كثير من أهل نجد واليمامة.

ومن استند لهذا القول بأن القحطانى قد ظهر استدل لهذا القول بأن الحديث الذى ذكر القحطانى فى الصحيحين جاء فيه «يسوق الناس بعصاه» وما قاله القرطبى أن القحطانى هو الجهجاه.

قال ﷺ: «لا تذهب الأيام والليالى حتى يملك رجل يقال له: الجهجاه»(١).

وقد جاء فى الآثار التى ذكرناها وإن كان بها ضعف أن خروج القحطانى يكون بعد المهدى ويسير بسيرته وجاء أيضاً أنه يخرج قبله ويسلم الأمر للمهدى حين خروجه.

فهو شخص يملك دولاً بالقسط والعدل والقوة وليس بالقهر والجبروت كما يظن البعض لذكر العصا فى وصف حكمه، وإنما العصا أيضاً تدل على الحكمة وهى إحدى سمات الأنبياء وكبار القوم، وحتى عهد قريب كان كبار القوم وحكماؤهم يمسكون بالعصا فى أيديهم كحلية وزينة.

ولا ننسى عصا موسى عليه السلام التى كانت إحدى معجزاته وكيف انقلبت إلى حية تسعى كدليل وبرهان على نبوته ورسالته عليه السلام.

والعصا فى يد الراعى يسوس بها الغنم بالعقل والحكمة ويضرب بها من شذ عن القطيع وهكذا يكون القحطانى فى سياسته لرعيته.

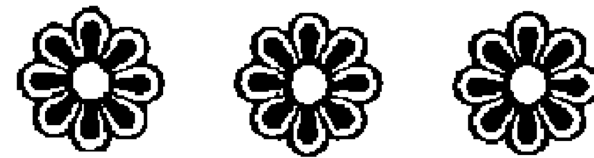
أما ما قيل عن شخص القحطانى الذى ظهر فى أواخر المائة بعد الألف من القرن الهجرى فهو حاكم عادل قوى يشبه القحطانى فى سيرته إلا أن القحطانى الذى جاء ذكره فى الأحاديث إنما هى شخصية أكبر من ذلك يملك الناس ويسوقهم وليس بعضاً منهم وهو بذلك يكون مقدمة لظهور المهدى.

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه.

أما ظهور شخصية تقارب القحطانى فى صفاته فهو مثل ظهور دجاجلة صغار على شاكلة الدجال الكبير المقصود فى الأحاديث النبوية مثلاً، ويبقى القحطانى شخصية محورية فى أحداث آخر الزمان يرتبط بالمنتظر نفسه ثم خروجه لقتال أعدائه وأعداء الأمة كما دلت بذلك أحاديث المهدى وهى كثيرة ذكرناها فى أكثر من كتاب[١].

وأما الجهجاه فهو شخصية أخرى على أرجح الأقوال والآراء لدينا، فالقحطانى إشارة إلى مكان ظهوره من بلاد اليمن القحطانيين أما «الجهجاه» فهو شخصية أخرى، يفهم من لقبه «الجهجاه» أنه ذو صوت عالٍ وهى صفة لصقت به مثل القحطانى وقوته وعصاه أى الحاكم القوى الشديد، والله أعلم.



(١) اقرأ سلسلة أحداث آخر الزمان للمؤلف، الناشر دار الكتاب العربى.

كلمــة أخيــرة

التاريخ هو مرآة المستقبل والأمة التى لا تقرأ تاريخها وتستوعب دروس الماضى أمة مجهولة المستقبل والهوية.

وصلاح الدين الأيوبى سلطان المجاهدين ظهر فى أحلك فترات الأمة سواداً وظلاماً وضعفًا فاستطاع أن يوحد الصفوف وخاض معارك حاسمة لتوحيد البلاد التى اعتلى كل بلدة وقرية ومقاطعة أمير وملك وسلطان وتقطعت أوصالها فأصبحت سهلة المنال.

واستطاع الصليبيون احتلال البلاد وقتل العباد وهدم المساجد وتشريد الشعوب من البلاد التى احتلوها وكونوا إمارة ومملكة صليبية عاصمتها القدس الشريف حتى إن المسلمين فى هذا الزمان السحيق نسوا مقدساتهم المحتلة.

ولكن صراخات المسجد الأقصى وجدت من يسمعها ويستجيب نداء المسجد الأقصى الأسير فكانت البداية ظهور الدولة الزنكية حيث قاد نور الدين زنكى حروباً من أجل استرداد المسجد الأقصى وكان يظن أنه محرره فبنى منبراً من أجل وضعه بجوار المحراب فى المسجد حين يحرره.

لكنه توفى ووافته المنية قبل أن يتحقق له ما أراد، وجاء أحد قواده وهو صلاح الدين الأيوبى ليكمل المسير الجهادية وقاد معارك ضارية شرسة لتوحيد البلاد تحت قيادته ثم عزم ونوى وأخلص النية لله ألا يقاتل مسلماً وأن يتوجه إلى بيت المقدس لتحريره.

ولأنه صادق النية فقد وفقه الله لينال شرف تحرير المقدس الأقصى. وقد استعرضنا السيرة والمسيرة لذلك البطل الكبير فى زمان يشابه نفس الزمان الذى ظهر فيه هذا البطل.

إنها دعوة لقراءة التاريخ لعلنا نستعيد تلك الأمجاد ونسعى إلى الوصول إليها كما فعل صلاح الدين رحمه الله.

نسأل الله أن يتقبل منا هذا العمل وسائر أعمالنا الصالحة الأخرى وأن يجعلها فى ميزان حسناتنا يوم القيامة إنه ولى ذلك والقادر عليه.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

المؤلف

أهم المراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ـ لابن حجر العسقلانى.

٣ ـ صحيح مسلم.

٤ ـ مسند الإمام أحمد.

٥ ـ بلاد الشام أرض الأنبياء وأشراط الساعة ـ منصور عبد الحكيم.

٦ ـ تاريخ دمشق ـ لابن عساكر.

٧ ـ البداية والنهاية ـ لابن كثير.

٨ ـ الكواكب الدرية ـ لابن قاضى شهبة.

٩ ـ كتاب الروضتين من أخبار الدولتين النورية والصلاحية ـ لأبى شامة المقدسى.

١٠ ـ النوادر السلطانية ـ بهاء الدين بن شداد.

١١ ـ الفتح القسى ـ عماد الدين الأصفهانى.

١٢ ـ الدولة الفاطمية ـ د. على الهلالى.

١٣ ـ التاريخ الباهر فى دولة الأتابكة ـ لابن الأثير.

١٤ ـ الكامل فى التاريخ ـ لابن الأثير.

١٥ ـ نور الدين وتجربته الإسلامية ـ د. عماد الدين خليل.

١٦ ـ تاريخ الخلفاء ـ للسيوطى.

١٧ ـ الحركات الصليبية ـ سعيد عبد الفتاح عاشور.

١٨ ـ نور الدين محمود ـ حسين مؤنس.

١٩ ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموى.

٢٠ ـ معجم المؤلفين ـ عمر كحالة.

٢١ ـ مرآة الجنان ـ اليافعى.

٢٢ ـ الدارس فى تاريخ المدارس ـ عبد القادر النعيمى.

٢٣ ـ روضة الناظرين وخلاصة مناقب الصالحين ـ أحمد الوترى.

٢٤ ـ كرامات الأولياء ـ يوسف النبهانى.

٢٥ ـ الاقتصاد فى الاعتقاد ـ للغزالى.

٢٦ ـ عوارف المعارف ـ عمر السهروردى.

٢٧ ـ بهجة الأسرار ومعدن الأنوار ـ على الشطنوفى.

٢٨ ـ طبقات الصوفية ـ أبو عبد الرحمن السُّلَمِى.

٢٩ ـ طبقات الشافعية الكبرى ـ السبكى.

٣٠ ـ تاريخ الإسلام ـ للذهبى.

٣١ ـ مرآة الزمان ـ سبط ابن الجوزى.

٣٢ ـ العبر فى خبر من غبر ـ للذهبى.

٣٣ ـ سير أعلام النبلاء ـ للذهبى.

٣٤ ـ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ـ ابن واصل.

٣٥ ـ الكواكب الدرية فى السيرة النورية ـ ابن قاضى شهبة.

٣٦ ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة ـ ابن الفوطى.

٣٧ ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ـ عبد الحى بن العماد الحنبلى.

٣٨ ـ الجامع المختصر فى عنوان التواريخ وعيون السير ـ على بن الساعى.

٣٩ ـ الذيل على طبقات الحنابلة ـ ابن رجب.

٤٠ ـ وفيات الأعيان ـ لابن خلكان.

٤١ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون) عبد الرحمن بن خلدون.

٤٢ ـ صفة الصفوة ـ لابن الجوزى.

٤٣ ـ المنتظم فى التاريخ ـ لابن الجوزى.

٤٤ ـ الفتاوى ـ لابن تيمية.

٤٥ ـ تاريخ علماء بغداد ـ محمد ابن رافع السلامى.

٤٦ ـ موطأ الإمام مالك.

٤٧ ـ سنن النسائى.

٤٨ ـ سنن الترمذى.

٤٩ ـ أدب الدنيا والدين ـ على بن محمد الماوردى.

٥٠ ـ تاريخنا المفترى عليه ـ د. يوسف القرضاوى.

٥١ ـ القلائد الجوهرية فى تاريخ الصلاحية ـ شمس الدين محمد بن الدمشقى.

٥٢ ـ نهر الذهب فى تاريخ حلب ـ كامل حسين العزى.

٥٣ ـ الدر المنتخب فى تاريخ حلب ـ لابن الشحنة.

٥٤ ـ مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ـ د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

٥٥ ـ أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة ـ د. يوسف القرضاوى.

٥٦ ـ عمران القاهرة وخططها فى عهد صلاح الدين الأيوبى ـ د. عدنان محمد الحارثى.

٥٧ ـ سلاجقة إيران والعراق ـ عبد المنعم حسين.

٥٨ ـ الحروب الصليبية ـ العريبى.

٥٩ ـ تاريخ المماليك البحرية ـ على إبراهيم حسن.

٦٠ ـ دولة الأتابكة فى الموصل بعد عماد الدين زنكى ـ رشيد العجيلى.

٦١ ـ مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ـ سهيل زكار.

٦٢ ـ نور الدين زنكى فى الأدب العربى ـ محمود فايز السرطاوى.

٦٣ ـ تاريخ اليمن الإسلامى ـ محمد عبده السرورى.

٦٤ ـ جهاد الأيوبيين والمماليك ضد الصليبيين والمغول ـ د. فرست مرعى.

٦٥ ـ تاريخ القبائل العربية فى عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية ـ د. محمود السيد.

٦٦ ـ صلاح الدين القائد وعصره ـ د. مصطفى الحيارى.

٦٧ ـ أخبار الدول المنقطعة ـ للأزدى.

٦٨ ـ المصباح المضىء فى خلافة المستضىء ـ البغدادى.

٦٩ ـ سنا البرق الشامى ـ للفتح البندارى.

٧٠ ـ التاريخ السياسى والفكرى للمذهب السنى فى المشرق الإسلامى ـ د. عبد المجيد أبو الفتوح بدوى.

٧١ ـ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ـ د. ماجد عرسان الكيلانى.

٧٢ ـ الطبقات الكبرى ـ للشعرانى.

٧٣ ـ إحياء علوم الدين ـ للغزالى.

٧٤ ـ ترياق المحبين فى طبقات خرقة مشايخ العارفين ـ عبد الرحمن الواسطى.

٧٥ ـ كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ـ حاجى خليفة.

٧٦ ـ نهاية العالم وأشراط الساعة ـ منصور عبد الحكيم.

٧٧ ـ السفيانى صدام آخر على وشك الظهور ـ منصور عبد الحكيم.

٧٨ ـ فقه النصر والتمكين ـ د. على الصلابى.

٧٩ ـ ميزان الاعتدال ـ للذهبى.

٨٠ ـ تفسير مفاتيح الغيب ـ فخر الرازى.

٨١ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ـ أبو الحسن الندوى.

٨٢ ـ فقه الأولويات ـ د. يوسف القرضاوى.

٨٣ ـ فقه الدعوة إلى الله ـ د. عبد الحليم منصور.

٨٤ ـ صفة الغرباء ـ د. سلمان العودة.

٨٥ ـ سنن البيهقى.

٨٦ ـ سنن ابن ماجه.

٨٧ ـ سنن أبى داود.

٨٨ ـ حقيقة الانتصار ـ ناصر سليمان العمر.

٨٩ ـ جامع الأصول فى أحاديث الرسول ـ لابن الأثير.

٩٠ ـ تفسير الطبرى.

٩١ ـ تاريخ الطبرى.

٩٢ ـ النظام السياسى فى الإسلام ـ د. محمد أبو فارس.

٩٣ ـ النهاية فى غريب الحديث والأثر ـ ابن الأثير.

٩٤ ـ النونية القحطانية ـ لأبى محمد عبد الله القحطانى الأندلسى.

٩٥ ـ الموالاة والمعاداة فى الشريعة الإسلامية ـ محاس بن عبد الله الجعلود.

٩٦ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ محمد فؤاد عبد الباقى.

٩٧ ـ الملل والنحل ـ للشهرستانى.

٩٨ ـ الفوائد ـ لابن قيم الجوزية.

٩٩ ـ القاموس المحيط ـ للفيروز أبادى.

١٠٠ ـ الطبقات الكبرى ـ لابن سعد.

١٠١ ـ الصحوة الإسلامية ـ د. يوسف القرضاوى.

١٠٢ ـ السياسة الشرعية ـ لابن تيمية.

١٠٣ ـ التمكين للأمة الإسلامية ـ محمد السيد محمد يوسف.

١٠٤ ـ البحر المحيط ـ أبى حبان.

١٠٥ ـ الاعتصام ـ للشاطبى.

١٠٦ ـ الأحكام السلطانية ـ لأبى يعلى الفراء.

١٠٧ ـ أعلام الموقعين ـ لابن قيم الجوزية.

١٠٨ ـ اقتضاء الصراط المستقيم ـ لابن تيمية.

١٠٩ ـ أحكام أهل الذمة ـ لابن قيم الجوزية.

١١٠ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلانى.

١١١ ـ النهاية فى الفتن والملاحم ـ ابن كثير.

١١٢ ـ مدارك السالكين ـ لابن قيم الجوزية.

الكاتب فى سطور

- منصور عبد الحكيم محمد عبد الجليل.

- من مواليد القاهرة.

- حاصل على ليسانس فى الحقوق جامعة عين شمس سنة ١٩٧٨ م.

- يعمل بالكتابة والمحاماة.

- له العديد من الأبحاث والدراسات الإسلامية، والمقالات فى الصحف والمجلات الإسلامية واللقاءات فى القنوات الفضائية وله العديد من الكتب الإسلامية المتنوعة.

- صدر له:

١ ـ العراق أرض النبوءات والفتن.

٢ ـ بلاد الحجاز معقل الإيمان آخر الزمان.

٣ ـ بلاد الشام أرض الأنبياء وأشراط الساعة.

٤ ـ الإمبراطورية الأمريكية ـ البداية والنهاية.

٥ ـ نيويورك وسلطان الخوف.

٦ ـ السيناريو القادم لأحداث آخر الزمان.

٧ ـ عشرة ينتظرها العالم.

٨ ـ نهاية العالم وأشراط الساعة.

٩ ـ البداية فتن والنهاية ملاحم.

١٠ ـ يأجوج ومأجوج من البدء إلى الفناء.

١١ ـ الحرب السابعة ونهاية اليهود.

١٢ ـ السفيانى صدام آخر على وشك الظهور.

١٣ ـ هرمجدون ونهاية أمريكا وإسرائيل.

١٤ ـ مؤامرات وحروب صنعتها الماسونية.

١٥ ـ أقدم تنظيم سرى فى العالم.

١٦ ـ العالم رقعة شطرنج.

١٧ ـ من يحكم العالم سرّاً؟

١٨ ـ أوراق ماسونية سرية للغاية.

١٩ ـ الأسرار الماسونية الكبرى.

٢٠ ـ ازدراء وإيذاء الأنبياء.

٢١ ـ جبريل أمين الوحى الإلهى.

٢٢ ـ الفراسة فى معرفة الآخرين.

٢٣ ـ إسرافيل وأهوال القيامة.

٢٤ ـ هلاك الأمم من نوح إلى عاد الثانية.

٢٥ ـ مملكة إبليس الخفية.

٢٦ ـ حكومة الدجال الماسونية الخفية.

٢٧ ـ عزرائيل ملك الموت.

٢٨ ـ المهدى فى مواجهة الدجال.

٢٩ ـ نهاية العالم قريباً.

٣٠ ـ نهاية دولة إسرائيل سنة ٢٠٢٢ م.

٣١ ـ الحرب العالمية الثالثة قادمة.

٣٢ ـ زوجات الأنبياء والرسل.

٣٣ ـ نساء أهل البيت النبوى.

٣٤ ـ نهاية ودمار أمريكا وإسرائيل.

٣٥ ـ هل الشعراوى متطرفاً يا إبراهيم.

٣٦ ـ شهداء الصحابة فى عصر النبوة.

٣٧ ـ بيوت الرسول وبيوت الصحابة حول المسجد النبوى.

٣٨ ـ تنبؤات نوستراداموس ومخططات اليهود.

٣٩ ـ بنات الصحابة.

٤٠ ـ النساء المبشرات بالجنة.

وكتب أخرى متنوعة تطلب من دار الكتاب العربى.

فهرس المحتويات

■ صلاح الدين الأيوبى سلطان المجاهدين الناصر المظفر اسمه يوسف بن أيوب شاذى، اتفق أهل التاريخ على أن أباه وأهله من بلدة (دوين) من بلاد أذربيجان أصولهم عربية كما أشار أكثر من واحد من المؤرخين إلا أنهم عاشوا بين الأكراد الروادية وهم من بطون الهذبائية من أكبر قبائل الأكراد فتزوج منهم وإليهم نسبوا، ولد صلاح الدين عام ٥٣٢هـ بقلعة تكريت العراقية ثم انتقلوا إلى الموصل حيث صاحبها عماد الدين، الذى عمل جد صلاح الدين آق سنقر لديه ثم عمل أبوه نجم الدين وعمه أسد الدين شيركوه للسلطان نور الدين زنكى الذى حاول غزو مصر أكثر من مرة بجيش يقوده شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبى حتى استطاعوا دخول مصر بعد طلب الخليفة الفاطمى العاضد لصد الصليبيين الذين أرادوا غزوها كثيرا فاستطاع أسد الدين شيركوه وصلاح الدين من التصدى لغزو الصليبيين لمصر ثم بعد موت الخليفة الفاطمى أنهى صلاح الدين الأيوبى بصفته وزيرا من قبل نور الدين سلطان دمشق والموصل إعادة مصر إلى الخلافة العباسية.

وتقرأ فى هذا الكتاب سيرة الجهاد التى بدأها صلاح الدين من مصر وبعد وفاة أستاذه وسيده نور الدين حيث استطاع ضم الدويلات الصغيرة فى الشام والتى كان أمراؤها وحكامها غارقين فى اللهو فكون دولة كبرى لمواجهة الغزو الصليبى للشام بعد الحملة الصليبية الأولى التى انتهت بغزو بلاد الشام وسقوط القدس فى أيديهم وتكوينهم مملكة صليبية فى الشام عاصمتها القدس.

وتقرأ فى هذا الكتاب الاستراتيجية التى اتبعها صلاح الدين كى يحرر القدس من أيدى الصليبيين ويحرر معظم البلدان من ايديهم وكيف رضى الصليبيون بالصلح معه على شروطه هو بعد فشل الحملة الثالثة التى قادها ريتشارد قلب الأسد الملك الإنجليزى.أنها سيرة طيبة عطرة ومسيرة عظيمة لقائد عظيم أعتلى عرش دولة كبيرة استطاع أن يزكى الجهاد فى الأمة الإسلامية فى أحلك فترات ضعفها كما يحدث الأن فى العصر الحالى.

وتقرأ فى هذا الكتاب عن شخصية القحطانى الذى يعد صلاح الدين الجديد المنتظر فى هذا الزمان الأخير وقد توافرت كل الأسباب لظهور هذا البطل القادم صلاح الدين القحطانى.

وتقرأ الأحاديث النبوية الصحيحة والضعيفة التى تحدثت عن القحطانى ومدى تشابهه بصلاح الدين الأيوبى.

إنه كتاب جدير بك عزيزى القارئ أن تقرأه أكثر من مرة لتتعـ[illegible] شخصية العظيمة وأيضا شخصية صلاح الدين القحطانى المنتظر إنه إضا[illegible] تعودنا على إبداعاته فى كل ما يكتبه.




I.S.B.N. 977-376-362-5
9789773763626



